

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـــــــــامعة وهران

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ وعلم الآثار

المدينة والريف بالجزائر

في أواخر العهد العثماني

رسالة لنيل شهادة الدكتوراه

في التاريخ الحديث والمعاصر

من إعداد الطالب:

بلبروات بن عتو

تحت إشراف:

الأستاذ الدكتور: بلقاسمي بوعلام

أعضاء لجنة المناقشة:

✸أ.د– **بن نعمية عبد المجيد**. جامعة وهران – رئيسا –

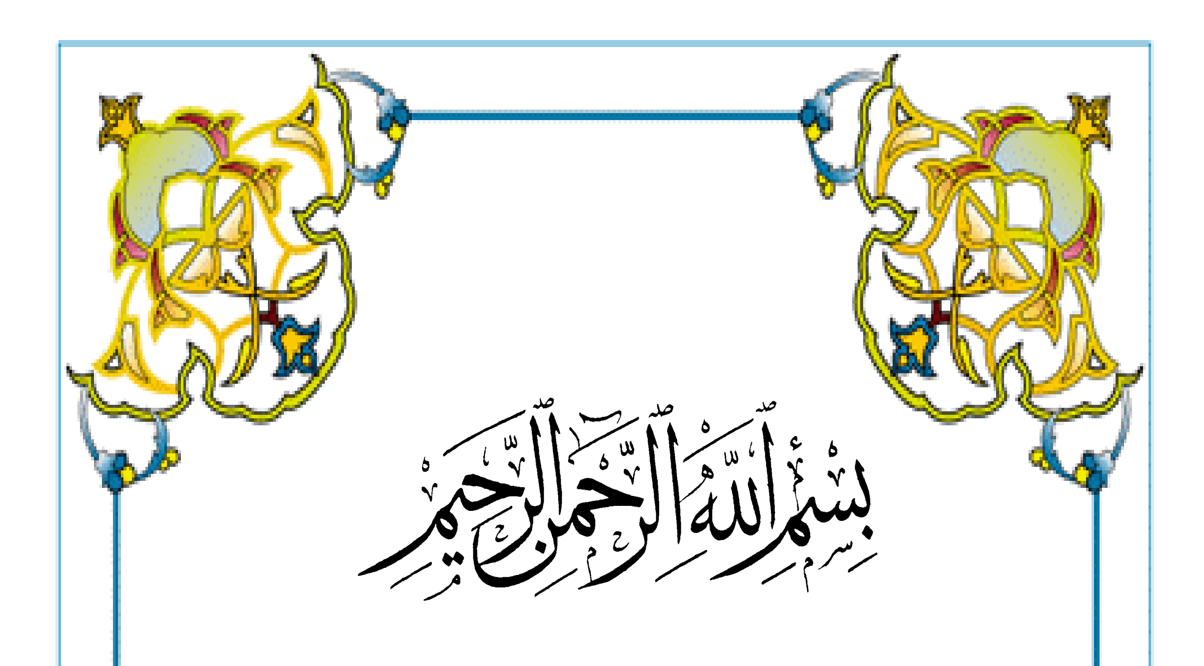
✸أ.د– **بلقاسمي بوعلام**. جامعة وهران – مشرفا مقررا –

✸أ.د– **سعيدوني ناصر الدين**. جامعة الكويت – مناقشا –

✸د– **تابليت علي**. جامعة الجزائر– مناقشا –

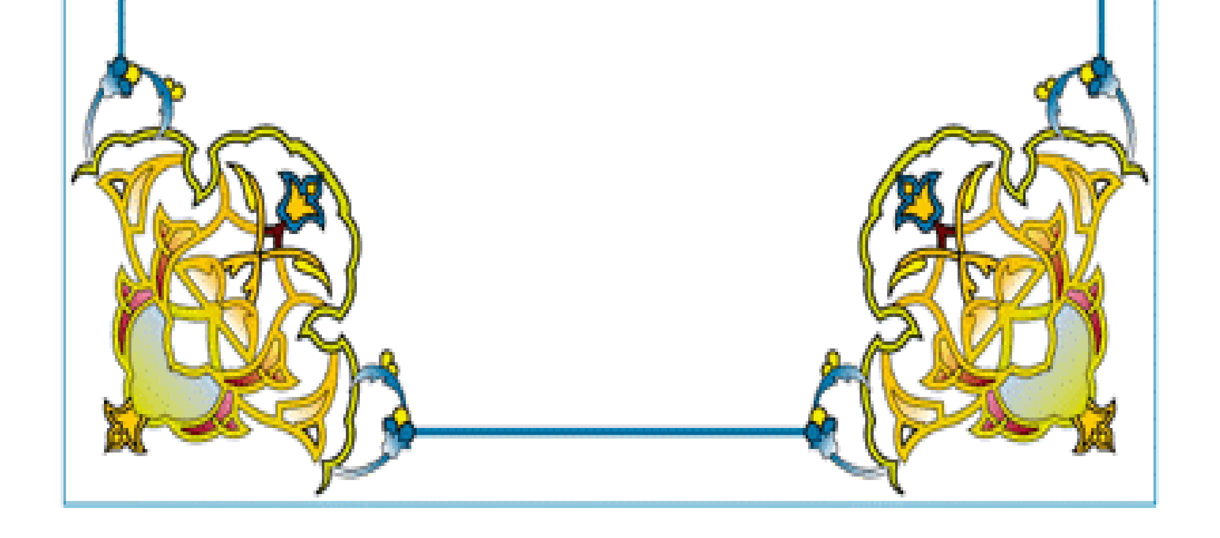
✸د – **دادة محمد**. جامعة وهران – مناقشا –

السنة الجامعية:2007 – 2008 م



« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير»

سورة المجادلة.(الآية 11).





إهداء

أهدي هذا العمل إلى والدي الكريمين وابنتي العزيزة "إيناس" وزوجتي التي أعانتني على إنجاز هذه الأطروحة.

بلبروات بن عتو

شكر وتقدير

يجدر بنا الاعتراف بجميل من ساعدنا على إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود، ونستهل ذلك بتقديم جزيل شكرنا وخالص تقديرنا للأستاذ المشرف على هذا العمل الدكتور بلقاسمي بوعلام الذي لازمتنا توجيهاته الهادفة طيلة مسيرة بحثنا، وستظل تلازمنا في حياتنا العلمية.

ولا يفوتنا توجيه شكرنا الخالص للقائمين على المركز الوطني للأرشيف، والمكتبة الوطنية، والمدرسة متعددة التقنيات للهندسة والتمدين، بالجزائر العاصمة، وكذا المكتبات الجامعية بوهران، ومكتبة قسم التاريخ بجامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس. ونشكر أيضا الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي الذي فتح لنا أبواب مكتبته الكائن مقرها بتونس العاصمة.

وبالمناسبة أشكر كثيرا أساتذة اللغة العربية الذين تفضلوا بمراجعة متن الرسالة لغويا، وهم السيد بلعوفي عيسى، السيد دين الهناني أحمد، والسيدة ناجي، كما أقدم تحياتي إلى زملائي الأساتذة بقسم التاريخ بجامعة الجيلالي ليابس، وإلى كل أساتذتي بقسم التاريخ وعلم الآثار –كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران.

فهرس الموضوع:

المقدمة

تعد دراسات المدن والأرياف عموما من الدراسات المهمة، وقد أولتها الجامعات الغربية والأمريكية منذ فترات قصيرة، اهتماما متزايدا، ذلك لأن المدينة وتطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والإدارية والسياسية تمثل الوحدة الحيوية والجزء الفعال من حركة التقدم الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات، وإذا كانت المدينة هي مصنع الحضارة، فإن الريف هو مصنع مادتها الأولية، وحقل استمد قوته وتطوره الحضاري مما وصلت إليه المدينة من تنظيم وابتكار، فالمدينة والريف جهاز كلي، ينمو بنمو الكل، ويذبل بذبول الكل.

وتاريخ المدينة الجزائرية العثمانية، شأنها شأن المدينة العربية الإسلامية عموما، هو تاريخ شبه مهمل؛ لأنه حتى هذه اللحظة لم تتطور دراسات أكاديمية، يمكن الاعتماد عليها للكشف عن أسرارها، وتطورها في سياق التطورات الحاصلة في العالم، مع أنها كل يوم تفقد جزءًا أصيلاً من جسمها وتاريخها.

أما الدراسة التاريخية المتعلقة بأوضاع الريف الجزائري أثناء الفترة العثمانية، فهي الأخرى يكتنفها الإهمال ويلفها الغموض، مع أن التعرف على حياة سكان الريف تعتبر بمثابة حجر الزاوية لفهم البناء الاجتماعي والاقتصادي للجزائر العثمانية.

وفي هذا السياق جاء موضوعنا " المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني" ليسلط الضوء على نمطين من التجمعات العمرانية، أحدهما تجمع مديني والآخر تجمع ريفي، ذلك لما بين النمطين من علاقة وارتباط، حيث حاولنا تحليل وفهم فكرة أساسية مفادها أنه لا مدينة من غير ريف، ولا ريف من غير مدينة.

ويعزى إقبالي على هذا الموضوع الذي يحمل شقين مختلفين لكنهما متكاملين إلى أنه ينتمي إلى الفترة العثمانية بالجزائر التي فضلت التخصص فيها، للاعتبارات التالية:

-تعتبر الفترة العثمانية بالجزائر فترة غامضة لأن أحداثها المدونة متقطعة، يغيب فيها التواصل، و لم تنل الكتابة خلال هذه الفترة حقها.

- لم تسلم الفترة العثمانية من لسعات مسمومة من المدرسة الاستعمارية الفرنسية بغرض توطيد أركان مشروعها الاستيطاني والاستغلالي بالجزائر.

-لا تزال الدراسات التاريخية فاتحة أبوابها أمام أقلام جزائرية وطنية تتناول الفترة العثمانية بالجزائر من زاوية علمية وموضوعية ليتسنى للأجيال القادمة إدراك حقيقة تاريخها دون تدليس أو تلبيس.

وتوخينا من دراستنا لهذا الموضوع، بلوغ الأهداف التالية:

-الوقوف على أوضاع الجزائر العثمانية الداخلية.

-إبراز الإرث التاريخي للمدينة الجزائرية وتحديدا مدينة الجزائر كعاصمة إدارية وسياسية واقتصادية للبلاد، خلال العهد العثماني، من خلال دراسة صورتها العمرانية، ومجتمعها ووظائفها حتى نتمكن من معرفة حجم الجرائم الاستعمارية الفرنسية في حق مدينة الجزائر كنموذج للمدينة العربية الإسلامية وتشخيص انتهاك الفرنسيين لقيم الجزائريين بعد 1830 .

-فهم القدرة البشرية في تحريك المدينة، وفي الوقت ذاته إظهار الإنسان المديني وهو يعالج المشكلات الكبرى للحياة المدنية.

-فهم صيرورة المدينة الجزائرية في العهد العثماني كمدينة عتيقة، مع محاولة صياغة مدينتنا المعاصرة على نسقها.

-معرفة بنية المجتمع في مدن وأرياف الجزائر العثمانية.

-محاولة المساهمة في إرساء قاعدة علمية لدراسة الريف الجزائري في العهد العثماني، الذي تبقى المعلومات بشأنه مبعثرة بين المصادر والمراجع، يتطلب جمعها وتنسيقها وفهمها مشقة وبحثا مضنيا.

-المساهمة في استغلال كتب الرحالة المسلمين وغير المسلمين الذين كانوا عماد دراستنا لموضوع المدينة والريف بالجزائر العثمانية.

-المساهمة في إثراء الكتابة التاريخية المحلية للجزائر في العصر الحديث.

وقد حرصنا على تحقيق التوازن بين المدينة والريف من حيث التغطية العلمية، فأفردنا ثلاثة فصول للباب الأول حول المدينة بالجزائر في أواخر العهد العثماني، وثلاثة فصول أخرى حول الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، أضف إلى ذلك أننا حاولنا تكريس التوازن المعرفي بين الفصول الستة إلا أن المادة التاريخية المتوفرة لدينا قد تعمل عملها وتضطرنا أحيانا إلى الانحراف عن هذا التوازن.

وعلى كل حاولنا صياغة عمل متكامل يحاول الإجابة على إشكالية تاريخية حددناها كما يلي: ما الفرق بين المدينة والريف، وبين الريف والبادية؟ و ما هي أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بين المدينة والريف بالجزائر العثمانية من الناحية العمرانية والاجتماعية والإدارية والاقتصادية والثقافية؟ وكيف يتحد النمطان في ازدهار أو ذبول الدولة والمجتمع؟ وهل فعلا حطمت القوات الفرنسية وطنا قفرا، عمرته وبنته من جديد كما يدعي المستشرقون؟

وللإجابة على هذه الإشكالية الرئيسية، اضطررنا إلى طرح تساؤلات فرعية، أهمها:

-ما مفهوم المدينة؟ وما الفرق بينها وبين القرية الريفية؟ وما حقيقة المدينة في الجزائر العثمانية؟ هل عكست فعلا التحضر في الجزائر إبان العهد التركي العثماني أم تمازجت فيها مظاهر التمدن والريف؟

-هل بلغت المدينة الجزائرية في العهد العثماني تطورا حضاريا بنمط إسلامي؟

-ماهي الوظائف الحضرية التي أدتها المدينة ؟ وكيف كان مجتمعها وعاداته وطباعه في أواخر العهد العثماني؟

-ما المقصود بالريف والبادية في الجزائر؟ وكيف تشكل الريف الجزائري عمرانيا تحت الحكم العثماني؟ وهل الفحص هو جزء من المدينة أم الريف؟

-ما مدى استغلال الإنسان العثماني والجزائري على السواء للبيئة الريفية الجزائرية؟

-ورد في المصادر الفرنسية أن سكان الريف بالجزائر العثمانية كانوا عبئا على سكان المدن؟ وهي تبرر ذلك على أساس أن سكان المدن يحوزون أملاكا، ينشطون تجاريا وزراعيا وصناعيا في البر والبحر، أما سكان الريف فهم لا يملكون شيئا ويعيشون على منتوج الأرض التي يعملون بها ويملكها الأرستقراطيون، وحياتهم عبارة عن ترحال دائم. فما موقع هذا التبرير من الحقيقة التاريخية؟

-إذا كان التعليم منتشرا في المدن والقرى والأرياف عبر المساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب، فما هو مدى استجابة هذا التعليم والتكوين لمتطلبات البلاد الحضارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؟ وهل تماشى التعليم أو التكوين بصفة عامة مع الأوضاع المفروضة على البلاد، ومع التطورات التي عرفها العصر؟ ألا يكون ذلك سببا هاما من الأسباب التي جعلت الجزائر، عرضة للغزو الفرنسي سنة 1830؟

ولإخراج الموضوع في صفة بحث علمي أكاديمي، توجب علينا تسليط الأضواء على مدينة الجزائر باعتبارها العاصمة المركزية للجزائر العثمانية، محاولين فهم أجزاءها (أحياء سكنية، مركز حضري، وميناء) ورسم صورة معمارية وعمرانية لكل جزء، حتى يتسنى للقارئ تشخيص طبيعة الحيز المكاني لمدينة الجزائر وامتدادته وخصائصه في فترة معينة وهي أواخر عهد الدايات، هذا الحيز الذي عاش في مجاله، مجتمع متفاوت طبقيا ومتعدد الفئات والشرائح الاجتماعية، وفي الوقت ذاته متعدد عرقيا ومذهبيا، ثم عرجنا على كيفية تنظيم شؤون سكان المدينة من خلال خلق آليات إدارية تسير مصالحه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، آملين أن تبين لنا المصادر والدراسات الحديثة أن الجزائريين والعثمانيين قد فقهوا قضايا التمدن حسب خصوصياتهم الحضارية شأنهم شأن الأوربيين.

و بالموازاة مع قضايا مدينة الجزائر كنا نشتغل حول المجال الريفي الجزائري لكننا لم نتمكن من انتقاء عينة ريفية مثلما فعلنا في موضوع المدينة، وإن حاولنا تسليط الضوء على فحص مدينة الجزائر إلا أن المعطيات التاريخية حول هذه البؤرة الريفية قليلة جدا، لهذا اكتفينا بالفحص كنموذج لطريقة تخطيط المراكز الريفية عمرانيا فقط، ليبقى الجانب الاجتماعي والوظائف الريفية مفتوحة على كامل الفضاء الريفي، وتكون عندئذ لبنة لبحوث متخصصة ودقيقة جدا في قضايا الريف الجزائري خلال العهد العثماني.

وإذا حاولنا نقد الدراسات التاريخية السابقة حول موضوعنا، سواء كانت جزائرية أو أجنبية، فإنه يجدر بنا أولا التنويه بفوائدها أثناء سير بحثنا، فمن خلالها تعرفنا على حيثيات الموضوع، واكتشفنا جوانبه الواضحة والغامضة، كما أطلعتنا على العديد من المصادر التي تسنى لنا من خلالها تسليط الضوء على العديد من الجوانب التي أغفلتها الدراسات التاريخية، والتي ركزت على ما يلي:

-استظهرت الكتابات التاريخية المعالم والهياكل المعمارية لمدينة الجزائر التي وجدها الفرنسيون عند احتلالهم للمدينة في صيف 1830.

-تناولت بالتحليل بنية مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

-أبرزت الجهاز الإداري والحرفي لمدينة الجزائر في العهد العثماني.

ومن جهة أخرى، سجلت هذه الدراسات قصورا في تناولها لموضوعات ذات أهمية بالغة مثل:

-عادات وتقاليد مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

-آليات العمل التجاري بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

-تخطيط فحص مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

-بنية المجتمع الريفي وعاداته بالجزائر العثمانية.

-الجهاز الإداري بالريف الجزائري خلال العهد العثماني.

-وظائف الريف الاقتصادية والثقافية.

-الذهنية الريفية بالجزائر العثمانية.

وكثيرا ما تميزت هذه الدراسات حول الموضوع والفترة المدروسة بعموميالها، وجاءت جهود الباحثين المهتمين بموضوع المدينة والريف في الجزائر العثمانية، مبعثرة، لا تمكن القارئ من تحصيل تصور عام وواضح حول الموضوع إلا إذا بذل جهدا في جمع المادة التاريخية والتدقيق فيها وتصنيفها وإعادة صياغتها.

ولم يكن بوسعنا بلورة الموضوع وإتمام فصوله لولا توفر بعض العناصر المشجعة لذلك والمتمثلة في عدد من المصادر والمراجع الهامة التي استفدنا منها كثيرا والتي نصنفها إلى :

1-كتب الرحالة ومذكرات القناصل الأوربيين:

لا حظنا أثناء سير بحثنا أن كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزائر في الفترة العثمانية، أو بعدها بقليل، وكذا مذكرات الشخصيات الرسمية والقناصل الأوربيين، قد طرقت موضوع المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني بشكل يسر لنا إنجاز هذه الأطروحة، إلا أنها ركزت على مدينة الجزائر كعاصمة مركزية للبلاد الجزائرية أثناء العهد العثماني، فأبرزت عمرانها وفئاتها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها، وأمدتنا بفقرات مكنتنا من استخلاص وظائفها الحضرية. أما الريف الجزائري فهو الآخر كان حاضرا في هذا الصنف من المصادر، لكن كان التركيز على اقليم سيباو (جرجرة) وسكانه من القبايل، وأيضا على الريف ببايليك الشرق.

ولعل أهم هذه الكتب والمذكرات التي حظيت بالطبع والنشر، نذكر:

-شالر وليام. **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**. تعريب وتعليق وتقديم: اسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

-شلوصر فندلين. **قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837**. ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

- هاينريش، فون مالتسان. **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا**. ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، الأجزاء الثلاثة.

-L'Abbé Edmond Lambert. **A Travers L'Algérie, Histoire, Mœurs et légendes des Arabes.** René Haton, Librairie Editeur, Paris, 1884.

-Rinn,Louis **Le royaume d'Alger sous le dernier dey.** Présentation de Abderahmane Rebah, Editions Grand D'Alger Livres, 2005.

2-أعمال ألبير ديفولكس:

ارتكزنا في سبيل إعداد هذا الموضوع، خاصة في الباب الأول، المتعلق بمدينة الجزائر كنموذج مختار للمدينة الجزائرية في أواخر العهد العثماني على أعمال وجهود ألبير ديفولكس، التي نشرت بالمجلة الإفريقية الناطقة باللغة الفرنسية والصادرة بالجزائر خلال العهد الفرنسي، وهي عبارة عن مقالات متفرقة عبر أعداد المجلة لكنها متتابعة، (العدد الصادر سنة 1859، والأعداد الصادرة من 1862إلى 1870) الأمر الذي فرض علينا جمعها وترتيبها ثم ترجمتها إلى اللغة العربية، وتوظيفها بشكل يخدم الموضوع.

حملت هذه المقالات، في معظمها، عنوانا واحدا نجده بالصيغة التالية:

Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. »

ومفاد هذه المقالات أنها تعدد بشيء من الشرح التاريخي للمباني الدينية والثقافية (جوامع، مساجد، زوايا، وأضرحة المرابطين) التي تواجدت بمدينة الجزائر داخل أسوارها في أوائل الاحتلال الفرنسي والعائدة إلى العهد العثماني.

وإلى جانب ذلك وقع بين أيدينا أثناء زيارتنا للمدرسة المتعددة التقنيات للهندسة والتمدين الكائن مقرها بالجزائر العاصمة، كتاب لألبير ديفولكس ترجمه إلى اللغة العربية وحققه الأستاذان: مصطفى بن حموش، وبدر الدين بلقاضي، ونشر بالإمارات العربية المتحدة، سنة 2004. وهو بعنوان حسب تعبير المترجمين والمحققين: **خطط مدينة الجزائر من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني**. وخلاصة محتوى هذا الكتاب الذي أفادنا كثيرا في موضوعنا أنه يقدم وصفا عمرانيا ومعلومات وافية عن مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، إلا أن القارئ للكتاب يستعصى عليه تحصيل صورة واضحة عن المكان إلا إذا بذل جهدا، لهذا ارتأينا أن نستغل معلومات الكتاب المحقق وتوظيفها بطريقة ممنهجة ومبسطة من أجل استيعاب وفهم مكونات المكان، فكان عندئذ مصدرنا الأساسي في الموضوع.

وفيما يخص الباب الثاني المتعلق بالريف الجزائري في أواخر العهد العثماني فقد كان ديفولكس أيضا حاضرا بمقالاته المنشورة بالمجلة الإفريقية إلا أنها جاءت في إطار دراسة فحص مدينة الجزائر حيث أشار إلى المساجد والزوايا وقباب أضرحة المرابطين والمقابر الكائنة بالفحص، مما مكننا من الاستفادة منها في سبيل توضيح خطط الريف الجزائري من خلال التركيز على فحص مدينة الجزائر كبقعة ريفية.

3-أعمال سعيدوني، ناصر الدين:

وضعت أعمال الأستاذ الدكتور سعيدوني ناصر الدين، الحجر الأساس لشؤون وقضايا الريف الجزائري خلال العهد العثماني، لذلك كانت متنفسا لنا في سبيل إعداد الباب الثاني المخصص للريف بالجزائر العثمانية، إلا أن هذه الأعمال تركز على ريف دار السلطان وهو ما يعبر عنه الكتاب الذي هو في الأصل أطروحة دكتوراه دولة ،والمفهرس كالآتي :

-Saidouni, Nacereddine**. L'Algérois Rural à la Fin de l'époque Ottomane (1791-1830).** Dar El Gharb Al Islami, Beyrouth, 2001.

وقد أفادنا هذا الكتاب في دراسة فحص مدينة الجزائر كنموذج للريف الجزائري من حيث التخطيط العمراني. أما باقي الدراسات التي أفادتنا في تسليط الضوء على وظائف الريف الجزائري الإدارية والزراعية والضرائبية في أواخر العهد العثماني، قد جاءت عناوينها كالآتي:

-دراسات في الملكية العقارية.

-دراسات في الملكية والوقف والجباية (الفترة الحديثة).

-النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830.

-الجزائر في التاريخ –العهد العثماني–

-"دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايليك بالجزائر." دراسة منشورة ضمن كتاب ورقات جزائرية –دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني–

-"موظفو الإيالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر–صلاحيتهم الإدارية ومهامهم الاقتصادية والاجتماعية." دراسة منشورة ضمن كتاب ورقات جزائرية- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني.

-"من المظاهر الأثرية المندثرة بفحص مدينة الجزائر – الشبكة المائية في العهد العثماني–دراسة منشورة ضمن كتاب ورقات جزائرية- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني.

-" الإدارة العثمانية في الريف الجزائري –مقاطعة دار السلطان". دراسة منشورة ضمن كتاب ورقات جزائرية- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني.

4-أعمال أخرى مكملة:

بعد دراسة الأعمال المذكورة وجدنا أن الموضوع لا يزال يحتفظ بثغراته، فاجتهدنا في دراسة كل ما توفر بين أيدينا من وثائق أرشيفية ومخطوطات ومصادر ومراجع ورسائل جامعية ومقالات باللغتين العربية والأجنبية، قد تفيدنا في سد ثغرات الموضوع وإثراء المعالجة التاريخية وتحقيق التغطية العلمية.

وخلاصة القول المعلومات حول الموضوع غزيرة ومبعثرة وغير متوازنة من حيث البعد المكاني، فاستنتجنا أن موضوع المدينة والريف من الموضوعات التي لا تنتهي، وهي بحاجة إلى مجهود فرق بحثية.

وتضمن الموضوع مدخلا وبابين، وينطوي كل باب على ثلاثة فصول، نحاول إلقاء نظرة سريعة على كل جزء منه بالترتيب:

-المدخل:

خصصناه لدراسة أوضاع الجزائر الداخلية وعلاقاتها الخارجية في أواخر العهد العثماني، حتى يكون أرضية لدراسة موضوع المدينة والريف باعتبار أن هذين النمطين الحضاريين المختلفين يتأثران بالضرورة بتطورات الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلاد وبعلاقاتها مع القوى الخارجية المؤثرة في سياستها.

-الباب الأول:

استفرد هذا الباب بشؤون المدينة الجزائرية في أواخر العهد العثماني، وخصصنا بعض الصفحات المدخلية للمدينة عموما، قبل الخوض في دراسة ثلاثة فصول، تأخذ مدينة الجزائر كعينة للمدينة الجزائرية، وتدرسها من جوانب عدة، بغية إبراز اهتمام الدولة الحديثة بقضايا التمدن بخلاف مايروجه العديد من المستشرقين الأوربيين، وبيان ذلك كالآتي:

-الفصل الأول: والموسوم بخطط مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، وقد حاولنا من خلاله وصف مدينة الجزائر داخل أسوارها، وارتأينا تبسيط هذا الوصف بتقسيم مدينة الجزائر إلى أربعة أجزاء هي:

-التحصينات العسكرية التي تحاصر المدينة وترسم امتداداتها من جميع الجوانب، والتي عبرت على أن المدينة كانت فعلا مدينة حربية بحكم الأخطار الخارجية التي كانت تهددها.

-الأحياء السكنية التي تتبعنا قدر الإمكان معالمها المعمارية، من سكنات وطرقات وأزقة وأبواب وهياكل عمومية ومرافق عامة، محاولين إبراز وظيفة هذه المعالم في خدمة سكان المدينة في شتى مجالات حياتهم اليومية، مما يطبع البعد الحضري التمدني لساكني المدينة تحت مظلة الحكم العثماني.

-المركز العمراني للمدينة الذي يعتبر بمثابة القلب النابض لمدينة الجزائر حيث ذكرنا أهم عناصره المعمارية، من طرقات رئيسية وقصور الأغنياء، وكذا قصر الداي بالجنينة والجامع الأعظم وجامع السيدة وغير ذلك من المرافق العامة والمباني الحكومية، محاولين اكتشاف قدرة العثمانيين والجزائريين في تخطيط المدينة عمرانيا ومكانتهم في مجال التمدن.

-الميناء وفيه اختصرنا جهود العثمانيين في تطويره وتحصينه وجعله أقوى نقطة في المدينة لما له من أهمية كبرى في بعث الحيوية لمدينة الجزائر، وهو الآخر كان فرصة لإظهار قدرة العثمانيين على التخطيط من أجل جعل المدينة في مصاف المدن الكبرى في العصر الحديث.

–الفصل الثاني: ارتأينا أن نخصصه لدراسة مجتمع مدينة الجزائر من حيث طبقاته الاجتماعية وفئات كل طبقة وشرائح كل فئة مركزين على الجوانب الأخلاقية والنفسية والمهنية لكل فئة والعلاقات الاجتماعية التي ارتسمت فيما بينها، ثم تعزيز ذلك بتخصيص صفحات للعادات والتقاليد التي جمعت شمل سكان المدينة ودور مؤسسات الأوقاف في ترسيخ التضامن والتماسك الاجتماعي، كل ذلك بهدف اكتشاف خصوصيات المجتمع المتمدن بالجزائر العثمانية الذي عاش متعاونا وهادئا على مدار الفترة العثمانية رغم تعدد أعراقه ومذاهبه.

–الفصل الثالث: واخترنا أن يكون حول وظائف مدينة الجزائر كوحدة حضرية من جهة ومدينة عاصمية من جهة أخرى، وتوصلنا إلى إبراز ثلاثة وظائف أساسية للمدينة، هي :

*الوظيفة الإدارية، من خلال التطرق إلى المناصب الإدارية سواء المناصب السامية أو المناصب المحلية ذات الطابع المدني البحت، حتى نكتشف قدرة العثمانيين والجزائريين على تنظيم شؤونهم وتسيير مصالحهم، وذلك إحدى خصوصيات التمدن والتحضر.

*الوظيفة الاقتصادية، التي توزعت إلى وظيفة حرفية ووظيفة تجارية، ففي الأولى تناولنا كيف انتظمت الطوائف الحرفية بمدينة الجزائر وأهم الحرف التي مورست بالمدينة وهي على نوعين حرف إنتاجية وحرف خدماتية، والثانية عالجنا فيها باختصار الهياكل التجارية التي تؤطر العمل التجاري بالمدينة، دون إغفال دور المبادلات التجارية الخارجية في تصاعد مكانة المدينة الاقتصادية، ولعل ذلك يعكس الصورة المتحضرة لمدينة الجزائر كمدينة تجارية عاصمية وعالمية.

*الوظيفة الثقافية، وفيها تناولنا حركة التعليم الإسلامي كأساس لكل ثقافة وتقدم، والمؤسسات التي أطرته واحتضنته فوجدناها متعددة، جوامع، مساجد، زوايا، ومدارس، كان لها الفضل في احتفاظ الجزائر بهويتها الإسلامية، ثم عرجنا إلى جوانب القصور في أداء المدينة لوظيفتها الثقافية كتهميش أعيانها للعلوم العقلية والفنون التي دفعت الأوربيين إلى الأمام بعد أن اعتنى بها علماؤهم وقادادتهم، و كذا انتشار مظاهر الشعوذة داخل مجتمع المدينة، الأمر الذي وقف سدا أمام كل نهضة ناجحة.

الباب الثاني:

حاولنا في هذا الباب معالجة قضايا الريف ومدى اهتمام العثمانيين بشؤونه في إطار سياسة خاصة، ساعين إلى اكتشاف خصوصيات الريف الجزائري في العهد العثماني، وقدرته على أداء وظيفته التكاملية مع المدينة، وقد استدعى ذلك تخصيص ثلاثة فصول مترابطة، نبينها كالآتي:

-الفصل الأول: حاولنا في هذا الفصل المعنون بخطط الريف في أواخر العهد العثماني، أن نبين المجهود العثماني الجزائري في جعل الريف مجالا حضريا مميزا لا بدويا، و لم يتأت لنا ذلك إلا باختيار فحص مدينة الجزائر كبؤرة ريفية حضرية، مثالا لذلك، ذاكرين أبرز معالمه المعمارية من تحصينات عسكرية وجنائن ومساجد وزوايا ومقابر عامة وخاصة... ودورها في خدمة سكان الفحص من جهة وسكان مدينة الجزائر من جهة أخرى، وتطلب الخوض في خطط الفحص كنموذج ريفي إيجاد صفحات مدخلية تناولنا فيها الفرق بين الريف والبادية حتى يتسنى لنا تحديد مجال الدراسة، و نتفادى الخلط بين البداوة والريف.

-الفصل الثاني: عالجنا من خلاله المجتمع الريفي بالجزائر العثمانية، فوجدناه موضوعا معقدا يتطلب جهود فرق من الباحثين، و لم يكن بوسعنا سوى محاولة إرساء قاعدة علمية لقضايا المجتمع الريفي، فتناولنا بادئ ذي بدء أصناف القبائل الريفية عبر ربوع البلاد الجزائرية كما حددها السياسة العثمانية في الفترة الأخيرة من عمر عصر الدايات، ثم تركيبة المجتمع الريفي على أساس العرق (عرب، بربر، زنوج سود، ويهود) مبرزين خصوصيات كل جنس، وأخيرا تطرقنا إلى بعض عادات وتقاليد المجتمع الريفي عموما من حيث اللباس، والاحتفالات والحياة اليومية، فاكتشفنا حينئذ إحدى خصوصيات الحياة الريفية كنمط مختلف عن حياة المدينة، ولما كانت الهجرة من الريف إلى المدينة، ظاهرة اجتماعية ميزت الريف بالجزائر العثمانية فقد حاولنا أن نخصص صفحات لذلك مبرزين أسباب هذا النزوح الريفي بغية الوقوف باختصار على مشاكل سكان الريف وما كان يقلق حياتهم اليومية.

-الفصل الثالث: خصصناه لوظائف الريف الجزائري في أواخر العهد العثماني، مستهلين ذلك باستعراض المناصب الإدارية السياسية العسكرية والمناصب المدنية، ودورها في إدارة أرياف المقاطعات الجزائرية الأربع التي رسمها الحكام العثمانيون، واكتشفنا من خلالها أنه بالرغم من استقلالية العديد من القبائل في تسيير شؤونها المحلية وتنظيم مصالحها إلا أنها كانت تحت النفوذ الإداري للسلطة العثمانية، وجعل الجهاز الإداري من الريف مجالا يقدم خدماته الاقتصادية لسكان الريف من جهة وسكان المدينة الجزائرية من جهة أخرى.

وبعد ذلك سلطنا الضوء على وظيفة الريف الجزائري، الاقتصادية، حسب تسلسل مجالات العمل الاقتصادي، من زراعة وحرف واستخراج للمواد الأولية وتجارة، وضرائب واكتشفنا عندئذ أن أساس الاقتصاد الريفي هو الزراعة التي تعبر عن حالة استقرار دائم، وبينت ضرائبه المتعددة أهمية الريف الاقتصادية في سياسة الدولة الجزائرية العثمانية.

وأنهينا الفصل بطرق الوظيفة الثقافية للريف الجزائري في أواخر العهد العثماني مركزين على نشاطه في مجال التعليم الإسلامي مركزين على الزوايا الريفية كأهم مؤسسة تعليمية في الريف عكس المدينة، وهذا ما جعل طلاب الريف يقصدون المدينة لتحسين مستواهم، وكأن الريف حاول أن يحقق المستوى الأدنى من التعليم، ثم ارتأينا أن نعزز حديثنا عن ثقافة الريف بإطلالة سريعة للذهنية الريفية التي هي جزء لا ينفصم من شخصية الريفي الجزائري في العهد العثماني.

ولقد واجهتنا صعوبات اعترضت سبيلنا في إنجاز هذه الرسالة، نوجزها كما يلي:

– لم يسمح لنا بنسخ الوثائق الأرشيفية التي لا حظنا أنها تخدم موضوعنا حتى ندرجها في قسم الملاحق كإثباتات علمية.

–غياب فهرسة للأطروحات الجامعية الجديدة بالمكتبة المركزية لجامعة الجزائر مما جعلنا نطلع على الأطروحات القديمة فقط، علما أن البحث العلمي هو مواكبة للجديد.

–غياب مؤلفات تؤرخ للمدن الجزائرية الصغرى في العصر الحديث.

–قلة التأليف التاريخي في شؤون الريف في العهد العثماني.

–لا تزال المخطوطات الجزائرية بمكتبة الحامة بالجزائر العاصمة تنتظر التحقيق والنشر.

–صعوبة التحكم في الموضوع باعتباره موضوعا واسعا ومعلوماته غزيرة ومبعثرة وغير متوازنة سواء فيما يخص المدينة أو الريف.

ورغم هذه الصعوبات، مضينا في بحثنا، وقد كان لمساعدة الأستاذ المشرف الدكتور " بلقاسمي بوعلام" وتوجيهاته الهادفة الأثر الملموس في إنجاز الرسالة.

مدخل تاريخي

أوضاع الجزائر الداخلية وعلاقاتها الخارجية

في أواخر العهد العثماني.

من خلال استقرائنا للكتابات والدراسات التاريخية المهتمة بالفترة العثمانية في الجزائر، نلاحظ أن بداية نهاية حكم الدايات وكذا الدولة الحديثة في الجزائر العثمانية، كانت بعد وفاة الداي محمد بن عثمان باشا، واعتلاء الخزناجي حسن كرسي العرش في سنة 1791 وهو الداي الذي بسياسته العرجاء فتح أبواب فتنة سياسية حادة استمرت تداعياتها في الفترات اللاحقة رغم جهود بعض الدايات المتعاقبين لإخماد لهيبها، دون طائل، الأمر الذي انعكس سلبا على حياة الدولة الجزائرية الحديثة في شتى المجالات، وأفقد هيبتها الدولية، إلى أن حلت الضربة الفرنسية سنة 1830، فكان سقوط الكيان العثماني في الجزائر.

وعليه نحن بصدد دراسة مرحلة انهيار للدولة الحديثة في الجزائر، محاولين تحليل أثر هذه المرحلة في حياة المدن والأرياف الجزائرية، لأننا لا نستطيع منهجيا دراسة المدينة والريف إلا بدراسة الوعاء التاريخي الذي تفاعل فيه هذان العنصران ذوا النمطين الحضاريين المختلفين، ساعين إلى فهم الأسباب العميقة التي جعلت من أفق التطور الايجابي للمدينة والريف مسدودا.

أولا: الأوضاع الداخلية للجزائر في أواخر العهد العثماني.

1-الأوضاع السياسية والأمنية:

أ-فساد نظام حكم الدايات:

عرفت الجزائر العثمانية في أواخر حكم الدايات أوضاعا سياسية متعفنة سببها الرئيسي حسب العديد من الكتابات التاريخية، النظام السياسي الفاسد، فقد بين الدكتور أبو القاسم سعد الله، أن النظام السياسي العثماني في الجزائر، قد ميزه الاستبداد المطلق، والانغلاق على نفسه الأمر الذي كرس معاناة غالبية المجتمع الجزائري، في المدينة والريف معا، وأثر سلبا على مستقبل البلاد، في شتى مناحي الحياة.[1]

وعليه، نتساءل عن مظاهر هذا الفساد السياسي الذي أنتجه الاستبداد المطلق لنظام الحكم؟ وكيف أثر سلبا على المدينة والريف في الجزائر العثمانية؟

ب-مظاهر فساد حكم الدايات:

ب-1 تدخل الجيش الانكشاري في شؤون الحكم:

يعتبر الجيش الانكشاري [2] العمود الفقري للدولة الجزائرية العثمانية شأنه شأن الدولة العثمانية، لذا اتسم نظام حكم الدايات بالطابع الجمهوري في ضوء انتخابية منصب الداي في

إطار ضيق،[3] دون استشارة عموم سكان البلاد مدنا وأريافا، وبالطابع العسكري لأن الحكام بدءا من الداي إلى وزرائه وباياته كانوا من العسكريين، كما كان نظاما مغلقا ما دام لا يسمح فيه إلا للانكشاريين بممارسة السلطتين السياسية والاقتصادية. و على هذا الأساس بات واضحا أن تصبح قضايا الحكم والسياسة من مسؤوليات الجيش الانكشاري لكنه لم يتحمل مسؤولياته بشكل صائب بما يخدم مصالح البلاد العليا بل احتوها مصالحه الخاصة والسعي وراء الامتيازات والمكافآت والهدايا، والزيادة في الأجور وترقية رتبهم، فقد راحوا كما ذكر المؤرخ التركي عزيز سامح ألتر، يدبرون المؤامرات ويحدثون الفوضى والاضطرابات بصورة دائمة ومستمرة متجاوزين بكل بساطة قوادهم، فانتهى إليهم عزل الحاكم أو إعدامه ثم انتخاب من يخلفه ممن يرضون سيرته ويلبي لهم رغباتهم ونزواتهم المادية المذكورة آنفا. [4]

ب-2 اغتيال الدايات:

يجد المرء نفسه في الفترة الأخيرة من حكم الدايات 1791-1830 أمام سلسلة اغتيالات مست ستة دايات، من أصل تسعة، نفذها جماعات عسكرية مقيمة بثكنات مدينة الجزائر، تحت مبررات مختلفة لا تعدو أن تكون تفريطا في مصالح الجيش المادية، أو الضلوع أو العجز في اضطرابات وفوضى عمت البلاد، وكل ذلك تم ضد حاكم منتخب من طرف المؤسسة العسكرية، وكأن القتل أصبح انتقاما لمن يهدر ثقة الجيش الانكشاري، ويضرب المعنى الحقيقي للانتخاب، وطريـــقة لاتقاء ردة فعل عسكرية قد يتزعمها الداي المحكوم عليه بالإعدام في كواليس ثكنة من ثكنات مدينة الجزائر.

وبالتالي نلاحظ أن العزل السياسي في صف الدايات كان غير معمولا به لما ينطوي من مخاطر آجلة أو عاجلة على أمن مؤسسة الجيش الانكشاري في ضوء المعطيات غير الايجابية سواء على مستوى أوضاع البلاد الداخلية وعلاقة الأتراك بالعرب والبربر، أو على مستوى علاقات الحكم العثماني بالخارج خاصة الأوربي والأمريكي المتربص بالمنطقة الجزائرية.[5] ويمكن اختصار ملابسات إعدام الدايات الستة كالتالي:

اغتيال الداي مصطفى باشا سنة 1222هــ/1805

إثر وفاة الداي حسن على فراش المرض سنة 1798، خلفه حفيده مصطفى، الذي كان يشغل في عهدته منصب الخزناجي، وقال عنه الحاج أحمد الشريف الزهار أنه :" كان رجلا صالحا، حليما كريما محبا للعلماء والصلحاء، رحيما بالفقراء والأيتام، محبا للمجاهدين والغزاة، وكان شجاعا رحمه الله."[6]

وذكر ألتر عزيز سامح أن الداي مصطفى قد أُكره على اعتلاء كرسي الباشوية، إلا أن سياسته التي هي امتداد لسياسة الداي حسن باشا، قد أبغضها الجيش الانكشاري والسكان، لما فيها من تجديد لأمور المصادرات، والحرص على استخلاص الأموال من السكان والقناصل الأوربيين، وتعميق النفوذ اليهودي في أجهزة الحكم، ومناصرة فرنسا الامبراطورية التي تعاديها الدول الأوربية وفي مقدمتهم بريطانيا. (7) ويروي الزهار أن اغتيال الداي مصطفى باشا قد وقع في زنقة فرن الزناقي، بعد مطاردة في أرجاء مدينة الجزائر، على يد فرقة عسكرية انكشارية التي بدورها استقدمت أحمد خوجة الخيل، لدار الإمارة، وترشيحه لأن يكون الداي البديل.(8)

اغتيال الداي أحمد باشا سنة 1808:

كان الداي أحمد باشا متعلما ومثقفا وحازما، لكنه واجه إضرابا استمر شهرا كاملا، وقف وراءه، آغا الانكشارية، فلم يجد الباشا بدا من قتل الآغا، بغية توطيد دعائم الاستقرار في البلاد.(9)

تروي الكتابات التاريخية أن اغتيال الداي أحمد كان على يد قوة انكشارية مؤلفة من خمسمائة عسكري اعتقدت أن الداي سيعدم العساكر العائدين من تونس بسبب فشلهم في غزوها، محملين إياه مسؤولية الهزيمة. لقد اقتحموا قصر الإمارة وطاردوه ثم قتلوه بطلقات نارية، وقطعوا رأسه، وجروا جثته في أزقة مدينة الجزائر.(10)

اغتيال الداي علي الغسال سنة 1809:

حكم الداي علي الغسال أربعة أشهر من نوفمبر 1808 إلى فبراير 1809(11) بعد أن انتخبه العساكر الانقلابيون، وأول ما قام به هذا الداي العصبي المزاج والضعيف التفكير، هو إعدام حاشية الداي أحمد المغتال، بغية قطع أوصال الانتقام.

وكانت فترة حكمه رغم قصرها فترة فوضى بلغت أقصى ذروتها، حيث انقسم الجيش الانكشاري بمدينة الجزائر إلى فريقين:

فريق أول يطالب الداي علي الغسال بالزيادة في الأجور بمناسبة اعتلائه منصب الداي. ولما تعذر عليه ذلك بحكم فراغ الخزينة، طالبوه بنهب المدينة وسلب سكانها. وفريق ثان رفض نهب سكان المدينة ويعتقد أنهم يمثلون العساكر الذين اندمجوا في مجتمع المدينة بمصاهرة العائلات العربية، ولقى هؤلاء المساندة من قبل الكراغلة ومهاجري الأندلس، وقرروا جميعا الدفاع عن سكان المدينة الأصليين.

ولما ظهر أن الداي علي الغسال يؤيد مطالب الانكشاريين القاضية بنهب المدينة، اجتمع الفريق المناهض للنهب بالثكنة الخضراء برئاسة عمر آغا، وقرروا بالإجماع قتل الداي علي

الغسال. وبالفعل هجمت مجموعة من الانكشاريين في 1224هـ/1809 على القصر، وقتلت الداي خنقا بعد أن رفض عرضها بشأن الانتحار بالسم، وقد خلفه خوجة الخيل علي.(12)

اغتيال الداي علي باشا سنة 1815:

تميز الداي علي باشا بسعة ثقافته إلا أن طباعه وأخلاقه سلبية، وطريقة حكمه عرجاء، فهو مدمن على الأفيون، ويمارس سلطته باستبداد، ويتفنن في أساليب التعذيب، وفي عهده غاب الأمن مما دفع بالانكشاريين إلى قتله في حمامه، بتسخير عبده الذي بدوره قتلوه وأحرقوا الحمام، على سبيل إخفاء أثر الجريمة.(13)

اغتيال الداي محمد باشا سنة 1815:

حكم هذا الداي خمسة عشر أو سبعة عشر يوما فقط خلال سنة 1815، وكان شيخا مسنا يناهز التسعين من عمره، لذا أوكل لابنه المسمى "مصطفى" بإدارة كافة أعماله.

وأول عمل قام به هو معالجة ملف أجور الانكشارية الذي تسبب في إثارة الفوضى في البلاد، فحاول إحصاء أفراد الجيش الانكشاري وتوصل إلى نتيجة مفادها أن سبعة آلاف جندي انكشاري لا فائدة منهم، فأوصى بتقليل عددهم إلى أربعة آلاف، فكان التدبير لقتله وقتل ابنه مصطفى من قبل مجموعة عسكرية يقودها الآغا عمر، ويظهر حسب الروايات التاريخية التي سجلها ألتر أن ابنه ادعى أنه من الكراغلة وهدد الأتراك العثمانيين بالدمار والفناء، ولعل الإحصاء العسكري يسير في هذا المضمار.(14)

اغتيال الداي عمر باشا سنة 1817:

دبر الآغا عمر كقائد عام للانكشارية جريمتي قتل استهدفت الأولى الداي علي الغسال سنة 1809، والثانية الداي محمد باشا وابنه مصطفى سنة 1815، وكان دائما يرفض منصب الداي لأنه منصب تحفه الأخطار، لكن لم يجد بدا من اعتلاء كرسي العرش سنة 1815 ربما تحت إلحاح الانكشارية.

لقد واجه الداي عمر حملة اللورد اكسموث Lord Exmouth الإنجليزية-الهولندية-المشتركة، سنة 1816، وكانت هذه الحملة المحك الذي كشف عن عورات القوة البحرية الجزائرية، مما تسبب في قيام حالة تمرد وعصيان، عمت مختلف المدن الجزائرية، وغدا الداي عمر يلقب بالمنحوس، خصوصا لما داهم وباء الطاعون مدينة الجزائر، وما جاورها من المناطق، فقررت مجموعة عسكرية انكشارية بإلقاء القبض على الداي عمر وإعدامه شنقا في أكتوبر سنة 1816.(15)

ب–3 اغتيال البايات:

بعد وفاة الداي محمد بن عثمان سنة 1791 مات معه مشروع النهضة، إذ لم يكن خلفه الداي حسن في مستوى التطلعات الحضارية للجزائريين، فبعهده بدأ مسلسل الاغتيالات السياسية في صفوف بايات الأقاليم الجزائرية الثلاث (الشرق–التيتري–الغرب)، مما فتح الباب واسعا أمام فتنة سياسية استغلها الحاقدون على نظام الحكم التركي في الداخل والخارج، وبالتالي طالت الفتنة إلى أن وقع سقوط دولة الدايات سنة 1830 على يد الجيش الفرنسي.

وبهذا الصدد، نستعرض وقائع الاغتيالات في حق البايات حسب الأقاليم، وبالترتيب الزماني، حتى تتجلى لنا شمولية الفساد السياسي لكافة بايليكات الجزائر العثمانية.

في بايليك الشرق:

تعتبر مدينة قسنطينة المقر الثابت لبايات الشرق الجزائري طيلة العهد العثماني، وتاريخ هذه المدينة والقطاع الشرقي، حافل بقرارات عزل وقتل في صفوف البايات منذ سنة 1792، ويظهر ذلك واضحا فيما يلي:

–إعدام الباي ابراهيم بوصبع سنة 1792:

أعدم الباي ابراهيم بوصبع بعد حكم دام ثلاثة أيام من طرف أتباع أو حاشية الباي صالح الذي عزله الداي حسن، وتركه قابعا في سجن مدينة قسنطينة تحت أنظار الباي ابراهيم بوصبع.

–إعدام الباي صالح سنة 1792:

بعد تورط الباي صالح في مقتل الباي ابراهيم بوصبع، بعث الداي حسن بأحد الكراغلة والمسمى حسين بن حسن بوحنك وأمره بقتل الباي صالح المعزول، وتصفية أنصاره وخدامه، ولما تمت عملية الإعدام، أصبح القاتل بايا للشرق الجزائري.(16)

–اغتيال الباي حسين بن حسن بوحنك سنة 1795:

أعدم بأمر من الداي حسن، لكن سبب قتله يبقى غامضا وكل ما توصل إليه العنتري أنه لم يقو على تسيير البايليك بفعل مرض لازمه، لكن يظهر أن العزل كاف في هذه الحالة وأن المرض هو سبب العزل، وبالتالي ثمة ملابسات يجهلها المؤرخون. (17)

-اغتيال الباي مصطفى الوزناجي سنة 1798:

أُعدم الباي مصطفى الوزناجي بقرار من الداي حسن، سنة 1798 بعدما عزله من بايليك التيتري سنة 1792 وإذا كان العنتري لا يرى سببا لقتل الباي الوزناجي، فإن فايسات Vayssettes يرى أن السبب في عزله وقتله هو تآمر التجار الفرنسيين ضده، فقد كان يرفض بيع الحبوب إلى الشركة الافريقية بالقالة امتثالا لتعليمات الداي محمد بن عثمان باشا، وعندما توفي هذا الداي تحايل التجار الفرنسيون واغتنموا عدة ظروف دولية معقدة، وتمكن القنصل الفرنسي جان بون سانت أندري Jean Bon Saint André من إقناع الداي حسن بعزل الباي الوزناجي وإعدامه شنقا. [18]

-اغتيال الباي عثمان بن محمد الكبير سنة 1803.

كان عثمان بن محمد الكبير الملقب بالأعور بايا للغرب الجزائري منذ 1797 بتعيين من الداي حسن، وفي 1800 عزله الداي حسن، ووضعه تحت الإقامة الجبرية بالبليدة، إلى أن عينه بايا للشرق الجزائري سنة 1803 لمواجهة الثائر الدرقاوي ابن الأحرش، الذي تمكن من قتله على اثر كمين خطير نصبه له بوادي زهور.

-إعدام الباي عبد الله سنة 1806:

كان للباي عبد الله دور فعال في تقهقر قوات ابن الأحرش الدرقاوي في بايليك الشرق، ورغم ذلك أمر الداي أحمد باشا، ويروي العنتري في فريدته المنسية أن الباي عبد الله راسل الباشا على أساس أنه متخوف من رفض سكان البايليك من التجنيد في الحملة التي تستعد لغزو تونس، لأن مصالحهم التجارية قد ضاعت بعد إبعاد الحكومة المركزية للتجار الفرنسيين عن صيد المرجان بالقالة، وتعويضهم بتجار انجليز. وزيادة على ذلك بلغ مسامع الداي أحمد أن زوجة الباي عبد الله المسماة الدايخة بنت بن قانة الصحراوي شيخ العرب بقسنطينة، [19] تتدخل في إدارة البايليك وتتحكم في سياسة زوجها وسلوكه، فأغضب ذلك الباشا وأمر بعزله وجلده بالعصا ألف جلدة، وإعدامه شنقا هو وزوجته. [20]

-إعدام الباي حسين بن الباي صالح سنة 1223هـ/1807:

حسب رواية العنتري، جاء اغتيال الباي حسين الكرغلي -خنقا- بأمر من الباشا أحمد وبفعل مؤامرة وحيلة دبرها آغا الحملة الجزائرية إلى تونس إذ اتهم الباي حسين بأنه هو المسؤول عن فرار جيشه وتراجعه وتشتته أمام الجيش التونسي. [21]

-اغتيال الباي علي بن يوسف التركي سنة 1224هـ/1808:

أعدمته مجموعة انكشارية بقسنطينة في غمرة الاستعداد لغزو تونس، وإذا كان العنتري يسجل أن عليا بن يوسف باي مات مقتولا فإن الدكتور بوعزيز يحي واعتمادا على فايسات، قد أوضح أن الانكشاريين أعموا الباي بعد القبض عليه وعاش بقية أيامه في قسنطينة يعيش على صدقات المحسنين. (22)

-إعدام الباي أحمد شاوش القبايلي سنة 1808 -بعد خمسة عشر يوما من الحكم- من طرف عساكر مدينة قسنطينة وبايعاز وتحريض من طرف أعيانها الذين رأوا في التخلص منه وسيلة لإخماد نار الفوضى في المدينة.

-مقتل الباي أحمد طبال سنة 1226هـ/1811 بأمر من الداي علي باشا. وقال العنتري في فريدته أنه قتل من غير سبب. (23) ونعتقد أنه لا توجد جرائم بدون أسباب.

-اغتيال الباي محمد نعمان سنة 1229هـ/1814. بأمر من الداي علي باشا.

-مقتل الباي شاكر سنة 1233هـ/1818.

-مقتل الباي مصطفى سنة 1818 بعد حكم دام شهرا واحدا.

-مقتل الباي ابراهيم سنة 1235هـ/1820.

وهكذا نلاحظ أن سياسة التصفية الجسدية لبايات الشرق الجزائري قد اندفعت بوتيرة سريعة وعجيبة، لم تتوقف منذ سنة 1792، حيث نسجل اغتيال أربعة عشر بايا سواء بأمر من الداي أو بغيره، وبالتالي كيف يمكن لمدن وأرياف الجزائر العثمانية أن تحظى بباي يأمن سلامته، ويجتهد في بعث الحيوية في المدينة والريف؟ (24)

في بايليك الغرب:

لم يسلم بايات الغرب الجزائري المتعاقبين من التصفية الجسدية بأمر من الدايات في خضم الانزلاقات الخطيرة التي تعرض لها البايليك، في أواخر العهد العثماني، والمتمثلة في قيام عصيان شعبي أطرته الطريقة الدرقاوية ومن بعدها الطريقة التيجانية.

وقد نستهل مسلسل عمليات القتل بالأطروحة التي أوردها بعض الكتابات التاريخية بشأن الباي محمد الكبير الذي قيل عن وفاته الغامضة أن الداي حسن باشا دس له سما في طعامه وهو يؤدي ضيافة الدنوش الكبرى بمدينة الجزائر سنة 1797. (25)

أما البايات الذين اتضح قتلهم فهم :

-الباي محمد بن محمد الكبير، ولقب بالمقلش، وقد عزل وعذب أولا ثم أعدم سنة 1808.

-الباي محمد بن عثمان الكردي بعد جهره بإعلان الولاء للسلطان المغربي سليمان بن عبد الله [26] وذلك سنة 1813. وهو شقيق الباي محمد الكبير، لقب بالمسلوخ والرقيق، وكنيته بوكابوس.

-الباي علي قارة باغلي سنة 1817 بأمر من الداي علي خوجة ظنا منه أنه هو الذي أوجس لبعض أنصار الداي عمر باشا المقتول بالفرار إلى محلة الجيش بمبرة وتمييع أمره له بقتلهم حالما يصلون وهران، وقد قتل الباي قارة باغلي بأبي خرشفة بمليانة عند قيامه بالتدنيش إلى الجزائر. [27]

وعليه نسجل اغتيال أربعة بايات بين 1792-1830 بالغرب الجزائري، ولم يستقر حكم البايات بهذا الاقليم إلا ابتداء من 1817 حيث دام حكم الباي حسن بين 1817-1831. وبالتالي لم تسمح الفوضى السياسية العارمة بتطور ايجابي للمدينة والريف ببايليك الغرب. [28]

- **بايات التيتري:**

لم يشهد بايليك التيتري ظاهرة الاغتيالات السياسية في صفوف باياته لأنه حسب المصادر العربية كان بايات هذا الاقليم يحظون بالحظوة والمكانة المرموقة لدى الداي وحكومته، وكل ما سجل في هذا الإطار أن الباي مصطفى الوزناجي قد عزله الداي حسن من منصبه كباي للتيتري سنة 1794، وقتل خلفه المسمى الباي محمد فريرا سنة 1799، عند سفوح جبل بني راشن أثناء خروجه في غزوة، لكن لم يسلم البايلك من تأثيرات الحركة الدرقاوية التي كانت تجري أدوارها في الشرق والغرب، ومن العديد من المشاكل الأمنية بين القبائل الجزائرية مع بعضها البعض وبين بعض القبائل العاصية والسلطة التركية العثمانية.[29]

2-الأوضاع العسكرية:

أ-الجيش البري النظامي:

يتمركز الجيش البري الانكشاري النظامي أساسا بمدينة الجزائر باعتبارها العاصمة المركزية والاقتصادية للبلاد، وما انتشار الثكنات العسكرية بالمدينة المذكورة دون المدن الأخرى إلا دليل على ذلك، أما المدن الجزائرية الأخرى سواء كانت عواصم اقليمية أو مدن عادية

وصغيرة، فإن الكتابات التاريخية تشير إلى أنها كانت مقرا لحاميات عسكرية، أو نوبات تأويها أخبية، وتعدد بالسفرة التي تجمع بين ثلاثة عشر وعشرين جنديا نظاميا.

قدر شالر SHALER عدد الجيش البري بالجزائر العثمانية بخمسة عشر ألف بين جندي وضابط، وفي موضع آخر ذكر خمسة آلاف جندي وضابط، ثم قال: " وفي الوقت الحاضر قد هبط عدده، لأسباب معينة، إلى أربعة آلاف." (30). ثم قال: " وهؤلاء الجنود والضباط، هم وحدهم الذين يتمتعون بالحق لشغل المناصب الرفيعة في الحكومة، ولتولي المهام الشرفية أو المريحة." (31)

يشكل الأتراك والكراغلة جيش المشاة، أما العرب والبربر فيشكلون الخيالة. ويتوزع هذا الجيش على الحاميات المستقرة أو المعسكرات المتنقلة في عاصمة الدولة ومختلف أطرافها.

وجزم شالر أن الجيش الجزائري العثماني تنقصه الفعالية القتالية، وإلى جانب حفظه للأمن العام يقوم بجمع الضرائب للحكومة. (32)

ب-الجيش البحري النظامي:

سجل شالر أنه بعد تضعضع الأسطول البحري الحربي الجزائري على يد الحملة البريطانية والهولندية سنة 1816 تمكنت البحرية الجزائرية من إعادة تكوين أسطولها بمساعدة الباب العالي والمغرب الأقصى وطرابلس، وشراء بعض السفن وبناء أخرى، ليصبح الأسطول الجزائري قويا وفعالا بحيث يستطيع القيام بكل مهمة يكلف بها.

وتستخدم الحكومة الجزائرية في أسطولها بصفة دائمة نحو ثلاثة آلاف بحار، وعند الضرورة يمكن رفعه إلى ستة آلاف بحار. وقد تساءل شالر بدهشة حول تمكن الأسطول الجزائري من عرقلة التجارة الأوربية في البحر المتوسط وفرض أتاوات على الدول الأوربية والولايات المتحدة دون مناقشة، في حين نجد هذه الدول قد كونت لنفسها مستعمرات في افريقيا وآسيا وأمريكا وجابت البحار والمحيطات. (33)

تتاح للجزائري الفرصة في البحرية، إذا أبدى كفاءة، لأن يرقى إلى أعلى الرتب العسكرية، ولو أنه لا حق لهم في شغل أية وظيفة مدنية في الأسطول، فمثلا الرايس حميدو كان ينتمي إلى قبيلة تسكن في الجبال الداخلية وقد ارتقى إلى مركز القيادة بسبب ما كان يتمتع به من الذكاء الحاد والشجاعة.(34)

ويلاحظ من خلال تقريري بوتان BOUTIN سنة 1808 ودييوا تانفيل DUBOIS-THAINVILLE سنة 1809 أن البحرية الحربية افتقدت لركائزها المتمثلة أساسا في الموانئ التي كانت بحاجة إلى تطوير، فقد ذكر بوتان ستة موانئ غير محصنة عسكريا

على الإطلاق وهي : ميناء القالة، ميناء تادلس، ميناء شرشال، ميناء تنس، رأس فالكون، ورشغون. أما بقية الموانئ مثل مستغانم، وهران، ارزيو، جيجل، القل، وعنابة، والمرسى الكبير، فهي غير محصنة بشكل جيد، إذ لا يحمي كل واحدة منها سوى حصنا واحدا، وعدد من المدافع لا تتعدى عشرة مدافع. ويشير بوتان إلى أن أهم الموانئ المحصنة هي : ميناء الجزائر، وميناء بجاية الذي تحرسه خمسة حصون. (35)

ج-الجيش الاحتياطي المخزني (قبائل المخزن).

في الفترة التي اخترناها للدراسة ظهرت تحولات في الجزائر العثمانية دفعت بالسلطة التركية العثمانية إلى الاهتمام أكثر بقبائل المخزن في المجالين الإداري والعسكري، وملخص هذه التحولات المقصودة هو تراجع مداخيل الدولة من الغنائم البحرية بفعل سياسة الاتفاقات الدولية التي أبرمتها الحكومة المركزية بالجزائر، وتحريم القرصنة البحرية بقانون دولي في مؤتمر فيينا سنة 1815 وإجبار الجزائر على احترامه رغم غيابها في المؤتمر، والانتكاسة التي تعرضت لها الجزائر أمام حملة 1816 و1824، أضف إلى ذلك بدء الدولة الجزائرية الحديثة في التخلي تدريجيا عن التجنيد العسكري من تركيا وازمير والاناضول، وقد ذكرت السجلات الرسمية أن عدد العساكر الانكشاريين لم يكن يتجاوز 3661 رجلا سنة 1829.

وعلى أساس ذلك اتجهت سياسة الدولة إلى حل بديل وهو التركيز على مداخيل الأرياف وهي مداخيل زراعية بالدرجة الأولى نباتية وحيوانية، واستدعى ذلك مد نفوذ الدولة إلى أقاصي الصحراء والمناطق الجبلية التي تعتبر مناطق ممتنعة عن دفع الضريبة للحاكم العثماني، وقد لا ينجح هذا التوجه بدون قبائل المخزن المحاربة التي تتحلى بالاستعداد اليومي للقتال رغم ضعف التدريب والمهارة القتالية لأفرادها، والمعرفة الدقيقة لدواخل البلاد.

وهكذا عززت قبائل المخزن المحاربة الحاميات التركية العثمانية ووصل عدد أفراد الفرق العسكرية العاملة بالريف والمدن إلى ثلاثين ألف رجل، ناهيك عن فرسان قبائل المخزن الموضوعة في حالة احتياط. (36)

3-الأوضاع الإدارية والقضائية:

أ-الوضع الإداري:

كما هو معلوم عمد الأتراك العثمانيون إلى تقسيم البلاد الجزائرية إلى أربع مقاطعات إدارية، قصد التحكم في التراب الجزائري بمدنه وقراه ومداشره ودواويره، وقد تختلف كل مقاطعة عن الأخرى من حيث الأهمية الجيو سياسية والمساحة والقدرات الاقتصادية والوزن البشري، ويمكن لنا التعريف بهذه المقاطعات كالآتي:

دار السلطان:

وهي أصغر المقاطعات الجزائرية في العهد العثماني إذ تنحصر بين تادلس شرقا وتنس غربا وبين ساحل البحر المتوسط شمالا والسهل المتيجي جنوبا، وهي مرتبطة مباشرة بالداي الباشا، عاصمتها مدينة الجزائر، ويسميها لوي رين louis rinn بمقاطعة التاج، وتتوفر على خمس مدن هي : الجزائر، البليدة، القليعة، شرشال، وتادلس، إلى جانب القرى والأحواش، أو المزارع بريف المقاطعة. (37)

بايليك الشرق:

يمتد من الحدود الشرقية لبايليك التيتري ودار السلطان إلى الحدود الغربية لتونس، ومن ساحل البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، عاصمته مدينة قسنطينة، ويعتبر من أغنى البايليكات.

بايليك التيتري:

يقع جنوب دار السلطان، يحده من الشمال اقليم دار السلطان ومن الشرق اقليم الزاب وبلاد الجريد وجزء من قسنطينة، ومن الغرب بايليك الغرب، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب في أبعد نقطتين حوالي سبعين مرحلة ما يعادل 240 كلم، ومن الشرق إلى الغرب في أبعد نقطتين حوالي أربعين مرحلة أي حوالي 160 كلم. وهو أصغر البايليكات مساحة، عاصمته المدية، وكان حاكمها أقل استقلالا وأكثر خطرا بسبب قرب مقر حكمه من مدينة الجزائر، وكان الداي يراقب الباي عن كثب. (38)

بايليك الغرب:

يمتد من الحدود الغربية لدار السلطان وبايليك التيتري، إلى الحدود الشرقية للمغرب الأقصى، ومن البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا، انتقلت عاصمته من مدينة معسكر إلى مدينة وهران عقب تحريرها من الاحتلال الاسباني سنة 1792. (39)

وبناء على ما تقدم نشير إلى أن كل بايليك يتكون من مدن، وفحوص مدن، وأوطان في السهول، وقيادات في الجبال والمناطق الوعرة، وكل بايليك مكون من مجموعة أعراش وقبائل، وكل عرش وقبيلة مكون من قرابي أو قرى في المناطق الجبلية والصحراوية، ومن دواوير في المناطق السهلية.

ومن خصائص الادارة العثمانية بالجزائر في أواخر العهد العثماني أنها تتميز بـــ:

-الاستقرار.

-ازدواجية متضاربة تتلخص في وجود ادارة مركزية واضحة في توزيع السلطة، واستقلالية ادارية لكل بايليك مع تكرار الهيكل الاداري فيه وفقا للنظام الرئيسي بالعاصمة.

-اعتماد الادارة المحلية على المراكز الحضرية فقد أصبحت المدن أركان هذا النظام حيث ترتكز فيه السلطة. وتركز الادارة المحلية مراقبتها على المدينة أكثر من الريف، فالريف لا يخضع للمراقبة الادارية الا بقدر جمع الضرائب، وبالتالي أنشات الادارة المحلية التوازن بين السلطتين السياسية والقضائية.[40]

ب-القضاء وأقسامه:

عرفت الجزائر العثمانية بين 1520-1830 تعايش مذهبين فقهيين، المذهب الحنفي والمذهب المالكي، فالأول حظي برتبة الامتياز، لأنه كان مذهب الطائفة الحاكمة الممثلة في الأتراك العثمانيين. والثاني هو مذهب أغلب العرب والبربر بالمدن والأرياف، ويعتبر سلطان المغرب الأقصى العلوي الزعيم الروحي لهم .[41]

واللجوء إلى القضاء طلبا للعدل ورفضا للظلم كان من حق جميع سكان الجزائر العثمانية باختلاف أصولهم ولا يتأتى ذلك إلا بتكاليف متواضعة جدا ومرافعة مختصرة وسرعة في تنفيذ الأحكام القضائية واستقلالية في اصدار القرارات إلا في الحالات التي لها أهمية خاصة. [42] لقد أنشأت محكمتان مالكية وحنفية تتميز كل منهما بمفتيها وقاضيها استجابة لاستقلال كل مذهب، بينما تأسس المجلس العلمي الذي يضم علماء كلا المؤسستين وينظر في المسائل المشتركة وذات الأهمية، واختصت هذه الهيئات القضائية من محاكم ومجلس علمي بمعالجة شؤون الرعية من معاملات وتصرفات في الأملاك ورد المظالم، وكان لذلك أثره الإيجابي في إدارة المدينة.

وقد ألحق بهذه الهيئات جهاز تنفيذي يتمثل في موفدين عسكريين يحضرون الجلسات القضائية ويتولون تنفيذ أحكامها دون توان.

ولكون بعض القضايا التي كانت تعرض على هذه الهيئات ذات صبغة تخصصية، فقد كان القضاة يستعينون بذوي الحرف المناسبة لتلك القضايا، يعرفون بأهل الخبرة، وآراء الأمناء الحرفيين لا تتعدى إبداء الرأي التقني الذي يساعد القاضي في النطق بالحكم.[43]

ويمكن تقسيم القضاء العثماني في الجزائر خلال الفترة المدروسة إلى قسمين: قضاء جنائي وقضاء مدني، نبينهما كالآتي:

القضاء الجنائي:

القضاء الجنائي هو القضاء الذي يعالج جرائم القتل، والجنح السياسية والإدارية والمالية، فبالنسبة للقتل فعقوبته الإعدام التي تختلف من المجرم التركي إلى المجرم الجزائري، فالأول يخنق سريا، والثاني يشنق في ساحة عمومية أو يقطع رأسه أو أوصاله أو يلقى به من على سور مرتفع ويتلقفه خطاف حاد أثناء سقوطه ليعرف أشنع أنواع العذاب قبل أن يموت.

وبشأن الجنح مثل السرقة وقطع الطريق والإحراق بالعمد والخيانة والزنا فيعاقب مرتكبها بالغرامة، أو الجلد بالسوط، أو بالأشغال الشاقة مقيدا في السلاسل التي أصبحت أكثر أنواع العقاب شيوعا بعد إلغاء استرقاق المسيحيين سنة 1815، لانها توفر عملا بدون مقابل، بدلا من العبيد، لانجاز الأشغال العمومية.(44)

ويختص بالقضاء الجنائي أو العدالة الجنائية كل من الداي والخزناجي وآغا العرب والبايات والقياد، كل في حدود بايليكه، وقراراتهم هي قرارات البايليك وعادة ما تدعى بالأحكام المخزنية.(45)

القضاء المدني:

يعالج القضاء المدني القضايا المدنية لا الجنائية، وتستخلص أحكامه من القرآن والعادات المتبعة والسوابق العدلية. وحاول شالر أن يبرز لنا أن القضاء المدني يؤطره القاضي سواء أكان حنفيا أو مالكيا وكلاهما يعقدان جلسات يومية للحكم في القضايا التي تعرض عليه، وذلك فيما عدا يوم الجمعة.(46)

وأشار مولود قايد أن القضاة الحنفيين لا يعالجون سوى النزاعات التي يتورط فيها الأتراك العثمانيون، أما القضاة المالكيون فلا يهتمون إلا بالقضايا الراجعة للمسلمين الآخرين .(47)

ولما يطعن الشخص في حكم القاضي بسبب تأثير نفوذ سلط على القاضي أو لم يترفع عن رشوة فإنه يمرر النزاع إلى المفتي طلبا لإنصافه ورفع الظلم عنه، وحكم المفتي يعد حكما نهائيا لا طعن فيه، ومثل هو الحال بالنسبة للقاضي هناك مفتي حنفي ومفتي مالكي، يعقدان جلسات للنظر في القضايا المطروحة مرتين في الأسبوع.(48)

يحق للمتنازعين التقاضي لدى حضرة أي قاضي في أي مكان سواء داخل البلاد الجزائرية، أو خارجها مثل فاس وتونس شريطة أن تكون المنطقة منتمية إلى دار الاسلام، وبالتالي لا يقتصر حكم القاضي على المنطقة التي يقاضي فيها لأن المسلم لا يعتبر أجنبيا في بلد اسلامي غير بلده الأصلي. (49)

4-الأوضاع الاقتصادية:

أ-الزراعة:

تعد الزراعة الثروة الأساسية للجزائر العثمانية، ومنتوجاتها متنوعة وهي موجهة أساسا للاستهلاك المحلي، وتقنياتها هي تقنيات العصر الحديث، وأشار المؤرخون إلى اختلاف نمط الاستغلال الزراعي في الجزائر العثمانية من التل إلى الهضاب العليا إلى السهوب، ففي القسم التلي، امتلكت البرجوازية في المدن ملكيات زراعية في السهول القريبة من المدن وفحوصها، تخدمها بواسطة الخماسين الذين يمارسون زراعة متنوعة ذات مردود كاف. وتبقى المناطق الجبلية للاقليم التلي تنتج محاصيل لتلبية الحاجات الغذائية فقط، والمساحات الزراعية الجبلية هي ملك لكل العائلة.

أما في الهضاب العليا فتعود الملكيات الزراعية الكبرى لاقطاعيين كبار، أما عموم السكان بهذا الاقليم الداخلي فلا يملكون إلا قطع متناثرة من الأراضي الزراعية تخضع لنظام العائلة، كما توجد ملكيات جماعية مشتركة، وهي واسعة المساحة، مسخرة لإنتاج الحبوب من قمح وشعير لفائدة كافة أفراد القبيلة.

وفي المناطق السهبية المطلة على الصحراء، فسكانها رحل وأنصاف رحل، يعيشون على الإنتاج الحيواني، بحكم طبيعة نشاطهم الزراعي المتمثل في الرعي بالسهوب. وترحالهم يكون في موسمين خلال السنة، موسم الربيع حيث يتجهون نحو التل لبيع الصوف والجلود والسمن، ليعودوا في الأيام الأولى لبرودة الخريف إلى أراضيهم ومواقعهم حاملين معهم شتى أنواع المؤونة للاستهلاك الذاتي أو للتجارة.

أما سكان الواحات الصحراوية فزراعتهم ترتكز على النخيل وتربية المواشي من أغنام وماعز وجمال. [(50)]

ب-النشاط الحرفي:

انتشر النشاط الحرفي في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني شأنها شأن مدن العالم، إلا أن انتماءها إلى العالم الإسلامي، حدد أشكال النشاطات الحرفية الانتاجية، إلى غاية الغزو الفرنسي.

و لم يقتصر العمل الحرفي على المدن بل امتد إلى فحوص المدن والقرى والدواوير والمداشر عبر بايليكات الجزائر العثمانية بشمالها وجنوبها، لكن بشكل لا يضاهي حرف المدن، التي تتميز عن الريف بكثافة الحرف العددية، وتوزع النشاط الحرفي على البيوت، والورشات والمعامل التي قد تفقد في الريف.

لقد ركزت البيوت على حرف كانت تتولاها النساء مثل حرفة النسيج والحياكة وغزل الصوف وتصفيفه، وتحضير الخبز وإرساله إلى الأفران لإنضاجه، وتحضير وصناعة الحلويات والمرطبات والمصبرات، وعادة هي حرف البيوت ذات الدخل الضعيف. أما حرفة الطرز على الصوف أو القطن أو الحرير أو خيط الذهب أو الفضة، فكانت في نظر الحضر حرفة راقية تمارسها نساء حضريات من فئات غنية، إما للدخل أو لشغل أوقات الفراغ. (51)

وفيما يخص حرف الورشات والمعامل، فعددها يختلف من مدينة إلى أخرى حسب اختلاف حجم المدينة ووزنها البشري والاقتصادي، ومنتجاتها استهلاكية على المستوى المحلي، بالدرجة الأولى وعلى المستوى التصديري بالدرجة الثانية نحو بلاد السودان.

ومن أهم حرف الورشات والمعامل التي نجدها في كبريات المدن الجزائرية خلال العهد العثماني نذكر:

-ورشات النجارة والحدادة.

-ورشات الصفارة المختصة في صناعة النحاس.

-ورشات السروج والدباغة والصباغة والخرازة.

-ورشات تحويل الخشب والمعادن والجلود.

-ورشات إنتاج وسائل ممارسة الحرفة.

-الخراطة على الخشب.

-ورشات صناعة المسامير والرفوش والفؤوس وآلات الحرث وعجلات العربات بأنواعها.

-ورشات صناعة مواد البناء مثل القرميد، البلاط، وسائل التصريف، لوازم السقوف، والرخام للبناءات الراقية.

-ورشات صناعة وسائل الملاحة والمحاجر.

-معامل السباكة لصناعة المدافع .

-ورشات طحن الحبوب.

وبهذا النسيج للحرف سواء كانت في المنازل أو الورشات والمعامل ، استنتج الباحثون أن المجتمع الجزائري في أواخر العهد العثماني قد حقق اكتفاءه الذاتي في مجال المصنوعات التقليدية التي كانت طراز العصر مثله مثل غيره من الشعوب الاسلامية والمسيحية.(52)

ج–التجارة:

التجارة الداخلية:

توزعت حركة التجارة الداخلية على المدن والأرياف، وعلى التل والهضاب العليا، والواحات الصحراوية، مغذية إياها، قوافل التجار الشهرية، الذاهبة والآيبة أفقيا ورأسيا كما كانت تعززها سنويا قوافل الحجاج حيث ينقل الحجاج بضائع مواطنهم على ظهور جمالهم، ويبيعونها في طريقهم، وكانوا يحققون أرباحا جراء ذلك.(53)

وقد تحكمت في التجارة الداخلية ثلاثة طرق برية رئيسية على الشريط التلي وهي:

*طريق الجزائر – قسنطينة.

*طريق الجزائر – وهران.

*طريق الجزائر – المدية. (54)

وإذا توغلنا نحو الداخل باتجاه الصحراء، نجد أربعة طرق رئيسية هي:

*طريق معسكر–البيوض.

*طريق قسنطينة –توقرت.

*طريقا المدية–بوسعادة–غرداية.

كما يوجد طريقين أخريتين تمتد الأولى من الوادي –بسكرة–الجزائر. والثانية من ميزاب–الأغواط–قسنطينة.(55)

وما يعزز من فعالية النشاط التجاري الداخلي توفر الدكاكين أو الحوانيت والفنادق والأسواق في كل مدينة من مدن الجزائر العثمانية، زيادة على المعارض الموسمية التي كانت تنصب بفحوص المدن وبالقرب من معسكرات الحاميات الانكشارية ومواطن فرسان المخزن.

التجارة الخارجية:

تجارة الموانئ الخارجية:

ذكر شالر أنه كان في وقته 1816-1824 ثلاثة موانئ نشيطة تجاريا مع العالم الخارجي وهي موانئ الجزائر العاصمة ووهران عاصمة بايليك الغرب، وعنابة أحد المدن الهامة في بايليك الشرق، وقد أرجع هذا النشاط التجاري إلى هدوء هذه الموانئ في جميع فصول السنة، ومناسبتها للإرساء .(56)

تجارة الطرق البرية مع الخارج:

تتحكم في التجارة البرية بين الجزائر العثمانية والبلدان المجاورة لها الطرق التجارية التالية:

-الطرق التجارية البرية الطولية بين مدن الشمال وبلاد السودان:

* طريق: مدينة وهران وقرية ارزيو — تمبوكتو: و تنتشر أهم محطاته على طريقين:

-الطريق الأولى: الخيثر، مشرية، عين الصفراء، وفجيج.

-الطريق الثانية: الخيثر، البيض، الأبيض سيدي الشيخ، وتوات.

*طريق: مدينة الجزائر– تمبوكتو: وأهم محطاته، البليدة، بوغار، الأغواط، القليعة، عين صالح، وتوات.

* طريق سكيكدة– تمبوكتو: وأهم محطاته، قسنطينة، باتنة، بسكرة، تقرت، ورقلة، البيوض، مبروك. ولهذه الطريق فرعين : فرع أول من جنوب بسكرة إلى وادي سوف، إلى غدامس وغات. وفرع ثان، من البيوض إلى عين صالح.(57)

-الطرق التجارية البرية العرضية بين تونس والجزائر ومراكش:

-الطريق الأولى : وأهم محطاتها، مراكش، فاس، تلمسان، وهران، الجزائر، سطيف، قسنطينة، الكاف، وتونس، وطرابلس الغرب، القاهرة.

-الطريق الثانية: وأهم محطاتها، تافيلالت، بشار، توات، عين صالح، فزان، الخرطوم.(58)

وكتب شالر أن الحكومة العثمانية تفتقر إلى علاقات تجارية قوية مع التجمعات السياسية والبشرية في داخل افريقيا، وإذا تمكنت من إرساء علاقات تجارية بين مدنها التلية وبين تمبوكتو والسودان وتافيلالت فإن ذلك لم يتحقق إلا بواسطة قبائل الصحراء الجزائرية مثل قبائل بسكرة وقبائل وادي ميزاب وغيرهم. ومن بلاد السودان وتمبوكتو وطرابلس تتلقى الجزائر المواد التالية:

*التبر، وهو تراب الذهب، يباع في كيس صغير من الجلد يعرف بالسرة وتزن حوالي 25 مثقال / 125 غرام.

*الحناء.

*ريش النعام.

*التمر.

*الجمال.

*العبيد.

*الملح.

*الأقمشة الإفريقية.

*أعشاب طبية.

*العاج.

وفي مقابل ذلك تمدهم بالحبوب والمصنوعات الأوربية ومنتجات تلية أخرى. وما يمكن التنبيه إليه أن تجارة الجزائر الافريقية لم تسلم من منافسة حادة من قبل جيرانها: مصر، طرابلس، تونس، والمغرب الأقصى. (59)

-عجز الميزان التجاري الجزائري في أواخر العهد العثماني:

لاحظ شالر سنة 1822 عجزا في الميزان التجاري قد بـــ937000 دولار وقال أنه مبلغ ضخم وعندئذ لم تجد الحكومة العثمانية سبيلا لتعويض هذا العجز التجاري إلا بمداخيل الرسوم والضرائب المستخلصة من المدن والأرياف معا، الأمر الذي جعل- حسب شالر – خزينة الدولة من أغنى خزائن العالم بالمال والمجوهرات.(60)

5-الأوضاع الاجتماعية والصحية:

أ-التدهور الديموغرافي:

ذكر شالر أن الآراء تختلف بشأن عدد سكان الجزائر العثمانية في أواخر عهدها، والتقديرات لا تقوم على أساس تعداد السكان، بل هي تقريبية، واعتقد أن عدد سكان البلاد أقل وليس أكثر من مليون نسمة.(61) وفي موضع آخر قدم لنا رقما لسكان المملكة الجزائرية بعد 1816 حسب تعبيره بثلاثة ملايين نسمة.(62)

وذكر بوتان أن العدد يتراوح بين 2.800.000 و3.000.000 نسمة، مستثنيا سكان الريف والبادية الذين يسكنون الخيام ويرتحلون موسميا مما يصعب عملية التقدير.(63)

أما أبو القاسم سعد الله، في تاريخه الثقافي، فقد ذكر أن عدد سكان الجزائر حسب معظم التقديرات، وصل إلى خمسة ملايين نسمة، وكان عدد العثمانيين فيها اثني عشر ألف نسمة.(64)

ب-التركيبية البشرية في المدن والأرياف:

لا تختلف البنيات الاجتماعية في الجزائر العثمانية اختلافا كبيرا من منطقة لأخرى بل إنها تكاد تكون واحدة بالنسبة لجميع السكان، شرقا، غربا، شمالا، وجنوبا.(65)

وقد تتعدد تسميات الوحدات الاجتماعية عند يتعلق الأمر بالأرياف، فنجد مثلا: العرش، القبيلة، الصف، الدشرة، القبيلة، الفرقة، الدوار، والعشيرة، على أن الأسرة والعائلة هي الوحدة الاجتماعية الجوهرية .

وقد قسم المؤرخون مجتمع الجزائر العثمانية إلى نوعين هما:

-سكان المدن الذين يعيشون من الوظيف العمومي ومن حرفهم وتجارتهم، وبشأنهم كانت أغلب الكتابات التاريخية تتفق على توزيعهم إلى فئات أو طوائف اجتماعية، لكل طائفة ميزاتها التي تعرف بها داخل المجتمع الحضري.

هذه الفئات رتبت كالآتي:

*الأتراك العثمانيون.

*الكراغلة.

*الحضر.

*البرانيون.

*اليهود.

*الأسرى المسيحيون.

وفي خضم هذا الترتيب الفئوي الطائفي،يمكن استجلاء التعدد العرقي لمجتمع المدن الجزائرية في الفترة العثمانية، فنجد الأعاجم الأتراك، الكراغلة، العرب، البربر، اليهود، الأوربيون والزنوج.

-سكان الريف وهم الذين يعيشون من منتوج أرضهم ومواشيهم على السواء، ولا يمكن لنا ترتيبهم إلى فئات اجتماعية كما هو الحال بالنسبة لمجتمع المدن، في ظل غياب الهيمنة الحرفية والصناعية والتجارية داخل التجمعات الريفية، وإنما نوزع المجتمع الريفي على أساس عرقي، فنذكر العرب، والبربر، واليهود.

ج-الوضع الصحي بالمدن والأرياف:

ذكر أبو القاسم سعد الله غياب المستشفيات والمصحات بالجزائر العثمانية رغم وجود مستشفيات خاصة بالأجانب، كما افتقدت البلاد للصيدليات حيث لم تكن إلا صيدلية واحدة بمدينة الجزائر، والجزائر قاطبة، تتعامل بالأعشاب الطبية الطبيعية.

وكان للطائفة التركية العثمانية من باشوات وبايات أطباء أجانب، كما كان للجيش الانكشاري طبيب جراح مسلم يدعى باش جراح، أما بقية السكان فكانوا يتداوون بالأعشاب الطبيعية وعادة ما يتدخل المشعوذون والسحرة في مداواة المرضى بالتمائم والأحجبة وبصاق الأولياء.(66)

ولذلك كانت الأمراض الخطيرة والأوبئة حاضرة بالبلاد مدنا وأريافا، لا تغادر بقعة إلا وقد خلفت عددا معتبرا من الموتى.

6-الأوضاع الثقافية والفكرية:

كانت الثقافة العربية الإسلامية متدهورة بالجزائر قبل ظهور الأتراك العثمانيين، إلا أن سياسة الحكم عند هؤلاء، قد أعانت على استمرار هذا التدهور الثقافي وتعميقه، إذ لم تحظ الثقافة بالجزائر العثمانية بالأهمية من قبل السلطة التركية بمثل ما حظيت به القطاعات الأخرى، وفي مقدمتها القطاع العسكري، وهذا تمشيا مع ظروف العصر التي كانت تتطلب الاعتماد على القوة الحربية، وشعور العثمانيين بأنهم غرباء عن هذه البلاد.

لهذا اعتمدت الثقافة العربية الاسلامية في تطورها على ذاتيتها انطلاقا من المؤسسات الثقافية المحصورة في المساجد والمدارس والزوايا، لنشر الدين والتعليم العربي الإسلامي، والتي كان بناؤها عملا فرديا بالدرجة الأولى إذ كان الغني المحسن هو الذي يقود عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانته، مع جمع التبرعات من المحسنين، ولا يتعدى مجهود السلطات الحاكمة في هذا المضمار مجهود الأفراد، فالدولة لم تكن مسؤولة على بناء المساجد، وإذا بنى أحد الباشوات أو البايات مسجدا فإنما يبنيه من ماله الخاص ويوقف عليه من ريعه وأملاكه، وهو بذلك يعبر عن إحسانه وحبه للخير وواجبه الديني .(67)

و تتواصل مهام الأفراد والجماعات الشعبية في ممارسة المهام العلمية والدينية بعد إنجاز المؤسسة الثقافية التعليمية كاقتناء الكتب وتأسيس المكتبات والوقف، والقيام بالرحلات العلمية إلى خارج الجزائر.

وفي ظل استمرار العمل وعناية السكان والأعيان بالمؤسسات الثقافية، أصبحت هذه الاخيرة ذات سلطة روحية ودينية ومدنية قضائية، ولها من الولاء الشعبي ما يضاهي بل يفوق الولاء لنظام الحكم القائم، وكانت ذات فائدة لقيامها بدور فض التزاعات، والحفاظ على التماسك الاجتماعي، ونشر الأمن وإطعام المعوزين. ومن جهة أخرى كانت نقمة بنشرها للشعوذة والخرافة، وبالتالي منعها من تكوين رأي وطني موحد.(68)

أ-دور المؤسسات الثقافية في التعليم:

انبنى نظام التعليم الاسلامي في الجزائر العثمانية على الكتاتيب القرآنية التي انتشرت في المدن والارياف فقد كانت بمثابة مدارس صغيرة يقدر على فتحها كل معلم قرآن طموح، وكان المعلمون يقومون بتحفيظ القرآن الكريم وتلقينه للأطفال، وتعليمهم القراءة والكتابة، وبذلك يؤهلونهم لدراسة معاني القرآن وأحكامه.(69)

أما المساجد والجوامع فقد انتشرت هي الأخرى بالقرى والمدن التلية والصحراوية، و لم تكن قليلة العدد، ما دام إنجازها كان بفعل التضامن بين العرب والأتراك العثمانيين، و لم يقتصر

دور المسجد على التعليم الديني بل كان ملتقى العباد ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة الاجتماعية، وبذلك شكل المسجد روح الحي في المدينة، وقلب القرية، وحوله تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب.(70)

وما سجلته الكتابات التاريخية أن هذه المؤسسات الثقافية اكتفت بتعليم الشريعة الإسلامية واللغة العربية وما يتبعهما من علوم قصد فهم الديانة الإسلامية على حقيقتها، أما العلوم العقلية، مثل علم الطب، فقد قال عنها شالر " أنها غير موجودة، أو هي ، متى كانت موجودة، محتقرة، بل إن علم الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحروز." (71)

وعن الشعوذة حكم شالر على الجزائريين بابتعادهم عن روح الشريعة الإسلامية الحقة حيث قال: " والجزائريون شعب يتعلق بالخرافات ويؤمن بأثر السحر، وتدخل القوى غير الطبيعية في مجرى الأحداث."(72)

وقد يوافقه محمد بن الأمير عبد القادر، في تحفته حيث كتب أن سكان الجزائر من المسلمين لم يعتنوا بتحصيل علم الطب، ولا بأهله، لأن بلادهم معتدلة الهواء وأمزجة أهلها معتدلة، وقلة أمراضهم وداءاتهم. وهكذا كان قصارى أمرهم فيما يعرض لهم من الأمراض، إذ يتطببون بأدوية يستعملها غالبا عجائزهم من الحشائش وغيرها.(73)

ب-الواقع اللغوي والديني والصوفي:

تطرق شالر إلى اللغات المستعملة للحديث التي عرفها المجتمع في الجزائر العثمانية والتي تعبر عن تنوع عناصر السكان وتعدد الأعراق البشرية، فلاحظ ما يلي :

-أن اللغة العربية هي لغة أغلب السكان .

-اللغة العبرية. وهي لغة اليهود.

-اللغة الشاوية وهي لغة سكان الجبال.

-اللغة التركية وهي لغة الإدارة التركية.

-اللغة الفرنسية وهي لغة دوائر الأعمال والوكلاء الأجانب.

-اللغة الفرنكية وهي اللغة المستعملة في الحوار بين الأجانب والجزائريين. وهي خليط من الاسبانية والفرنسية والايطالية والعربية.

أما الديانات السائدة فذكر شالر أن الدين الاسلامي هو دين غالبية المجتمع الجزائري من عثمانيين وعرب وبربر، والديانة اليهودية التي يسمح بممارستها من قبل اليهود فقط.(74)

وبشأن التصوف ذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي أن التصوف في الجزائر العثمانية كان متعددا من حيث طرقه وزعماؤه، ففي الغرب الجزائري انتشرت الطرق الصوفية التالية:

الطريقة القادرية، الطريقة الشاذلية، الطريقة التيجانية، الطريقة الطيبية، الطريقة الدرقاوية، والطريقة الزيانية. بينما شاعت في الشرق الجزائري الطرق التالية:

الطريقة الرحمانية، الطريقة الحنصالية، الطريقة الشابية، الطريقة القادرية، والطريقة الشاذلية.(75)

ثانيا: علاقات الجزائر الخارجية في أواخر العهد العثماني:

1-علاقات الجزائر بالعالم الإسلامي:

أ-مع الباب العالي:

أبرز شالر في الفترة الأخيرة من عهد الدايات، طبيعة العلاقة القائمة بين الجزائر العثمانية والباب العالي، مركزا على الهدايا التي تقدمها الجزائر إلى السلطان العثماني مرة كل ثلاث سنوات ودورها في تمتين العلاقات الثنائية وتوطيدها بحيث ترسل الدولة العثمانية سفينة تحمل شحنة من الذخيرة الحربية إلى الداي وإذنا له بأن يجند الجنود في البلاد الخاضعة للدولة العثمانية.(76)

ب-مع المغرب الأقصى:

ورد في الكتابات التاريخية أن العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب الأقصى كان يشوبها سوء التفاهم وضلوع الدولة المغربية في أحداث درقاوة ببايليك الغرب الجزائري بين 1804-1813 التي بسببها سفكت دماء الجزائريين فيما بينهم –رعية ومخزن- وبينهم وبين الأتراك-حكام البلاد وقتذاك- ويظهر التورط المغربي في شقين: شق شعبي ونقصد به موقف أتباع الطريقة الدرقاوية من ثورة ابن الشريف الدرقاوي، وشق رسمي ويتمثل في موقف السلطان المغربي سليمان بن عبد الله من الثورة الدرقاوية في الغرب الجزائري.

بالنسبة للشق الشعبي، ذكر الكتاب أن شيخ الطريقة الدرقاوية هو مولاي محمد العربي بن أحمد المغربي، المستقر فيما يبدو بمدينة فاس، واستوحينا ضلوعه في تأجيج حماس درقاويو الجزائر فيما كتبه مسلم بن عبد القادر في أوائل القرن التاسع عشر: " ويجمع [ابن الشريف الدرقاوي] ذلك الشيء [الصدقات] ويذهب إلى شيخه المذكور [محمد العربي بن أحمد المغربي] ويقص عليه ما هم فيه خدامه [أنصار الطريقة الصوفية الدرقاوية] من إهانة المخزن

إليهم، فيقول: أنصرهم والله ينصرك، فحصل له بذلك الطمع الكثير مع نظره إلى اجتماع الغوغاء عليه."(77) أما المزاري فقد أشار إلى حضور الشيخ الدرقاوي المغربي حصار ابن الشريف لمدينة وهران واحتدام القتال بين جيش تلميذه وجيش الباي محمد المقلش وأن الشيخ المغربي قد أزعجه قتال المخزن الوهراني، وما ألحقه من أضرار في صفوف الثوار الدرقاويين.(78)

أما عن الموقف الرسمي فقد ذكر المؤرخ التركي إلتر، السياسة العدائية للسلطان المغربي سليمان بن عبد الله، تجاه المرابطين، وانعكاساتها السلبية على الوضع الأمني بالبلاد المغربية، كما أشار الكاتب إلى دور الجزائر في دعم تمرد تطوان كرد فعل على سياسة السلطان المغربي، الذي أراد أن يرد الكيل بمكيالين حيث استغل الاضطرابات السياسية التي عرفها نظام الدايات وسخط غالبية سكان الريف على حكامهم، واجتماعهم حول المرابطين، ليخطط إلى دعم لوجيستيكي لكل عصيان جزائري ضد الحكم العثماني، فقرب إلى مجلسه الطرق الصوفية المعادية للأتراك منها التيجانية والدرقاوية، وسخر جميع ما لديه من امكانيات لإظهار التمرد والعصيان في الجزائر. وبالتالي نعتقد أن مقدم الطريقة الدرقاوية في الجزائر ابن الشريف وشيخه محمد العربي قد جالسا السلطان سليمان وتم الاتفاق على إعلان الثورة في الغرب الجزائري مع التوسع نحو الشرق شريطة عدم تدخل السلطان في أحداث الثورة الدرقاوية وصراعها مع الجيش العثماني ومخزنه.

كما أخبرنا الكاتب نفسه أن السلطان المغربي في خضم الثورة الدرقاوية بغرب وشرق الجزائر، قد احتل بعض المناطق الصحراوية الجزائرية مثل فغيغ سنة 1219هـ/1804-1805، وتوات وغورارة سنة 1221هـ/1807-1808.(79)

ب-مع تونس:

كانت العلاقة بين الجزائر العثمانية في عصر الدايات وتونس على جانب من الدقة والحساسية إذ كان باي تونس في حالة شبه تبعية لداي الجزائر منذ 1756، وكانت الفكرة الرئيسية التي واكبت عهد علي باشا وولده حمودة باشا هي الخروج من تلك التبعية وإعداد العدة كما ينبغي لها.(80)

وقد عبر مؤرخ تونس العثمانية أحمد بن أبي الضياف عن هذه الحساسية السياسية بين الجارين كالآتي:" إلا أنه [أي علي باشا] عاش منغصا من مداراة الولاة في الجزائر وقسنطينة...وتحت أيديهم زبون عليه من آل بيته...وقاسى أهل المملكة من جورهم

وعسفهم ما لا تحتمله النفوس البشرية، وقاسى هو من غلظة لرسلهم، ما يزهد في اللذة الملكية."[81]

وفي ظل هذه الحساسية السياسية بين الحكام في كلا البلدين استمرت الروابط الدينية بين الشعبين المسلمين، وكذا المبادلات التجارية لكن ما أن اعتلى حمودة باشا الحكم سنة 1782 وشروعه في تنفيذ مشروعه النهضوي بتونس الذي عبرت عنه إصلاحاته حتى مالت علاقات السلم تدريجيا نحو القطيعة والحرب، للأسباب التالية:

*إحساس الباي حمودة باشا بمرارة الإذلال لبلاده، من جيرانه الجزائريين، لجور هؤلاء عليها، في بعض الشروط التي فرضوها على تونس، من دفع الضريبة للجزائر، وتخفيض الراية التونسية، وهدم التحصينات التونسية.

لقد كان الباي حمودة باشا يعد للحرب في صمت وسرية، وقد كان حكام الجزائر الأتراك العثمانيين يشكون في نواياه، فكان يبادر إلى تبديدها. ومن بين المواقف التي أعلنت عن نواياه:

*تحريضه لابن الأحرش الدرقاوي على الثورة.

*الزيادة الكبيرة في عدد أفراد الجيش التونسي (23000 جندي نظامي منهم 9000 جندي تركي، 14000 جندي زواوي، و40000 جندي غير نظامي).

*تسليح الجيش بالعتاد العسكري الأوربي الحديث.

*تقوية الأسطول البحري الحربي.

*معاقبة الجزائريين الذين يرتكبون تجاوزات وهم بداخل تونس.

*تسليط العقاب الشديد على التونسيين الذين يتعاونون سريا مع باي قسنطينة.

*إيواء الباي حمودة للباي مصطفى انجليز المخلوع.

*توقيف الهدايا وزيت الزيتون إلى الجزائر والتخلي عن التزاماته نحو الجزائر.

*تحصين تونس.

وهكذا في 1806 وفي عهد الداي أحمد، أعلن الباي حمودة باشا الحرب على الجزائر، وكانت الحملات العسكرية متبادلة بين الطرفين، وتمكن االجيش التونسي من التوغل إلى أراضي بايليك الشرق الجزائري ومحاصرة قسنطينة التي صمد سكانها ودافعوا عنها، وقد تكبد الطرفان خسائر فادحة في العتاد والأرواح، ورغم فشل قوات حمودة باشا التونسي في احتلال قسنطينة، وعودة فلولها مذلولة، فإنه رفض الرضوخ للداي أحمد مما جعل العلاقات تستمر بينه وبين أحمد متوترة عدائية.[82]

2-علاقات الجزائر مع العالم المسيحي:

تحكمت هذه العلاقات إلى حد كبير في مقدرات الجزائر بل كانت سبباً مباشراً في النهاية المأساوية لحكم الدايات، وقد بدأت العلاقات الجزائرية الأوربية تأخذ طابع المواجهة مع استمرار الجزائر في ممارسة النشاط الحربي والتزامها بتوجهات السياسة العثمانية ودخولها طرفاً في النزاع الفرنسي الإنكليزي بسبب احتلال نابليون بونابرت لمصر 1798-1801 ووضعه مخططاً استعمارياً يستهدف فرض النفوذ الفرنسي على أقطار شمال إفريقيا انطلاقاً من الجزائر والذي يعتبر تقرير العقيد بوتان سنة 1808إحدى حلقاته الأولى، على أن تحول السياسة الأوربية بعد سقوط نابليون 1814نحوإعادة التوازن الدولي بالقارة انطلاقاً من فكرة الوفاق الدولي وعملاً بمقررات مؤتمري فيينا 1815وإيكس لاشابيل1818 وبروتوكولات لندن 1816-1817جعل الجزائر في مواجهة مفتوحة مع غالبية الدول الأوربية التي لها مصالح بالبحر المتوسط وهذا ما دفع بتلك الدول وفي مقدمتها فرنسا وإنكلترا إلى الأخذ بفكرة المواجهة مع الجزائر بهدف القضاء على نشاطها البحري وإطلاق الأسرى الأوربيين وإلغاء ما كان يطالب به دايات الجزائر من إتاوات وهدايا إلزامية ومعاملات خاصة، مقابل منحهم الحقوق الجمركية والامتيازات التجارية لتلك الدول.

وقد كانت إنكلترا سباقة في هذه السياسة المعادية للجزائر، فدعا إلى الالتزام بها كاستلريغ Castlereagh وعمل على تنفيذها اللورد إيكسموث عندما شن أول حملة بحرية على الجزائر مؤلفة من سفن إنكليزية وهولندية، فألحق أضراراً كبيرة ببنايات مدينة الجزائر ودمر السفن الجزائرية التي كانت راسية بميناء الجزائر، وهذا ما اضطر الداي عمر باشا إلى توقيع اتفاق مذل أرغم بمقتضاه على إطلاق سراح 1642 أسيراً أوربياً. وقد كان هذا النجاح الذي حققه الأسطول الإنكليزي-الهولندي مدعاة إلى شن حملة أخرى على الجزائر بقيادة الأميرال نيل Neal في صيف عام 1824 م، بحجة الانتقام من حكومة الداي التي سمحت بانتهاك القنصلية الإنكليزية التي لجأ إليها بعض الرعايا الجزائريين المهددين بالعقاب، لكن الحملة فشلت في مهمتها و لم تحقق ما كان يرجى منها.

لقد كان اهتمام إنكلترا بأوضاع الجزائر في إطار سياسة الوفاق الأوربي مدعاة إلى أن تركز فرنسا اهتمامها في الجزائر حفاظاً على وضعها المميز الذي حصلت عليه في عهد الداي بابا حسن 1791-1798، وتمهد لتنفيذ مشروعها الاستعماري الذي تبلور في عهد نابليون،

فاستعادت امتيازاتها في تصدير المرجان والحبوب من السواحل الشرقية للجزائر سنة 1817، كما تعرض الفرنسيون لمضايقات من قبل التجار اليهود المتعاملين مع الداي والذين كانوا يرون في الفرنسيين منافسين خطيرين قد يحرمونهم من أرباحهم التجارية مع الجزائر، ونجحوا بالفعل في عرقلة النشاط التجاري الفرنسي بالجزائر وفي دفع الداي حسين إلى الوقوف بجانبهم في مطالبتهم بتسديد ثمن الحبوب الجزائرية التي قاموا بتصديرها إلى فرنسا بطلب منها وبتكليف من الداي، وكان ذلك سبباً في إحراج هذا الأخير وجعله يلح على ممثلي فرنسا بضرورة تصفية قضية الديون، وهذا ما اتخذه الفرنسيون حجة لإحداث القطيعة مع الجزائر إثر حادثة المروحة والدخول في مواجهة مع الجزائر بدأت بفرض الحصار البحري سنة 1827 وانتهت بنزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج سنة 1830.(83)

وعلى ضوء ما تقدم نلاحظ أن الفترة الأخيرة لعصر الدايات فترة متشنجة سياسيا وأمنيا، وانتقل هذا التشنج من القمة (الحكام وإطارات الدولة السامين) إلى القاعدة الشعبية التي كانت تلاحظ وتتفرج على مظاهر الفساد السياسي والاختلال الأمني منتظرة انفراجا وحلولا لهذه الأزمة، إلا أن الدرقاويين والتيجانيين رأوا أن هذا الانفراج لا يتحقق إلا بقلب النظام التركي العثماني في الجزائر رأسا على عقب، وشجعهم على ذلك عاملان رئيسيان أحدهما داخلي ويتمثل في سخط جماهير المدن والريف على السياسة العثمانية، والآخر خارجي يتجلى في حضور أحقاد خارجية من مصلحتها الإطاحة بنظام الديات، وبالتالي كيف يمكن للمدن الجزائرية وأريافها أن تخترق الانسداد الحضاري وتحظى بتطورها نحو الأمام، وتفكر وتخطط لمستقبلها العمراني ما لم يتوفر لها الهدوء السياسي والأمني والحكم الراشد.

الهوامش:

(1) أبو القاسم، سعد الله.**تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16–20)**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، الجزء الأول، ص 138.
والفكرة نفسها سجلها القنصل الأمريكي، وليام شالر، معتبرا الفساد السياسي واستبداد الحكم العثماني هو السبب الرئيسي في غياب نقلة نهضوية للجزائر الحديثة، بمدنها وأريافها.

(2) الجيش الانكشاري أصله يني شيري أي الجيش الجديد، ويمثل المؤسسة العسكرية البرية، وهو جيش نظامي.

(3) يتم انتخاب الداي على مستوى المؤسسة العسكرية بشقيها البري والبحري.

(4) ألتر، عزيز سامح. **الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية** .ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1409هـ/1989م. ص 406.

(5) تشير الكتابات التاريخية أن ما شجع على قتل الدايات، هو مصادرة ممتلكاتهم وإدراجها ضمن مداخيل خزينة الدولة، وعندئذ تحرم عائلته من كل مكسب مادي، فتختار حتما العودة إلى الوطن الأم بين أهل وذوي المقتول.

(6) الزهار، الحاج أحمد الشريف. **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار–نقيب الأشراف–** تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1980. ص 71.

(7) ألتر عزيز سامح. **المرجع السابق**، ص 572.

(8) الزهار، الحاج أحمد الشريف. **المصدر السابق**، ص 89.

(9) ألتر، عزيز سامح.**المرجع السابق**، ص 585.

(10) **المرجع نفسه**، ص 593.

(11) لقب الداي علي بالغسال، لأن مهنته كانت غسل الموتى، ثم صار إمام جامع حنفي، ليرتقي إلى منصب مسؤول التشريفات في القصر، وحصل على لقب خوجة.

(12) ألتر، عزيز سامح. **المرجع السابق**، ص ص 593-594.

(13) **المرجع نفسه**، ص ص 595، 601.

(14) **المرجع نفسه**، ص 601.

(15) **المرجع نفسه**، ص 612.

(16) ابن العنتري، محمد الصالح. **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة.** مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.ص 66.

(17) **المصدر نفسه**، ص 67.

(18) vayssettes, Eugène. **Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837**.Présentation de Ouarda Siari-Tengour, Editions Bouchene , 2002. p160.

(19) سماها فايسات الدايخة بنت الباي حسن.

(20) ابن العنتري، محمد الصالح. **المصدر السابق**، ص ص 73-74.

(21) **المصدر نفسه**، ص ص 74-75

(22) من خصوصيات القضاء العثماني في الجزائر أنه يعاقب الأتراك سرا عن الجزائريين، فكيف يمكن لهذا الباي التركي أن يساء إليه بهذا الشكل، لأنه يعتبر إهانة للأتراك العثمانيين عموما.

(23) ابن العنتري، محمد الصالح. **المصدر السابق**، ص 79.

(24) سجلنا إلى جانب البايات المغتالين ببايليك الشرق، عمليات عزل مست ستة بايات بين 1792-1830 وهم:

-الباي حاج مصطفى انجليز 1798-1803.

-الباي أحمد المملوك :فبراير 1818.

-الباي محمد الميلي: 1818-1819.

-الباي أحمد المملوك للمرة الثانية 1820-1822.

-الباي ابراهيم الكريتلي 1822-1824.

-الباي محمد منامايي 1824-1826.

(25) بلبروات، بن عتو. **الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797**. رسالة ما جستير غير منشورة، جامعة وهران، 2002. ص 82.

(26) حكم بين 1792-1822.

(27) المزاري، بن عودة آغا. **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**.تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، الجزء الأول، ص ص 346-347.

(28) نلفت الانتباه إلى أن العزل السياسي في حق بايات الغرب قبل انقضاء عهدتهم القانونية (ثلاث سنوات) كان حاضرا، فقد عزل كل من:

-الباي عثمان بن محمد الكبير سنة 1800 بأمر من الداي مصطفى باشا بحجة انحراف أخلاقه.

-الباي مصطفى العجمي سنة 1805 بعد عجزه عن دفع الدرقاوي عن مدينة وهران.

(29) Federmann Henri, Aucapitaine Bon Henri. « Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de Titeri. »**In Revue Africaine,** 1865, p.288.

(30) شالر، وليام. **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**. تعريب وتعليق وتقديم: اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982. ص 51 .

(31) **المصدر نفسه**، ص 51 .

(32) **المصدر نفسه**، ص 61.

(33) **المصدر نفسه**، ص ص 62-63.

(34) **المصدر نفسه**، ص 52 .

(35) Esquer , Gabriel. **Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger par le chef de bataillon Boutin 1808, suivie des mémoires sur Alger par le consul De Kercy 1791, et Dubois Thainville 1809**. Paris, 1927. pp.58-63.

(36) سعيدوني، ناصر الدين. "دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايليك بالجزائر". **دراسة منشورة ضمن كتاب ورقات جزائرية –دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-** بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000. ص ص. 260-263.

(37) Rinn, Louis **Le royaume d'Alger sous le dernier dey.** Présentation de Abderahmane Rebah, Editions Grand D'Alger Livres, 2005.p.31

(38) سي يوسف، محمد." من خصائص النظام الإداري ببايليك التيطري خلال العهد العثماني." العدد 65، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، تونس، 1992، ص.270.

(39) بلبروات، بن عتو. **المرجع السابق**، ص 08.

(40) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة في الاسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني**. دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع،دمشق، الطبعة الأولى، 1999. ص 101.

(41) هاينريش، فون مالتسان. **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**. ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، الجزء الأول، ص.24.

(42) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 49.

(43)ابن حموش، مصطفى. **فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري. 956-1246هـ/1549-1830م**. دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 1421هـ/2000م. ص ص. 24-25.

(44) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص ص. 46-47

(45) Gaid, Mouloud. **L'Algérie Sous les Turcs**.S.N.E.D, Alger, 1974.p 203

(46) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 48.

(47) Gaid, Mouloud .**Op.Cit.**, p 203

(48) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 48.

(49) L'Abbé Lambert , Edmond. **A Travers L'Algérie, Histoire, Mœurs et légendes des Arabes**. René Haton, Librairie Editeur, Paris, 1884.p.232.

(50) Mouloud Gaid.**Op. Cit.** pp .187-189

(51) الطاهر، عمري." بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي." **ملتقى دولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية**، جامعة منتوري بقسنطينة، 2001. ص ص. 221-222.

(52) الطاهر، عمري. **المقال نفسه**، ص 220.

(53) سعيدوني، ناصر الدين، والبوعبدلي، المهدي. **الجزائر في التاريخ –العهد العثماني**–الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص.27.

(54) Belkacemi, Boualem. « Colonialisme et voies de communications en Algérie au XIX ème siècle. Première partie. » **In C.M.H.**, n°01, 1987, p.94.

(55) Amine, Mohamed. « Géographie des échanges commerciaux de la régence d'Alger à la fin de l'époque ottoimane 1792-1830. » **In R.H.M.**, n°75-76, 1994, p.372.

(56) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 32.

(57) بليل، رحمونة. العلاقات التجارية لايالة الجزائر مع بعض موانئ البحر المتوسط "مرسيليا وليفورن" من 1700 إلى 1827. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة وهران، 2002-2003. ص ص.90-91.

(58) **المرجع نفسه**، ص 91.

(59) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 104.

(60) **المصدر نفسه**، ص ص 103-104. تم نقل خمسين مليون دولار من قصر الجنينة إلى قصر القصبة سنة 1817، ونهبت فرنسا حسب اسماعيل العربي ما قيمته مائتي مليون فرنك، وهذه التقديرات هي تقريبية.

(61) **المصدر نفسه**، ص 38.

(62) **المصدر نفسه**، ص 92.

(63) Esquer , Gabriel. **Op.Cit.**, p 72

(64) أبو القاسم، سعد الله. **المرجع السابق**، ص 180.

(65) الزبيري، محمد العربي. **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972. ص 45.

(66) أبو القاسم سعد الله.**المرجع السابق**، ص ص 162-163.

(67) **المرجع نفسه**، ص 245.

(68) عميراوي، أحميدة. "وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية بمدينة قسنطينة في بداية الاحتلال". **المجلة التاريخية المغاربية**، العددان 87-88، ماي 1997، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، ص 32.

(69) أبو القاسم، سعد الله. **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1424هـ/2003. ص 17.

(70) أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...ج1، المرجع السابق**، ص 244.

(71) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص. 82.

(72) **المصدر نفسه**، ص 98.

(73) ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**. شرح وتعليق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ/1964، الجزء الأول. ص 27.

(74) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 39.

(75)أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي....الجزء 1، المرجع السابق**، ص 184.

(76)شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 44.

(77)مسلم، بن عبد القادر. **خاتمة أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر**. تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974. ص 72.

(78)المزاري، بن عودة آغا. **المصدر السابق**، ص 309.

(79) ألتر ، عزيز سامح. **المرجع السابق**، ص ص 504-506.

(80) الشريف، محمد الهادي. **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**. تعريب: محمد الشاوش ومحمد عجينة، سراس النشر،تونس، ط2، 1985. ص 90.

(81) ابن أبي الضياف، أحمد. **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**. تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 ، 1977 .ص 213.

(82) ابن خروف، عمار. **علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات 1082-1246هـ/1771-1830**. رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، غير منشورة، جامعة دمشق، 1995-1996. ص ص. 425-439.

(83) http://www.albabtainpoeticprize.org.pp.122-125

ويتضمن هذا الموقع كتاب: سعيدوني، ناصر الدين. **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، طبع من طرف مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000.

الباب الأول:

المدينة الجزائرية في أواخر العهد العثماني

-مدينة الجزائر نموذجا-

الفصل الأول

خطط مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني

أولا- معطيات أولية حول المدن الجزائرية في أواخر العهد العثماني.

1-مفهوم المدينة:

كتب ابن منظور الافريقي في لفظة المدينة، أنها مشتقة من الفـــعل "مـــدن"، ويقول العرب :" مـــدن بالمكان أي أقام به"، وتجمع على مدائن، ومدن. والمدينة هي الحصن يبنى في أصطمة الأرض...والنسبة إليها مديني.(1)

وبناء على ما ورد في لسان العرب نلاحظ أن المدينة مرتبطة إلى حد بعيد بالاستقرار البشري في المكان، المجسد في الحصن، لأن المدن كانت منذ فجر التاريخ عبارة عن حصون وقلاع، والعالم الإسلامي لا يشذ عن ذلك بما في ذلك الجزائر قبل وأثناء العهد العثماني.
وقد تلتقي لفظة المدينة بلفظة الحاضرة (2) وكلاهما يدلان على مركز تجمع بشري دائم، إلا أن البعد البشري الذي ركز عليه علماء الإسلام مثل ابن خلدون والفارابي والمقريزي وأبو حنيفة، لم يكن كافيا عند الباحثين والمفكرين في موضوع المدينة العربية الإسلامية. فقد عرفها بعضهم أنها المكان الذي تقام فيه الحدود وتؤدى فيه صلاة الجمعة فلذلك فهي ترتبط بمسألة القضاء والعدالة والشعائر الدينية الجماعية.

وذهبت بعض الدراسات المعاصرة إلى اعتبار المدينة تجمعا سكانيا كبيرا غير متجانس يعيش على قطعة أرض محدودة نسبيا. وتعتمد هذه الوحدة السكانية علـــى الصناعة أو التجـــارة أو عليهما معا، كما تمتاز بالتخصص. وتم الاتفاق على اعتبار كل تجمع سكاني يزيد عن عشرين ألف نسمة، مدينة.(3)

2-حقيقة المدينة الجزائرية في أواخر العهد العثماني:

تداولت الكتابات التاريخية العربية عدة تسميات للمدينة في الجزائر العثمانية، فتارة تستعمل البلدة والحاضرة، وتارة أخرى القلعة، وبعضها تتفادى لفظة "المدينة" وتوظف لفظة "القرية"، ولا تستثني منها إلا مدينة الجزائر كعاصمة سياسية واقتصادية للجزائر العثمانية. وعندئذ نتساءل هل توجد في الجزائر العثمانية مدن أم قرى كبيرة؟

لقد حاولت الكتابات التاريخية التمييز بين المدينة والقرية، فذكرت أن المدينة لها القدرة على اجتذاب غير المقيمين فيها للاختلاط بالناس وإنعاش معنوياتهم، وهي عكس القرية الريفية التي تعادي الغريب، بحكم جمود تكوينها وانطوائها على نفسها.(4)

ويظهر أن المدينة تتميز عن القرية بتعداد سكانها ونشاطها الإقتصادي-الحرفي والتجاري والخدماتي- وتعدد عناصر مجتمعها ومؤسساتها الإدارية ومستواها ومظهرها العمراني، لكن ما

يزيد في صعوبة إيجاد تعريف دقيق يفرق بين المدينة والقرية هو أنه في بعض أجزاء المدينة الواحدة هناك مظاهر القرية الريفية.(5)

وفي هذا السياق أشار المكناسي في رحلته إلى هذه النقطة لما زار مدينة قسنطينة سنة 1785 قائلا: " وبها رخاء كثير والأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب". (6)

وقد يزول هذا اللبس حول حقيقة المدينة الجزائرية في أواخر الحكم العثماني عندما ندرس كل مجموعة حضرية على حدى من حيث أهميتها وتأثيراتها، وإخضاعها للمقاييس التي حددها المفكرون بشأن المدينة العربية الإسلامية عموما، وأيضا لما نتمعن في طريقة تصنيف المدن الجزائرية. ويظهر أن المصادر التاريخية مثل رحلة المكناسي قد بادرت إلى تصنيف المدن في الجزائر العثمانية، فمثلا وصف مدينة قسنطينة بالمدينة المتوسطة ومدينة الجزائر بالمدينة الكبيرة.(7)

أما الباحث الفرنسي أندري نوشي André Noushi عند مقارنته بين العواصم المغاربية، وصف مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي بالعاصمة الصغيرة أمام العاصمتين المغاربيتين " مدينة فاس ومدينة تونس" لكنه ذكر في موضع آخر أن الجزائر عموما تضم مدن متوسطة الأهمية كما يوجد في المناطق الداخلية مراكز حضرية فقط مثل معسكر ومليانة والمدية وميلة وسطيف وتلمسان وقسنطينة، كما وصف الواحات بالمدن الصحراوية. (8)

وبالتالي نلاحظ أن الدراسات التاريخية تواجه معضلة تصنيف المدن، فهل تصنفها على أساس سكاني الذي يصبح معيارا مستحيلا في غياب الإحصاء السكاني في العهد العثماني؟ أم على أساس نشاطها الاقتصادي ومستوى وظائفها الحضرية؟ وهذا ما ترجحه أقلام الباحثين المعاصرين.

في هذا الصدد نـــبـــه الدكتور محمد خير فارس إلى أن المدن الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي كانت قليلة الأهمية إذ لم تضم إلا حوالي 5 إلى 6 في المائة من السكان،(9) وسبب ذلك أن وضع المدينة الجزائرية عموما كان يتأثر بالتطورات السياسية للبلاد، وبإمكانيات المنطقة الاقتصادية المحلية، وبالعلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية، وبالتالي تصنف المدن في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني إلى مدن مزدهرة مثل مدينة الجزائر، ومدينة قسنطينة، ومدينة عنابة. ومدن ضائعة أي أضاعت ازدهارها تحت الحكم العثماني مثل تلمسان ووهران وبجاية.(10) وبصددها أشار القنصل الأمريكي وليام شالر إلى أن مدن الجزائر العثمانية لم تتمكن فيما يبدو من الاحتفاظ بمزاياها السابقة، واستنتج شالر أن المدن الجزائرية خلال الفترة العثمانية فقدت كل نفوذ سياسي أو تجاري كان لها في الماضي، باستثناء مدينة الجزائر، العاصمة المركزية للدولة،

وجزم أنه لم يستطع جمع أية معلومات عن المدن. ويلاحظ أن هذه المدن الضائعة ينعتها شالر بالمدن الصناعية التجارية الصغيرة(11).

وعموما حاولنا التوفيق بين مختلف الدراسات التي طرقت موضوع تصنيف المدن الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي، وانتهينا إلى أن أغلبها تلمح إلى وجود صنفين من المدن، هي :

- المدن المتوسطة:

وهي التي عرفت حيوية اقتصادية خلال الفترة العثمانية، مكنتها من تأدية وظائفها الحضرية، والتأثير في فضائها الخارجي (الريف المجاور لها)، إلا أنها لم تتمكن من التطور وبلوغ مرتبة المدن الكبرى بفعل عوامل عديدة.

-المدن الصغيرة:

ويرتب ضمن هذا الصنف المدن الساحلية والمدن الداخلية وحتى الصحراوية، التي تفتقر إلى مكانة اقتصادية وبشرية وإدارية وثقافية في الدولة، لكن بعض المدن مثل تلمسان وبجاية ووهران ومازونة والمدية ومعسكر تحظى بمكانة سياسية وثقافية، وقد تنتمي إليها المدن التي أضاعت ازدهارها الاقتصادي والبشري.

ولعل ما كتبه الباحث مصطفى بن حموش عن عوائق تقدم المدن الجزائرية من مدن صغرى ومتوسطة إلى مدن كبرى، يرفع اللبس عن حقيقة المدينة الجزائرية في العهد العثماني فكتب أن الجزائر العثمانية لم تتعاط الثورة الصناعية التي شهدتها أوربا الغربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، واكتفت بالعمل التجاري الحرفي والزراعي والخدماتي، وبالتالي لا يمكن لها أن تكون مدينة كبيرة ذات وزن دولي، بل كانت مدينة صغيرة يحكمها الحصن، والسوق، والميناء بالنسبة للمدينة الساحلية، وقوتها المحركة هي الخيول والبغال والمراكب البحرية الصغيرة، وبهذه الديناميكية لا يتسنى للمدينة أن يزيد عددها وقوتها، ويبقى دائما استهلاكها أكبر من إنتاجها، ومن ثمة تصنف ضمن المدن الطفيلية التي لا تقدم شيئا للتحضر والتقدم. (12)

نلاحظ أن حمدان بن عثمان خوجة في مرآته قد عبر عن هذه الفكرة عند حديثه عن بايليك التيتري قائلا: " أما المدن الأخرى التابعة للمدية فإنني أستطيع أن أعفي نفسي من وصفها لأنني لا أعرف عنها ما يمكن أن يكون عجيبا أو مفيدا". (13) والفكرة ذاتها كررها عند حديثه عن مدن بايليك الغرب قائلا: " أما المدن والقرى الأخرى، فلا يبدو لي من المفيد أن أتكلم عنها إذ هي شبيهة بها [ويقصد مدينة معسكر] لا تختلف عنها إلا بحسب موقعها ." (14)

وإلى جانب أطروحة الدكتور بن حموش أفادنا أيضا الدكتور محمد الارناؤوط أن الوقف في البلقان والشام خلال العصر العثماني كان له دورا لا يستهان به في نشوء وتطور المدن إذ

أصبح يعني مزيدا من العمران (جوامع، مدارس، دور شفاء، جسور، طرقات، مطاحن، قنوات ري، خانات، أسواق...) سواء في المدن الموجودة أو في ضواحي المدن.[15]
أما في الجزائر العثمانية فإن كانت مداخيل الأوقاف قد ساهمت في تطوير العمران بالمدن الموجودة سابقا إلا أنها لم تتمكن من إنشاء مدن جديدة بمرافقها الحياتية اليومية لأن الوقف الخاص قد غلب على الوقف العام، وأن الوقف تركز في الحواضر وقل عنه في الأرياف فكان من الأجدر أن يلعب الوقف دوره في تحويل الأبراج العسكرية والقرى في المناطق الجبلية والصحراوية إلى مدن، ما دامت القرية حسب المنظرين هي مرحلة انتقالية من الريف إلى التمدن.

ولما كانت المدن الجزائرية متباينة من حيث موقعها الجغرافي وتضاريسها ومناخها وحركيتها الاقتصادية ومتمايزة من حيث خططها المعمارية والهندسية فقد فرض علينا الأمر اختيار مدينة الجزائر نموذجا للمدينة الجزائرية في أواخر الفترة العثمانية، لجملة من الاعتبارات منها أنها العاصمة السياسية والاقتصادية للبلاد وقد تناولتها المصادر والمراجع مما وفر لنا مادة تاريخية غزيرة ودقيقة.

ورد مصطلح "خطط" في عناوين بعض مؤلفات المسلمين الدين اهتموا بالمدينة العربية الإسلامية مثل خطط بغداد، وخطط القاهرة، وخطط دمشق، ويقصد به العلم الذي يهتم بوصف المكان بدقة. والخطط مستمدة من التخطيط أي تخطيط العمران الذي يعني الهندسة العمرانية.[16]

وعليه تعتبر دراسة التخطيط العمراني لمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دراسة تاريخية للهندسة المعمارية وقتذاك، مع ربطها بالإنسان واحتياجاته، محاولين إبراز مستوى التحضر والتمدن الذي بلغه سكان مدينة الجزائر في ظل الحكم العثماني، والرد على أولئك المستشرقين الذين ادعوا أن المسلمين عامة، بدو ورحل، ومدنهم لا تعدو أن تكون مدن حربية.

ولكننا وجدنا صعوبة في الوقوف على التخطيط العمراني بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني بشكل واضح ودقيق، ومن بين هذه المصاعب نذكر:

-اختلاف البيانات في التخطيطات المعمارية الهندسية المعتمد عليها من طرف ألبير ديفولكس ALBERT DEVOULX كأن نجد المخطط العثماني سنة 1572-1573، والمخططين الفرنسيين، لسنة 1829، ولسنة 1832، لا يستقرون على تحديد ثابت لكثير من المواقع المحصنة بمدينة الجزائر العثمانية.

-تعدد تسميات عدد من المعالم المعمارية مثل الحصون والأبراج والجوامع والمساجد.

وقد بادر ديفولكس –وهو مصدرنا الأساسي–في إبراز خطط مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، وتصحيح ما ورد في المصادر حول تحديد المواقع بالمدينة أو التعريف بها، وأحيانا خطأ بعض المعلومات المسجلة. إلا أن الكتابات التاريخية المهتمة بدراسة مدينة الجزائر لم تستقر على صيغة منهجية واحدة من أجل توضيح خطط المدينة، بفعل تعقيدات الموضوع ودقته.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن ننوه بأننا حاولنا في ضوء غزارة المعلومات حول خطط مدينة الجزائر ودقة الدراسة وصعوبة الطرح المنهجي أن نجد طريقة لتبسيط موضوع الفصل تخدم معانيه التاريخية المتمثلة في اكتشاف ما تنطوي عليه المدينة في أواخر العهد العثماني من عناصر معمارية هي في خدمة السكان قد لا نجدها في مراكز حضرية ريفية مثل الفحص والقرية والقصر الصحراوي.

ثانيا– خطط مدينة الجزائر داخل أسوارها.

شيدت مدينة الجزائر خلال الحقبة الليبية السابقة للاحتلال الروماني، على ظهر ربوة متوجهة نحو الشرق، وتبدو للقادم إليها من البحر، على شكل هرم، قمته تنتهي عند القصبة، وقد قسم ديفولكس مدينة الجزائر داخل أسوارها إلى ثلاثة مناطق هي:

–المنطقة السهلية الواطئة، في شمال المدينة، المحاذية لساحل البحر المتوسط، وهي المنطقة التي ذكر بشأنها أندري ريمون A.RAYMOND أنها تمثل مركزا حضريا للمدينة يجمع العناصر المعمارية ذات الوظائف السياسية والإدارية والاقتصادية والثقافية الدينية، وكذا القصور والديار الجميلة للشخصيات الرسمية البارزة.

–المنطقة الوسطى، وهي منطقة الأحياء السكنية المحيطة بالمركز الحضري، وتشمل ديار البرجوازيين بالتعبير المعاصر.

–المنطقة المرتفعة الجبلية في جنوب المدينة، وهي كذلك تشتمل على أحياء سكنية يقطنها عوام الناس. (17)

وقدرت لجنة الجزائر القديمة، الفرنسية، التي أسسها هنري كلاين Henri klein سنة 1910، مساحة مدينة الجزائربـ54 هكتارا و62 آرا، وتضم أربعة آلاف مسكن، ويسكنها حوالي أربعون ألف نسمة هم خليط من الأجناس (أتراك ، عرب وبربر، ويهود). (18)

ويبلغ طول المحيط الخارجي للمدينة دون التعرجات نحو ثلاثة آلاف ومائة متر. (19)

وعلى امتداد هذا الفضاء المديني، انتشرت معالم معمارية، جسدت صورة المدينة الإسلامية الراقية، وجمعت عدة نعوت، فنجدها تارة مدينة حربية بأسوارها وحصونها وأبراجها،

حتى أنها دعيت بالجزائر المحروسة وتارة أخرى مدينة إدارية وعاصمة سياسية واقتصادية فعلية بمنشآتها الحكومية والإدارية والدينية والثقافية، وهو الأمر الذي يجعل مدينة الجزائر مدينة مزدهرة ذات مكانة في العهد العثماني كما كان لتلمسان المكانة والاعتبار في عهد دولة بني عبد الواد، ويمكننا، نحن، من التمييز بين المدينة الهامة والمدينة العادية من جهة والمراكز الحضرية الريفية المنتشرة بأنحاء البلاد الجزائرية من جهة أخرى، كما تسمح لنا هذه المنشآت العمرانية بمدينة الجزائر باستنتاج الإطار الحضري الذي كان يحياه الإنسان الحاضر دوما بمدينة الجزائر وأخيرا يتضح الحضور القوي لمفهوم الدولة المركزية العثمانية ببلاد الجزائر.

وللعلم لم يأت الأتراك العثمانيون بتخطيط هندسي عمراني متميز عند قدومهم إلى الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر، بل أبقوا على الصورة الهندسية لمدينة جزائر بني مزغنة، وكل ما أضافوه أنهم وسعوا عمران المدينة غربا وجنوبا، ونشروا طرازهم المعماري الزخرفي على المباني التي شيدوها أو أعادوا تشييدها أو التي رمموها. وفيما يلي خطط العناصر المعمارية البارزة بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، أي التي وجدها الفرنسيون قائمة في أوائل الاحتلال.

1-خطط العناصر المعمارية الحربية:

كانت مدينة الجزائر قبل وأثناء الحكم العثماني مهددة في أمنها وهدوئها، من قبل الجيش الملكي الاسباني، فقد بنى على أكبر الجزر المقابلة لمدينة الجزائر قلعة سماها الاسبان "البنيون Penon " أي القلعة الصخرية، فرضت حاميتها، هيمنة وسطوة على مدينة الجزائر ابتداء من سنة 1510، وتصدى لها عروج وخير الدين إلى أن تمكن هذا الأخير من هدم جزء منها وإنهاء الحضور الاسباني بالمكان سنة 1529، ورغم ذلك استمر العدوان الاسباني على المدينة سنة 1541 بقيادة شارلكان، مصرا على إعادة السيطرة عليها وطرد الأتراك العثمانيين منها، وقد سلك في هجومه الطريق البري باتجاه الجهة الجنوبية للمدينة حيث المرتفعات، لكنه انهزم ولم تتحقق أهدافه إلا أن المشروع التوسعي بقي متواصلا، فجددت اسبانيا حملاتها العسكرية ضد المدينة في أواخر القرن الثامن عشر، دون جدوى.

ولم يكن الاعتداء العسكري على مدينة الجزائر اعتداء اسبانيا فقط بل مارسته كذلك دول أوربا الغربية الأخرى وعلى رأسهم فرنسا وانجلترا خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وبالتالي كان البحر دوما مصدرا للأخطار الخارجية، يليه البر أو اليابسة التي كانت منفذا للخطر الداخلي المتمثل في القبائل العاصية والمناوئة للحكم العثماني، وسجلات التاريخ

حافلة بقائمة طويلة للقبائل غير المخزنية التي كانت تنتظر الفرصة التي يتم فيها الانقضاض على الحكم العثماني المركزي وتقويض أركان دولته.

وعلى هذا الأساس اهتم الحكام العثمانيون بتحصين مدينة الجزائر معماريا من خلال إعادة بناء أسوارها بشكل متقن، وتشييد الحصون والأبراج وإحاطتها بالمدينة، حتى يتسنى للجيش وسكان المدينة من الدفاع عن مدينتهم وحفظ أعراضهم وممتلكاتهم من السطو الأجنبي أو المحلي، وعندئذ يمكن التعبير على أن مدينة الجزائر في هذا السياق، كانت مدينة حربية، ولا يعني ذلك بتاتا أنها فقدت وظائفها الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والثقافية.

أ–خطة أسوار المدينة :

ذكرت الكتابات التاريخية أن الأسوار هي من أساسيات البناء المعماري القديم، منها ما يتعلق بإكساب المدينة مظهرا جماليا، ومنها ما يتصل بالوقوف في وجه المتغيرات الطبيعية من فيضانات وعواصف، وكذلك حماية المدن عند تعرضها للغزو والعدوان، حيث تعد الأسوار حائطا دفاعيا صلدا للوقوف بثبات في وجه المعتدين وتعزيز الصمود والمقاومة.[20]

وعند الحديث عن أسوار مدينة الجزائر كنموذج للمدينة الوسيطية –الحديثة، فإن الأمر يتطلب بعض التدقيق، في وصف مسار الأسوار وتموضعها، فإذا كانت المدن التلية الداخلية مثل قسنطينة وتلمسان ومعسكر وغيرها قد سورت من جهاتها الأربع، فإن مدينة الجزائر باعتبارها مدينة ساحلية بحرية، امتدت أسوارها على طول شريطها البري البالغ محيطه ثمانمائة ألف قدم، أما شريطها البحري البالغ محيطه ستمائة ألف قدم ، كان مكشوفا، إذ كان جزءا فقط من السور قائما على الصخور، وبقية الشريط الساحلي تتداخل فيه الحصون والأبراج والبطاريات (الطبانات) بالمباني السكنية.**والملحق الأول يبين لنا شكلا تقريبيا للسور وامتداده**.[21]

ولا يمكن تأويل حديثنا، أن مدينة الجزائر توفرت على سور بري دون سور بحري وإنما سنترك الحديث عن السور البحري لأننا بغرض دراسة خطط المدينة دون مينائها الذي خصصنا له حيزا مستقلا في هذا الفصل.

وعليه فنحن أمام دراسة أسوار برية كتب عنها ديفولكس بوضوح ذاكرا سورين: سور داخلي عالي، وسور خارجي أقل ارتفاعا من الأول، يتباعدان بنحو ستين قدما، وينطلقان من باب الوادي في غرب المدينة وباب عزون في شرقها ويتقاطعان عند القصبة الجديدة العليا في جنوب المدينة، وطولهما يقارب ألف وسبعمائة وثمانين مترا .[22]

ولمعرفة درجة حصانة الأسوار، أفادنا ديفولكس بمعطيات رقمية تتعلق بالسمك والارتفاع:

-سمك السور الداخلي من ناحية باب الوادي، يتراوح بين 4.55م و 12.60م.

-سمك السور الداخلي من ناحية باب عزون، يتراوح بين 4.55 م و 16م.

-سمك السور الخارجي يتراوح بين 02م و 03م.

-ارتفاع السور الخارجي يصل إلى 25 شبرا.

-ارتفاع السور الداخلي على جانب البحر، يصل إلى 40 شبرا.[23]

ووجد ديفولكس مواد عديدة في بناء الأسوار منها الحجارة المستعملة في بناء القسم السفلي للأسوار، والحجارة المصقولة المستعملة غالبا في الحصون، خاصة في الزوايا، والآجر المستعمل في القسم العلوي للأسوار، كما تتخلل الأسوار فوهات مربعة الشكل، متباعدة عن بعضها البعض بمسافات متوازية وتدعى غالبا بالفوهات النارية.[24]

وإذا حاولنا التعليق على هذه الأرقام فإننا نلاحظ أنه رغم سماكة السور الداخلي ومتانة حصانته، فإن القذائف الفرنسية سنة 1830 قد أحدثت فيه فجوات، استغلها ديفولكس في قياس سمك السور، كما نلفت الانتباه إلى أن وصول سمك السور إلى التقدير المذكور سابقا دلالة واضحة على سعة سطحه وتماشيه مع سطوح أسوار المدن العالمية، بحيث كان السطح السوري يتسع عادة لتمشي فيه ثمانية خيول مجتمعة، كما يتوفر على ممرات في وسطه، ويمكن لفارسين أن يمشيا مجتمعين معا أثناء التجوال والحراسة، كما يستعمل الممر نفسه لمرور عربات المدافع في حالات الدفاع عن المدينة لحمايتها من العدوان.[25]

ورغم أن الأسوار تمثل سلاحا دفاعيا ناجعا منذ القدم، إلا أنها لا تسمح بتوسع مستمر لعمران المدينة، وأعتقد أن انغلاق المدينة بأسوارها جعل ديارها متراصة وعالية البناء ومعظمها بطابق علوي، وطرقها وأزقتها ضيقة. وفي المقابل يمكن أن يتم التوسع العمراني خارج الأسوار أي في الفحوص، وهو ما سنتطرق إليه لاحقا.

ب-بطاريات أسوار وقلعة المدينة: [26]

تندرج عملية توزيع البطاريات المدفعية على أسوار المدينة ضمن مخطط دفاعي رسمه الأتراك العثمانيون لمقر حكمهم وعاصمة دولتهم -مدينة الجزائر- وقد أفادنا الدكتور درياس لخضر بصفحات عدد فيها البطاريات المدفعية وعرف بكل واحدة منها، اعتمادا على مصادر أوربية. هذه البطاريات، انتشرت على سطوح أسوار مدينة الجزائر (السور الغربي، السور الشرقي، والسور الشمالي)، وهي كالآتي:

***بطاريات السور الغربي للمدينة:**

-بطارية الحمام المالح:

تبعد عن باب الواد بخمس وأربعين مترا، تحمي شمال غرب المدينة، ويعود تاريخ بنائها إلى القرن السادس عشر، وهي مزودة بعشرة قطع مدفعية.

-بطارية سبع تبارن (أو صباط الحوت أو أرناؤوط مامي):

تبعد عن باب الواد بمائة وثلاثين مترا، مزودة بستة مدافع.

-بطارية سيدي رمضان (أو قطع الرجل): (27)

-بطارية بدون تسمية:

تبعد عن البطارية السابقة بثلاثين مترا، مزودة بسبعة مدافع.

-بطارية رحى الريح (أو حومة زيان):

تبعد عن البطارية السابقة بمائتين وخمس عشرين مترا، وهي مزودة بتسعة مدافع.

***بطاريات السور الشرقي للمدينة:**

-بطارية الباب الجديد:

تقع على مسافة تسعين مترا من الجدار الجنوبي للقصبة، وهي مزودة بتسعة مدافع.

-بطارية حومة السلاوي:

تقع أسفل البطارية السابقة على بعد مائتين وخمس وعشرين مترا، تحتوي على تسع فوهات نارية.

-بطارية بدون تسمية:

تقع على بعد خمس وسبعين مترا أسفل باب عزون، على شاطئ البحر، وهي مزودة بعشرة مدافع ذات عيار 24، وأربعة مدافع ذات عيار 18.

-بطارية العسل:

تجاور فندق العسل، وكان بها خمسة مدافع، ثلاثة منها مصوبة نحو البحر ومدفعين في اتجاه البر.

***بطاريات السور الشمالي للمدينة:**

-بطارية المارستان:

وتسمى أيضا بطارية المجانين لأنها كانت تجاور سجن المجانين، وهذه البطارية العائد تاريخها إلى القرن السادس عشر، كانت مزودة بثلاثة أو أربعة مدافع.

-بطارية قاع السور:

تبعد بحوالي عشرين مترا عن برج باب البحر، وكانت تحتوي على أربعة مدافع.

-بطارية الجامع الكبير:

تبعد عن بطارية قاع السور بثمانين مترا، مزودة بثلاثة مدافع ابتداء من نكسة المدينة أمام حملة اللورد اكسموث سنة 1816.(28)

***بطاريات القلعة (القصبة الجديدة):**

كانت القصبة الجديدة كحي رسمي أو قلعة المدينة الواقعة في أعلى الأسوار، تتوفر على سبع بطاريات مبنية على تراب مركوم ومدعمة بواسطة جدران من الآجر بالجهتين الداخلية والخارجية لتشكل عندئذ حزام دفاعي، نبينه كالآتي:

-البطارية الأولى:

تقع بالجزء الشمالي الشرقي للقصبة، تتكون من ثلاثة طوابق، وبها مخازن للمدافع والمهاريس المعدة للإصلاح وقاعات للجند الانكشاريين، وبرج مراقبة ومراحيض، وجدار تحصين وفتحات للرمي الناري، ويمكن لهذه البطارية أن تراقب السور الشرقي للمدينة والقصبة وحركة الميناء.

-البطارية الثانية:

تقع في الجهة الجنوبية الغربية للقصبة، بها أربع فتحات لمراقبة المدينة والبحر، وثلاث فتحات للبنادق، بها غرف ومخبزة وقاعات للأسلحة، وتسع فتحات للمدفعية وجدار تحصين، وتشرف هذه البطارية على الجزء الجنوبي من الباب الجديد، والبحر من الناحية الشمالية الشرقية، وترتبط بالسور الشرقي، وبها مراحيض وقناة صرف المياه.

-البطارية الثالثة:

زودت هذه البطارية بثماني فتحات للمدفعية، سبع منها تتجه نحو الضاحية الجنوبية الشرقية، وتراقب المرتفعات الجنوبية حتى حصن الامبراطور، بينما نجد الفتحة الثامنة بالمنعطف الشرقي بالجهة اليسرى ، تراقب السور والخندق الشرقي حتى الباب الجديد.

-البطارية الرابعة:

كان بها تسع فتحات للمدفعية ومجموعة مراحيض وغرف.

-البطارية الخامسة:

تقع في أقصى الجنوب الغربي من القصبة، وتمثل أعلى نقطة بالمدينة، وتنتهي بجدار التحصين، وبالتالي هي بمثابة برج يتكون من طابقين للرمي مبنيين على تراب مركوم ويأخذ البرج شكلا مضلعا يتكون من ستة أضلاع خارجية بها مجموعة من الفتحات تتجه نحو الضاحية الجنوبية ووادي قريش، وتشرف على حصن الامبراطور من الجهة الغربية حتى جبل بوزريعة وربض باب الواد.

-البطارية السادسة:

تأخذ هذه البطارية شكلا مضلعا يتكون من ست قاعات مستطيلة بها عشر فتحات للمدفعية ومجموعة من النوافذ التي تطل على الضاحية الغربية وتراقبها، كما تراقب الساحة الشمالية من قصر الداي والأسوار الملاصقة للقصبة، وتتكون البطارية من طابقين وبرج مراقبة وقاعات متصلة.

-البطارية السابعة:

تتكون من خمس فتحات للرمي ، تراقب شارع القصبة المقابل والممر الضيق الفاصل بين البطارية الأولى والبطارية الثانية، بها غرفة قائد الحرس، وعلى سطح البطارية، راية الدولة الحمراء والخضراء، ومصباح كبير يوقد كل ليلة دلالة على وجود وسهر الدولة على المدينة، وعلى هذا السطح كان يقضي الداي أوقات فراغه في الليالي المقمرة ومعه المنظار المكبر مطلا من خلاله على البحر.وبهذه البطارية يكتمل تحصين القصبة من جميع جهاتها. (29)

ت-خطة خندق المدينة:

أثناء عملية تجديد وإعادة بناء سور مدينة الجزائر خلال القرن السادس عشر، أنشأ الأتراك العثمانيون خندقا جديدا يحيط بالمدينة، كسلاح دفاعي يدعم السور، وقد سماه المكناسي في رحلتة بالحفير، وهو محصور بين السورين الداخلي والخارجي، ويوازيهما من الجهة الأرضية حيث ينتهي عند ساحل البحر.

وقد وصف ديفولكس على لسان بوتان سنة 1808 خندق المدينة قائلا: "لقد حفر الخندق في شكل شبه مثلث، وكان هناك منحدر في جهة كل ضلع، يستمر على قاع الخندق الذي يتراوح عمقه بين ستة وثمانية أمتار...وكان يستمر ابتداء من الباب الجديد إلى غاية باب عزون، وكذلك أعلى وأسفل باب الوادي...وبالجملة كان عرض الخندق يتراوح بين ثمانية عشر وخمس وعشرين مترا، لكنه لم يكن مستمرا إذ كانت تتخلله مواضع مليئة..." (30)

وأفادنا عبد القادر حليمي أن خندق المدينة يعود تخطيطه إلى سنة 941هـ/1534م، في عهد حكم حسن آغا، وذكر أنه محكم البناء، يصعب عبوره وتتخلله جسور متحركة يمكن رفعها وقت الحاجة. (31)

لكن بعض الكتابات تذكر أنه تم تخطيطه بعد هزيمة الأرمادة التركية العثمانية في معركة الليبانت سنة 1573 على يد مهندس أوربي من الأعلاج. (32)

كان الخندق خاليا من المياه، وأدى التسيب والإهمال واللامبالاة وافتقاد الوعي البيئي إلى أن يكون في بعض الفترات موضعا لرمي النفايات والفضلات والتراب مما قلص من عمقه، ويستثنى من ذلك خندق القصبة العليا وخندق باب الجديد اللذان كانا نظيفين بفعل حرص السلطات المحلية على ذلك. (33)

وهكذا نلاحظ أن الخندق يعزز السور، ويجعل كل محاولة لاقتحام المدينة العاصمة صعبة، ويمكن رجال المدفعية والبنادق من تثبيت رميهم وإصابة الأهداف من مختلف الفتحات النارية التي تم تخطيطها في الأسوار والأبراج والحصون.

ونتساءل، لماذا خطط الأتراك العثمانيون سورين متواليين وخندقا عميقا من الجهة البرية فقط دون الجهة البحرية؟ وجواب ذلك يكمن في أنه يمكن لمدينة الجزائر أن يهددها خطر بري سواء كان محلي أو أجنبي، فالعديد من القبائل العربية والبربرية كانت تناوئ الحكم العثماني، كما كانت الحكومة المركزية بمدينة الجزائر تلتمس الحذر من بايات الأقاليم الجزائرية، فتحدثت الكتابات التاريخية عن نية عدد من البايات في اقتحام مدينة الجزائر. كما أن الخطر الخارجي يمكن له أن يهدد المدينة برا وبحرا، ونقصد بذلك الخطرين التونسي والمغربي من جهة، والخطر الأوربي من جهة أخرى، وتخصيصا الخطر الاسباني انطلاقا من مدينة وهران المحتلة ولعل حملة شارلكانCharles Quint سنة 1541 دليلا على ذلك.

ونلاحظ أيضا أن الخندق قد صمم بطريقة ذكية تخدم مصالح المدينة من جهة والحكم العثماني من جهة أخرى، فهو مفقود على البحر، وفي المحيط الخارجي للمدينة، وذلك –حسب اعتقادي– من أجل تفادي عرقلة حركة الأشخاص والبضائع في البر والبحر.

وإذا كان الخندق يساعد على توفير الأمن والأمان لسكان مدينة الجزائر، فإنه في المقابل لا يسمح بتوسع عمراني داخل الأسوار، وهذا ما جعل السلطة الاستعمارية الفرنسية تردمه لفتح المجال للبناء السكني واستحداث الشوارع.

2-خطة الأبواب الخارجية للمدينة:

تذهب بعض الكتابات التاريخية الأوربية إلى أن المدينة الحديثة هي مدينة مغلقة بسورها، وفي حقيقة الأمر هي مدينة مفتوحة على العالم الريفي والخارج بأبوابها الرئيسية التي عادة ما تسمى بالأبواب الخارجية أو أبواب الأسوار.

ويتم تحديد وضعية الأبواب حسب تنظيم المدينة، وبفضل تموضعها ترسم الممرات الرئيسية التي تصل بين هذه الأبواب الخارجية، علما أن الممرات الرئيسية هي كذلك ممرات تجارية حيوية بالنسبة لسكان المدينة. وبالتالي لم توضع الأبواب الرئيسية لمدينة الجزائر المحروسة بطريقة ارتجالية بل وضعت على أساس العلاقة التي قد تكون بين المدينة كمركز اقتصادي والطرق الرئيسية خارج المدينة حيث أن الأبواب الخارجية تخدم حركة التجارة والنقل.(34)

لذلك حرصت الحكومة العثمانية المركزية بمدينة الجزائر على أن تكون حراسة الأبواب الرئيسية في غاية الأهمية، حيث يعزز كل باب بمركز حراسة على جانبيه، يراقب الضواحي والأماكن المجاورة، وكذا الداخلين إلى المدينة والخارجين منها باستمرار، بل ويجاوره حصن صغير أوبطارية مدفعية. وأشار عبد القادر حليمي إلى أن الأبواب الخارجية للمدينة هي أبواب خشبية، متقنة الصنع وكبيرة الحجم، مصفحة بالحديد وذات مصاريع حديدية تغلق بها قبيل غروب الشمس وتفتح بعيد طلوع الشمس.(35)

وأوكلت مهمة غلق الأبواب الخارجية إلى موظف من الحضر يدعى المزوار يساعده أوقاباشي ويسلم المفاتيح للباشا، ولا يسمح المزوار بفتح الأبواب مهما كانت الأحداث إلا في صبيحة الغد عند الشروق حيث يعود المزوار والأوقاباشي إلى الباشا لأخذ مفاتيح الأبواب، ويكلف حراس الأبواب باستخلاص رسوم الدخول إلى المدينة والخروج منها خاصة باب الجهاد في إطار سياسة تشجيع المنتوج المحلي وتقييد الصادرات الأوربية إلى مدينة الجزائر.

وكانت الأبواب الخارجية لا تفتح أيام الجمعة والأعياد الدينية إلا بعد صلاة الظهر حتى لا يستغل الأسرى المسيحيون فرصة انشغال المسلمين بأعيادهم ويفرون من أحد الأبواب خاصة باب الجهاد الذي ترسو بمقربة منه قوارب البحارة العثمانيين، أو لتفادي اضطرابات قد يشعل فتيلها الأسرى. (36)

وفيما يلي الأبواب الخارجية التي عرفتها مدينة الجزائر خلال الحقبة العثمانية نزولا من المرتفع إلى البحر:

***الباب الجديد:**

يقع الباب الجديد جنوب غرب المدينة، في السور الذي يربط المدينة بقلعتها، يدخله القادمون من الغرب ومن البليدة، وتتصل به الطريق الرئيسية المسماة طريق الباب الجديد، وذكر ديفولكس أن تسمية الباب الجديد يوحي أن تشييده كان بعد الأبواب الخارجية الآتي ذكرها، ونعتقد أن البوابة بنيت في إطار عملية توسيع المدينة في النصف الثاني من القرن السادس عشر أي في فترة بناء القصبة الجديدة. وأضاف أن الباب مجهز ببطارية بها تسع فوهات نارية ، يشرف عليها باش طبجي –أي رئيس المدفعية–(37)

وفي الحقيقة يوجد بمدخل الباب الجديد بابان متواليان أحدهما خارجي والآخر داخلي، كلاهما يقعان بالسور الخارجي للمدينة، أما السور الداخلي فليس له باب لأنه يتصل بالقلعة. ويبلغ عرض الباب الجديد، ثلاثة أمتار، مصنوع من الخشب الجيد، وبه صفائح حديدية، لكن رغم عرضه لا يمكن للعربات أن تجتازه لأن الأزقة المفتوحة على الباب ضيقة جدا، حيث يبلغ عرض الزقاق متران ونصف متر. (38)

وللإشارة نصبت بالباب الجديد ستة معاقيف حديدية لإعدام المجرمين وذلك منذ عهد الداي عمر باشا 1815-1817، ومنه دخل الجيش الفرنسي سنة 1830 إلى مدينة الجزائر، وتعرض للهدم سنة 1866. (39)

***باب عزون:**

يقع باب عزون في جنوب المدينة، ويسمى عادة الباب الجنوبي، وينسب إلى أمير موريطانيا الطنجية بشمال الجزائر والمغرب في العصر القديم المسمى عزون الذي دخل مدينة الجزائر من هذه الباب، لكننا نجهل تاريخ هجوم عزون على المدينة. وإذا كان باب عزون لا يتوفر على بطارية فإنه يوجد في خلفها بين السورين الداخلي والخارجي بطارية من خمسة مدافع. (40)

ويربط باب عزون، المدينة بالريف، فهو ممر مهم للتجار ومنها يخرج كل الناس الذين يتجهون إلى الريف ودواوير العرب والبربر، وإلى كل قرى وبايليكات الجزائر، ومنها تدخل كل البضائع والسلع العربية والبربرية من مختلف الجهات الجزائرية، لذا كانت هذه البوابة تعج بحركة الناس يوميا. ولمدخل عزون بابين للدخول المباشر، يقعان في السورين الداخلي والخارجي، ويتباعدان عن بعضهما البعض بمسافة اثنين وثلاثين مترا.

ولدخول المدينة من باب عزون، يتوجب على الداخل اجتياز جسر للمرور تحت قوس البوابة الأولى المبنية بين 1568 و 1574، والتي يقدر عرضها بثلاثة أمتار ونصف متر وتشغل ثلاثة

أمتار من سمك السور. وبين السورين الداخلي والخارجي، تتواجد في غرب البوابة الأولى هذه، زاوية سيدي منصور، وفي شرقها مركز مراقبة. أما البوابة الثانية فقد تنفتح على أربع حجرات تخترق السور الداخلي وتؤدي إلى ممر ينفتح على زنقة العسل، نسبة إلى فندق العسل. (41)

وباب عزون به ستة معاقيف حديدية مسخرة للإعدام مثبتة في السور، يلقى عليها من صدر بحقه الإعدام، وتم تخريب باب عزون سنة 1841 من قبل السلطة الاستعمارية واستبدلت بأبواب أخرى في نفس المكان. (42)

*__باب الجزيرة (الجهاد)__:

ينفتح هذا الباب على الميناء، ويقع بشرق المدينة ويتجه نحو الجزر الأربعة التي تم ربطها في عهد خير الدين، ومنه كان يخرج ويدخل، كل من له صلة بالبحر سواء من الصيادين أو العمال أو التجار أو البحارة المجاهدين، لهذا كان الباب عامرا بالحركة طوال اليوم.

وقد كان هذا الباب لإطلاله على البحر أشد الأبواب متانة ومناعة، وتجاوره عدة حصون بها سفرات انكشارية مزودة بمدافع، وهي حصون المول وبطارية الأندلس، وأيضا ثكنة يالي. (43)

وعرف عند الأوربيين باسم باب المول ثم باب الجمارك ثم باب البحرية، لكنه أصبح بعد 1830 يعرف باسم باب فرنسا إلى أن تم هدمه سنة 1870. أما الجزائريون فيعرفونه باسم: باب الجهاد وهو الاسم الغالب في معظم الكتابات والنصوص الرسمية، وباب الدزيرة أي الجزيرة، وباب المرسى. وبالتالي نلاحظ أن هذه الباب هو الرابطة الوحيدة بين المدينة والميناء، وكان في أول الباب، إيوان (قاعة) ومصطبة يقف عليها البواب الذي كان يراقب حركة المرور من الشروق إلى الغروب. (44)

*__باب البحر__:

تتميز هذه البوابة الواقعة بجنوب شرق المدينة، بصغر حجمها وتنفتح على البحر وموضوعة ضمن حائط جديد، وتسمى عادة باب الجمرك، نسبة لدار صغيرة كانت تجاوره، يتم فيها حشد التجار الأوربيين وبضائعهم لتفتيشها، ثم تسجل وتدون قبل الإذن لها بدخول بوابة أخرى تقع خلف باب البحر موضوعة ضمن حائط قديم البناء، تنفتح على المدينة وتفتح من الشروق إلى الغروب، ومن ثم توزيع بضائعهم على الأسواق. وفي القرن السابع عشر بني الجامع الجديد بين 1650 و 1663 واحتوى باب البحر الذي صار مجرد ممر متعرج، وعندئذ لم تعرف الفترة الأخيرة من عصر الدايات هذه الباب إطلاقا. وحملت بوابة البحر في أوائل الاحتلال

الفرنسي اسم بوابة الحواتين، لإطلالها على ساحل الحواتين، وكانت محروسة من قبل برج باب البحر. (45)

*باب الواد:

شيد الأتراك العثمانيون باب الواد في أوائل القرن السادس عشر، في شمال المدينة، ويطل هذا الباب على فحص باب الواد، وطريق جبل بوزريعة، وعلى ورشات اقتلاع الأحجار وكذا المقبرتين : مقبرة المسلمين، ومقبرة اليهود. وتسميته منسوبة إلى الواد الذي يمر بجانب الباب، وهو واد قريش أو واد المغاسل، وتجاورها طبانة (بطارية مدفعية) الحمام المالح، ذات الأربع فوهات. وقد استبدل باب الواد بباب آخر أكبر منه حجما سنة 1841، ليخرب سنة 1846.(46)

وبناء على ما تقدم نستخلص أن الأبواب الخارجية هي كلها من وضع الأتراك العثمانيين خلال القرن السادس عشر والتي استمرت، ماعدا باب البحر،(47) إلى غاية الاحتلال الفرنسي، وقد أولاها الحكام العثمانيون عناية خاصة سواء من حيث تجهيزها بالمدافع أو المراقبة المستمرة من قبل جهاز إداري يشرف عليه المزوار، لأن أهميتها الحضرية بالغة فهي تلعب دورا دفاعيا وتجاريا ومروريا، وهذا ما يفقده الوسط الريفي من دواوير وقرى.

3-خطة الأحياء السكنية:

تم تخطيط الأحياء السكنية (48) بمدينة الجزائر في المنطقتين: الوسطى المجاورة للمركز العمراني، والمرتفعة البعيدة نسبيا عن المركز، ويقصد بها أحياء مخصصة للإسكان بالدرجة الأولى، وأي نشاط اقتصادي أو إداري أو ثقافي بهذه الأحياء، لا يعدو أن يكون نشاطا ثانويا، فقد نجد مثلا مجموعة من الحوانيت وسويقة (سوق صغيرة) في كل حي سكني تلبي الحاجيات الاستهلاكية لسكان الحي بالأساس، أما الأسواق المتخصصة والكبرى، فهي موجودة بالمركز الحضري للمدينة.

وتتكون الأحياء من طرق متتالية، تبدأ من الطرق الرئيسية إلى الأزقة الضيقة، بمقاس عرض جمل، والسكك المسدودة النهاية، وتجدها متقاطعة وبها أبواب، وتختلف الأحياء السكنية عن بعضها البعض من حيث عدد منازلها وأزقته ومساجدها ومرافقها العامة مثل الحمامات وأفران الخبز والطاحونات والعيون المائية وغيرها، وعادة ما يفصل بين الحيين السكنيين بنايات قد تكون منازل، مما يصعب تحديد حدود كل حي سكني وحساب عدد أحياء المدينة.(49)

وقد يكون الحي بكامله تسكنه طائفة سكانية متميزة بأصولها العرقية وانتماءاتها الدينية، وقد لا يكون ذلك حيث نجد في حالة مدينة الجزائر عدة أحياء تسكنها طائفة متميزة لكنها تحتكر زقاقا معينا من كل حي مثل ما هو حاصل مع الطائفة اليهودية على سبيل المثال. (50)

وما يجعل موضوع أحياء مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني غامضا، هو عمليات الهدم والتعديلات المعمارية التي استحدثها الفرنسيون في أوائل عهدهم بالمدينة لأغراض عسكرية، مما صعب على الباحثين في موضوع مدينة الجزائر معرفة المحيط الذي أقيمت عليه الأحياء وعدم التوصل إلى فهم تنظيمها ووظائفها(51).

وفي مجال دراسة الوثائق المتعلقة بخطط مدينة الجزائر العثمانية نلاحظ أن ديفولكس الذي اهتم بها كثيرا، قد وجد أن الأحياء تحمل أسماء تنسب لمعالم عمرانية مثل أبواب المدينة، الحدائق، الجوامع، الأضرحة والزوايا، ممرات...أو مرافق عامة مثل العيون المائية، محلات تجارية، حمامات، أفران خبز، ورشات حرفية، أسواق...أو أعلام مشهورة بالمدينة مثل سيدي محمد الشريف، سيدي علي الفاسي وغيرهم، والملحق رقم الثاني يرصد أسماء الحومات التي استقيناها من أعمال ألبير ديفولكس.

وما نلفت الإنتباه إليه أن هذا الجدول الخاص بأسماء حومات مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني هو جدول نسبي، لأن الحومات عبر العهد العثماني، قد اندثر بعضها، والبعض الآخر تبدلت تسميته مثل حومة دار الذهب كانت تسمى سابقا حومة البطحاء، وحومة الحدادين تحولت إلى حومة الثعالبة، وحومة السمارين تحولت إلى حومة ماسينيسا، وأحياء لم تكتف بتسمية واحدة في فترة واحدة، وأحياء أخرى ليس لها أسماء أصلا إلى أن وضع لها الفرنسيون أسماء في أوائل الاحتلال.

وعند الحديث عن مستويات الأحياء السكنية اجتماعيا واقتصاديا والتي تبدأ في الامتداد ابتداء من المركز الحضري، فقد أفادتنا الدراسات التاريخية أنها على مستويين أو صنفين:

الصنف الأول، ممثل في الأحياء التجارية التي تحيط وتقترب من مركز المدينة وهي عادة أحياء البرجوازيين من الحرفيين والتجار الباعة الذين يفضلون الإقامة قرب أماكن نشاطهم في مركز المدينة، وأيضا عائلات العلماء الفقهاء التي تفضل الاقتراب من الجامع الكبير الذي يعد الرمز الديني للمدينة، وعادة ما تحمل الأحياء التجارية أسماء أسواق وحرف أو مباني دينية. (52)

أما الصنف الثاني، فيتمثل في الأحياء الكادحة التي تبتعد عن مركز المدينة، مما جعل ساكنيها يفتحون حوانيت، بها المواد الغذائية الضرورية ويستحدثون سويقة غير متخصصة فيما تعرضه من سلع حيث يباع فيها الزيت والسمن والخضر والفواكه، كما يوجد أفران خبز،

وكثيرا ما تحمل الأحياء الفقيرة أسماء كوشات وحوانيت. وفيما يلي عرض مختصر لخطة الأحياء السكنية بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني :

أ-ممرات الأحياء السكنية:

تعد دراسة خطة الطرقات والأزقة بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني من الدراسات الصعبة بل والمستحيلة نظرا للاعتبارات التالية:

-لم يضع الحكام العثمانيون بمدينة الجزائر مخططات لطرقات وأزقة المدينة عبر فترات حكمهم (16-19م).

-غياب تسميات للعديد من الممرات بالمدينة.

-كانت بعض الممرات تحمل تسميتين في آن واحد، تسمية لجزئها العلوي، وتسمية أخرى لجزئها السفلي.

-تغير تسميات العديد من الممرات بداخل المدينة عبر فترات الحكم العثماني، في ضوء التعديلات المعمارية الحاصلة.

-التدخل الصارخ لسلطات الاحتلال الفرنسي في الشبكة المرورية بغرض تسهيل حركة الجيش داخل المدينة وتمكينه من مراقبة السكان، حيث حولت بعض الطرقات إلى ساحات، كما استغلت البعض الآخر في تشييد بنايات معينة...ناهيك عن التسميات الجديدة التي وضعها الفرنسيون لمعظم الطرقات والأزقة. (53)

وتتميز طرقات وأزقة مدينة الجزائر بجملة من الخصائص مثلها مثل المدينة في العالم العربي نذكرها ونعللها كالآتي:

-طرقات وأزقة ضيقة:

لقد خططت على أن يكون عرضها لا يتجاوز تقاطع جملين،(54) وهي تسمح عندئذ لمرور الدواب فقط لا العربات، ورغم ضيقها فإن المتجول عبرها يصادف في طريقه مقاعد أمام أبواب الحوانيت، مما يزيد في ضيق الطرقات والأزقة التي تصطف على جانبيها هذه الحوانيت والدكاكين.

وقد تساءل الباحثون المهتمون بتاريخ المدينة العربية الإسلامية عن مغزى ضيق ممرات المدينة العربية التقليدية، فطرحوا جملة من الفرضيات تتعلق أولا بشخصية العرب المسلمين ونفورهم من الفضاء الواسع، وثانيا وجود قوانين إسلامية فقهية تخطط للصورة الطبوغرافية للمدينة الإسلامية.(55)

وأعتقد أن ضيق ممرات المدينة الجزائرية الحديثة عموما تفرضه ضرورة العصر نشخصها في الاعتبارات التالية:

-يحكم المدينة الحديثة في الجزائر أسوار محيطة بها من جميع الجهات تجعلها تظهر كمدينة مغلقة لولا وجود الأبواب الخارجية، وعندئذ تبقى معادلة استغلال الأرض داخل الأسوار معادلة صعبة.

- لم يعرف سكان المدن الجزائرية الحديثة مراكب وعربات واسعة تستدعي طرقا واسعة، فكل ما يمر عبر الطرق داخل المدينة هم الأشخاص والعربات الصغيرة والدواب.

-تفعيل مقاومة السكان في الطرقات والأزقة الضيقة إذا ما تغلغل العدو داخل المدينة.

-أزقة متداخلة ومتقاطعة وغير منظمة:

ونجد هذه الصورة الطوبوغرافية للطرق والأزقة في المنطقة المرتفعة دون السهلية، ووظيفتها لا تعدو تسهيل مرور الناس إلى منازلهم، وهي متصلة مع الطرق الرئيسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهي طريق باب الجديد الذي تنبثق منه طرقات وأزقة عديدة، وتتصل بطريق باب الجزيرة، كما يوجد طريقين هما أفضل السبل للوصول إلى المرتفع بمدينة الجزائر، وهما الطريق الواصل بين الوطاء والقلعة، والطريق الواصل بين الباب الجديد وباب الجزيرة.

-أزقة متعرجة:

أي غير مستقيمة ومتزنة وهذا النوع نجده بمرتفع مدينة الجزائر حيث تذكر الوثائق وجود طريق يسمى سبع لويات (سبع منعرجات).

-أزقة مسدودة النهاية:

لاحظ ريمون أن الأزقة المسدودة النهاية هي مرآة عاكسة لفوضى العمران، وتعتبر أزقة خاصة لأنه لا يسلكها سوى ساكنيها عكس الطريق التي يسلكها عامة الناس، وهي عادة ما تسمى بالسكك المسدودة وتختلف نسبتها بين الأحياء التجارية بالمنطقة الواطئة والأحياء الشعبية بالمنطقة المرتفعة، ففي الحالة الأولى تقدر نسبة السكك المسدودة النهاية بـــ24.5 % من مجموع ممرات المدينة، وتقدر في الحالة الثانية بـــ59.9% من مجموع ممرات المدينة.(56)

-ممرات بأسماء غير ثابتة:

تستمد الممرات بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني أسماءها من منشآت دينية (جوامع ومساجد وزوايا) أومن مرافق عامة (حمامات، مقاهي، عيون طاحونات، أفران، فنادق) أومن السور، أومن أبواب المدينة، أومن مترل لشخص مشهور في المدينة، أومن سوق، أو من ساحة.

وكل هذه العناصر المعمارية غير ثابتة لأنها معرضة للانهيار أو الهدم أو التعديل، وبالتالي إذا لم يبق المعلم المعماري ثابتا فسيتبعه تغيير اسم الزنقة أو الطريق، والأصعب من ذلك عندما نجد عدة أزقة تحمل اسما واحدا فمثلا هناك سبعة أزقة تم تسميتها بسيدي رمضان أي جامع سيدي رمضان بالقصبة القديمة، إلى أن وضع الفرنسيون لكل زنقة اسما.

وإذا كان رجل الحضارة الغربية يرى أن شبكة الطرقات والأزقة تعكس فوضى العمران إلا أن المخطط العربي المسلم يرى أن في ضيق الطرقات والأزقة ما يبعث على المودة بين العائلات ويحافظ عليها، وتعرج الأزقة بالمنطقة المرتفعة للمدينة يمنع الرياح من حمل الغبار بين أفنية المساكن، وانسداد الأزقة يحافظ على حرمة المنازل وعائلاتها.

ب–ساحات الأحياء السكنية:

توفرت مدينة الجزائر داخل أسوارها على ساحات عامة تحيط بها البنايات، سمتها المصادر بالرحبات، ونعتقد أن هذه الأخيرة هي في الأساس ممرات واسعة تعج بحركة الناس، بغض النظر عن دورها التجاري الخدماتي، والإعلامي، (57)بل وحتى ساحات يلعب فيها أطفال المدينة. وكثير من الباحثين يعتبرون ساحات مدينة الجزائر أسواقا تجارية مفتوحة، يرتادها السكان للبيع والشراء، ويمكن تسميتها اعتمادا على ما كتبه ديفولكس:

–رحبة موقف العربات والدواب.

–بطحاء القصبة (الرحبة القديمة).

–طحطاحة القصبة الجديدة.

–رحبة باب عزون.

–رحبة القمح.

–رحبة الحوت.

–رحبة دار الدباغ.

–رحبة مجهولة الاسم سميت في العهد الفرنسي بساحة ماهون Mahon (58)

ت–منازل الأحياء السكنية.

أفادت الدراسات التاريخية تطور عدد المساكن بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني بين التصاعد والتراجع، ولكل حالة أسبابها الخاصة بها، لكن تراوح عددها في الفترة الأخيرة من عصر الدايات حسب وليام شالر بين ثمانية وعشرة آلاف مسكن. وخضع نمط المساكن، لفضاء المدينة ومحيطها الداخلي الثابت حيث أصبحت تبنى على نمط الطوابق، فابتدأت أولا بطابق واحد

أرضي، ثم تطورت إلى طابقين أرضـــي وعلوي، بسبب الزلازل التي منعـــت بناء مسكن يتعدى طابـــقين. (59)

وأشار أبو القاسم سعد الله إلى ازدحام المساكن داخل أسوار المدينة، حتى أن سقوفها متقاربة إلى حد يمنع شعاع الشمس من الدخول إليها، كما يمكن للمرء أن يقفز من سقف مترل إلى سقف مترل مجاور دون عناء. (60)

ولاحظ فون مالتسان هاينريش Heinrish – الرحالة الألماني في منتصف القرن التاسع عشر – انغلاق مساكن مدينة الجزائر عن العالم الخارجي أي الطرقات والأزقة،(61)

وذكر حليمي عبد القادر طغيانها على الأزقة الضيقة، مما يفسر غياب العلاقة بين المسكن والنهج بسبب حرية البناء وعدم تدخل الإدارة في تحديد ارتفاع واتساع المترل وكذا اتساع النهج.(62)

وكانت مساكن المدينة متماثلة ومتشابهة سواء مساكن البرجوازيين أو البسطاء، وسواء مساكن كبيرة أو مساكن صغيرة، يحكمها العرف الذي تناقله البناءون عبر تعاقب الأجيال، فكلها ذات مخطط هندسي واحد، وتصميم معماري بسيط، تبرز فيه السقيفة التي يتحادث فيها الرجال مع جيرانهم، والساحة الداخلية غير المغطاة كمصدر للنور في المسكن، كما أن تصميم المسكن يسمح بمرور أفراده والتحرك بداخله بحرية. كما كان لكل مترل في الغالب بئر مائية، ومن المساكن ما كان بها صهاريج مبنية بالطين والرمل لتخزين الماء، وهذا لا يعني أن المساكن لا تزود بالماء عبر القنوات والعيون المائية، فعادة ماء البئر غير صالح للشرب.

وكانت مواد البناء للمساكن تتمثل في الآجر والحجارة المربعة الشكل، وطلاؤها الداخلي مشابه لطلائها الخارجي، وعادة ما يكون طلاءً أبيضا، وسقف المساكن مسطحا ومبلطا، والرواق له نوافذ صغيرة تطل على الطريق، وتسنده عقود دالة على وجود غرف بها أبواب على مقاس ارتفاع الرواق، وطويلة وضيقة، وتجعل منها الجدران الداخلية غرفا صغيرة المساحة، ولكل غرفة نافذة صغيرة مسيجة بالحديد، وتأخذ غرف الطابق الأرضي نفس تصميم غرف الطابق العلوي لكن تختلف عن بعضها البعض من حيث الغرض الوظيفي، فغرف الطابق الأرضي للمترل البرجوازي عادة ما تكون عبارة عن مخازن سكنية ومحلات تجارية، وسكنات للعبيد إذا كان سيد المترل يملك عبيدا وإماء، أما غرف الطابق العلوي فهي غرف مخصصة لسيد المترل وحريمه وأولاده. وفي أعلى الطابق توجد الشرفة التي تستغلها النسوة لزيارة الجيران بعد اجتياز سلم مخصص لذلك أو للتحدث إليهم أو لتجفيف الألبسة المغسولة.(63)

وبشأن الجمال الزخـــرفي وتناسقه، بمنـــازل البرجوازيين فقد ذكـــر هاينريش ما نصه: " مدخلها مزخرف بالمرمر...بهوها مقبب ذي أعمدة خاص باستقبال الرجال، سلمها مزخرف

بالخزف، رواقها بالطابق الأول يحيط به بهو الأعمدة، التي بها ثلاثة أقواس في كل الجهات الأربع..." (64)

ومن القصور والفيلات الجميلة التي ذكرها ديفولكس والموزعة عبر أحياء مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني هي:

-قصر بوشناق-قصر بن زحوط باكري-قصر القنصل الدانماركي-دار النصارى-دار السبوعة-دار بوهراوة-دار الرياض- دار مونتشاشو- دار الوكريف-دار النخلة-دار أوزن محمد- دار محمد رايس السنباكي- دار أوسطه والي- دار الذهب- دار باي روحو- دار بن جلاتي- دار الباشا مراد- دار الرايس ميزومورطو-دار الحاج ابراهيم-دار الحاج مصطفى العلج-دار الحاج أحمد باي-دار الحاج عمر- الدار الحمراء- دار البلكباشي- دار المقاطعجي- دار علي تاتار- دار أحمد خوجة القصر.

ث-أبواب الأحياء السكنية:

من خلال استقرائنا للمادة التاريخية حول مدينة الجزائر، نلاحظ أنه كانت هناك أبواب في الأحياء السكنية، وتحديدا في فوهات الأزقة الداخلية، وذلك قبل 1817، حيث بعد انتقال مقر الحكم إلى القصبة الجديدة تم انتزاع هذه البوابات من الأحياء باستثناء الأحياء التي تتوفر على منشآت معمارية حكومية يتوجب مراقبتها وحمايتها مثل مخازن البارود والأسلحة وغيرها، وهو ما نجده بالحي الرسمي "القصبة" الذي أصبح يتوفر على بابين صغيرين يتجهان نحو الجنوب الغربي للمدينة، الأول مخصص لمرور العامة، والثاني لجنود حصن القصبة، وكلاهما ينفتحان على داخل المدينة لا خارجها حسب ديفولكس للاعتبارات الأمنية، السالفة الذكر.(65)

وذكرت الباحثة ميسوم سكينة أن كل طرقات وأزقة المدينة، لها أبواب، ابتداء من الربع الأول من القرن السابع عشر باستثناء الطرق الرئيسية الطويلة في المنطقة التجارية السهلية وهي : طريق باب الجزيرة، طريق باب عزون، وطريق باب الواد. وتغلق بوابات الأحياء عند سماع البوق بمكان يسمى قطع الرجل (عند غروب الشمس) وتفتح عند شروقها بهدف تفويت الفرص على لصوص المدينة، وحتى وإن حدثت أعمال سرقة التي غالبا ما تقع ليلا في ظل غياب الإنارة العمومية للطرقات والأزقة، يمكن القبض على السارق الذي يستعصى عليه الهروب أمام أبواب مغلقة للطرق، وخروج جميع ساكني الطريق إلى سطوحهم وشرفاتهم فور سماع نداء النجدة. (66)

4-المباني الحكومية:

أ-ثكنات الجيش الإنكشاري:

من أجل إسكان الفرق الإنكشارية التي وصل عددها إلى خمسة عشر ألف إنكشاري خلال القرن السابع عشر، تم بناء سبع ثكنات بمدينة الجزائر، تتركز كلها بالمركز الحضري للمدينة وتحديدا بضواحي البابين الاستراتيجيين اللذان يشتهران بحيويتهما المرورية والتجارية وهما: باب عزون الذي يتصل بداخل البلاد وباب الجزيرة الذي يتفتح على العالم الخارجي، وسر تركيز الثكنات في منطقة واحدة داخل المدينة كان بدافع توطيد التضامن والصداقة بين الجنود الإنكشاريين.(67)

وأشارت الكتابات التاريخية أن ثكنات مدينة الجزائر قد حظيت بالاهتمام والعناية، وأنها كانت في غاية الإتقان والجمال الهندسي،(68) وتجسدت فيها مظاهر الأبهة المتمثلة في الزخارف والرخام الغالي الثمن وقتذاك، والنقوش المكتوبة بدقة وإتقان، حتى أن الزوار الأوربيين قد أعجبوا بمظهرها وقارنوها بثكنات جيوشهم التي كانت متواضعة مقارنة بثكنات مدينة الجزائر.

كانت الثكنات بالمدينة العاصمة، عالية البناء، بها طابقين أرضي وعلوي، في كل طابق حجرات مزينة بشكل يثير الإعجاب،(69) وتلحق بكل حجرة، غرفة للطبخ، وتحمل كل حجرة رقما واسما لشخصية إنكشارية كما وجدت في بعض الثكنات حجرة رئيسية لعلها كانت إقامة لضباط الجيش.

وتتوسط كل ثكنة ساحة واسعة، في وسطها نافورة ماء يستعملها الجنود للنظافة والوضوء، وفي كل ثكنة مسجد بدون مئذنة، وإمام، يؤم الجنود في الصلاة، في مواقيتها، والثكنات، هي في غاية النظافة حيث كان يسهر على ذلك الأسرى المسيحيون، بما يقومون به من غسيل وكنس وغير ذلك من أشكال التنظيف مما أعطى لكل ثكنة حرمة خاصة. (70)

وفيما يلي تعريفا بالثكنات السبع الموزعة بمدينة الجزائر:

***ثكنة المقرئين:**

تقع هذه الثكنة على الشاطئ بين باب الجزيرة وباب الواد، بحومة قاع السور، وتتموضع على هامش مركز المدينة وبلغ عدد جنودها حوالي تسعمائة رجل موزعين على سبع وعشرين غرفة، ويظهر أنها كانت مأوى للأتراك المتقاعدين الذين لم يرغبوا في الزواج بنساء المدينة.

ويعود تاريخ بنائها إلى عهد علج علي باشا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وسميت بثكنة المقرئين نسبة إلى الجنود الذين كانوا يرتلون القرآن بمسجد الداي عبدي باشا

المجاور للثكنة خلال المواسم الدينية، أو أن حومة قاع السور البحرية كانت مركزا لأهل العلم والموظفين.(71)

***ثكنة باب عزون:**

استنتج ديفولكس أن الثكنة بنبت سنة 958هـ/1551-1552م على يد الباشا حسن بن خير الدين، وتكمن أهمية هذه الثكنة أن كثيرا من العساكر الذين سكنوها تقلدوا وظائف عليا في الدولة، حيث عثر على غرف تحمل أسماء شخصيات حكومية بارزة مثل الداي حسين باشا وآغا العرب ابراهيم... وبالتالي هي ثكنة السلطة السياسية، وكان يسكن بالثكنة 1661 رجلا موزعون على ثمان وعشرين غرفة.

***ثكنة الخراطين:**

تقع بسوق الخراطين، وهي من أوسع ثكنات المدينة وذات أهمية سياسية إذ كانت وكرا للمعارضين لسياسات الدايات، ومصدرا للعمليات الانقلابية، وقد كانت تتنافس على السلطة مع قرينتها ثكنة باب عزون.

وتشير الدراسات التاريخية أن ثكنة الخراطين هي في الحقيقة مجموع ثكنتين: ثكنة علي باشا التي تضم ستة وعشرون غرفة يسكنها 1266 رجلا، وثكنة صالح باشا التي تشتمل هي الأخرى على ست وعشرون غرفة يسكنها 1516 رجلا، وعندئذ يصير مجموع عساكر ثكنة الخراطين 2782. (72)

وإذا كان ديفولكس يجهل تاريخ بنائهما وتاريخ التحامهما، فإن الباحثة سكينة ميسوم قد ذكرت أن خير الدين هو الذي بنى الثكنتين قبل سنة 1533م، وأن صالح باشا، وعلي باشا ما هما إلا مرممين ومجددين للثكنتين. (73)

لكن ترى لجنة الجزائر القديمة أن خير الدين شرع في بناء الثكنتين، ومحمد باشا، وعلي باشا، وبابا علي، واصلوا البناء. (74)

***الثكنة القديمة الفوقانية:**

تقع أعلى ثكنة الخراطين، ويعود تاريخ بنائها إلى القرن السابع عشر، ورممت مرتين: سنة 1750، وسنة 1791، بها واحد وثلاثون غرفة يسكنها 1089 رجلا.

***الثكنة الجديدة التحتانية:**

تفصلها عن الثكنة القديمة بنايات، بنيت سنة 1037هـ/1627-1628، وتضم الثكنة الجديدة تسع وعشرون غرفة يسكنها 856 رجلا.

***ثكنة أوسطى موسى:**

تقع قرب باب الجزيرة، نسبت إلى مصممها أوسطى موسى، في القرن السابع عشر، وتوفرت بها واحد وثلاثين غرفة يقيم بها 1833 رجلا.

***ثكنة الدرج:**

تقع على شارع باب الجزيرة، وهي أحدث وأصغر ثكنة بالمدينة مع قلة أهميتها في مجال التنافس مع الثكنات الأخرى على السلطة، وقد سميت بثكنة الدرج لأن مدخلها يقع عند نهاية الدرج، وبها خمسة عشر غرفة تأوي 602 انكشاري.(75)

وبناء على ما تقدم، يظهر لنا جليا أن الثكنات السبع تشكل دائرة أو حزاما عسكريا، استوعبت حوالي 9723 انكشاري وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع عدد سكان المدينة الذي قد يصل إلى ثلاثين أو أربعين ألف نسمة في أواخر العهد العثماني، وبالتالي جاءت الثكنات كتخطيط عمراني لاستيعاب هذا الحجم البشري من العساكر الذي تركز بمدينة الجزائر باعتبارها عاصمة للبلاد الجزائرية خلال العهد العثماني، بل وسنرى أن هذه الثكنات لم تكن كافية للإسكان العسكري وسيتجه التخطيط الحكومي وقتذاك إلى الاستعانة بالفنادق الموجودة بالمركز الحضري، أضف إلى ذلك أن الإنكشاريين العوانس، ظلت إقامتهم بعيدة عن الأحياء السكنية الشعبية في المنطقة المرتفعة من المدينة إلا من اختار الزواج بإمرأة حضرية واندمج في حياة التجمعات السكنية الحضرية السابق ذكرها. (76)

ب-السجون والتبارن (الزندانات):

السجون هي أحد الأدوات العقابية التي أقرها القضاء العثماني الإسلامي، وعادة ما كان عقابا مخيفا بالنسبة للجاني من أصل حضري لأنه يبعده عن عائلته ويصادر حريته، أما الزندانات فهي سجون مخصصة للعبيد المسيحيين، وكان ديفولكس ألبير ولجنة الجزائر القديمة، مصدرينا في توضيح السجون والزندانات، وهي كالآتي:

***السجون المخصصة للمدنيين:**

وهي صنفان، سجون خاصة بالنساء، وسجون خاصة بالرجال، فأما النساء فخصص لهن سجنان هما:

-سجن شيخ البلد ملحق بمقره.

-سجن المزوار وهو خاص بالنساء، بائعات الهوى.

أما الرجال فخصص لهم سجن يدعى سجن الآغا.

***السجون المخصصة للانكشاريين:**

كان هناك سجن مخصص للانكشاريين يدعى دار سركاجي بمعنى السجن الواقع بالقرب من دار الخل، وكان يشنق فيه الانكشاريون المتمردون أو المخلون بالأمن العام، و لم يكن شنقهم في الساحات العمومية. وفي 1817، عندما تم تحويل مقر الحكم إلى القصبة العليا، اختير مكان آخر للسجن.

***السجون والتبارن (الزندانات) المخصصة للعبيد المسيحيين:**

-تبرنة باب الواد.

-تبارن بن الآغا.

-تبارن سيدي والي دادة، الذي ألحق بجامع كتشاوة عند إعادة بنائه سنة 1795م.

-تبرنة عرباجي.

-زنداتين قرب البطحاء.

-سبع تبارن.

-تبارن البايليك بطريق باب عزون.

-تبارن السبيطار سنة 1814.

-سجن سيدي حسن.

-سجن الكراغلة.

-سجن علي مامي.

-سجن علي بتشين

-سجن شلبي.

وقد وصفت اللجنة الفرنسية للجزائر القديمة وضعية تبارن البايليك المذكور وكذا معاملة العسكر للأسرى السجناء، بقولها أن التبارن أو السجن به رواق مظلم وخزان ماء للمساجين، ونوافذ السجن مفتوحة على الدوام بغية تنقية الهواء، لكنها تجعل السجناء في فصل الشتاء عرضة للبرد والمطر. ويأوي السجناء المسيحيين إلى السجن بعد إنهاء عملهم وهم مكبلين بالقيود، وكانوا ينامون أرضا على بطائن الأغنام، وكل أسير له رغيفين من الزرع، إلا أنه لأتفه الأسباب يتعرض الأسير السجين للضرب، وإذا حاول الفرار فتقيد يداه من الخلف ويساق إلى الميناء ويضرب خمسين ضربة، وعادة ما يفقد وعيه في الضربة الأربعين إلى الخمسين، وربما يموت.

وفي مقابل هذه الصورة القاتمة لوضعية الأسرى المسيحيين بسجون الجزائر العثمانية، تذكر اللجنة أنه ببعض سجون الأسرى توجد مستشفيات(77) تمولها الدول الأوربية سنويا بقيمة

ألفي بياستر، وكل سفينة تابعة لدولة نصرانية تدفع ثلاثة بياستر لصالح هذه المستشفيات، وكل نصراني يغادر مدينة الجزائر يدفع لصندوق المستشفيات المسيحية ثلاثة ريالات فضية. أضف على ذلك أنه توجد بتبارن البايليك كنيسة كاثوليكية، وبالتالي نلاحظ أن حكومة الجزائر العثمانية قد أذنت للأسير المسيحي بالاستفادة من العناية الصحية وممارسة طقوسه الدينية المسيحية .[78]

ت–مخازن البايليك:

–مخزن البارود وقد انفجر سنة 1686.

–مخزن الزرع.

–مخزن العسل.

–مخزن لمستلزمات البواخر والسفن بعد أن كان دارا جميلة للداي أحمد باشا.

–مخزن لأغراض البايليك بدءا من 1817، حيث كان سابقا قصر عزيزة.

–مخزن دار الخل.

–المخازن الكبيرة التي بنيت سنة 1557.

–مخازن في يد الحرارين.

ث–المقرات الإدارية

–مقر شيخ البلد.

–مقر خوجة مخزن الزرع بمكان المخزن.

–مقر آغا الصبايحية.

–مكاتب الهيئات الحكومية بطحطاحة القصبة مثل:

*مكتب قائد الفحص.

*مكتب قائد سيباو.

*مكتب وكيل باي الشرق.

*مكتب وكيل باي الغرب.

*مكتب وكيل باي التيتري.

–مقر خوجة الخيل ومساعديه.

–مقر قائد العيون ومساعديه.

–مقر المحتسب بسوق الديوان.

–مقر الوزان بسوق اللحامين.

-مقر الشواش.

-مقر الباش جراح وهو طبيب الجيش الانكشاري.

-مقر خوجة الغنائم بالبادستان أو سوق العبيد.

-مقر شركة أوقاف الحرمين.

-مقر شركة أوقاف سبل الخيرات.

-مقر خوجة باش شواش (رئيس كتاب الشرطة).

-مقر بيت المالجي.

-مقر قائد الوصفان (العبيد).

ج-المحاكم:

تواجدت بمدينة الجزائر طيلة العهد العثماني، محكمتان، تقعان بالقصبة، إحداهما تمثل المذهب الحنفي والأخرى تمثل المذهب المالكي، ولكل منهما قاضيها الخاص، ولكل منهما متقاضيها حسب الانتماء المذهبي.

وتفتح المحكمة أبوابها كل يوم، عدا يوم الخميس، وتعالج المحاكم، قضايا البيع والأحباس والمواريث، والقضايا التي لا تسمح بالتأخير كالخصومات الحادة. (79)

وقد ذكر ديفولكس محكمة القاضي المالكي، الواقعة بطريق باب الواد والمجاورة لزاوية القاضي المالكي ومسجد بن كمخة . (80)

5-المباني الدينية والثقافية بالأحياء السكنية:

كانت المعاهد الدينية موزعة توزيعا منسقا عبر أحياء مدينة الجزائر، وقد أحصى ديفولكس ثلاثة عشر جامعا، ومائة وتسعة مساجد صغيرة واثني عشر زاوية، ولكن هذه الأرقام تشمل أيضا المعاهد التي كانت خارج أسوار المدينة. لهذا فرض علينا موضوعنا أن نميز بين المباني الدينية الثقافية المنتشرة بداخل أسوار المدينة، و تلك الموجودة بفحص المدينة، وتبقى الكتاتيب غائبة في الكتابات التاريخية سواء من حيث عددها أو توزيعها.

أ-الجوامع:

***جامع علي بتشين:** يقع هذا الجامع بزاوية طريق باب الواد وطريق القصبة، بناه الرايس علي بتشين، سنة 1032هـ/1622-1623م، قدرت مساحته بخمسمائة متر مربع، ويصل ارتفاع مئذنته إلى خمسة عشر مترا وبجواره عين مائية تسمى عين الشارع، نسبة إلى شارع باب الواد، ويوجد بواجهته المقابلة لطريق باب الواد، سبعة دكاكين، وبواجهته المقابلة لطريق القصبة فيوجد

تسعة دكاكين. وقد تحول الجامع في العهد الفرنسي إلى كنيسة، وهدمت مئذنته سنة 1860.(81)

*__جامع عبدي باشا__: بناه الداي عبدي باشا سنة 1138هـ/1725-1726م، قرب ثكنة المقرئين، المجاورة لباب الجهاد أو الجزيرة، ومئذنته مثمنة الأضلاع، وقد ألحقت به مدرسة بناها الداي محمد بن بكير سنة 1152هـ/1748-1749م، وقد أدرج ضمن مصالح الجيش الفرنسي بعد 1830.(82)

*__جامع القشاش__: هو أقدم الجوامع بمدينة الجزائر، العائدة إلى فترة ما قبل دخول الأتراك العثمانيين، وظهر اسم القشاش -الذي نعتقد أنه الرجل الذي أعاد بناءه أو توسيعه- في بداية القرن السابع عشر وكان قبل ذلك يسمى الجامع القديم، ويقع الجامع بحي الجامع الكبير، على طريق القناصل، ومئذنته مربعة الشكل، وقد استخدم من قبل السلطة الاستعمارية كمخزن لأسرة الجيش ثم المخزن المركزي للمستشفيات.(83)

*__جامع باب الجزيرة (أو جامع شعبان خوجة)__: يقع هذا الجامع الحنفي في الزاوية بين طريق القناصل وطريق البحرية، بناه الداي الحاج شعبان خوجة، سنة 1105هـ/1693-1694م، ووسعه الداي حسن بن حسين سنة 1209هـ/1795-1796م. وقد ألحق بالجامع مدرسة لتعليم الشباب التركي العثماني. (84)

*__جامع كتشاوة__: يقع هذا الجامع الحنفي الذي أعجب ديفولكس بهندسته وزخرفته من الداخل والخارج، على طريق الديوان بحي كجاوة، ورغم أن الداي حسن باشا قد أعاد بناءه سنة 1209هـ/ 1794-1795م على نمط جامع السيدة الحنفي، فلم يسم باسمه واحتفظت الوثائق والذاكرة الشعبية باسم كتشاوة، إلى غاية سيطرة الفرنسيين على المدينة وتحويل الجامع إلى كاتدرائية كاثوليكية في السنوات الأولى من الاحتلال.(85)

*__جامع خضر باشا__: بني هذا الجامع على أنقاض مسجد صغير سنة 1005هـ/96-1597م على يد خضر باشا الذي حكم الجزائر ثلاث مرات (1589-1592)، (1595-1596)، (1601-1603). ويقع الجامع بحومة السكاكين أو حومة الخراطين فيما بعد، وورد أن مدرسة بناها الحاج مصطفى بولكباشي بن محمد التركي، ملاصقة لجامع خضر باشا سميت باسمه، وقد هدم الجامع والمدرسة سنة 1836م.(86)

*__جامع ميزومورطو__: هو جامع كبير به مئذنة وقبة كبيرة، يقع بطريق باب عزون، بني حوالي سنة 1097هـ/85-1686م، من طرف الحاج حسين باشا، أحد الأعلاج الايطاليين الملقب

بميزومورطو، ويضم الجامع نافورات مائية ومراحيض وحجرة يقصدها الفقراء للاغتسال بالماء البارد، ويجاور الجامع مدرسة لتعليم المذهب الحنفي، وقد هدم في أوائل الاحتلال.(87)

***جامع سيدي رمضان** (**أو جامع القصبة القديمة**): يقع بالمنطقة المرتفعة لمدينة الجزائر، بزنقة سيدي رمضان، بمكان القصبة القديمة العائدة إلى العهد البربري، وبني الجامع قبل مجيء الأتراك العثمانيين وتوسيعهم للمدينة في القرن السادس عشر. وبجامع سيدي رمضان، باب لحجرة صغيرة، يقعد فيها الخطيب، ونافورة ماء، ومراحيض، وسقفه مغطى بالقرميد الأحمر مثل الجامع الكبير وجامع القشاش.

***جامع القصبة**: ذكر ديفولكس أنه جامع واسع، وكان مقصدا لكبار رجال الدولة في عهد الداي حسين باشا، الذي بناه سنة 1234هـ/18-1819م. (88)

ب–المساجد:

***مسجد ستي مريم (أو بن نيقرو)**: يقع على مسافة بضعة أمتار من ساباط باب الواد، وهو مسجد صغير، بدون مئذنة، ويعتقد ديفولكس أن ستي مريم المرابطة هي التي بنت المسجد، ولما كانت تنحدر من عائلة بن نيقرو فقد أوصت أن يكون وكلاء المسجد من عائلة بن نيقرو بالوراثة، وتشير الوثائق التي اطلع عليها ديفولكس أن تسمية المسجد بستي مريم يعود إلى سنة 1092هـ/1681م.(89)

***مسجد حمام يطو**: يقع بمدخل طريق القصبة، وهو مسجد صغير بدون مئذنة مجاور لحمام يطو، وجامع علي بتشين، وقد هدم سنة 1840 من طرف السلـــطة الاستعمارية بحجة خدمة المصلحة العامة. (90)

***مسجد سيدي الرهبي** (**أو بن كمخة**): يقع هذا المسجد الصغير، بدون مئذنة، بطريق باب الواد، وقدر ديفولكس مساحته بمائتي متر مربع، ويلاحظ أن سيدي الرهبي هو مرابط بمدينة الجزائر كان له الفضل في بناء المسجد، إلا أن العامة فضلت تسميته باسم وكيل المسجد بن كمخة. وقد استخدمته السلطة الاستعمارية كمخزن مركزي للصيدلة العسكرية. (91)

***مسجد دار القاضي المالكي**: يقع هذا المسجد بدون مئذنة على طريق باب الواد، قرب محكمة القاضي المالكي، ورغم أن بانيه هو آغا الصبايحية مصطفى بن مصطفى إلا أن العامة لم تسم المسجد باسمه.(92)

***مسجد الشماعين**: يقع بطريق باب الواد، وينسب إلى سوق بيع الشمع، وسمي قبل ذلك بمسجد الدياسين، وقد هدمته السلطة الاستعمارية سنة 1861.

*مسجد لالاهم: وهو مسجد صغير يقع بزنقة لالاهم، وبالتالي فهو يحمل اسم الزنقة، وتقدر مساحته بواحد وثلاثين متر مربع، وخمسين سنتيار.

*مسجد خشطون (أو مسجد بنت مظفر): يقع هذا المسجد الصغير بزنقة لالاهم، واعتقد ديفولكس أن ابنة مظفر هي التي بنت المسجد، وتقدر مساحته بثلاثة وثلاثين متر مربع وعشرين سنتيار.

*مسجد ابن عشبة: يظهر أن ابن عشبة هو أحد وكلاء هذا المسجد الصغير، ويقع بحارة الجنان بزنقة مسدودة النهاية قرب جامع علي بتشين، وقد كان سابقا يسمى بمسجد ابن دودو، وقدرت مساحته بثلاثة وثمانين متر مربع وأربعين سنتيار.(93)

*مسجد سيدي هلال: يقع هذا المسجد الصغير بزنقة سيدي هلال، المرابط الذي عاصر الأتراك العثمانيين وكانت له شهرة في عهدهم، وبالمسجد حجرة بها ضريح المرابط وأضرحة بعض مقربيه.

*مسجد السباط الأحمر: هو مسجد صغير بدون مئذنة، يقع بحي السباط الأحمر، ويجاور مسجد سيدي هلال، وبئر الزناقي، على طريق باب الواد.(94)

*مسجد علي خوجة (أو مسجد سيدي بتقة سابقا): يقع بحي الحمام المالح، على طريق باب الواد، وهو مسجد صغير، يتوفر على مئذنة، وقد استخدمته السلطة الاستعمارية كمخزن لأدوات التخييم العسكري، ليهدم بعد سنة 1844.(95)

*مسجد سيدي عمار التنسي: اعتقد ديفولكس أن الشيخ المرابط سيدي عمار التنسي هو الذي بنى هذا المسجد الصغير، الواقع بحي الحمام المالح، قرب فرن الجيجلية، وقد أدرجته السلطة الاستعمارية ضمن الهياكل التابعة لإدارة المدفعية.

*مسجد سباط الحوت (أو مسجد البطحاء): يقع هذا المسجد الصغير بدون مئذنة بحي البطحاء، ويجاور ممرا مقببا يباع فيه السمك، ويظهر أن مدرسة صغيرة ملحقة به تسمى مدرسة البطحاء، وقد تحول المسجد في أوائل الاحتلال الفرنسي إلى مخزن للحبوب.

*مسجد العين الحمراء (مسجد التادلي): يقع هذا المسجد الصغير قرب سويقة باب الواد، ويجاور عينا مائية مقابلة لدار ذات طلاء أحمر سميت في الوثائق بالدار الحمراء، أما التادلي فهو اسم، آخر وكلاء المسجد، الذي عينه الداي حسين باشا، وقد هدمته السلطة الاستعمارية بعد سنة 1837.(96)

*مسجد قاع السور: يقع في المنطقة الواطئة، في جهتها الشمالية الشرقية، وتحديدا بحي قاع السور أي نهاية وحدود السور، ويجاور هذا المسجد الصغير، دار أرناؤوط مامي.

*مسجد سيدي فليح: هو مسجد صغير بدون مئذنة، به ضريح المرابط سيدي فليح، يجاور ثكنة المقرئين، وقد استخدم المسجد كمخزن سنة 1836، ثم هدم سنة 1842.[97]

*مسجد الميناء (أو مسجد المرسى): وهو مسجد صغير بدون مئذنة، يرتاده في الغالب البحارة الأتراك العثمانيون، وهو مجاور لباب الجهاد.

*مسجد المليايي: وهو مسجد صغير، يجاور ضريح سيدي علي الفاسي، والمعلومات حوله نادرة حسب ديفولكس.

*مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي: وهو مسجد صغير، لا تتجاوز مساحته حسب ديفولكس ستة وثلاثون مترا مربعا، لكننا لا نعرف إن كان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي هو الذي بنى المسجد أم كان إماما له فقط. وقد هدم المسجد سنة 1859. [98]

*مسجد كوشة بن السمان: لم يعثر ديفولكس على معلومات حول هذا المسجد الصغير، الذي ينسب إلى حي كوشة ابن السمان أي ابن بائع السمن، بسوق السمن على ما أعتقد.[99]

*مسجد السلطان (أو عين السلطان، أو مسجد القهوة الكبيرة): يقع بحي القهوة الكبيرة، ويقابل مدرسة صغيرة تسمى مسيد ابن السلطان، وعين مائية.

*مسجد سوق السمن: هو مسجد صغير، ينسب إلى حومة سوق السمن، والمعلومات نادرة حوله.

*مسجد مسيد الدالية: يجاور هذا المسجد الصغير مدرسة الدالية، وتاريخ بنائه مجهول، إلا أن أقدم وثيقة شرعية ورد فيها اسم المسجد تعود إلى سنة 964هـ/56-1557م.[100]

*مسجد الخياطين بسوق اللوح: ينسب هذا المسجد الصغير إلى حومة سوق اللوح، وذكر في وثيقة تعود إلى سنة 1070هـ/59-1660م، وجدده ابن خوجة بيري سنة 1207هـ/92-1793م، وهدمته السلطات الفرنسية سنة 1836م.

*مسجد القبايل: يقع هذا المسجد الصغير بدون مئذنة، بسوق القبايل، واعتقد ديفولكس أن علي بتشين هو الذي بناه، سنة 1620م.[101]

*مسجد المعجزين: يقع هذا المسجد الصغير على طريق باب عزون، وكان يسمى عند السكان بجامع سوق الكبير، نسبة إلى الحي الذي يقع فيه، وأيضا جامع بن تركية، نسبة إلى أحد وكلائه،

وأخيرا جامع المعجزين، لأنه هو المسجد الوحيد بالمدينة الذي كانت تؤخر فيه صلاة الظهر، حتى يتسنى للمصلين الالتحاق بصلاة الجماعة.(102)

*‏**مسجد بوكروك أو القنداقجية:** وهو مسجد صغير بدون مئذنة، يؤدي دور المدرسة، وكان يشرف عليه سنة 1589م المرابط سيدي عيسى بن العباس، ثم أخذ المسجد اسم أحد الوكلاء – بوكروك–لكن ضاع هذا الاسم في ذاكرة السكان، وحل محله اسم الحي الذي يقع فيه المسجد وهو "القنداقجية" وقد هدمته سلطات الاحتلال سنة 1839.(103)

*‏**مسجد سويقة عمور:** ينسب إلى حومة سويقة عمور، وأقدم وثيقة يرد فيها اسم المسجد تعود إلى سنة 1031هـ/21-1622م، وقد هدمته سلطات الاحتلال الفرنسي سنة 1869م.

*‏**مسجد الكبابطية** : أصبح هذا الاسم ساري المفعول ابتداء من القرن 11هـ/17م، نسبة إلى سوق الكبابطية أي تجار الملابس والمحافظ...وكان قبل ذلك التاريخ يسمى بمسجد الحلفاوية، وقد هدم سنة 1839م.

*‏**مسجد سوق السمن:** يقع بحي الرقاعين في أعلى سوق السمن، وهدمته سلطات الاحتلال سنة 1839م.(104)

*‏**مسجد فوق علي بتشين:** يقع في أعلى جامع علي بتشين، في الزاوية بين طريق القصبة وطريق باب الواد.

*‏**مسجد الأخضر:** اعتقد ديفولكس أن الأخضر هو أحد وكلاء المسجد، وقد هدمته سلطات الاحتلال سنة 1844م.

*‏**مسجد خرب ميمون:** ينسب هذا المسجد الصغير إلى حي خرب ميمون الواقع أسفل القصبة القديمة.(105)

*‏**مسجد مصطفى باشا:** له عدة تسميات (مسجد الشيخ أحمد بن عبد الله، مسجد ابن مغنين، ومسجد باب السوق) أما مصطفى باشا الذي حكم بين 1798-1805 فهو الذي جدده وحمل اسمه، ويظهر أن المسجد سمي بعد مصطفى باشا بمسجد منقلاتي، أحد وكلائه، وقد هدمته السلطة الفرنسية سنة 1837م.

*‏**مسجد الشيخ داود:** لا توجد معلومات حوله، وهدم سنة 1833.

*‏**مسجد سوق الجمعة:** يقع بعقبة بن شكور، ولا توجد معلومات حوله.

*‏**مسجد كوشة بولعبة:** يجاور كوشة بولعبة والعين الحمراء، وكان يسمى بمسجد الشيخ سيدي سليمان الشريف، وقد هدم سنة 1841م.

*مسجد فرن بن شكور: لا توجد معلومات حوله.

*مسجد سيدي بوشاقور: ويسمى أيضا مسجد ابن الشاهد، أحد وكلائه، ومسجد السوبري، ويقع بحي باب السوق، وهدمته السلطة الفرنسية في السنوات الأولى من الاحتلال.

*مسجد المسدالي: بناه الباشا رمضان، والمسدالي هو أحد وكلائه.

*مسجد بن فارس: كان يسمى سابقا مسجد سيدي الحربي، وابن فارس هو اسم لحي سكني، ومنذ 1089هـ/78-1679م أصبح هذا الاسم لصيق بالمسجد.

*المسجد المعلق: يظهر أن كان مبنيا على قمة ربوة، لذا سمي بالمعلق، وكان موجودا سنة 1036هـ/26-1627م، ولا نعرف تاريخ بنائه ولا بانيه.

*مسجد حوانيت سيدي عبد الله: ينسب إلى حي حوانيت سيدي عبد الله، وكان يسمى سابقا .بمسجد الشيخ سيدي شعيب.

*مسجد عين العطوش: ينسب هذا المسجد الصغير إلى حومة العطوش، والاسم الأصلي للمسجد هو: مسجد زنقة عين العطوش.

*مسجد بن جاور علي: ينسب إلى دار جميلة يملكها بن جاور علي، وكان يعرف قبل ذلك .بمسجد الحاج عبد العزيز، هذه التسمية التي ضاعت من ذاكرة جيل 1830.(106)

*مسجد سوق الكتان: يقع هذا المسجد الصغير بطريق باب الجديد، وجدده مصطفى السعيدي حوالي سنة 1820م.

*مسجد سيدي الهدي: اعتقد ديفولكس أن هذا المسجد بني سنة 910هـ/1505م، ويقع بحي تيبرغوثين، وكان سيدي الهدي وكيلا للمسجد الذي يشار إليه في بعض الوثائق حسب ديفولكس بمسجد سيد محمد بن حزب الله. وقد تحول المسجد في أوائل الاحتلال الفرنسي إلى إحدى مصالح الإدارة العسكرية إلى أن هدم سنة 1855م.

*مسجد حومة السلاوي: ذكر هذا المسجد في وثيقة شرعية تعود إلى سنة 1128هـ/ 1715-1716م ولا نعرف لا تاريخ بنائه ولا بانيه.

*مسجد دار الانكشارية الجديدة السفلية:يقع هذا المسجد بطريق المدية، وكان ملحقا بزاوية "أقرون" التابعة لدار الانكشارية القديمة العلوية، والتي كان يؤمها سيدي لكحل، ويذكر ديفولكس اعتمادا على وثائقه أن باني هذا المسجد هو علي باشا سنة 1172هـ/1758-1759.

*مسجد **البلاط**: يجهل تاريخ بناء هذا المسجد الصغير بدون مئذنة، واعتقد ديفولكس أن المسجد بني قبيل سنة 999هـ/1590-1591م، ويقع بحارة السلاوي، وهدمته سلطات الاحتلال سنة 1850م.

*مسجد **أعلى مدفع**: هو مسجد صغير، ينسب إلى حومة أعلى مدفع، ويسمى أيضا مسجد عبد الغفار، وهو مرابط غير معروف، وقد هدمته سلطات الاحتلال سنة 1838م.

*مسجد **بن شلمون**: يقع بطريق باب الجديد، وينسب إلى إمامه رمضان بن شلمون.

*مسجد **قطع الرجل**: يقع هذا المسجد بمكان يسمى منذ العهد السابق للعثمانيين، بقبور أولاد السلطان، بجوار جامع سيدي رمضان، ثم صار المكان في العهد العثماني يسمى بقطع الرجل، أي المكان الذي كان يعلن فيه حظر التجول بعد الغروب إلى الشروق. ويلحق بهذا المسجد، مقبرة، نعتقد أنها مقبرة أولاد، سلطان بربري، وقد أهملت هذه المنطقة من قبل الأتراك العثمانيين.[107]

*مسجد **بئر الرمانة**: يقع بطريق القصبة، بحي بئر الرمانة، مقابل حمام الحميّر وبجوار عين عبد الله العلج، وسمي هذا المسجد كذلك بمسجد الشاطبي، نسبة –فيما أعتقد– إلى أحد وكلائه.

*مسجد **ابن شبانة**: يقع هذا المسجد الصغير، بدون مئذنة، بطريق القصبة، بمرتفعات المدينة، وابن شبانة، هو أحد وكلائه، وظهر هذا الاسم في السنوات الأولى من القرن 13هـ/19م، وهدمته سلطات الاحتلال سنة 1843م.

*مسجد **سيدي عبد العزيز بونخلة**: لا تتوفر المعلومات حول المسجد والمرابط الملقب "بونخلة".

*مسجد **سباط العرص**: ظهر هذا الاسم منذ سنة 1042هـ/ 32-1633م وقد هدمته سلطات الاحتلال الفرنسي سنة 1848م.

*مسجد **سيدي أحمد بن علي**: يضم هذا المسجد الصغير ضريح سيدي أحمد بن علي.

*مسجد **حوانيت الغريبة**: هو مسجد صغير، يجاور بئر الجباح، وكوشة الوقيد، وكان يسمى باسم إمامه السيد أحمد بن داود، ثم صار في أواخر الفترة العثمانية ينسب إلى حي حوانيت الغريبة، وقد هدمته سلطات الاحتلال سنة 1853م.

*مسجد **ابن ركيسة (ابن رقيسة)**: وهو يقابل دار الرقيسة، ويجاور سباط العرص.

*مسجد **سباط الذهب**: هو مسجد صغير يجاور سباط الذهب، هدم سنة 1842م.

*مسجد **ابن الصديق**: في سنة 1170هـ/56-1757م، كان يعيش المؤذن محمد بن الصديق الذي ارتبط باسمه هذا المسجد الصغير، حيث صار فيما بعد هو المسير للمسجد، ثم تحول اسمه سنة 1121هـ إلى مسجد سيدي يوسف، وقد هدم سنة 1851م.

***مسجد حوانيت زيان**: ويعرف باسم أحمد شلبي في سنة 1095هـ/83-1684م، ومسجد الباري في بداية القرن 12هـ/18م، ثم حمل هذا المسجد الصغير نهائيا في القرن 18م اسم الحي الذي يقع فيه (حي حوانيت زيان)، وقد تحول المسجد بعد 1837 إلى إحدى هياكل الجيش الفرنسي. (108)

***مسجد القصبة**: هو مسجد صغير، بمئذنة مثمنة الأضلاع، كان موجودا سنة 1064هـ/53-1654م، وقام حسين باشا آخر دايات الجزائر، بتجديده سنة 1233هـ/ 17-1818م، وألحق بالمسجد، مراحيض وحجرة للاغتسال، ومكان للوضوء.

***مسجد سيدي بوقدور**: كان يؤدي دور المدرسة حسب ديفولكس، به ضريح سيدي بوقدور، وظهرت كرامات هذا الولي الصالح في تصديه لحملة شارلكان سنة 1541م رفقة سيدي والي دادة، وسيدي بتقة، ويوسف الأسود.

***مسجد صفر (سفير)**: ينسب إلى بانيه، القائد صفر بن عبد الله، الذي ارتد عن مسيحيته معتنقا الإسلام، وكان عبدا لخير الدين بربروس، وقد أتم بناء هذا المسجد في 02 ربيع الأول سنة 941هـ/ 11 سبتمبر 1534م، بعد تسعة أشهر من الأشغال. وقد جدده الداي حسين باشا سنة 1242هـ/ 26-1827م، وحور الاسم في الوثائق إلى سفير.(109)

***مسجد عبد الرحيم (مسجد الحمامات)**: يقع بطريق الباب الجديد، في أعلى الحمامات (في الأصل حمامين متجاورين) بجوار ضريح سيدي محمد الشريف، بزنقة عبد الرحيم، بناه السيد مصطفى بن محمد الأندلسي الملقب بـ" ابن كرومبة"، وغالبا ما يسميه السكان مسجد الحمامات، وقد هدمته سلطات الاحتلال سنة 1850م.

***مسجد عين شاه حسين**: يسمى في الأصل مسجد عين الشيخ حسين، وهو مسجد صغير بمئذنة، بني خلال القرن 10هـ/ 16م، على طريق الباب الجديد.

***مسجد الزيتونة**: وتسميه وثائق الوقف بـ" مسجد سيدي ابراهيم التكروني" ويعرف لدى العامة بجامع الزيتونة، ويقع في أسفل الباب الجديد، وقد هدم سنة 1851م.

***مسجد الباب الجديد**: يسمى في وثائق الوقف بمسجد " قلاق عبدي" لكنه غير متداول لدى العامة، وكانت أولى مهامه، تعليم الشباب، لذا فهو مسجد يؤدي دور المدرسة. وقد هدم في أوائل الاحتلال الفرنسي.

***مسجد كوشة الوقيد**: يجاور هذا المسجد الصغير، بدون مئذنة، كوشة الوقيد، وبجواره مدرسة، ويقع في حي كوشة الوقيد بمرتفعات المدينة.

*مسجد حوانيت برابجة: يقع في أسفل سباط القائد قاسم، وينسب إلى حي برابجة، وتسميه إحدى الوثائق الشرعية بمسجد التفاحي، أحد وكلائه. وقد هدم سنة 1842م.

*مسجد سيدي عبد الرحمن المرايشي: هو مسجد صغير، حمل هذا الاسم منذ القرن 11هـــ/17م، وبالمسجد ضريح المرابط المرايشي، وقد هدم سنة 1849م.

*مسجد زنقة بوعكاشة: يتوفر هذا المسجد الصغير على مئذنة، وتسميه إحدى الوثائق الوقفية حسب ديفولكس بمسجد البيلوا، ويحتمل أن يكون لأحد الوكلاء الأندلسيين الذين أضاعتهم الذاكرة الشعبية سنة 1830م. وقد هدمته سلطات الاحتلال الفرنسي سنة 1855م. (110)

ت–الزوايا:

*زاوية القاضي المالكي : تقع بطريق باب الواد، تشتمل على حجرات صغيرة استعملت كمرقد للطلبة، وهي تجاور مسجد بن كمخة، ومحكمة القاضي المالكي.(111)

*زاوية القشاش: كانت الزاوية التي نعتقد أن بانيها هو القشاش، عبارة عن دار كبيرة، أو فندق حيث تستخدم غرفها لإيواء العلماء الهاربين، أو الطلبة الميسورين، وفي الوقت ذاته كانت تلعب دور المدرسة ، ويعتقد ديفولكس أن أحد حجرات الزاوية كانت مغلقة على الدوام إذ بها قبر القشاش.(112)

*زاوية الجودي:وتضم هذه الزاوية، ضريح سيدي الجودي، ومقبرة عمومية، ومسجد صغير بدون اسم.

*زاوية سيد أحمد يوب: وهي في الأصل، زاوية سيدي علي بن منصور لكنها اشتهرت بزاوية سيد أحمد يوب، وهو على ما أعتقد أحد وكلاء الزاوية، وتضم ضريح سيد أحمد يوب، ومقبرة، ومدرسة، وهي مجاورة للمقهى الكبير، وزاوية القاضي المالكي بباب الواد، واعتبرت هذه الزاوية ملكا لعائلة يوب، التي توارثت مهمة الوكيل.(113)

*زاوية والي دادة: اشتهر والي دادة التركي الأصل، بمدينة الجزائر واحتفظ سكانها بذاكرته في الدفاع عن المدينة أثناء حملة شارلكان سنة 1541، حيث يروى أنه كان يجول في طرقات المدينة وأزقتها داعيا الناس إلى الجهاد والتحلي بالشجاعة بدل الخوف، ثم توجه إلى ساحل البحر وأخذ ينادي ربه ويضرب بعصا على ماء البحر إلى أن حلت عاصفة بحرية اضطر بعدها الاسبان إلى التراجع عن مدينة الجزائر.

وعليه تضم الزاوية حجرة بها ضريح والي دادة، ومسجد صغير، وحجرة أخرى مخصصة لإيواء الفقراء والمحتاجين، وتقع على طريق الديوان بجوار جامع كتشاوة. (114)

*__زاوية الأندلس__: تقع بزنقة السمن، وتنسب إلى الطائفة الأندلسية المهاجرة من اسبانيا، التي تميزت بتقاليدها وعاداتها وتضامن أفرادها، وقد شيدت هذه الزاوية سنة 1033هـ/ 1623م، ويديرها وكيل ويساعده شاوش.

*__زاوية الشبارلية__: بنيت هذه الزاوية سنة 1201هـ/86-1787م، من طرف الحاج خوجة المقاطعجي (كاتب القصر)، ورغم ذلك لم تسم الزاوية باسمه، وسميت بالشبارلية وكتشاوة وشيخ البلد وهي ببساطة مواقع مجاورة لها. وتتكون الزاوية من مسجد بمئذنة صغيرة، وحجرات خاصة بالطلبة الأتراك العثمانيين، ومراحيض ونافورات مائية وحجرة للطهارة بالماء البارد.(115)

*__زاوية شخطون__:تحاذي باب عزون بجوار فندق العزارة، وتسمى أيضا زاوية سيدي بوبتـقة، وقد زال هذا الاسم مع نهاية القرن 12هـ/18م، ليحل محله اسم شخطون، أحد وكلاء الزاوية حسب ديفولكس، وقد ألحقتها السلطات الفرنسية بثكنة الخراطين لتتحول فيما بعد المستشفى العسكري فالمدني ثم نزل المالية ثم البريد. (116)

*__زاوية سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي الجزائري__: ورد اسم هذه الزاوية في وثيقة شرعية وقفية تعود إلى سنة 1030هـ/ 20-1621م، وكانت الزاوية تسمى بزاوية سوق الجمعة، وتضم مسجدا، وحجرات لإيواء العلماء، ومقبرة، كما يوجد بها ضريح المرابط سيدي محمد بن عبد الله الذي توفي سنة 874هـ/ 69-1470م وبجواره ثلاثة أضرحة لثلاثة مفتيين هم: ضريح المفتي سيدي سعيد بوقدورة، وضريح المفتي سيدي محمد بن بلقاسم بن اسماعيل المطماطي، وضريح المفتي سيدي أحمد زروق بن عمار.(117)

*__زاوية سيدي محمد الشريف__: تضم هذه الزاوية المنسوبة إلى المرابط سيدي محمد الشريف، المتوفي سنة 948هـ/ 42-1543م، ساحة بها عدد من الأضرحة، من بينها ضريح المرابط المذكور، ومراحيض وأماكن للوضوء، ومسجد صغير، بمئذنة مثمنة الأضلاع، ومدرسة صغيرة، وثلاث حجرات للإيواء.(118)

*__زاوية العباسي__: كانت هذه الزاوية التي تضم مقبرة صغيرة، تسمى بزاوية سيدي عيسى بن لحسن، ثم صارت تعرف بزاوية الشريف العباسي.(119)

ث–المدارس:

المدرسة الإسلامية هي في العادة بناء مربع الشكل، يحتوي على مختلف المرافق من مطاهر وغرف للطلبة، ومخازن ومطبخ ومكتبة. وقد يختلف عدد المدارس من مدينة إلى أخرى، أما في مدينة الجزائر كعاصمة سياسية واقتصادية للجزائر العثمانية، نجد المدارس التالية:

*__مدرسة الجامع الكبير__ ذات الأوقاف الضخمة والمكتبة الغنية.

*__مدرسة جامع القشاش__، وكانت لها أوقاف محترمة.[120]

*__مدرسة ملحقة بمسجد ستي مريم__ أو مسجد بن نيقرو، تسمى مدرسة سويقة باب الواد.

*__مدرسة البطحاء__ بحي البطحاء، والملحقة بمسجد سباط الحوت.[121]

*__مدرسة الرحبة القديمة__: وكان آخر وكلائها ابن يعقوب، وهي موجهة خصيصا لتعليم الشباب التركي العثماني بمدينة الجزائر، وقد تم هدمها الاحتلال الفرنسي سنة 1840.[122]

* __مدرسة__ بناها الداي محمد بن بكير سنة 1152هـ/1748-1749م، وهي ملحقة بجامع عبدي باشا الذي بني سنة 1725.[123]

*__مدرسة جامع باب الجزيرة__: بناها الداي شعبان خوجة وهي ملحقة بالجامع المسمى باسمه، تتجلى مهامها في تعليم الشباب التركي العثماني المستقر بمدينة الجزائر.[124]

*__مدرسة الغولة__، التي تقابل دار الغولة، والقريبة من ضريح سيدي علي الفاسي، ولم تظهر هذه التسمية في الوثائق الشرعية حسب ديفولكس إلا ابتداء من سنة 1197هـ/1782-1783م.

*__مسيد القهوة الكبيرة__، أو مسيد ابن السلطـــان، وهو مدرسة صغيرة، تقابل مسجد السلطـــان أو القهوة الكبيرة، وقد هدمت سنة 1836، لتصبح جزءا من شارع ماهون..[125]

*__مدرسة الدالية__: تقع بحومة مسيد الدالية أي الكروم، وهي مجاورة لمسجد مسيد الدالية.

*__مدرسة جامع ميزومورطو__ لتعليم المذهب الحنفي.

*__مدرسة كوشة بولعبة__، وأعتقد أنها ملاصقة لمسجد كوشة بولعبة.

*__مدرسة شيخ البلد__: تقع بمرتفع المدينة، بحي كوشة علي، وهي ملحقة بدار هدمت سنة 1848م، وقد وردت حسب ديفولكس في وثيقة قاضي حنفي سنة 1162هـ/48-1749م.

*__مدرسة البرميل__: لا تتوفر المعلومات حول هذه المدرسة الصغيرة، وكل ما في الأمر أنها هدمت سنة 1855م.[126]

ج-الأضرحة:

*__ضريح سيدي هلال__: يعد سيدي هلال من المرابطين المشهورين بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، يقع ضريحه بزنقة سيدي هلال، وهو ملحق بمسجد صغير يحمل اسمه.[127]

*__ضريح سيدي علي الفاسي__: هو مرابط مشهور خلال العهد العثماني، ينحدر من مدينة فاس المغربية، ويظهر أنه يقع بحي البطحاء، وآخر وكلائه، عين في عهد حسن باشا سنة 1791.[128]

*ضريح **سيدي الغبريني بالميناء**، يقع ضريح سيدي الغبريني في حجرة مغلقة، قرب مول ميناء المدينة.

***ضريح سيدي الجودي**، الواقع بزاوية سيدي الجودي.

***ضريح سيد أحمد يوب**، أحد وكلاء زاوية يوب المجاورة للمقهى الكبير.

***ضريح والي دادة أو الولي دادة**، التركي الأصل، ويقع بطريق الديوان، وألحق به مسجد صغير وحجرة لإيواء الفقراء.

***ضريح سيدي منصور بن محمد بن سليم**: يقع بين بابي عزون بمحاذاة السور، يشرف عليه وكيل. وقد توفي المرابط سيدي منصور سنة 1054هـ/44-1645م، وهدم ضريحه سنة 1846.

***ضريح سيدي بتــقة** : يقع خارج باب عزون على شاطئ البحر، يجاوره مسجد صغير بدون مئذنة، وزاوية، بها حجرات للفقراء، والمرضى، والممرضون، يشرف عليها بيت المال، وكذا حجرات للاغتسال بالماء البارد، ونافورات مائية ومراحيض وأخيرا مقبرة صغيرة.(129)

***ضريح سيدي بوحامة**: اشتهر هذا المرابط المجهول بمداواته للحمى لذا لقب " بوحامة"، ويقع ضريحه مقابل دار الصابون بحي باب عزون.

***ضريح لا لا سعدية**:

***ضريح سيدي عبد الحق**: يقع خارج باب عزون، ويشمل مسجد صغير به ضريح المرابط ومقبرة.

***ضريح سيدي عيسى**: يجاور فندق الذهب الذي صار فندق المذبح.

***ضريح سيدي علي الزواوي**: يقع خارج باب عزون، مقابل سوق الماشية، وتجاوره مقبرة صغيرة، وعين مائية، ومسجد.

***ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني**: بني بمدينة الجزائر ضريحا تذكاريا للشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني الذي توفي ببغداد سنة 561هـ/1165-1166م عن عمر يناهز واحد وتسعين سنة، ويقع الضريح بمسافة ثمانمائة متر عن باب عزون، على شاطئ البحر، في المكان الذي مكث به المرابط عند زيارته لمدينة الجزائر، ويروى أنه كان يداوي الأمراض ويطارد الجن ويعالج النساء العاقرات، وقد جدده الداي أحمد باشا سنة 1223هـ/1808م.(130)

***ضريح سيدي عبد العزيز**: يقع خارج باب عزون، على بعد مائة متر، يجاوره مسجد المركاض المعروف باسم مسجد سيدي عبد العزيز.

*ضريح سيدي مبارك البحري: يقع على شاطئ البحر، وليس له لا وكيل ولا أوقاف.

*ضريح سيدي صاحب الطريق: وقد هدم في الأيام الأولى للاحتلال.

*ضريح سيدي السيد: يقع بساحة بها مقبرة، والمرابط المذكور مجهول في الوثائق حسب ديفولكس.

*ضريح سيدي بوشاقور: لم يحظ هذا الضريح بعناية السكان في أواخر العهد العثماني حتى اندثر مع بداية الاحتلال الفرنسي.(131)

*ضريح سيدي عبد المولى: وتجاوره مقبرة صغيرة.

*ضريح سيدي شعيب: هدمت جدران حجرة هذا الضريح قبل سنة 1830 و لم يتبق إلا جدار واحد في عهد ديفولكس.

*ضريح سيدي رمان: وتجاوره مقبرة صغيرة، حولتها سلطات الاحتلال إلى حديقة.

6-المرافق العامة بالأحياء السكنية.

يعتبر المرفق العام من بين العناصر العمرانية التي تميز المدينة كحاضرة عن بقية الحواضر الريفية مثل الفحص والقرية، بحيث يؤدي وظيفة خدماتية قد لا يستغني عنها الحضري أو ساكن المدينة على الدوام، وفيما يلي توضيح لأهم المرافق العامة التي سجلتها المصادر بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني:

أ-الشبكة المائية:

كانت مدينة الجزائر تتزود بالماء من فحصها، من خلال أربع قنوات (التلاوملي، طرارية، الحامة، وعين الزبوجة) وتتراوح كمية المياه حسب الفصول من سبعمائة وعشرين ألف إلى خمسمائة واثنين وتسعين ألف لتر يوميا، مما يسمح بتغطية حاجات المدينة بنسبة مرتفعة.

ولقد وجدت العديد من العيون المائية ذات الاستعمال العام بأزقة المدينة، وملحقة بهياكل معمارية مثل المدارس والزوايا والمساجد والحمامات والأفران، كما نجدها بالأسواق والسويقات، تتزود بمياه الينابيع الفحصية، بواسطة سواقي. أما الآبار المائية والصهاريج والخزانات العمومية فهي قليلة،ولعل الجدول التالي يوضح ما سبق ذكره:(132)

العيون المائية	الآبار المائية	الصهاريج المائية	الخزانات المائية
-عين مشرب الدواب. -عين سوق الشماعين.	-بئر الزناقي أو بئر الزنق.	-مشرب الدواب.	-خزان ماء مجهول الاسم كان عبارة عن بناء ذو

-عين مسجد علي بتشين. -عين مقابل مسجد علي بتشين. -عين قطع الرجل. -عين بن شبانة -عين سيدي رمضان. -عين عبد الله العلج مقابل حمام الحمير. -عين حوانيت زيان. -عين بطحاء القصبة. -عين سوق الجمعة. -العين الحمراء. -عين عقبة الشواش. -عين فرن الزناقي. -عين الجامع المعلق. -العين الجديدة. -عين بن جاور علي. -عين العطش. -عين ساباط الذهب. -العين المزوقة. -عين القصبة. -عين أعلى المدفع. -عين بن فارس. -عين الهجاجل. -عين بئر الجباح -عين سيدي محمد الشريف. -عين الحجرة الزرقاء. -عين باب الجديد.	-بئر الرمانة. -بئر الجباح.		طابق علوي، شيده قائد العيون الحاج اسماعيل خوجة بن خليل بدعم من مؤسسة العيون. وأعتقد أنه وجد بالمرسى لتلبية حاجة السفن من الماء.

-عين شاه حسين. -عين سوق الكتان. -عين الحمامات. -عين ماء تبارن لاغا. -عين ماء سيدي لكحل -عين مجهولة التسمية. -عين حمام فويطة -عين جامع البلاط -عين ماء الخرا -عين الساباط -عين بقرب الدرج -عين ملاصقة لمقر خوجة العيون -عين بحومة الصفارين -عين قرب جامع خضر باشا -عين شخطون -عين زنقة بوزة -عين بزاوية الشرفاء -عين باب السوق -عين حسن باشا -عين ساباط الديوان -عين كتشاوة -عين مدرسة الدالية -عين ماء زاوية الأندلس -عين بوسط سوق اللحامين. -عين الحاكورة (الحاكورة أرض محبسة لغرس الأشجار قرب الدور).			

-عين المقهى الكبير. -عين الجامع الكبير. -عين باب الجزيرة -عين علي برغل -عين مراد قورصو -عين الحمام مالح			

وإلى جانب ذلك وجدت عيون وصهاريج طينية وآبار، داخل المنازل وفي الثكنات والحمامات والفنادق ودور الحكومة، وقدرت الإحصائيات الفرنسية سنة 1840 عدد الأحواض المترلية بألف ومائة حوض أو صهريج، تتوزع على ألفي مترل، وهي في مجملها ذات حمولة متوسطة (سبعون لتر مكعب للصهريج الواحد).(133)

ب-أفران الخبز:

وعادة ما تسمى في اللهجة الجزائرية بالكوشة وهي صنفان، أفران عسكرية وأفران شعبية:

***الأفران العسكرية:**

وهي أفران الجيش الانكشاري، امتلكها الجيجليون الذين كانوا ينتظمون في جماعة خاصة بهم، يترأسها أمين لهم، على غرار باقي الحرف والتنظيمات الاجتماعية الأخرى. ويمكن ذكر هذه الأفران التي انتشرت بالمنطقة الحضرية التجارية كالآتي:

-فرن العسكر

-فرن تبارن لاغا

- فرن بفندق العزارة

-فرن كتشاوة

- فرن قاع السور.

-فرن الخضارين.

-فرن دار الانكشارية.

وقد ألغى الداي حسين باشا نحو 1826 هذه الأفران المخصصة لإعداد خبز العساكر، وبنى في مقابل ذلك مباني ملحقة لقصر الجنينة تسع لاثني عشر فرنا وثلاثة أفران لطبخ الكعك، وأبقى إدارتها واستغلالها في يد جماعة الجيجلية.(134)

***الأفران الشعبية:**

وهي الأفران المنتشرة بالمنطقتين الحضريتين : الواطئة والمرتفعة بمدينة الجزائر، وهي في متناول عامة السكان بمختلف درجاتهم الإجتماعية، ويمكن ذكرها كما يلي:

-فرن الكعك

-فرن الشماعين الذي هدم سنة 1829 .

-فرن بن عدادة

-فرن محمد شلبي كيخية وهو خاص بجماعة الجيجلية

- فرن سيدي رمضان وهو فرن قديم يعود تاريخه إلى 1552

-فرن القصبة وهو الآخر فرن قديم يعود تاريخه إلى سنة 1640

-فرن مسجد علي بتشين.

-فرن بئر الرمانة.

-فرن بن شبانة.

-فرن حوانيت زيان.

-فرن بن شكور.

-فرن بولعبة.

-فرن الزناكي.

-فرن بن ساكو.

-فرن المليسي.

-فرن علي.

-فرن الشلال.

-فرن سيدي علي.

-فرن ساباط العرص.

-فرن غلياطة.

-فرن الجمال.

-فرن سعيد الفأر وقد هدم سنة 1818.

-فرن بن عاشير.

-فرن بن عودة.

-فرن اسكندر.

-فرن سيدي قدور.

-فرن سيدي محمد الشريف.

-فرن سيدي يوسف.

-فرن الخندق.

-فرن عنق القلال.

-فرن جامع القائد صفر.

-فرن الوقيد.

-فرن سوق السمن. وكان يستغله اليهود مقابل دفع مائة وخمسين ريالا فضيا إلى بيت المالجي.

-فرن بسوق الكتان.

-فرن سويقة عمور.

-فرن برابحة.

-فرن حمام فويطة.

-فرن شعبان الذي يعود تاريخه إلى سنة 1749.

-فرن جامع البلاط.

-فرن بسباس.

-فرن حومة السلاوي.

-فرن حمام سركاجي.

-فرن مدرسة الدالية.

-فرن الديوان.

-فرن النصارى.

-فرن القهوة الكبيرة.

-فرن عبد الله الطبال.

-فرن الحمام الصغير.

-فرن زنقة الجنائز.

-فرن ابن الرقي.

-فرن البطحاء.

-فرن باب الجزيرة.

-فرن ساباط الحوت، وقد هدم سنة 1830.

-فرن الخطيب.

-فرن الحمام المالح.

ت-الطاحونات (المطاحن):

كانت طرق الطحن، بدائية، إذ تعتمد على دوران الدولاب، وقد أوكلت الطاحونات في المدينة لبني ميزاب، وكان عددها خمس عشرة طاحونة، وبنى الباشا حسين سنة 1826 أربعا أخرى، حول مبنى قصر الجنينة، لخدمة الجيش، ويمكن لنا ذكر سوى سبع طاحونات رصدناها بداخل أسوار مدينة الجزائر اعتمادا على أعمال ديفولكس، وهي كالتالي:

-طاحونة فرن الكعك.

-طاحونة بن جاور علي التي اندثرت سنة 1830.

-طاحونة تبارن لاغا.

-طاحونة سويقة عمور.

-طاحونة الفرينة.

-طاحونة بحومة الصفارين.

-طاحونة قرب جامع كتشاوة.

ث-المقاهي:

هي أماكن عامة، يرتادها الناس، لشرب القهوة، وكانت عبارة عن قاعات واسعة، بها مقاعد للجلوس، وفي عمقها فرن، يقوم بجنبه القهواجي لإعداد القهوة على مرأى الزبائن، وقد عدد لنا ديفولكس في أماكن مبعثرة، أسماء مقاهي مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني:

-مقهى مسجد بن نيقرو.

-مقهى سويقة باب الواد.

-مقهى العين المزوقة.

-مقهى سيدي محمد الشريف.

-مقهى مقابل الثكنة الانكشارية الجديدة.

-مقهى ملاصق للثكنة الانكشارية القديمة.

-مقهى بحومة الصفارين.

-مقهى بحومة الخراطين.

-مقهى بفندق الزيت.

-مقهى بفندق الأرز.

-مقهى الخندق بسوق الملح.

-مقهى العزارة.

-مقهى زنقة بوزا.

-مقهى الدرج قرب جامع كتشاوة.

-مقهى جامع كتشاوة.

-مقهى العريش.

-مقهى بسوق اللحامين.

-مقهى الحصارين.

-المقهى الصغير.

-مقهى الرصايصية.

-المقهى الكبير.

-مقهى بجاية.

-مقهيان متجاوران بطريق باب الجزيرة بحي القيسارية (حي البحرية في العهد الفرنسي) يتميزان بهندستهما المعمارية الجميلة، إذ كانت أرضيتهما من الرخام وتعلوها أعمدة متجانسة، وفي وسطهما نافورة ماء، وكانت هناك مقاعد خارجهما تطل على مناظر جميلة في المدينة.

-خمسة مقاه صغيرة متقاربة.

وعليه نلاحظ أن المقاهي قد انتشرت عبر أنحاء مدينة الجزائر، وعددها كثير مقارنة بحجم المدينة داخل أسوارها، وهي على صنفين مقاه واسعة، ومقاه ضيقة، وتتركز أساسا في الأسواق والفنادق، وتتموقع قرب عدد من الجوامع والمساجد، إلا أننا لاحظنا أنه توجد بعض المقاهي المخصصة للانكشاريين الأتراك بحكم مجاورتهما لثكنتين، القديمة العلوية والجديدة السفلية.

وعلق موريتس فاغنر Warner عن المقاهي العربية بمدينة الجزائر مركزا على أجمل مقهى يقع بشارع البحرية، وقال عنه أنه عبارة عن قاعة مقسمة إلى مقصورات، تستند على أعمدة وتتسع لعدد كبير من الزوار، مع العلم أنه هناك مقاه ضيقة.[135]

ج-الفنادق:

وهي مبان كبيرة، ذات طابق أو طابقين، تضم محلات، يستغلها التجار والحرفيون، وغرفا يأوي إليها العزاب والمسافرون، وكان في بعضها اصطبلات يمكن للتجار الذين يرتادون المدينة بالماشية والدواب أن يترلوا فيها. واعتمادا على ديفولكس يمكن تسمية الفنادق التي عرفتها مدينة الجزائر في أواخر الفترة العثمانية:

*فندق باب الواد المسمى أيضا فندق المكاويين، ويقع مقابل مسجد بن نيقرو، يأوي الحجاج المارين على المدينة، كما يأوي المسنين الأتراك، ويعتقد ديفولكس أنه بني على أنقاض مقر سائقي العربات سنة 1792م.

*فندق خوجة الخيل، وتودع فيه خيول البايليك.

*فندق العسل ويأوي عجزة أتراك.

*فندق رحبة الشعير.

*فندق العزارة (كان به زريبة ومحلات لبيع الأحزمة وبعض السلع الأخرى المستوردة من تلمسان).

*فندق الزيت (به ثلاث طوابق ويسكنه صانعي الحرير).

*فندق الهوة (سمي سابقا فندق البرادعية ثم الأرز ثم دار الغلة ثم دار البربري، وكان في طابقه الأسفل حوانيت تباع فيها سلع غير الأرز، وفي طابقه العلوي غرف يسكنها عزاب ومسافرون، وبناه الريس الإيطالي المسلم علي بتشين picinino).

*فندق اللبادة (مأوى للعجزة الأتراك).

*فندق المارستان وهو عبارة عن فندق به مخازن مظلمة ورطبة، يقيم فيها المجانين الأشد خطورة على المجتمع، أما المجانين غير الخطرين فيخلى سبيلهم داخل المبنى، ويديره وكيل ويموله الخزناجي.

*فندق المحتسب (اسم متداول منذ 1694).

*فندق الديوان (كان يطلق عليه فندق يابي مسلمان، أي المسلمون الجدد، سكنه الأتراك، به ست غرف في الطابق الأرضي، وأربع غرف ومخزن وحانوت حلاقة في الطابق العلوي).

*الفندق الجديد (لأنه أعيد بناؤه من جديد قبيل الاحتلال الفرنسي وكان سابقا يسمى فندق المرجاني.

*فندقان بسوق اللحامين.

*فندق العريش (فندق كتشاوة سابقا وكان مخصصا للسكن فقط).

*فندق صغير مخصص لإقامة الأتراك.

*فندق الدرج (يعود إلى مؤسسة سبل الخيرات الحنيفية، وكان يقطنه الأتراك).

*فندق القهوة الكبيرة، وكان بطابقه الأرضي محلات تجارية بينما كان بطابقاه العلويان غرفا للعزاب والمسافرين.

ح-الحمامات:

يقصد بالحمام، الماء الساخن. والاغتسال في الحمامات، ظاهرة قديمة، عرفتها الشعوب القديمة، وقد وصلت هذه العادة إلى سلوك المسلمين مبكرا، لأن الإسلام يحث على الاغتسال والطهارة، وأصبحت هذه المؤسسة الاجتماعية مرتبطة ارتباطا عضويا بالنظافة وبفريضة الوضوء، لذا عادة ما يلحق الحمام بالمسجد، وفي هذا الإطار اعتبرها الفقهاء من الأماكن الدينية.(136)

*** أسس تصميم الحمامات الإسلامية:**

تناول الدكتور محمد عبد الستار عثمان التصاميم العمرانية الهندسية للحمامات الإسلامية في العصر العثماني، مبينا أهم أسس تصميمها كالآتي:

-أن يشتمل الحمام على هواء وماء حارين.

-أن تتوفر بالحمام من الداخل فرصة جيدة للتنفس الصحيح فلا يحدث غثيان أو إغماء.

-لا يتسرب إلى داخل الحمام دخان المستوقد أو غيره.

-ألا تتعرض الوحدات الداخلية للحمام لتيارات الهواء البارد.

-أن يكون ارتفاع بناء الحمامات بين 4-4.5 مترا لتحريك الهواء في بيت الحرارة.

-اتساع مساحة الحمام ليصفو هواؤه وتتفرق فيه الحرارة ويبعث الاطمئنان لكن لا يكون إفراط في الاتساع حتى لا يصعب تسخين الماء والهواء.

-توفير أحواض للماء.

-حفر آبار مجاورة للحمام توفر الماء العذب للمستحمين.

-توفير الماء بالكمية المطلوبة أثناء عملية الاستحمام.

-توفير الحطب كمادة وقود أساسية في الحمام، وقد حذر الفكر الإسلامي من استخدام نوعيات أخرى من مواد الوقود كالزبل أو الحطب الذي قد تصدر عنه رائحة غير مرغوب فيها.

-مراعاة توجه مدخل الحمام نحو اتجاه هبوب الرياح ليستفيد الحمام من التهوية.

-أن يكون باب المدخل في صدر دخلة معقود ذات شكل مستطيل وارتفاع قليل.

-أن تكون الأبواب الداخلية بمقاييس صغيرة في الاتساع والارتفاع. (137)

*** تخطيط الحمامات:**

-تشكيل حيز فراغي داخل الحمام، محدد بقياسات في إطار ثلاثة أبعاد :الطول، العرض، الارتفاع. وتتمثل وظيفته في توفير مكان لمستحمين، يخلعون به ملابسهم عند الدخول للحمام ويجلسون فيه بعض الوقت قبل خروجهم حتى لا يتعرضون لأذى التيارات الهوائية الباردة.

-البيوت الخاصة بالاستحمام وقد يكون عددها اثنان أو ثلاثة، تتدرج في درجة حرارتها من المستوى البارد إلى المستوى الدافئ إلى المستوى الساخن في ترتيب مكاني ثابت عند الدخول وأيضا عند الخروج، وفي هذه البيوت تكون عملية الاستحمام وما يصاحبها من تطهر واغتسال لإزالة الجنابة ومن عمليات إزالة الشعر والتجميل.

-الممرات والدهاليز، وتربط بين المحيط الخارجي للحمام وبيوت الاستحمام، وهي مشكّلة بطريقة تساعد على تحقيق وظيفة الحمام تحقيقا صحيحا. وقد ركز الفكر الإسلامي على أن يكون تخطيط الدهليز على هيئة ممر منكسر، على هيئة حرف **L** وأبرز إلى حد ما طول الضلع الطويل وجعله هو الضلع الذي يؤدي إليه مدخل الحمام، وينتهي الضلع القصير بفتحة الباب التي تؤدي إلى البيت الساخن، وذلك من أجل تقليل تأثير الهواء عند فتح الأبواب.

-المستوقد، وهو من الوحدات المعمارية المهمة التي تزود الحمام بالماء والهواء الساخن، حيث يتم تسخين الماء بواسطته في أحواض وقدور توضع في موضع أعلاه. ويستفاد أيضا من المستوقد في سحب الهواء الساخن بأنابيب لتدفئة بيوت الحمام وبخاصة بيت الحرارة.
ويشترط في بناء المستوقد، أن يبعد عن الحمام، ويسلط دخان المستوقد على الفضاء الواسع، وأن يكون مجاورا لبيت الحرارة.

-استخدام القباب في التغطية لاستيعاب أكثر كميات بخار الماء وحتى لا يختنق المستحم.

-مدخنة بيت النار، التي تسمح بصعود الهواء إلى أعلى ويرتفع بناؤها إلى مستوى سطح الحمام.

-الدرج، في بيوت الاستحمام، عادة تكون من درجة واحدة.

-الساقية، التي ترفع لماء الساخن من المستوقد إلى الحمام.

وقد حاول وليم سبنسر Spenserأن يصف الحمامات بمدينة لجزائر باختصار قائلا:" كانت بناياتها واسعة ونظيفة مضاءة من السقف ومجهزة بالماء البارد والمسخن."
وقد رصد لنا سبنسر الحمام من الداخل كالآتي:

-غرفة خارجية واسعة .

-حجرة عريضة مقسمة إلى مكعبات تتسع كل منها لأشخاص يتراوح عددهم بين عشرة إلى اثني عشر. وفي كل مكعب يمر الماء الساخن عبر أنابيب البرونز المقامة على الحيطان.(138)

أما هاينريش في أوائل الاحتلال الفرنسي، فقد وجد تسعة حمامات بمدينة الجزائر كلها بأيدي بني ميزاب، وذكر أنها مصممة كالآتي:

-قاعة لخلع الثياب والاستراحة بعد الاستحمام.

-قاعة بها بخار حار، تتوسطها دكة، يتمدد الإنسان فوق سطحها المرمري، ثم ينبطح فوق لوحة مرمرية، ويتلقى الدلك من قبل شاب ميزابي.

-قاعة أكثر حرارة يتلقى فيها المستحم الدلك، وفرقعة مفاصل الجسد، ثم الغسل.(139)

وبالتالي نلاحظ أن الكاتبين كليهما يتفقان عموما حول تصميم الحمام الداخلي، إلا أن سبنسر يفيدنا أن الحمام كان منقسما إلى قسم للرجال بحجراته وقسم للنساء بحجراته، وحمامات الرجال تشبه حمامات النساء.(140)

واعتمادا على ديفولكس أعددنا قائمة بأسماء حمامات المدينة في أواخر العهد العثماني هي:

-حمام باب الوادي (هدم سنة1830)

-حمام يطو(هدم قبل 1830).

-حمام سيدي رمضان.

-حمام الحمير (حمام القصبة الجديدة شبه مهدم سنة 1830.)

-حمام الجنينة.

-حمام سيدنا (باب السوق).

-حمام بن جاور علي.

-حمام القايد موسى.

-حمام القصبة (الحاج علي جكلاح سابقا وهدم سنة 1830).

-حمام بن عاشير.

-حمام الأزعر (هدم في بداية القرن 13هـ/19م).

-حمام سيدي محمد الشريف.

-حمام السبوعة

-حمام القاعة (العرصة).

-حمام فويطة.

-حمام حمزة خوجة.

-حمام طاقطاق بحومة الصفارين.

-حمام كتشاوة.

-حمام الخضارين (تحول إلى مدرسة حسن باشا).

-حمام سركاجي.

-حمام الكباش (القرون).

-الحمام الصغير : بني منذ 1520 وسمي في وقت متأخر بحمام عبد الرحمن الثعالبي.

-حمام فرن النصارى (يملكه علي بتشين).

-حمام باب الجزيرة.

-الحمام المالح (يستعمل فيه ماء البحر للاستحمام).

خ-الأسواق والسويقات:

وصف موريتس فاغنر أسواق مدينة الجزائر في أوائل الاحتلال الفرنسي، قائلا أنها لا تناظر الأسواق الضخمة التي اشتهرت بها بغداد أو طهران أو أزمير أو القسطنطينية، فهي بكل بساطة عبارة عن دور تشبه الدور العربية، مع فارق واحد وهو أن جانبي الفناء يحتويان على حجرات، الواحدة منها منفصلة عن الأخـــرى، ولكل سوق طابقان أو ثلاثة طوابق وغرف كثيرة. (141)

وكانت للجزائر المدينة، أسواق تحتوي على أكثر من أربعين محلا أو حانوتا، تنتشر في المنطقة التجارية بوطاء مدينة الجزائر، وتنتظم عادة على طول جانبي الطريق الواحد والتي تختص بحرفة واحدة، ويعرف باسمها ذلك الطريق، ويمكن أن نعدد أسواق مدينة الجزائر كالتالي:

-سوق الشماعين.

-سوق الجمعة لبيع الحمام.

- سوق الفكاهين

-سوق السمانين ويباع فيه أيضا الفاكهة.

-سوق الكساكسية.

-سوق الكتان.

- سوق الخضارين بطريق المدية

- سوق الخضارين بباب عزون

-سوق الغرابلية.

-سوق الملح.

-سوق الصفارين.

-سوق الذكير.

-سوق السراجين.

-السوق الكبير.

-سوق الدلالة.

-سوق الديوان، يباع فيها الخضر والفواكه، يجاور مقر الحكم والديوان بالجنينة.

-سوق اللحامين (ويطلق عليه أيضا سوق الدخان، خان الطهو، والسوق الجديد، بناء جديد، وهو محاط بحوانيت-عددها خمسون حانوتا- يملكها بنو ميزاب ويبيعون فيها اللحم والسفنج).

-سوق الصباغين.

-سوق القيسارية (بيع البرانيس ونسخ وتغليف الكتب).

-سوق المقايسية.

- سوق البلاغجية

- سوق العطارين

- سوق البابوشية

- سوق الجقماقجية (الأسلحة).

- سوق العطارين اليهود

- سوق القبطية (باعة الألبسة بالقلمونة)

- سوق التبارن ابن الآغا

- سوق الخزارين اليهود

-سوق الصاغة (محلات يستغلها اليهود لبيع الحلي والذهب).

-سوق الرخام.

- سوق الحوت

أما السويقات فهي أسواق صغيرة، انتشرت بالأحياء السكنية بالمنطقة المرتفعة لتلبية حاجيات السكان الذين يجهدون أنفسهم للتنقل إلى الأحياء التجارية بالمنطقة الواطئة، وقد جاءت هي الأخرى في شكل حوانيت قليلة العدد مقارنة بحوانيت الأسواق، ونذكرها كالآتي:

-سويقة باب الواد.

-سويقة عمور.

-حوانيت الجقماقجية (بيع الأسلحة).

-حوانيت باب أحمد القسنطيني.

-حوانيت سيدي عبد الله، وقد اندثرت هذه التسمية في نهاية القرن الثامن عشر ولا ندري التسمية الجديدة لهذه السويقة.

-حوانيت بن رابحة.

-حوانيت الغريبة.

-حوانيت بطحطاحة القصبة الجديدة.

-محلات لصانعي الحرير.

- سويقة الحاشية

ويغلب على هذه السويقات طابع البساطة في معمارها، حيث هي بنايات، ذات طابق أرضي وغرف صغيرة. وورد أن مؤسسة الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر كانت تملك بتاريخ 1776 أكثر من ثلاثمائة وخمسين حانوتا ذات حرف متنوعة. كما يوجد دكاكين في أحياء المدينة — خارج الأسواق- وهي صغيرة وتافهة من حيث التنوع السلعي، وهذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة، تغلق في الليل بباب خشبي متهرئ، لكن كل دكان يساير درجة صاحبه المادية. (142)

د-الورشات الحرفية:

انتشرت بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، ورشات حرفية إنتاجية، يمكن تسميتها اعتمادا على ديفولكس كما يلي:

-ورشة الشبارلية (صناع أحذية النساء).

-ورشة البشماقجية (إصلاح الأحذية)

-ورشة الخراطين

-ورشة الغزل.

-ورشة الرصايصية.

-ورشة المقفولجية (الأساكفة وصناع الأحذية).

-ورشات صناعة الصابون (وعددها ثلاثة).

-ورشة القنداقجية (صانعي مؤخرة البنادق).

-ورشة الفراغية (صناعة الحلقات والمفاتيح وسروج الدواب).

7-خطة المركز العمراني لمدينة الجزائر :

عرفت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، شأنها شأن المدن الإسلامية الأخرى، مركزا عمرانيا تموقع في المنطقة السهلية الواطئة المحاذية لساحل البحر والقريبة من الميناء التجاري، تجمعت فيه الأنشطة الاقتصادية الرئيسية، واحتضن المبادلات التجارية الدولية، واستوعب الأسواق المختصة، والهياكل السياسية والإدارية والعسكرية (المصالح الحكومية)، وكذا المنشآت

الدينية والثقافية الكبرى في المدينة، وهياكل المرافق العامة، دون إغفال مقرات إقامة كبار موظفي الدولة والشخصيات الهامة، من قصور وديار جميلة، الأمر الذي جعل حركة الناس تعج به يوميا، تقصده من جميع أحياء ونواحي المدينة من جهة، ومن الضواحي والأوطان الريفية من جهة أخرى، وبالتالي فهو حي راقي، أقصى الوظيفة السكنية تجاه الطبقة المحكومة، وابتداء من المركز تبدأ الأحياء السكنية في الامتداد.

ويرى أندري ريمون أن تخطيط المركز الحضري للمدينة الإسلامية عموما قائم على فكرة السوق أولا والجامع ثانيا، والقصر الحكومي ثالثا، وهذا يعني أن الوظيفة الإقتصادية خاصة التجارية تلعب دورا بالغا في التخطيط للمدينة. أما البعدين الديني والسياسي-الإداري، فدورهما ثانوي، لأن الكتابات التاريخية تحدثنا أن السلطة السياسية والإدارية لمدينة الجزائر انتقلت من الوطاء أي المركز العمراني إلى القصبة العليا بالمنطقة المرتفعة التي تنتشر بها الأحياء السكنية سنة 1817 على يد الداي علي خوجة.(143)

ولاستجلاء أهمية المركز العمراني لمدينة الجزائر، حاولنا رصد العناصر المعمارية التي ترسم صورته ومن ثم استنتاج التخطيط العمراني لجزء حيوي من مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

أ-طرقات وأزقة المركز العمراني:

يرتبط المركز الحضري لمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، بثلاثة طرق كبرى، تحمل كل طريق اسم باب رئيسي وهي:

-طريق باب الواد: التي تخترق المدينة في قسمها الواطئ من الشمال إلى الجنوب، وتتفرع منها أزقة عديدة وتتصل بفحص باب الواد وبطريق باب عزون.

-طريق باب عزون: تخترق هي الأخرى المدينة في جهتها الواطئة من الشمال إلى الجنوب، وتتصل بطريق باب الواد كما ذكرنا أعلاه وبفحص باب عزون، وتتفرع منها أزقة عديدة.

-طريق باب الجزيرة: تربط بين الميناء والمحور التجاري -باب الواد وباب عزون- وتتجلى أهميته بكونه ممر حركة البضائع التي تصل إلى الميناء وتم تفريغها في المول قصد شحنها إلى المنطقة التجارية التي تحتضن المركز الحضري للمدينة، أضف إلى ذلك لما تحتويه من دكاكين وحوانيت مصطفة على جانبيها.

وتتميز هذه الطرق الثلاثة بانتظام مسارها، و هي مفتوحة لا مسدودة النهاية، حيث يستغلها عامة الناس، ولا يمكن اعتبارها مسالك توصل الساكن الحضري إلى مترله مباشرة، بل عليه أن ينتقل إلى الزقاق المؤدي إلى مسكنه، كما أن الطرق الرئيسية هي مسالك للبضائع والدواب. (144)

ب-الهياكل الحكومية بالمركز الحضري.

***دار الإمارة (دار السلطان، الجنينة):**

دار الإمارة أو السلطان هي دار تظهر بـــثلاثة طوابق، سماها الفرنسيون "قصر الجنـــينة" أو الحديقة الصغيرة، التي كانت تميز القصر، والتي بلغت قياساتها، سبعة عشر مترا طولا و أحد عشر مترا عرضا، مع بعض الفروق بين الأضلاع المتقابلة، ومساحتها قرابة 115.50 متر مربع. ودار الإمارة بكل بساطة هي قصر الدايات الحكومي لا العائلي، وذلك قبل أن يتحول قصر الداي إلى القصبة العليا سنة 1817 حيث أصبح قصرا عائليا وحكوميا في الوقت ذاته.

وتمتد دار الإمارة من طريق الديوان شمالا إلى طريق الجنينة جنوبا، ومن طريق باب الواد غربا إلى باب السوق شرقا، بالمركز الحضري للمدينة، ودار السلطان هي في الأصل إقامة أمير جزائر بني مزغنة "سليم التومي" الذي أعدمه عروج سنة 1517، ثم قام صالح رايس بين 1552-1556 بتوسيعها. وبقصر الداي الحكومي ساحتين، الأولى واسعة والثانية صغيرة، وبأطرافهما مقاعد مزخرفة، وفي جنوب الساحة الصغيرة يوجد نافورة ماء كبيرة يستعملها سكان القصر. أما الساحة الكبيرة فقد كانت محلا لاجتماعات أعضاء الديوان كل أحد واثنين وثلاثاء، وهي مغطاة اتقاء للمطر والحر.(145)

كما شهدت هذه الساحة الواسعة محاكمة المجرمين، وإصدار الأحكام والقرارات القضائية، وبيع العبيد المسيحيين بالمزاد العلني، واستقبال القناصل والسفراء الأوربيين. وللقصر العديد من النوافذ المسيجة، أصبحت أوكارا للحمام الذي وضعت تحت تصرفه أكياس من القمح وضعها له عبيد الداي بالشرفة التي تطل على الساحة الصغيرة.(146)

ويضم قصر الإمارة مخزن العشور الذي كانت تودع فيه القبائل القمح والشعير والشمع والعسل والجلود، وتوجه هذه المواد لتلبية حاجات الإنكشاريين، فهو إذن مخزن الفرق الانكشارية. وإلى جانبه توجد أفران الخبز، خاصة بموظفي الدولة والانكشاريين، ومستودع أدوات التخييم، وفضاءات للخدمات الحكومية، ومساكن للموظفين بالقصر، والخزينة المالية، ومساكن للداي وقاعة استقبال. (147)

***دار السكة:**

وتعرف أيضا بدار الضرب، وكانت موجودة في قصر الجنينة، قبل أن تنتقل إلى القصبة سنة 1817م، وتتجلى وظيفتها في صناعة النقود المخالفة للنقود القديمة، ومراقبة النقود المتداولة وكذا الحلي، ومراقبة الميزان، ويأتي على هرم موظفي دار السكة، أمين السكة الذي يعين من

طرف الداي بعد أن يقدمه كل من المفتي والقاضي الحنفيين، ثم يأتي بعده وكيل الحرج بمساعديه: العيار والوزان، ثم صاحب الطابع، وراقم الطابع، والحرفيون الذين يقومون بصهر المعادن، وجلهم من اليهود.(148)

***دار الخزينة المالية:**

استحدثت دار للخزينة المالية بايالة الجزائر طبقا للفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ 1580م من السلطان العثماني مراد الثالث، إلى البايلرباي جعفر باشا، والذي يلغي فيه النظام المالي الواحد للايالات الثلاثة : الجزائر، تونس، وطرابلس، وتعيين دفتردار مستقل بكل ايالة، نظرا لبعد المسافة. وقد وجدت دار الخزينة في قصر الإمارة بالجنينة قبل انتقالها إلى القصبة سنة 1817م في عهد الداي علي خوجة، ويأتي الخزناجي على رأس موظفيها ويساعده مجموعة من الموظفين، يرأسهم باش دفتر أو الكاتب الأول. (149)

***بيت المال:**

وهو بيت مال المسلمين، الذي يتصرف في الغنائم وشؤون الخراج ويحرص على شراء العتاد العسكري، وبناء التحصينات الدفاعية، كما يساهم في إقامة مرافق عامة وتشييد الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا، ويهتم بالأملاك الشاغرة التي ليس لها ورثة شرعيون، فيضعها تحت تصرف الخزينة العامة، كما يقوم بتصفية التركات، ويباشر الأعمال الخيرية كدفن الموتى وتوزيع الصدقات على المحتاجين. ويشرف على هذه المؤسسة موظف سامي يدعى " بيت المالجي" ويساعده وكيل وكاتب ضبط وموثقان.(150)

***مخازن البايلك:**

ذكر ديفولكس ثلاثة مخازن تابعة للبايليك مخصصة لحفظ الحبوب وعلى رأسها القمح والشعير، بنيت في فترات مختلفة، يشرف عليها قائد العشور، وأعتقد أنها تقع بالمركز الحضري للمدينة لأنها قريبة من قصر الجنينة.

***أفران الانكشارية:**

بنى الداي حسين باشا سنة 1826 بعد إلغاء أفران الانكشاريين بالأحياء التجارية السالف ذكرها، مباني ملحقة بقصر الجنينة تسع لاثني عشر فرنا لإعداد الخبز للجيش الانكشاري، وثلاثة أفران لطبخ الكعك، وأبقى إدارتها كما ذكرنا سابقا في يد جماعة الجيجلية.

ت–المنشآت الدينية والثقافية بالمركز الحضري.

انتظمت الحياة الثقافية الدينية أساسا بالقرب من مركز السلطة بالمركز الحضري للمدينة، من خلال تواجد ثلاثة جوامع بارزة هي : الجامع الكبير، الجامع الجديد، وجامع السيدة، وقامت زوايا على مساحة دائرية حول مقر الدايات الأول بالجنينة، مما يؤكد تخطيط قلب المدينة الذي هو في الوقت ذاته مركز الحياة والنشاط.

* **الجوامع:**

–الجامع الأعظم المالكي:

تفيد الدراسات التاريخية أن المركز الحضري لمدينة الجزائر يرتبط بجامعها الأعظم أو الكبير، وهو أقدم وأكبر جامع مالكي بالمدينة، ويعود تاريخ منبره إلى سنة 490هـ/1097م في عهد يوسف بن تاشفين الموحدي، الذي اشتهر ببنائه للمساجد في كل مدينة دخلها سواء بالمغرب الأقصى أو بالمغرب الأوسط، ويمكن تحديد تاريخ بنائه بين 1082م/ 1671-1672م (تاريخ سيطرة الموحدين على مدينة الجزائر) و1097م/1685-1686م (تاريخ المنبر). وقدر ديفولكس مساحته بألفي متر مربع.

وللجامع الأعظم طراز معماري موحدي حيث تشرف واجهته الخارجية، على طريق البحرية، وبها ثلاثة أبواب هي:

–باب الفوارة في الوسط.

–باب الصومعة قرب المئذنة.

–باب البواقيل المائية.

أما الوجهتان الأخريتان فلكل واحدة، بابان:

–بابان في الجنوب الغربي تؤديان إلى الجنينة، وقاعة المفتي المالكي، ومحلات أخرى.

–وبابان في الشمال الشرقي على ساحل البحر، تؤديان إلى ساحة كبيرة تسمى عند العامة بالطحطاحة، بها بطارية مدفعية، تم نصبها بعد حملة اللورد اكسموث سنة 1816.

وفي عمق ساحة الجامع يوجد باب الجنايز (الجنائز) التي تتصل بالمصلى وتخرج منها جثة الميت الذي يدفن بيوم جمعة، ونافورة ماء. وقدرت مساحة الجامع الأعظم بألفي متر مربع ويرتكز على اثنين وسبعين ركنا ومغطى بأحد عشر سقفا، ويبلغ ارتفاع منارته خمسة عشر مترا.(151)

ونظرا لأهمية الجامع الأعظم بمدينة الجزائر فقد كانت تعقد به جلسات المجلس القضائي الأعلى برئاسة المفتي الحنفي التركي، الذي يمارس مهام الإمام والخطيب في صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، الأضحى والفطر، كما كانت تسير شؤونه (الجامع الكبير) مجموعة من الموظفين هم:

-ثمانية وكلاء إداريين يضبطون مداخيل ومصاريف الجامع الأعظم، ويثبتون في سجل خاص، الأملاك الموقوفة لصالح الجامع الكبير ولصالح بقية المنشآت الدينية الأخرى المتواجدة بالمدينة وفحصها.

-إمامين.

-خادم المفتي.

-محضر قضائي.

-تسعة عشر أستاذا مدرسا.

-تسعة عشر مقدما.

-ثمانية قراء للقرآن الكريم (حزابين).

-ثمانية كناسين.

-ثلاثة موظفين مكلفين بإنارة الجامع. (152)

-الجامع الجديد الحنيفي:

سمي في أوائل الاحتلال الفرنسي بجامع الحواتين لأنه يقع بالقرب من باب البحر قبالة ساحة الحواتين (صيادي الأسماك)، ويمثل الجامع الكبير عند المسلمين الأحناف من الأتراك العثمانيين بمدينة الجزائر. وقد بني سنة 1660م على أنقاض مدرسة أبو عنان المريني، ومهندسه كان أسيرا مسيحيا، وقدرت مساحته بـــ 1.371 متر مربع، و20 سنتيار، ويصل ارتفاع منارته إلى ثلاثين مترا، ومحرابه مزخرف بخزف ثمين ومنبره رخامي وسقفه خشبي.(153)

-جامع السيدة الحنيفي:

يقع هذا الجامع بجوار قصر الجنينة، ويقابل دار السكة، وكان يصلي به كبار موظفي الدولة بدءا بالداي، لذلك هو متميز عن الجوامع الأخرى بهندسته وجمال زخرفته وشساعته، ويروى أن باني الجامع هو عبد مسيحي وتم إنهاؤه سنة 1660م، وكانت مؤسسة سبل الخيرات الحنيفية للأوقاف هي التي تموله. (154)

ويذكر ديفولكس أن الداي محمد بن عثمان باشا الذي حكم بين 1766-1791، قد أعاد بناء هذا الجامع، في بداية ربيع الأول 1198هـــ/نهاية جانفي وبداية فبراير 1784م، ورممه كل من الداي حسن باشا والداي حسين باشا، وكان مصير الجامع الهدم في الأيام الأولى للاحتلال، أما المئذنة الواقعة في الزاوية الشرقية للجامع فقد سقطت سنة 1832. (155)

- مسجد الجنائز:

بنى هذا المسجد الصغير، الحاج باشا الذي حكم ايالة الجزائر بالنيابة سنة 1545، وهو منسوب إلى زنقة الجنائز التي تربط بين الجامع الكبير ومقبرة باب الواد، وكان المسجد قبل نهاية القرن الثامن عشر يسمى باسم بانيه "مسجد الحاج باشا". ويجاور هذا المسجد الجامع الكبير ودار "أوسطه والي" المعروفة بدار الذهب، وقد ألحقته السلطة الاستعمارية بالمستشفى المدني، ثم صار مخزنا مركزيا للمستشفيات العسكرية بالبلاد.(156)

- **مسجد الرابطة** (**أو مسجد المرابطة الزرزورة**):

يقع قرب باب البحر، وضريح المرابطة المسماة السيدة الزرزورة، بداخل المدينة، وتبعد عن الجامع الجديد الحنفي بخمسة عشر مترا، وقد هدم المسجد سنة 1832 للضرورة العمومية حسب ديفولكس.(157)

-مسجد الحواتين:

يقع هذا المسجد الصغير خارج المدينة، بالميناء، على مقربة من باب البحر، وهو ملاصق للجامع الجديد، حيث كان يقصده الحواتون أي صيادو السمك، وقد تم هدمه في أوائل الاحتلال.(158)

-مسجد البادستان:

هو مسجد بدون مئذنة، يقع داخل سوق العبيد (البادستان)، ولم يجد ديفولكس في الوثائق التي فحصها ما يشير إلى اسم بانيه وتاريخ بنائه، وقد هدمت السلطة الفرنسية البادستان والمسجد معا وأصبحا جزءا من ساحة ماهون أو ساحة الحوت.(159)

-مسجد الصباغين (**أو مسجد المقايسية**):

ينسب هذا المسجد الصغير، بدون مئذنة، إلى الحيين السكنيين، حي الصباغين وحي المقايسية المتجاورين، وقد تم هدمه في الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي.(160)

-مسجد خير الدين (**أو مسجد الشواش**):

يقع هذا المسجد الذي لا يتوفر على مئذنة، بالقرب من مدخل قصر الجنينة، بناه خير الدين بربروس، لكن سكان مدينة الجزائر، في أواخر الفترة العثمانية، لم يخلدوا اسم خير الدين في ذاكرتهم، حسب ديفولكس، فسموه بمسجد الشواش، لأنه كان مقصدا للشواش، أو ضباط الشرطة العسكرية، الذين يمارسون مهامهم على مستوى القصر، وقد تم هدمه في أوائل الاحتلال.(161)

***الزوايا والمدارس:**

-زاوية الجامع الكبير:

تقابل الجامع الكبير، على طريق البحرية، وتضم مسجدا دون مئذنة، ومدرسة، وزاوية بها حجرات موزعة على طابقين، مخصصة لإيواء العلماء الفقراء، ولمبيت موظفي الزاوية، كما يتوفر بها أيضا مراحيض عمومية، وعيون مائية، وقد شيدت الزاوية حسب ديفولكس سنة 1093هـ/1629-1630م، من طرف المفتي المالكي سيدي سعيد بن الحاج ابراهيم. وقد استخدمها أحد الأوربيين المستوطنين كحمامات على الطراز الفرنسي في أوائل الاحتلال.(162)

-زاوية الأشراف:

الأشراف هم الذين يثبتون بعقود قضائية أهم ينحدون من سلالة آل البيت، وذكر ديفولكس أهم يتواجدون بمدينة الجزائر بأعداد كبيرة حتى أهم شكلوا جماعة متميزة داخل مجتمع المدينة، ولهم مؤسسات خاصة بهم.

وتقع زاوية الأشراف بزنقة الجنينة، بناها الداي محمد بن بكداش، سنة 1121هـ/ 1709-1710م وأفادنا ديفولكس بتسعة شروط وضعها الأشراف بشأن زاويتهم نلخصها كالآتي:

*لا يسكن الزاوية إلا الشريف غير المتزوج.

*لا يتم اختيار موظفي الزاوية من إمام ومدرس ومقدم وقارئ وشاوش إلا من طرف أشراف المدينة، وإذا لم يتمكن أحد الأشراف من القيام بأعباء التدريس، فيعهد الأمر إلى أحد الفقهاء.

*يتكفل وكيل الزاوية باستغلال مداخيل الزاوية، بتوفير مستلزمات الزاوية أولا ثم الإنفاق على الأشراف الفقراء المولودين بمدينة الجزائر ثانية، ويمنع الوكيل أن ينفق على نفسه من مداخيل الزاوية إلا إذا اقتضت الضرورة.

*يستفيد من مداخيل الزاوية، الأشراف سواء كانوا رجالا أو نساء أو أطفالا.

*يمنع على نقيب الأشراف أن يستغل منصبه، للتدخل في شؤون الزاوية، ولا يتعامل معها إلا بصفة فرد من أفراد طائفة الأشراف.

*تحتضن الزاوية مرة واحدة في كل سنة، اجتماعا يضم كبار طائفة الأشراف لتقويم مهام وكيل الزاوية.

*كل تعيين وظيفي يتعلق بالزاوية يصدر عن جمعية الأشراف.

*يمكن للوكيل وأفراد عائلته أن يدفن بمقبرة الزاوية إذا أوصى بذلك.

*ينظم الوكيل إطعاما بالزاوية في اليوم الثالث من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

وقد ألحق بالزاوية مقبرة ومدرسة خاصة بالأشراف.(163)

– مسيد القيسارية:

تقع هذه المدرسة الصغيرة الموجهة لتعليم أبناء المسلمين بمدينة الجزائر، بحي القيسارية (الحي التجاري)، وقد تم هدم المسيد في الأيام الأولى للاحتلال.(164)

–مسيد جامع السيدة:

تقع هذه المدرسة الصغيرة أسفل جامع السيدة، بناها السيد صاري مصطفى بن الحاج محمد الذي كان يشغل منصب "البيت المالجي" حسب وثيقة شرعية عثر عليها ديفولكس مؤرخة سنة 1115هـ/ 1703م، ويظهر أنها هدمت في الأيام الأولى للاحتلال سنة 1830.(165)

–مسيد الديوان: تقع هذه المدرسة الصغيرة، بشارع السودان قرب قصر الجنينة.

–مسيد علي باشا: تجاور هذه المدرسة الصغيرة التي بناها علي باشا سنة 1125هـ/ 1713 م جبانة علي باشا.

–مدرسة زاوية الأشراف الواقعة بساحة الجنينة، بناها السيد محمد خوجة الذي كان يشغل منصب دفتردار قصر الجنينة.

***أضرحة المرابطين والمقابر العائلية:**

–ضريح المرابطة السيدة الزرزورة: لم يعثر ديفولكس على أية معلومات حول هذه المرأة المرابطة.

–مقبرة بناها الداي علي باشا، في مطلع القرن الثامن عشر، ونعتقد أنها مقبرة عائلية.

–مقبرة زاوية الأشراف.

ث–المرافق العامة بالمركز الحضري.

يتميز المركز العمراني عموما عن باقي أنحاء المدينة ، ففيه نجد الأسواق المختصة، خاصة الفنادق التي توظف في المبادلات التجارية الخارجية وفي تجارة المواد المهمة، كما يمكن أن تتوزع على أرجائه ورشات حرفية، ويتوقف حجم المنطقة المركزية على حسب أهمية المدينة كمركز اقتصادي عامة وتجاري خاصة.

وبالنسبة لمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني فقد وجد بمركزها العمراني الحضري المرافق العامة الآتية:

–البادستان (سوق بيع العبيد):

وهو المكان الذي كان يباع فيه الأسرى المسيحيون وبناتهم ونساؤهم، وكان سعر الأمة يحدد من قبل الزبائن حسب العمر والجمال، وسعر العبد حسب قوته العضلية وما يحسنه من

شغل. وقد تحولت محلاته الست والثلاثين بالطابق الأرضي من محلات بيع العبيد إلى محلات للخياطة وبيع سلع أخرى ابتداء من الاتفاق الحاصل بين الداي عمر واللورد اكسموث سنة 1816.

وذكرت لجنة الجزائر القديمة أن سعر العبد الواحد يتراوح بين مائة ومائة وخمسون سغين، وتستفيد الدولة بالحصة المالية التي تزيد عن ستين سغين، ويدفع العبد المسيحي ما قيمته نصف سغين مقابل الكراء خلال الشهر، وعادة ما نجد العبيد عند الموسرين والقناصل وفي الثكنات الانكشارية.[166]

-الحمامات العامة:

ذكرنا سابقا بشكل موجز الخصوصيات المعمارية للحمامات العامة بالأحياء السكنية سواء في المنطقة التجارية الواطئة أو المنطقة الشعبية المرتفعة، مع تسميتها اعتمادا على أعمال ألبير ديفولكس، وأعتقد أن المركز العمراني قد احتوى على أربع حمامات عامة هي:

-حمام الجنينة.

-حمام السبوعة.

-حمام باب الجزيرة.

-الحمام المالح.

ج-سكنات المركز العمراني:

كانت منازل الأغنياء وكبار موظفي الدولة من قصور وفيلات[167] مبنية بطريقة جيدة الأمر الذي سمح لها أن تعيش قرونا، وبالتالي مكنت الأثريين والمؤرخين من الارتكاز عليها كسكنات لا تزال قائمة في إعداد بحوثهم ودراساتهم حول منازل سكان مدينة الجزائر العثمانية.[168]

ومن العناصر الهندسية لمنازل الأغنياء بالمركز الحضري نذكر:

-وجود الساحة المركزية داخل المترل وهو عنصر يستجيب لنوع المناخ (مناخ البحر المتوسط المعتدل) ولاعتبار المرأة داخل المترل.

-تأثير الديكور العثماني في المنازل البرجوازية بمدينة الجزائر.

-وجود السقيفة والساحة الداخلية والرواق والأعمدة وطابق أرضي وآخر علوي[169] وقاعات متعددة وذات وظائف مختلفة كوجود قاعات للاستقبال وقاعات لصاحب المترل وحريمه وقاعات للخدم وقاعات للتخزين... [170]

***نماذج من قصور المركز الحضري.**

–قصر مصطفى باشا:

يعتبر هذا القصر إقامة عائلية للداي مصطفى باشا الذي حكم بين 1798-1805، بني سنة 1798م على أنقاض مساكن قديمة البناء، كانت تابعة لمؤسسة سبل الخيرات الحنيفية الوقفية. وتقدر مساحة هذا القصر سبعمائة وتسعون متر مربع وبها أكثر من خمسمائة ألف مربع من الخزف، ولوحظ أن مدخل القصر صمم على أسس أمنية، يحرسه زنجي، أما القصر فيحرسه أحد عبيد الداي مصطفى. ويتوفر القصر على طابقين، نجد في الطابق الأرضي، سقيفة وقاعة استقبال، وساحة مزينة بالخزف، تتوسطها نافورة ماء، وتنفتح على غرف وأبواب أجنحتها. أما الطابق العلوي فبـــه غرفا خاصة بالداي وحريمه، وشرفة عادة ما يجتمع بها أفراد عائلة الداي.

ولا يدخل الداي مصطفى قصره العائلي إلا في يوم الخميس من كل أسبوع بعد صلاة الظهر، وحرسه الذي يرافقه إلى داره الخاصة يعود لإصطحابه إلى قصر الجنينة الحكومي يوم الجمعة على الساعة الثانية عشر. وقد صادرها الداي أحمد باشا واعتبرها ملكا للانكشاريين، ثم استعملت قبيل 1830 لتخزين الصوف الخاص بالبايليك، فسميت عندئذ بدار الصوف.(171)

–دار عزيزة:

يجاور هذا القصر دار الإمارة، وينسب لزوجة باي قسنطينة المسماة عزيزة وفي الوقت نفسه هي بنت داي، وكانت مقرا للبايات الذين يقصدون مدينة الجزائر بمناسبة أداء الدنوش الكبرى كل ثلاث سنوات، ووجد بهذا القصر سنة 1830 كمية كبيرة من الصوف وملابس فاخرة وأثاث وفضة مما يفسر أن الدار تحولت إلى مخزن خاص بالبايليك (الدولة).

-دارأحمد باشا.

–دارحسن باشا.

–قصر علي بتشين.

–دار الرايس حميدو.

ثالثا– خطة ميناء مدينة الجزائر:

وجد الإخوة بربروس عند دخولهم مدينة بني مزغنة سنة 1516 ميناء لا يعدو أن يكون مأوى طبيعيا شبه مربع، يتشكل من أرصفة صخرية، ومن هذه الصخور أربع قطع كبيرة هي أشبه بالجزر، واختيرت أكبر هذه الجزر موقعا للقلعة الإسبانية المسماة "البنيون" أو الصخرة

الكبيرة الضخمة، وكانت القوارب الصغيرة ترسو في ناحية باب الواد، والسفن الكبرى ترسو بمحاذاة ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، جهة باب عزون. (172)

ورأى خير الدين بعد أن حظي من السلطان العثماني سليم الأول بلقب البايلرباي إثر إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية، أنه من الضروري بعث الحيوية لميناء مدينة الجزائر وتمكينه من استيعاب النشاط التجاري مع الدول الأجنبية، فحرص بادئ ذي بدء على هدم القلعة الاسبانية وتسنى له ذلك في سنة 1529 بعد مساندة سكان مدينة الجزائر له، واعتراف مدن شرق البلاد بحكمه، ومن ثم بدأ في تخطيط الميناء بكيفية تجعله ميناء محصنا يحمي السفن الراسية من العواصف البحرية، ويتصدى للاعتداءات الأجنبية، ويستوعب نشاط كل من له صلة بالبحر سواء كان عاملا بورشات السفن أو صيادا أو مجاهدا، وإذا كانت خطة الميناء قد ارتسمت خلال القرن السادس عشر فإن التحسينات المعمارية قد تواصلت إلى غاية فترة حكم الداي حسين 1818-1830م.

1-بناء المول بين 1529-1531:

***المول الأصغر (مول خير الدين):**

اعتمادا على صخور قلعة البنيون المهدمة ومواد البناء التي تواجدت بالحصن والصخور الضخمة التي تواجدت بالمدينة منذ العهد الروماني، شرع خير الدين في ربط الجزر الأربعة السالفة الذكر بالمدينة وبدأ بردم الفتحة التي بين أكبر صخرة وأرض المدينة، ثم ردم الفجوة التي بين الصخور الأربعة التي سميت بعد ذلك بالمول، الذي بلغ طوله ثلاثمائة قدم واستغل وجود العدد الضخم من الأسرى المسيحيين خاصة الاسبانيين (أربعة آلاف عبد مسيحي) في بناء الميناء الذي دام سنتين لإكماله. وذكر الأسرى المسيحيون الذين أمضوا وقتا طويلا بمدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر وتركوا لنا مذكراتهم أن المول مشيد بإتقان واتجاهه جنوب شرق، ويمتد طوله من حصن باب الجزيرة إلى حصن البحر بمسافة قدرها حوالي ثلاثمائة قدم وعرضها ستة عشر قدم، أي عشرون مترا طولا وخمسة وعشرون مترا عرضا، ويمكن لعربتين متعاكستين أن تسلكا ممر المول في الجهة التي تطل عليها المدينة لا البحر.

وتوجد بالمول الأصغر (مول خير الدين) بعض المخازن لإيداع البضائع، ومسجد صغير وساحة صغيرة يتم بها تجهيز السفن. (173)

***المول الأكبر:**

لما تم الربط بين الجزر الأربعة، تم بناء مول آخر باتجاه شمال-جنوب، أطول وأكبر من مول خير الدين، وتظهر أهميته في حماية السفن التي يتم تجهيزها بالساحة الصغيرة، وبه تصطف السفن التابعة للجزائر للايالة الجزائرية. (174)

2-بناء سور الميناء:

أنشأ خير الدين سنة 1532م سورا يسور الجزء المردوم الواصل بين المدينة والجزيرة، وذلك في خط مستقيم، بلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار، وعرضه مترين. وتتجلى أهميته بكونه كاسرا للأمواج التي كانت تضرب بقوة عندما تهب الرياح الغربية والشمالية، ويضمن مرور البحارة الذين كانوا كثيري الحركة على طول المول، ويؤمن رسو السفن داخل الميناء.

وفي عهد عرب أحمد باشا (1572-1574) أضيف سور آخر يسور الجزيرة الضخمة باستثناء الجهة الجنوبية، وكان مجرد ستار لمنع الأعداء من التسلق من البحر والاستيلاء على الميناء، وكذلك للتمكن من الدفاع عن المدينة بالأسلحة البرية، وسور الجزيرة منخفض مقارنة بسور المول. (175)

3-الحصون والأبراج والبطاريات بالميناء:

جاءت عملية بناء الحصون والأبراج والبطاريات المدفعية استجابة لاستمرار الضغط العسكري الأوربي الصليبي على مدينة الجزائر العثمانية، بدءا من حملة شارلكان سنة 1541 في عهد حسن آغا (1533-1545) الذي شرع في بناء بطارية بالجزيرة الكبيرة ضعيفة الرمي. ويعد عرب أحمد باشا أول من شرع في بناء الأبراج والحصون ليسلك من جاء بعده المنحى نفسه في سبيل تحصين الميناء وجعله أقوى نقطة دفاعية بمدينة الجزائر، ويمكن ذكرها كالآتي:(176)

***برج الفنار:**

الفنار كلمة محلية تعني المنارة، وهي التي بناها الإسبان سنة 1510، أي منارة البنيون في وسط الجزيرة الكبيرة، وشكلها مستدير يصل قطرها إلى ستين مترا، وارتفاعها إلى أربعين مترا على مستوى سطح البحر وتتألف من طابقين مزودين بسبع عشرة فتحة نارية لمدافع ذات عيار كبير.

وأعلى هذه المنارة برج مثمن الأضلاع، بناه عرب أحمد باشا، تكون أولا من ثلاثة طوابق ثم أضيف الطابق الرابع بعد حملة اكسموث سنة 1816، ومجموع الفتحات النارية للطوابق الأربعة، ستة وستون فتحة، تضم خمس وخمسين مدفعا أغلبها من العيارات الكبيرة.

وتتجلى أهمية هذا البرج بكونه يقع في الخط الأمامي للميناء ويتوفر على دار للبارود، وخزان ماء كبير، ومقر الباش طبجي، ومكان اجتماع عساكر سلاح المدفعية، وبه سفرة عسكرية انكشارية تتجدد كل ربيع.(177)

***برج رأس الحمّار (عمار) القديم:**

يقع برج رأس عمار القديم شمال برج الفنار على مسافة مائة متر في نهاية خط المول، ويجهل تاريخ بنائه، به طابقين : سفلي يتوفر على خمس وعشرين فوهة وطابق علوي يشتمل على ثمان وعشرين فوهة. وفي جنوب هذا الحصن المنيع، يوجد حائط بطول اثنين وأربعين مترا تحتمي وراءه بطارية مدفعية بناها الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1784.

***برج رأس الحمّار (عمار) الجديد:**

بني هذا البرج خلال حكم حسين باشا على قناة صخرية كانت تفصل برج رأس عمار القديم بالمنارة، هذه القناة الصخرية كانت تغمرها مياه البحر عند هيجان أمواجه مما يعرقل حركة المرور عبرها، وبالتالي لا بد من ردمها ببناء هذا البرج الذي يتكون من طابق سفلي وآخر علوي، مزودين بثلاثين مدفعا.

***البرج الجديد:**

شيد هذا البرج بأمر من الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1187هـ/1773-1774م، به واحد وعشرين فتحة مدفعية، وهو يدافع عن الجهة الشمالية للميناء، واسمه يدل على أنه حل محل البرج القديم الذي يطل على البحر قرب مرسى الذبان والذي تهاوى في أوائل الاحتلال الفرنسي.

***برج ما بين... :**

جاء في لوحة تذكارية أسفل هذا البرج تسمية "ما بين"، وهي تسمية مبتورة وتعني البرج الواقع ما بين البرج الجديد وبرج السردين. بناه الداي حسين باشا، وهو قريب من المدينة ويرمي القذائف في كل الاتجاهات إذ به أربع فوهات مصوبة نحو الشمال، وثلاث عشرة فوهة نحو الشرق، وفوهة واحدة نحو الجنوب الغربي.

وتميز هذا البرج بإلقاء التحية العسكرية للقوات الأجنبية حيث كان يطلق منه إحدى وعشرون طلقة بعدما كانت في السابق موزعة كالآتي:

-خمس طلقات لبرج الفنار.

-أربع طلقات للأبراج التالية: البرج الجديد، برج السردين،برج الجمان، وبرج رأس المول.

*برج السردين:

بناه أحمد باشا سنة 1077هـ/1666-1667م، وأعاد بناءه الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1190هـ/1776-1777م. وينسب إلى سمكتين رسمتا على بابه، به طابقين سفلي وعلوي مزودين بثلاثين مدفعا.

*برج الجمان (أو الحبال):

بناه الداي عمر باشا سنة 1231هـ/1814-1815م على أنقاض برج صغير كان موجودا في القرن السابع عشر، يتكون من طابقين بهما ثلاثين فوهة نارية وثلاثين مدفعا، وسمي بالجمان لكون الطابق السفلي منه استعمل كمخزن لحفظ الحبال المستخدمة في المراكب البحرية.

*برج رأس المول (أوالحاج علي):

هو آخر التحصينات التي كانت على البحر، ويقع في نهاية المول جهة البحر لذا سمي برأس المول، أما تسميته بالحاج علي فلأنه آخر من أعاد إصلاحه. يشتمل هذا البرج على طابقين، سفلي وعلوي، مزودين بأربع عشرة فوهة نارية، تقيم به سفرة انكشارية تتجدد عند حلول فصل الربيع، ودامت أشغال بنائه عشر سنوات من 1115-1124هـ/1703-1712م. (178)

4-مخازن وسجون الميناء:

بنيت مخازن على طول المول في الجهة الشمالية، ويظهر أنها شيدت سنة 1814 في عهد الحاج علي باشا.

وبالنسبة للسجون التي تواجدت بالميناء فهي خاصة بالأسرى المسيحيين، نذكرها كالآتي:

-سجن البنيون وهو سجن خاص بالأسرى النصارى المتمردون بالمدينة.

-سجن الديوانة أو الجمارك.(179)

5-الترسانة:

تقع الترسانة البحرية بالقرب من بوابة البحر، بها عدد من الغليوطات والسفن، وفيها يتم صنع المراكب البحرية الحربية والتجارية، وللترسانة قوسان كبيران، كل واحد منهما يمكن أن تجتازه سفينة كبيرة، إلا أن إحداهما مغلق بجدار طوله اثني عشر قدما، والآخر مغلق ببابين خشبيتين.

وللترسانة ساحة عرضها مائة قدم، تواجه المدينة ولا تتصل بها بأي بوابة، ومدخل الترسانة ممثل في ممر عرضه أربعة أمتار وطوله عشرون مترا، تؤدي إلى مساحة مغطاة تزيد عن

ألفي متر مربع، وتسندها أركان مستطيلة الشكل مقاسها ثلاثة أمتار ونصف متر على مترين.[180]

وعليه تجدر الإشارة أن ميناء مدينة الجزائر كان أقوى نقطة دفاعية بمدينة الجزائر حسب تقرير بوتان سنة 1808، من خلال حصونه وأبراجه السبع (برج الفنار، البرج الجديد، برج ما بين، برج السردين، برج الجمان، برج رأس المول، برج رأس الحمّار القديم، برج رأس الحمّار الجديد) ومن خلال فوهاته النارية المدفعية التي وصلت إلى مائتين وثلاثة وتسعين فوهة معظمها من العيار الكبير، بالإضافة إلى مساحة تقدر بثلاثة هكتارات تسع لأربعين سفينة منها أربعة فرقاطات ذات أربع وأربعين مدفعا وعدد من الكرفيتات ذات عشرين إلى ثلاثين مدفعا.

وختاما لما سبق ذكره، يمكن القول أن هذا الفصل المخصص لإبراز خطط مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، يعكس لنا، اعتمادا على مصادر الفترة، اهتمام الحكام العثمانيين، بعمران المدينة، وأنهم وهبوها مكانتها كمدينة عاصمة، سياسيا وإداريا واقتصاديا، للبلاد الجزائرية، وبينت معالمها وهياكلها المعمارية ونسيجها العمراني، أنها مدينة كبيرة، تجاوبت مع معطيات المدن الحديثة، إذ وجد سكانها ظروفا مناسبة للاستقرار بها رغم الحملات الأوربية التي كانت تهددها دوريا على مدى ثلاثة قرون، فتحصيناتها منيعة، وأحياؤها السكنية، مصممة وفق النمط الحضاري لساكنيها المسلمين، تتوزع علي أرجائها مصالح الدولة المختلفة، والمرافق العامة التي يحتاجها ساكن المدينة في حياته اليومية، وكذا المباني الدينية والثقافية التي ساهمت في الحفاظ على الهوية الإسلامية للجزائر العثمانية، وسط ثقافات متعددة، وصراع حضاري بين ضفتي البحر المتوسط، الشمالية والجنوبية.

وما أضفى على مدينة الجزائر العثمانية، طابع المدينة الهامة هو مركزها الحضري العمراني الذي اجتمعت فيه هياكل حكومية ومنشآت دينية وثقافية ومرافق عامة وسكنات جميلة، وارتبطت به طرق رئيسية، جعلت سكان المدينة يتوافدون عليه يوميا، حتى أضحى القلب النابض للمدينة خصوصا عندما نجده يطل على أهم نقطة دفاعية وتجارية في المدينة وهي الميناء الذي ظل طيلة العهد العثماني من أكبر موانئ الجزائر العثمانية بل وموانئ شمال إفريقيا.

ورغم ذلك فإن مكانة وأهمية مدينة الجزائر كمدينة كبرى في الجزائر العثمانية، قد لا تتضح بطرق خطط المدينة ووصف أماكنها ومعرفة تصاميمها وهندستها، وإنما بالغوص في مناحي أخرى، أهمها، وزنها البشري والطبقات الاجتماعية التي نسجها نظام الحكم العثماني بداخلها والعلاقات التي تحددت فيما بينها وتفاعلاتها مع الواقع الذي عاشته في أواخر العهد العثماني.

الهوامش:

---

[1] ابن منظور، الافريقي. **لسان العرب**. نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه، علي شيري، المجلد 13 (حرف الميم)، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م، ص 55.

[2] الحاضرة مشتقة من حضر، حضور، أي أن ساكن المدينة هو دائم الحضور بها لذا يطلق عليه " الحضري أي المديني" والحضر يشكلون فئة متميزة داخل المدينة بأفكارهم ولباسهم وسلوكهم.

[3] شوقي، عبد المنعم. **مجتمع المدينة –الاجتماع الحضري–** دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة السابعة، 1981. ص 27.

[4] ممفورد، لويس. **المدينة على مر العصور– أصلها وتطورها ومستقبلها–** إشراف ومراجعة: وتقديم ابراهيم نصحي ، المكتبة الأنجلو مصرية، 1964، الجزء الأول، ص 15.

[5] شوقي، عبد المنعم. **المرجع السابق**، ص 23.

[6] المكناسي، محمد بن عبد الوهاب. **رحلة المكناسي (إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقر الحبيب 1785)**. تحقيق وتقديم : محمد بوكبوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2003. ص 329.

[7] **المصدر نفسه**، ص 329.

[8] Noushi André. **Système Urbain et Développement au Maghreb**. Présentation de A. Rassam et A. Zeghal (travaux du séminaire international de Hammamet, Juin 1976), Cérès productions, Tunis, 1980. pp 38-46.

[9] يتفق على هذه النسبة السكانية لمدن الجزائر العثمانية جل الباحثين الجزائريين والأجانب.

[10] فارس، محمد خير .**تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**. دمشق، 1969. ص 100.

[11] شالر، وليام. **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816–1824**. تعريب وتعليق وتقديم: اسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982. ص 37

[12] ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة في الإسلام**... ، **المصدر السابق** ص 249.

[13] خوجة، حمدان بن عثمان. **المرآة**. تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980. ص 100.

[14] **المصدر نفسه**، ص 97.

[15] الأرناؤوط، م. محمد. "دور الوقف في نشوء وتطور المدن خلال العصر العثماني، نموذجان للمقارنة من بلاد البلقان وبلاد الشام" .**المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان 9–10، تونس، 1994، ص ص.45-47.

[16] التخطيط العمراني هو علم حديث يمكن تطبيقه على المدن القديمة، ويجمع بين الهندسة المعمارية وعلم الاجتماع وعلم النفس والسياسة والتاريخ والطب.

[17] Devoulx, A." Les édifices religieux de l'ancien Alger " . **In R.A**. 1862, p.380.

[18] Comité du vieil Alger. **Feuillets D'el djezair**. Editions du Tell, Blida, 2003.TI p.31(note n°1).

[19] ديفولكس، ألبير. **خطط مدينة الجزائر– من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني–** تحقيق مصطفى بن حموش وبدر الدين بلقاضي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2004. ص.49.

[20] ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة في الإسلام...المرجع السابق**، ص.245.

[21] **المرجع نفسه**، ص.231.

[22] ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.59.

[23] **المصدر نفسه**، ص ص.59،52.

[24] Missoum, Sakina. **Alger à l'époque Ottomane –la Médina et la maison traditionnelle**- Inas, Alger, 2003. p.124.

[25] ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص. 52.

[26] يقصد بالبطاريات، الطبانات أو الطبخانات، وهي معاقل للمدفعية في الأسوار والحصون والأبراج وفي التراب بعد حفر حفرة وإحاطتها بأكياس من التراب أو الرمال.

[27] قطع الرجل هو المكان الذي كان يحظر فيه التجول بعد الغروب.

[28] درياس، لخضر. **المدفعية الجزائرية في العهد العثماني**. رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة جامعة الجزائر، 1989 -1990. ص ص.132-136.

[29] خلاصي، علي. **قصبة الجزائر (القلعة وقصر الداي)**. رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، بدون تاريخ. ص ص.32-48.

[30] ديفولكس، ألبير.**المصدر السابق**. ص. 80. وفي هذا السياق أشار الدكتور عبدالقادر حليمي في كتابه حول تاريخ مدينة الجزائر إلى أن عرض الخندق يتراوح بين أحد عشر ونصف و أربعة عشر ونصف متر.

[31] حليمي، عبد القادر علي. **مدينة الجزائر –نشأتها وتطورها قبل 1830**–المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، الطبعة الأولى، 1972. ص.231.

[32] Missoum, Sakina. **Op.Cit**. p.124.

[33] **Ibid**, p.125

[34] الواليش، فتيحة. **الحياة الحضرية في بايليك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر**. رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993-1994. ص ص.149-152.

[35] حليمي، عبد القادر علي. **المرجع السابق**، ص. 233.

[36] Missoum, Sakina.**Op.Cit**, p.130.

[37] ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**.ص ص. 63-64.

[38] Missoum, Sakina.**Op.Cit**, p.135.

[39] Comité du vieil Alger.**Op.Cit**, p.73

(40) Missoum, Sakina.**Op. Cit**, p.130,133

وينسب عبد القادر حليمي اسم عزون إلى أحد الثوار ضد الحكم التركي.

(41) ديفولكس، ألبير.**المصدر السابق**. ص.64. وأيضا:

Missoum, Sakina**.Op.Cit** p.133-134..

(42) Comité du vieil Alger. **Op. Cit** p.73

(43) حليمي، عبد القادر علي. **المرجع السابق**.ص.232.

(44) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.54.

(45) Missoum, Sakina.**Op, Cit**. p.134

(46) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.54.

(47) تم غلقه بعد بناء جامع الحواتين سنة 1659.

(48) الكلمات المرادفة للحي هي: الحومة، الحارة، الناحية، والدرب.

(49) يقدر أندري ريمون عدد أحياء مدينة الجزائر في حدود خمسين حيا، وميسوم سكينة تقدرها باثنين وثمانين حيا وليليان مسلم بحوالي عشرين حيا، ومن خلال غربلة ما كتبه ديفولكس عن المدينة توصلنا إلى إعداد قائمة للأحياء تصل إلى اثنين وأربعين حيا. أنظر الملحق الثاني حول أحياء مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

(50) Missoum, Sakina.**Op.Cit**. pp.83-85.

(51) مسلم، ليليان. " تركيب المدينة وتنظيمها قبل سنة 1830." **مقال منشور ضمن كتاب القصبة، الهندسة المعمارية وتعمير المدن**، ديوان رياض الفتح، الجزائر، الطبعة الأولى، 1984. ص.28.

(52) Raymond, **André. Grandes villes Arabes à l'époque Ottomane**. La bibliothèque Arabe, Sindbad , Paris, 1985. p.279.

(53) حليمي، عبد القادر علي.**المرجع السابق**. ص.231

(54) أنظر الملحق الثالث، حول ضيق أزقة مدينة الجزائر، على مقاس عرض جمل.

(55) Missoum, Sakina**.Op.Cit**. p.71.

(56) Raymond, André.**Op.Cit**. p.186

(57) أي كانت مقصدا للدلالين والبراحين للبيع بالمزاد العلني والإعلان عن أوامر وقرارات ولي أمر المدينة.

(58) طالع : ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**.

(59) Missoum, Sakina.**Op.Cit**. p.194.

(60) أبو القاسم، سعد الله. **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**.**المرجع السابق**،ص.495.

(61) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**، ص.26.

(62) حليمي، عبد القادر علي. **المرجع السابق**، ص. 225.

(63) Missoum, Sakina.**Op.Cit**. p.198. et
Gaid, Mouloud.**Op.Cit**. P.197.

(64) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**، ص ص.26-27.

(65) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص ص.57، 240.

(66) Missoum, Sakina**.Op.Cit.** p.79.

وهذا يفسر أن مدينة الجزائر عرفت نشاطا لصوصيا في الليل قبل تخطيط أبواب لطرقات وأزقة الأحياء السكنية.

(67) Missoum, Sakina.**Op.Cit**. p.139.

(68) يشير ديفولكس إلى أن مخطط الثكنات يشبه إلى حد بعيد الدور العادية، وبالتالي يستبعد الجمال الهندسي ولا نلمس إعجابا من طرفه. أنظر ديفولكس ألبير. **المصدر السابق**، ص. 256.

(69) حسب ديفولكس، كانت الحجرات مظلمة ورطبة في غالبها ولا رفاهية فيها.

(70) بوشنافي، محمد. **الجيش الإنكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر.1700-1830**. رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2002. ص ص.53-55.

(71) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.257.

بوشنافي، محمد. **المرجع السابق**. ص.59.

(72) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.263.

(73) Missoum, Sakina.**Op.Cit**. p.140.

(74) Comité du vieil Alger.**Op.Cit**. p.95.

(75) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.268. وأيضا:

بوشنافي، محمد. **المرجع السابق**، ص ص.61-62.

(76) Missoum, Sakina.**Op.Cit**. p.140

(77) في كل مستشفى يوجد طبيب وجراح وممرضون وطباخ.

(78) Comité du vieil Alger.**Op.Cit**. pp.157- 160.

(79) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة** ...**المرجع السابق**.ص 94.

(80) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine,** 1864, p.40.

(81) **Ibid**., p33.

(82) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1865, p452.

(83) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1866, pp.51-53.

(84) **Ibid**., p54.

(85) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine,** 1868, pp.107-114.

(86) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1869, pp.23-26.

(87) **Ibid**, pp.28-33.

(88) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1870, pp.172-174, 181.

(89) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1864, p30.

(90) **Ibid,** p32.

(91) **Ibid**, pp.38-39.

(92) **Ibid**, p 41.

(93) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger **».In Revue Africaine**, 1864, pp. 198-201.

(94) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1865, pp. .443-444

(95) **Ibid**, p.445.

(96) **Ibid**, p p448-449.

(97) **Ibid**, pp.451-452

(98) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1867, pp.53-54.

(99) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1867, p.207.

(100) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**,1868, p.280.

(101) **Ibid**, pp.286-289.

(102) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**,1869, p.21.

(103) **Ibid**, p.28.

(104) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**,1869, pp.128-129.

(105) **Ibid**, pp.134-135.

(106) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1869, pp.196-202.

(107) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1870, pp.166-175.

(108) **Ibid.,** pp.175-179.

(109) **Ibid**., pp.181-192.

(110) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1870, pp.280-285.

(111) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1864, p40.

(112) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1866, p53.

(113) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1867, pp.207-208.

(114) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine,** 1865, pp.114-116.

(115) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1868, pp.278, 280.

(116) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1869, p27.

(117) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1869, p197.

(118) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**,1870, p.183.

(119) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**,1870, p281.

(120) أبو القاسم، سعد الله. **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المرجع السابق**. ص.504.

(121) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1865, p.448.

(122) **Ibid**, p.450 .

(123) **Ibid**, p452

(124) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1866, p. 54.

(125) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1867, pp.208-209.

(126) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1870, pp.177, 185.

(127) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1865, p.443.

(128) **Ibid**, p450.

(129) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1869, p.130.

(130) **Ibid**, p.133.

(131) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1869,pp.199-200.

(132) تم انتقاء أسماء العيون والآبار والصهريج والخزان من : ديفولكس ألبير. خطط ...**المصدر السابق**.

(133) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص ص .414-415.

(134) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**، ص.235.

(135) أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855**. الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989. ص.112.

(136) الفيلالي، عبد العزيز. **تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)**، موفم للنشر والتوزيع، 2002، ج1، ص. 139.

(137) عبد الستار، عثمان، محمد." فقه عمارة الحمامات في العصر العثماني". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 23، أوت 2001، تونس، ص ص.279-299.

(138) سبنسر، وليم. **الجزائر في عهد رياس البحر**. تعريب وتقديم، عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980، ص ص. 92-95.

(139)هاينريش. فون مالتسان. **المصدر السابق**،ج1.ص.83.

(140)سبنسر ،وليم. **المرجع السابق**.ص.96.

---

(141) أبو العيد، دودو، **المرجع السابق**.ص ص 110-111.

(142) Ben Hammouche, Mustapha. « Souqs et métiers d'Alger à l'époque ottomanes, d'Après les Archives ottomanes et le manuscrit de Devoulx. » **In Arab Historical Review for Ottoman Studies**, N° 21, 2000, pp37-38.

(143) Raymond, André. Grandes villes Arabes à l'époque Ottomane. La bibliothèque Arabe, Sindbad , Paris, 1985. pp.169-171,184.

(144) Raymond, André. **Op. Cit**. p.285.

(145) انتقلت اجتماعات الديوان بعد 1817 إلى القصبة الجديدة كل سبت.

(146) Comité du vieil Alger.**Op.Cit**. pp.121-122.

(147) Missoum, Sakina.**Op. Cit**. pp.149-150.

(148) درياس، يمينة. **السكة الجزائرية في العهد العثماني**.أطروحة دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1987-1988.ص ص.43-45.

(149) **المرجع نفسه**. ص ص.21، 28.

(150) **المرجع نفسه**. ص ص.39-42

(151) Comité du vieil Alger. **Op. Cit**.pp.167-169.

(152) **Ibid**.p10.

(153) **Ibid**.p09.

وقد نشر ديفولكس مقالين حول الجامع الجديد، في المجلة الافريقية، العدد الصادر سنة 1867، أنظر:

Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ». **In Revue Africaine**, 1867, pp.302-309. et 383-392.

(154) Comité du vieil Alger.**Op.Cit**.p176.

(155) ولمزيد من التفاصيل حول جامع السيدة، طالع:

Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ». **In Revue Africaine**, 1867, pp.449-454.

(156) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ». **In Revue Africaine**, 1867, pp.50-53.

(157) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ». **In Revue Africaine**, 1867, pp.447-450.

(158) **Ibid,** pp.448.

(159) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**,1867, pp.209-210.

(160) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ». **In Revue Africaine,** 1867, pp. 447-448.

(161) **Ibid**, pp.454-455.

(162) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ». **In Revue Africaine**, 1867, p.49.

(163) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1868, pp103-107.

(164) Devoulx, Albert. « Les édifices religieux de l'Ancien Alger ».**In Revue Africaine**, 1867, p.449.

(165) **Ibid**, p.4 54

(166) Comité du vieil Alger. **Op. Cit**.p.119. et
Raymond André. **Op. Cit**. p.180.

(167) تختلف القصور عن الفيلات من حيث حجم البناء، فالقصر يتوفر على طوابق تفوق طوابق الفيلا، وبه قاعات ذات وظائف قد لا نجدها في الفيلا.

(168) Raymond André.**Op. Cit**. p273.

(169) اتجهت الهندسة المعمارية وقتذاك إلى الاعتماد على البناء العمودي بدل الأفقي نظرا لضيق فضاء الحركة بالمدينة المسورة بأسوار من جميع جوانبها.

(170) Raymond André.**Op. Cit**. pp.306-307.

(171) Comité du vieil Alger.**Op. Cit**. pp.126, 136.

(172) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**. ص ص.80-81.

(173) Missoum, Sakina.Op.Cit. p.119.

(174) **Idem.**

(175) ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**.ص.82.

(176) أنظر: الملحق الرابع، حول خطط ميناء مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

(177) السفرة هي مجموعة من الجنود الانكشاريين يتراوح عددهم بين أربعة عشر وعشرون جنديا، ومجموع السفرات يسمى الحامية أو النوبة.

(178) Missoum, Sakina. **Op. Cit**.pp.121-122.

وأيضا: ديفولكس، ألبير. **المصدر السابق**،ص ص.89-100.

درياس لخضر. **المدفعية الجزائرية في العهد العثماني**. رسالة دكتوراه (الحلقة الثالثة) جامعة الجزائر، 1989 -1990.ص ص.118-128.

(179) Comité du vieil Alger.**Op.Cit**.p.157.

(180) Missoum, Sakina**. Op.Cit**.P.122.

الفصل الثاني

مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني

من مصاعب دراسة مجتمع المدينة في الجزائر عموما في أواخر العهد العثماني، هو أننا لا نملك إحصائيات دقيقة حول عدد سكان كل مدينة سواء كانت كبيرة أو صغيرة، بل نجدها تقديرية فقط، عادة ما يبالغ في أرقامها لأغراض معينة.

فالبنسبة لمدينة الجزائر، أشار فونتور دي بارادي Venture De Paradis إلى خمسين ألف نسمة سنة 1789، وهو العدد نفسه ذكره وليام شالر في مذكراته بين 1816-1824،[1] إلا أن الجاسوس الفرنسي بوتان قدر العدد سنة 1808 باثنين وثلاثين ألف نسمة. ورغم هذا التضارب في الأرقام بين بوتان وشالر إلا أننا نؤكد أن مدينة الجزائر تجاوز عدد سكانها الثلاثين ألف نسمة وهو أحد المعايير التي يرتكز عليها الباحثون في شؤون المدن الحديثة من أجل قياس أهمية ووزن المدينة بين مدينة كبيرة و مدينة صغيرة، ومن ثم تبقى مدينة الجزائر حسب بوتان هي أهم مدينة جزائرية من حيث الثقل البشري.[2]

ويصعب تصنيف سكان المدينة، في ظل وجود أساسين لذلك، التصنيف الاقتصادي والتصنيف العرقي، وسنحاول في هذه الدراسة الانطلاق من فكرة أن مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، كان متعدد الأجناس، وكل جنس يجسد طائفة، لها وضعية مادية متميزة ولها تقاليدها وسلوكياتها الخاصة، مع إبراز العلاقة القائمة بين هذه الأجناس والعناصر السكانية، وظروف معيشتها.كما يتيح لنا هذا الفصل تحديد الفرق بين مجتمع المدينة والريف من حيث التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد والطباع.

أولا: طبقات مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

1-الطبقة الحاكمة:

أ-الأتراك العثمانيون:

ينتشر الأتراك العثمانيون في المدن الجزائرية التلية والهضابية، بأعداد متفاوتة، وقدر بوتان عددهم سنة 1808 بعشرة آلاف نسمة.[3] أما أبو القاسم سعد الله، فقدر العدد باثني عشر ألف نسمة.[4] ثلاثة آلاف منهم يتمركزون بمدينة الجزائر.[5] وبالتالي شكلوا على مدار الفترة العثمانية أقلية اجتماعية لكنها هي الحاكمة بدون منازع، لأنها سيطرت على الإدارة والتسليح.

وتختلف أصولهم فمنهم الكريتلي والألباني والأناضولي[6] إلا أنهم يشتركون في النسب السياسي أو الانتماء إلى سياسة عائلة آل عثمان.

ورغم المكوث الطويل للأتراك العثمانيين بالجزائر واختلاطهم واندماجهم في المجتمع الجزائري، فقد حافظوا على انتمائهم العرقي وتمسكوا بانتسابهم إلى الوطن الأم، وشددوا ارتباطهم بالمهنة العسكرية سواء صاهروا عائلة جزائرية أم لم يصاهروا.(7)

* **تجنيدهم:**

كان التجنيد الدوري هو الوسيلة الوحيدة لتجديد الدم التركي في الجزائر العثمانية كل خمس أو ست سنوات، وتتفق الكتابات التاريخية على أن هؤلاء المجندين الأتراك العثمانيين كانوا من المهمشين في بلدانهم، و لم يكن المجندون من الأناضول وأزمير واسطنبول فقط بل من غالبية أوربا الشرقية ومن جزر، كريت، قبرص، ورودس.

وبمجرد وصول المجندين الجدد إلى الجزائر، يسجلون في سجلات الانكشارية ثم يلحقون بإحدى الوحدات العسكرية البالغ عددها أربعمائة وأربعة وعشرون وحدة، متوسط عدد جنود كل وحدة ثمانية وعشرون جنديا، ويعيش المجندون طوال خدمتهم العسكرية في غرف واسعة، تسع لتسع وأربعين شخصا.(8)

ويعطى للجندي عند انخراطه في السلك العسكري، بذلة عادية وبندقية ويطغان (9) وقليل من البارود وقطعة من الرصاص، وتصير الثكنة هي مأواه.(10)

ومن هؤلاء المجندين كان يتم اختيار الحكام من مختلف الرتب والألقاب، ومن بينهم كان يختار الوزراء والكتاب والموظفون من مختلف الأصناف.

هذا النمط من الحياة، جعلهم يقضون معظم أوقاتهم في عزلة شبه تامة عن بقية المجتمع، وكان ممنوعا عليهم من الناحية المبدئية الزواج، وفي حالة حصوله، يفقدون العديد من الامتيازات خاصة الإعفاء من الضرائب والتسهيلات المتعلقة بالتخفيضات في الأثمان، ويصبحون مضطرين لتحمل نفقات أسرهم، اعتمادا على رواتبهم الضعيفة، كما أن أبناءهم الكراغلة لا يعتبرون أتراكا كاملي الانتماء للجماعة الحاكمة.(11)

لقد لوحظ أن عدد الأناضوليين انخفض بحكم تراجع وتيرة التجنيد من بلاد الأناضول في مطلع القرن التاسع عشر، مما سمح للمجموعة الألبانية والمجموعة الكريتلية من سد الفراغ الذي تركته المجموعة الأناضولية، حيث تزايدت أهمية الألبان، ضمن الجيش البحري، والأمر نفسه استغله الداي علي خوجة 1817–1818 عندما حاول إصلاح الجيش الانكشاري وإحلال محله جيشا محليا حيث شكل فرقتين الأولى من الكراغلة والحضر والثانية من الزنوج. (12)

*** طباعهم و أخلاقهم:**

كتب حمدان خوجة أن الأتراك العثمانيين، يظهرون في مظهر حماة الدين، ويمتنعون عن القيام بكل ما هو مناف للقوانين، ولا يعملون إلا بالقانون ولفائدة القانون، ويقيمون الصلاة بانتظام مما جعل العرب والبربر يتصورون أنهم مرابطون وصالحون.(13)

وأشار كذلك إلى أخلاق الطائفة التركية بالمدينة الجزائرية فوصفهم بالقناعة والشرف والكرم، ونادرا ما تجد السارق في صفوفهم وقد كانوا شديدي الحرص على احترام عادات البلاد ومن كانت له بعض المساوئ كان يعمل على إصلاحها أو إخفائها.(14)

وذكر أبو القاسم سعد الله أن للأتراك علاقة وطيدة بالطريقة الصوفية البكداشية خصوصا أتراك مدينة الجزائر، وهم مشبعون بعقائد وتقاليد، دراويش أناضوليا وروميليا، ويعتقدون أن المرابطين يزودونهم بالبركات والدعوات في أعمالهم الجهادية.(15)

أما سبنسر وليم فقد أشار إلى أن الأتراك العثمانيين بالجزائر " شديدو التعلق بتدينهم...والتركي يرتبط بكلمته حينما يقسم برأسه واضعا يده على جبهته..." (16) وبالتالي نتساءل عن حقيقة هذا التدين إذا كان التركي يقسم برأسه عوض ربه؟

وفي نفس المضمار كتب شالر ما يلي: " والأتراك شعب بسيط، حذر، ...ولهم نفس الفضائل والرذائل التي نجدها في دولتهم نصف المتحضرة...كما أنهم يتصفون بالأدب واللياقة والإنسانية في معاملاتهم اليومية، ولكنهم حين يجدون أنفسهم في الحياة السياسية يكتشفون في أنفسهم وحشية نادرة."(17)

ثم كتب في موضع أخرمن مذكراته عن الجنس التركي في الجزائر العثمانية: " الأتراك شعب أصيل متميز عن غيره من الشعوب...اختلطوا بالسكان الأهالي، ولولا روافد المجندين الجدد من تركيا الذين يصلون إلى البلد باستمرار، لاندمج الأتراك في السكان الجزائريين. والأتراك يحافظون بدقة على الشريعة الإسلامية ولكنهم يتحدثون اللغة التركية التي هي اللغة المستعملة في الإدارة الحكومية."(18)

أشار لوجي دي تاسي Laugier De Tassy إلى طباع سيئة للأتراك العثمانيين اختصرها في شيوع الفاحشة بينهم، وهي جريمة لا يعاقب عليها من قبل السلطة التركية العثمانية في الجزائر، وأورد الكاتب قصة عبد مسيحي تحرش به سيده جنسيا، فقتله.(19)

وذكر حمدان خوجة أسفار هؤلاء الأتراك العثمانيين، ودورها في عملية التجنيد:" فيأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر بمظهر الرخاء والترف أمام بني وطنه وليعجبهم...وعندما يعود إلى الجزائر

حيث عائلته، يصطحب معه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر ...ثم يتولى بنفسه تدريبهم على الجندية وتعليمهم واجباتهم الجديدة..."[20]

*** لباسهم:**

ذكر دانتي Dentu أن لباس الأتراك العثمانيين بالجزائر شبيه بلباس سكان تركيا،[21] أما لوجي دي تاسي فقال أن لباسهم بسيط يتميز عن لباس السكان الأصليين من العرب والأمازيغ، واقتصر حديثه على وصف لباس الداي وموظفيه السامين الرئيسيين الذين يلبسون قمصان شفافة بأكمام طويلة وسراويل صوفية طويلة غير خشنة، أو قطنية بيضاء.[22]

أما وصف سبنسر للباس الرجل التركي، فقد جاء واضحا إذ قال:" يرتدي التركي بالجزائر، البرنوس وهو ثوب فضفاض عريض متصلة جوانبه بأكمام وقلنسوة أحيانا، ويضاف إليه ألبسة تحتية مهذبة. ويلبس ذوو الاعتبار من الرجال، بدعيتين أو ثلاث بدعيات مفتوحة عند الرقبة وتزركشها الأزرار وخيط الطرف، ويلبسون كذلك سروالا مطرزا عريضا وفضفاضا، إلى جانب شاشية حمراء. وتلتئم خياطة السراويل بواسطة تطريز حريري واسع يلصق به لابسه، مسدسه وسيفه وخنجره. وعند نهايته يخبئ حاملة نقوده من الحرير، والساعة من صنع البندقية..."[23]

***نساء الأتراك العثمانيين:**

–نشاطهن:

في الحقيقة لا يوجد نساء تركيات في الجزائر العثمانية، بل نساء أتراك، يمكن أن يكن مسيحيات أو عربيات أو أمازيغيات، وذلك لأن الرجال يقدمون إلى الجزائر بصفة رجال مهنة ومهمة عسكرية.[24]

والظاهر أن نشاط نساء الأتراك العثمانيين، لا يعدو الاهتمام بالمنزل وتربية الأولاد وممارسة أنشطة حرفية منزلية، لكن تستوقفنا الدراسات التاريخية أن نساء الحكام والموظفين السامين، كان لهن دور سياسي، إذ يتدخلن في توجيه القرارات والتأثير على أزواجهن في اتخاذ مواقف معينة، مع التنبيه إلى حرمانها من العضوية في الديوان أو اعتلاء مناصب سامية.[25]

–هندامهن:

ورد عن سبنسر وليم، وصفا لهندام نساء الأتراك المتزوجين قائلا: " يلبسن الفارملة بشكل شائع، وهي اللباس ذو الحزام والمفتوح عند الصدر، ومع معطف أو أكثر بأكمام قصيرة، مع أو إلى جانب ألبسة داخلية تتدلى على سراويل مطلوقة عندما يكن في المنزل. ولما يخرجن

للحياة العامة فإنهن يضعن ثوبا مزركشا من ثلاث طبقات، طوله يصل الركبة، ويتحزمن بشاش مزركش عريض، ثم تأتي سراويل عريضة، وبلغ (بلاغي أي حذاء) مربعة مرتفعة، وفوق الكل يأتي الحايك الأبيض، ويتحجبن حتى عيونهن بقطعة قماش شفافة بيضاء." (26) .

ويذكر سبنسر مقطعا عن تجميل المرأة وزينتها، وهو شامل لكل النساء الجزائريات سواء كانوا أزواجا للعرب أو الترك، مبينا أن الشعر هو ظاهرة الجمال الأساسية، خاصة لما يطول، دون أن يغفل طريقة العناية به من تسريحه، ومشطه، وتدليله، وإصباغ رائحة مسك عليه أو ماء الزهور، ثم تجميعه وربطه بقطعة مذهبة أو فضية.

ثم ذكر سبنسر أن نساء الأتراك الجزائريات، كن يتزين بالعطور والأطرزة المزركشة ووضع الكحل على الحواجب التي تقوس حتى تأخذ شكل هلال، وإحاطة العيون بصبغ أسود، وتخضيب نهاية أصابع اليدين والكفين وبواطن القدمين بالحناء.(27)

*** الأتراك العثمانيون بين الزواج والعزوبية:**

إن الحديث عن الأتراك بالجزائر هو حديث عن الجيش الانكشاري الذي يعتبر جيشا لا يتزوج أو على الأقل لا يجمع بين الزواج والخدمة في الجيش، وكان هذا في بداية ظهور النظام الانكشاري إلا أنه في وقت لاحق سمح لأفراده بالزواج لأسباب كثيرة.

وعرف عن الانكشاريين الأتراك في الجزائر أن الكثير منهم فضل حياة العزوبية رغم أن الدولة أصبحت تسمح لهم بالزواج لأن الجندي الإنكشاري يعيش على حساب الدولة، وتدفع له زيادة عن الأجرة، كل المواد الضرورية لتغذيته من الحبوب والزيوت واللحوم ... إلا أن النظام الانكشاري في الجزائر يقضي صراحة بـأن الجندي الذي يتزوج، يفقد الكثير من الامتيازات، فيضطر إلى الإقامة في مسكن عائلي، وقد يكون مكلفا ولا يمكن له الإقامة في ثكنات الانكشاريين وبالتالي لا يبقى له من الامتيازات سوى الأجرة، وقد يجد الانكشاري نفسه بين أمرين أحلاهما مر، فإن تزوج فقد الكثير من الامتيازات، وإن لم يتزوج فإن الدولة وعن طريق بيت المالجي تستولي على ثروته عند وفاته، بحكم أنها الوريث، لكل من لا عائلة له.(28)

*** النشاط الاقتصادي للأتراك العثمانيين:**

ذكر روزيتRozet عند حديثة عن فئة الأتراك العثمانيين أن قسما كبيرا منهم يعيشون من أجورهم كموظفين في أجهزة الدولة، إلى أن توافيهم المنية، أما الأقلية منهم، تمارس نشاطا تجاريا، حيث يملكون الحوانيت، يبيعون فيها مواد نبيلة مثل الحلي. (29)

أما محمد أمين فقد ذكر أن الأتراك العثمانيين المتزوجين من جزائريات، قد مارسوا أنشطة تجارية وحرفية متعددة قصد تحسين وضعيتهم الاجتماعية التي تراجعت بفعل زواجهم من جزائريات، عربيات أو أمازيغيات، حيث حرموا من امتيازاهم المادية السابقة في عهد عزوبيتهم.(30)

*** العلاقة الاجتماعية بين الأتراك العثمانيين وفئات المجتمع الأخرى:**

رفض الأتراك العثمانيون أية فكرة للمساواة بينهم وبين حضر المدينة أو غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى، وحرصوا أشد الحرص على إخفاء عيوبهم الاجتماعية فمثلا، حرموا على أنفسهم العراك والتخاصم فيما بينهم، وأمام مرأى الحضر والبرانية والأجانب، وسمحت لهم الحكومة في الفترة الأخيرة بتناول الخمر والكحول بدون قيد، شريطة ألا تقع فضائح مشينة أمام الجماهير، وكل تجاوز لهذا الشرط، يعرض صاحبه لأقسى العقوبات.

وكتب لوجي دي تاسي في هذا الصدد أن السكان الأصليين بكل مدينة جزائرية ينظرون إلى الأتراك باحترام وخوف، فحادث واحد من قبل الأتراك قد يثير غالبية سكان المدينة من العرب والأمازيغ، وتساءل الكاتب عن سر تحمل السكان الأصليين بالمدينة لسيطرة الترك وهم قلة إذ يقابل كل شخص تركي مائتا عربي أو أمازيغي في المدينة الواحدة.(31)

ويرى شالر أن للتركي الأسبقية في كل شأن على الحضري، الذي يتنحى بكل خنوع أمام التركي، متى لقيه في الطريق العمومي.(32)

وهذا لا يعني أن الأتراك العثمانيين، ظلوا جميعا وعلى مدار الفترة العثمانية في قطيعة اجتماعية ونفسية، بل اختلط الأتراك بالحضر الجزائريين ثم انتقلوا إلى الاندماج التدريجي، ففي حالة الاختلاط كان ممثلا في البيع والشراء وغيره من المعاملات الحياتية بين التركي والجزائري، أما الاندماج فجسده الزواج بين الأتراك والجزائريين، حيث أن أعدادا كبيرة من الانكشاريين تزوجوا بنساء حضريات عربيات أو بربريات من عائلات ذات مكانة في المدينة، وقد تزايدت عقود زواج التركي بالجزائرية في أواخر العهد العثماني، مما حقق في نظر العديد من المؤرخين والباحثين ما يسمى باندماج الأتراك العثمانيين في المجتمع العربي البربري، وما بروز فئة اجتماعية متميزة وهي فئة الكراغلة في كل مدينة جزائرية إلا دليلا على صحة هذا الاندماج الاجتماعي.(33)

ونجد بعض الباحثين مثل الدكتور محمد سي يوسف يرى أن الزواج التركي الجزائري كان قليلا، والكراغلة لا يرقون إلى فئة الأتراك العثمانيين،(34) لكن لعل الكاتب يحصر الزواج

التركي بالجزائرية في نطاق المصاهرة السياسية فقط دون الالتفات إلى زواج الجندي الانكشاري البسيط بالمرأة الجزائرية البسيطة.

ب–الكراغلة :

يطرح أحد المؤرخين الأتراك إشكالية وجود فئة الكراغلة بالجزائر العثمانية، مرتكزا على معطيات تركية عثمانية مفادها أن النظام التركي قبل الإسلام هو نظام أبوي ينص على أن ابن التركي هو تركي، وأن أبناء السلاطين الأتراك العثمانيين الذين تزوجوا بنساء أجنبيات أصبحوا سلاطين فيما بعد، وأن قانون الكراغلة بتركيا هو قانون إداري لا اجتماعي، وقد اختفى في عهد السلطان محمود الثاني، وبالتالي لا يوجد بتركيا فئة اجتماعية تسمى الكراغلة.

وفي الجزائر لوحظ أن فونتور دي بارادي لا يستعمل مصطلح الكراغلة بل أبناء اليولداش، وقد ذهب المؤرخ التركي إلى شرح كلمة كرغلي التي تعني عند الأتراك "ابن العبد"، فقد كتب أن KUL لا تعني في اللغة الفرنسية العبد بل تعني المخلوق وكلمة KOLE هي التي تعني العبد في اللغة الفرنسية، وبالتالي لا يجوز لنا ترجمة المخلوق إلى العبد. (35)

وعلى أية حال تتفق الكتابات التاريخية العربية والأجنبية على وجود فئة الكراغلة بالجزائر العثمانية، بناء على معطيات تاريخية، نحاول إبرازها كالآتي:

لقد ذهبت الكتابات أن الكراغلة أو القرغلان صفة أو تسمية قلما ترد في الوثائق، ويقصد بها تلك الشريحة التي تكونت نتيجة زواج أفراد الجيش التركي بنساء البلاد، وقدر عددهم، كل من بوتان سنة 1808 بخمسة آلاف نسمة، وشالر بين 1816-1824 بعشرين ألف. (36) وظهرت فئة الكراغلة لأول مرة في المدن التي تمركزت بها الحاميات التركية و على رأسها مدينة الجزائر كعاصمة للبلاد. (37)

علاقة الكراغلة بالأتراك العثمانيين:

تخوف الآباء الأتراك من تزايد عدد الأبناء الكراغلة، وهذا ما دفع الحكام الأتراك العثمانيين، إلى الاحتراز منهم والحيلولة دون توليهم الوظائف السامية في الجيش والإدارة، كما منعوا من الانخراط في الديوان والأوجاق، وكان المجال الوحيد الذي فسح لهم في بادئ الأمر هو البحرية. وقد يتساءل المرء لماذا هذا الاحتراز من أبناء الأتراك العثمانيين؟ والاجابة قد نجدها عند الدكتور محمد سي يوسف عندما كتب في مقاله حول المرأة والسلطة العثمانية، أن المجتمع العثماني، يضع مكانة الخال قبل مكانة العم، أي أن الخال أقرب إلى الأبناء من عمهم، وهو أمر

مخالف تماما للمجتمع المغاربي، إذ نجد العم أقرب إلى الشخص من خاله. وهذا الأمر جعل الأتراك العثمانيين في الجزائر يعتقدون بأنهم إن تزوجوا بجزائريات فأبناؤهم سيقربون أخوالهم الجزائريين إليهم بحكم احترامهم الكبير لهم.(38)

وهكذا يظهر جليا أن استحواذ الكراغلة على الحكم يعني منطقيا سيطرة أخوالهم الجزائريين من العرب أوالأمازيغ على البلاد، ويصبح الأتراك العثمانيون أقلية لا حول ولا قوة لها في المجتمع الجزائري.

ويبدو أن وضع الكراغلة تحسن عقب أحداث تلمسان، فمنذ ثلاثينيات القرن الثامن عشر أسندت إليهم بعض الوظائف، وخاصة على مستوى الإدارة المحلية، حيث تولى بعضهم منصب الباي، ومنصب القائد. أما فيما بعد، فقد بينت دراسة المخلفات، أنهم انخرطوا في الجيش البري وتقلدوا رتبا عسكرية.(39) وهكذا ظل الكراغلة ملتصقين بالحكم التركي بفعل حرصهم على الامتيازات الممنوحة لهم، أو في طلبهم المزيد منها، إلا أنهم لعبوا دور الوسيط بين جماعة الأتراك الحاكمة وبقية السكان، بواسطة المناصب المسندة إليهم والتابعة للحكام الأتراك العثمانيين. (40)

و ما لاحظه شالر، أنه رغم الامتيازات التي تمتع بها الكراغلة بإذن من الأتراك العثمانيين، بقوا مثلهم مثل الفئات الأخرى، المحكومة، لا تربطهم أية علاقة اجتماعية بالأتراك، حيث رفضوا من قبل هؤلاء رفضا قاطعا، واعتبروهم من جنس السكان الأصليين.(41)

*** دور الكراغلة الاقتصادي:**

أشار "روزيت" إلى أنه لم ير بمدينة الجزائر كرغليا واحدا يمارس حرفة، أو مهنة، واستنتج على إثر ذلك أن الكراغلة عموما يعيشون على الثروة التي تركها لهم آباءهم الأتراك العثمانيون، والكثير منهم يملكون خارج المدينة ديارا جميلة، وأراضي زراعية،(42) مثل هو الحال بالنسبة لحمدان بن عثمان خوجة الكرغلي، الذي كان أحد كبراء وأغنياء مدينة الجزائر، ملك في المتيجة مزارع، بها عشرة آلاف رأس غنم، وستمائة رأس بقر، ومائتي زوج بقر للحراثة وستين جملا، ومائتي ما بين فحول وفرسان، وستين بغلا، وعددا آخر من الحيوانات. أضف إلى ذلك امتلاك حمدان خوجة ستمائة معسلة، وخمسة آلاف كيله (43) من القمح والشعير، وعدة آلاف من المساحة الصالحة للحراثة. وما عدا ذلك كان حمدان خوجة تاجرا بمدينة الجزائر، له تجارة واسعة برأسمال تجاوز ثلاثمائة ألف فرنك، يتعامل بها في الجزائر العاصمة وبقية أطراف البلاد، كما كانت له مصالح مشتركة مع التجار اليهود.(44)

*** طباع الكراغلة:**

لم يكتب المؤرخون عن طباع وأخلاق الكراغلة، إلا أننا يمكن أن نستنتج أنه بحكم انحدارهم من أصل تركي عثماني، طمحوا في نيل الامتيازات التي يحظاها الأتراك العثمانيون لكن دون طائل، ورغم ذلك حافظوا على حالة نفسية متعالية أمام العرب والأمازيغ، وما بلوغهم منصب الباي إلا دليلا على طموحهم المستمر، وبحثهم المتواصل عن تحالف مع الأتراك العثمانيين، وفي هذا الصدد نجد مولود قايد يكتب بشأنهم أنهم يشعرون بمركب العظمة.(45)

*** لباس الكراغلة:**

أشار شالر إلى ألبسة الكراغلة وقال أنها " مزينة بالقصب وبحواشي الذهب أو الفضـــة أو الحرير، طبقا لغرور الشخص ونزواته. وشكل العمامة وثناياها ونوع المادة التي صنعت منه هي المقياس الذي يحكم عليه الناس بقيمة الرجل الذي يلبسها. وفوق جميع ملابسه يلبس الكرغلي برنوسا يحمله على كتفه ويغطي به كل جسمه."(46)

وورد عن "روزيت"، أن لباس الكراغلة لا يختلف عن لباس الأندلسيين، إلا أن هندامهم أكثر أناقة و ملابسهم أكثر نظافة من هندام ولباس الأندلسيـــين، فهم متأثرون بالنمط الأســـيوي. (47)

ت-الأعلاج:

الأعلاج، لقب يطلق على المسيحيين الذين يرتدون عن مسيحيتهم واعتنقوا الإسلام بعد النطق بالشهادتين ثلاث مرات خلال أربع وعشرين ساعة، وقد يسجل العلج في قنصلية بلاده بالجزائر، ويصير العلج منذئذ يتمتع بحقوق الرجل الحر لا الأسير أو العبد لكن يمكن لسيده ألاّ يعتقه إلا إذا وصلته الفدية من بلده الأم. (48)

وإذا كان الحافز الديني ثانويا للعلج فإن الطموح والرغبة في الثراء يشكلان أهم الدوافع لذلك، ونؤكد أن الأعلاج أصبحوا سادة الغزو البحري والتجارة البحرية، وفيهم قال وليم سبنسر أنه بمجرد ارتداد أحدهم، فإنه يستطيع الدخول في خدمة الحكومة (العثمانية) ويصبح له الأمل في التأهل لكل المناصب العالية جدا. وأن الوضعية القانونية لكل المرتدين المسيحيين تبدو وكأنها كانت أحسن من السكان المسلمين من غير الأتراك. (49)

لقد حافظ الأعلاج على روابطهم مع عائلاتهم الأصلية بأوربا، رغم أنهم أصبحوا مسلمين، وقد عرفوا كيف يتأقلمون مع وسطهم الجديد وأن ينصهروا في المجتمع دون أن يماثلوه تماما، لقد كانوا يمثلون بالنسبة لسكان المدينة المحليين، سلطة مضادة للعنصر التركي، وقد حافظ

أبناؤهم على روح المبادرة والقتال اللتين جعلتهم متميزين في النسيج الاجتماعي، وكثيرا ما تمكننا ألقابهم من التعرف على المكان الذي ينحدرون منه.(50)

وهكذا، يمكن القول أن الأعلاج، خدموا السياسة العثمانية في الجزائر، فهم عثمانيون وليسوا أتراكا، وحظوا بنفس المكانة والامتيازات الاجتماعية التي يتمتع بها الأتراك العثمانيون، شريطة أن لا يتزوجوا بنساء عربيات أو أمازيغيات. (51)

ولقد شكل الأعلاج في عهد البايلربايات قوة ضاغطة، ويتجلى ذلك في عدد الحكام الذين تولوا سدة الحكم ، إلا أنه في القرن الثامن عشر، طرأ تحول حسب ما كتبه فونتور دي بارادي عند مقارنته بين الأعلاج والكراغلة، ذاكرا أن الأعلاج لهم أمل الوصول إلى مناصب سامية مثل الكاهية، وآغا القمرين، ووكيل الحرج، والقايد، لكن لم يفسح لهم مجال الوصول إلى سدة الحكم واعتلاء منصب الخزناجي أو الداي. وقد وفدوا إلى الجزائر من ايطاليا وكورسيكا مثل حسن قورصو، ومراد قورصو، ومن البندقية مثل حسن فتريانو.

وفي أواخر العهد العثماني، لم يعد الأعلاج، يشكلون عنصرا هاما، في التركيبة السكانية، إذ انخفض عددهم انخفاضا ملموسا. ففي الفترة الممتدة بين 1807-1826 كان من جملة سبع وثلاثين ضابطا بحريا متوفيا، واحد فقط من الأعلاج، وهو الرايس علي انجليز. وأعتقد أن تراجع عدد الأعلاج بالجزائر شأنه شأن العنصر التركي، وكلا العنصرين تأثرا بتراجع التجنيد سواء في صفوف الأوجاق أو البحرية. وامتهن الأعلاج نشاطات وحرفا متنوعة سيما النجارة والبناء وفقدوا نفوذهم على مستوى الإدارة المركزية .(52)

2-الـــــرعيـــة:

أ-الحضر (البلدية):

تعني لفظة الحضر من الناحية اللغوية الحضور بالمدينة أي السكن بها، ويسمى الحضري بالمديني، وهو ثقافيا، متحضر منذ زمن طويل ويختلف هنا عن البراني.(53)

ولقد اختلفت مقاصد المؤرخين في تحديد مفهوم الحضر أو البَلدية بالعامية الجزائرية، فمنهم من عرفها أنها هي الفئة البرجوازية الثقافية بحكم تحكمها في العلم والدين عموما، ومنهم من قال أنها الفئة التي تمارس أعمالا تجارية وحرفية بداخل المدينة وفلاحية بأحوازها، باستغلال العبيد، ومنهم من ذكر أنها الفئة التي توطنت المدينة منذ زمان بعيد، وذكرت الدكتورة غطاس عند دراستها لفئة الحضر بمدينة الجزائر العاصمة أنه يمكن تمييز ثلاث مجموعات هي:

-مجموعة تتكون من العناصر الأصلية للمدينة.

-مجموعة تتكون من الوافدين من المدن الجزائرية.
-مجموعة تتكون من الأندلسيين وهم في حد ذاقم وافدون على المدينة الجزائرية من بلاد خارجية هي الأندلس. (54)

ويظهر أن هذا التصنيف لفئة الحضر بمدينة الجزائر، يتطابق مع ما ذكره هاينريش في منتصف القرن التاسع عشر، بكون أن الحضر هم النواة الأولى لسكان مدينة الجزائر، وهذه الفئة هي خليط من عناصر عربية أصيلة، وعناصر بربرية مستعربة، وعناصر أندلسية ذات أصل بربري،(55) عرفت بذوقها الرفيع في الفن المعماري التي قد تكون ورثته من أسلافها طيلة القرون الثمانية التي قضتها في اسبانيا، وكان لهجرقم أثرها المباشر في أسلوب العيش والفنون بالجزائر .(56)

وذكر مولود قايد أن مسلمي الأندلس، يتجمعون في المدينة حسب انتماءاقم الجغرافية السابقة في اسبانيا فمثلا هناك حي لأندلسي فانسيا، وأراغون، والأندلس، وغرناطة، وهم يحافظون على احترامهم وانزوائهم تجاه الأتراك العثمانيين، وبقية السكان، وهم متحالفون فيما بينهم، ولهم مساجدهم وزواياهم ومقابرهم وأوقافهم الخاصة بهم.(57)

***أخلاق الحضر**:

أنصف شالر حضر مدينة الجزائر التي كان يقيم بها، فقال : "هؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن البربرية التي يتصف بها بعض الجزائريين فإن سلوكهم لياقة ومجاملة، وأنا قد وجدقم في المعاملات اليومية دائما مهذبين ومتمدنين وإنسانيين، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني أو الكره للأشخاص الذين لا يدينون بدين آخر غير دينهم..." (58) وتشير بعض الدراسات أن حضر المدينة يحملون في شخصياقم روح التمييز العنصري فهم يحتقرون سكان الريف والقرى الوافدين على المدينة، وينظرون إليهم بنظرة متعالية، ويسموفم بالبرانية،(59) وبالتالي ما حقيقة معنى مصطلح البراني؟ هل هو الوافد على المدينة من البر أي من خارج الأسوار؟ أم أن البراني هو الغريب والدخيل على المدينة؟

*** النشاط الاقتصادي للحضر**:

تتفق الكتابات التاريخية أن حضر مدينة الجزائر، مارسوا أعمالا تجارية وحرفية وفلاحية، وقال عنهم هاينريش أفم يختصون بعدد من الحرف مثل حرفة الحرار، والقصاص، وحرفة الحلاجي، والسراج. وأشار أفم لم تكن لهم ثروة كبيرة في العهد العثماني، والدليل على ذلك أن القليل منهم من كان يملك العبيد المسيحيين.(60)

وأشار الدكتور محمد أمين في كتاباته أن الأنشطة التجارية للتجار الحضريين البلديين الجزائريين قد أصابها التقهقر بفعل سياسة اقتصادية انتهجها الدايات تقوم على دعم أغنياء اليهود الليفورنيين، والأوربيين الأجانب خاصة الفرنسيين المرسيليين، من أجل احتكار النشاط التجاري للدولة الجزائرية الحديثة خاصة التجارة الخارجية، واستفادة الحكام من ريع الاحتكار التجاري. والتالي لم يكن التجار الحضريين المسلمين، يستندون إلى أية قوة تحمي مصالحهم، فكان موقعهم ثانويا في تجارة المدن. (61)

أما بالنسبة للمرأة الحضرية فكتب سبنسر أن النشاط الحرفي الأساسي للمرأة الحضرية هو حرفة الطرز التي تأخذ منها الوقت الطويل.(62)

ورغم أن الحضر يكثرون بمدينة الجزائر، ويؤثرون بعددهم في شؤون المدينة(63) إلا أن أعمالهم الاقتصادية كانت حافزا لهم على البقاء في حالة هدوء، إذ لم يطمحوا لارتقاء مناصب سامية تؤهلهم لقيادة البلاد، بل بقوا قانعين بما يملكونه من دكاكين وبساتين وثروات.(64)

***هندام الحضري**:

ذكر شالر أن لباس الرجل الحضري العربي، يتكون من عدة قطع، بعضها بأكمام وبعضها الآخر بدون أكمام، مفتوح في الصدر ومزين بأزرار وزخارف، وسرواله فضفاض يتزل حتى الساق، ويعلق على حزامه الذي يلفه عدة مرات حول وسطه يطغانا أو مسدسا، ويضع في طياته أيضا ساعته ومحفظة نقوده. ويغطي رأسه بعمامة وينتعل بلغة، وتختلف نوعية الملابس من رجل حضري إلى آخر باختلاف درجاتهم المادية.(65)

وذكر وليم سبنسر لباس الجزائري العربي الحضري قائلا: " لقد لبس الجزائريون من غير الأتراك وباستثناء اليهود، لباسا بسيطا وقميصا من الكتان وسراويل في طول الركبة مطبقة، وفي الشتاء يلبسون الغليلة وهي لباس طويل حتى الركبة، تأتي بعدها الدرة وهي جبة طويلة جدا من القماش الرفيع، ويكمل هذه المجموعة البرنوس."(66).

ثم استمر سبنسر في وصف أناقة التجار الحضر من العرب، وقال أنهم كانوا أكثر أناقة واهتماما بهندامهم حيث كانوا يلبسون بجانب اللباس الذي وصفه الكاتب، الأريحيات المزركشة بكعب حديدي مرتفع وكبوس أحمر عريض تحيط به قطعة من القطن الرفيع في هيئة الشاش.(67) وكتب هاينريش بعده مقطعا عن الهندام الحضري الجزائري قائلا:" ويتألف زيهم من غليلة، مصنوعة من الكتان أو النسيج، وبدعيتين متشابهتين، وسروال واسع قصير...ثم حزام غالبا ما يظهر فخامة ثيابهم، وبالتالي حذاء واسع مستدير الرأس يشبه النعل، وتبقى السيقان ابتداء من

الركبة عارية عند الحضري الأصيل، وكذلك الأمر بالنسبة للعنق. أما الشعر فيقص بأسره باستثناء خصلة في أعلى الرأس...ورؤوس الشبان عارية ما عدا خصلة أعلى الرأس فإنهم يضعون فوقها طاقية صغيرة حمراء..."[68] ولاحظ هاينريش أن الحضري شديد الاهتمام بالحلاقة والاستحمام في الحمامات العمومية.

المرأة الحضرية:

-نشاطها:

اتفقت الكتابات التاريخية أن محور اهتمام المرأة المسلمة الحضرية كان ببيتها وتربية أولادها، وتقضي أوقات فراغها في مزاولة حرف يدوية مترلية عائلية كالنسيج والطرز مثلا، وأحيانا تقصد الحمام أو تؤدي زيارة لأقارها وجيرانها.

كما نشطت المرأة المسلمة الحضرية في المجال الخيري حيث أوقفت الأوقاف على الفقراء والمساكين وساهمت في تحبيس الكتب ونحوها على المساجد ومراكز التعليم،[69] وتفيدنا سجلات البايليك بالمركز الوطني للأرشيف بمدينة الجزائر العاصمة بقائمة طويلة لأحباس النساء الحضريات.

-هندامها:

كتب شالر عن لباس وهندام المرأة الحضرية العربية بمدينة الجزائر، ويظهر أنه ركز حديثه على نساء الحضر الأغنياء، إذ قال أن قميصهن هو من أرفع المواد وأفخرها، وسراويلهن يترلن حتى العقب، وأثوابهن مصنوعة من الحرير أو من مادة أخرى مطرزا بالدنتيال ويعلق بشريط من الوراء، وحذاءهن يلبس بدون جوارب.

وترتدي المرأة الحضرية الغنية كذلك، الحلي الثقيلة من خواتم وأقراط ذهبية وأساور وخلاخل من الفضة والذهب، ولباس الرأس هو السرمة أو القلنسوة المخروطية الشكل، والتي تصنع من الذهب أو الفضة حسب المستوى المادي للمرأة وفوقه يلقى حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريز.

ولما تخرج المرأة الحضرية، مهما كان مستواها المادي، إلى الشارع أو تسافر فإنها تغطي ثوبها بحايك أبيض يغطي جسمها كله، من الرأس إلى العقب.[70] وحتى الحايك يختلف نوعه وسعره، فهو يصنع من الحرير أو الصوف الأبيض، أو من الصوف الأحمر، وعلق عليه شالر قائلا: " ويجب الاعتراف بأن الحايك لباس غير مريح، لأنه يتحتم على لابسه أن يمسكه دائما بيده."[71]

ذكر هاينريش هندام المرأة الحضرية في الشارع وقال عنها أنها ترتدي الحجاب، على الحايك، والقناع الذي يسمى "العجار" بالعامية الجزائرية، وهو قطعة قماش رقيقة تغطي الوجه من أسفل العينين إلى الذقن، ثم "الفوطة انتاع السنانغ" باللهجة الجزائرية أيضا، وهو قماش يبسط فوق الجبين حتى الحواجب.

أما عن هندامها في بيتها فيصعب وصفه لكن هاينريش قد لاحظ بعض الحضريات في بيوتهن وقال أنهن يرتدين بذلة من قماش مطرز بالحرير والخيوط الذهبية ويلبسن طاقية صغيرة حمراء تدعى "البنيقة" تضعها فوق شعرها. [72]

وتعتني المرأة الحضرية بنفسها حيث تهتم كثيرا بتجميل وجهها، فالحواجب تكحل بعصير العفصة قدر الإمكان، حتى تصير أقواسا سوداء، وتصبغ أهداب العينين بالكحل من الجهة الداخلية. [73] وقد أعجب شالر بجمال المرأة العربية الحضرية، ونضوجها المبكر حيث يحدث كثيرا أن تتزوج في سن الثانية عشر، وتصبح جدة في سن الخامسة والعشرين.[74]

ب–البرانية:[75]

البرانية بالعامية الجزائرية، والبراني ينتسب إلى البر لأنه قدم من خارج أسوار المدينة، ويغيب هذا المصطلح في الوثائق والمصادر المحلية.[76] وقد تكونت هذه الشريحة في المدينة الجزائرية خلال العهد العثماني نتيجة توافد سكان الجبال والأرياف والصحراء، أما الذين قدموا من مدينة أخرى بعيدة أو مجاورة فلا يسمون برانية وهنا يقع التمييز بين الوافد الريفي أو البدوي والوافد المديني.

وقد انتظم الوافدون الريفيون والصحراويون في جماعات حسب الأصول الجهوية مثل جماعة الميزابيين، البساكرة، الجبايلية، الأغواطيين، وجماعة العبيد...وكان يتصدر كل جماعة أمين تعينه السلطة التركية العثمانية، يخضع لنظام الالتزام حيث كان أمناء الجماعات البرانية يدفع كل واحد منهم ضريبة البشماق أو الصباط على خزينة الدولة، وكان أمين الجماعة البرانية بالمدن الأخرى بالجزائر العثمانية يخضع لسلطة أمين الجماعة نفسها الموجودة بعاصمة البلاد السياسية والاقتصادية وهي الجزائر.[77] ومن بين المجموعات البرانية على المدينة نذكر:

ب–1–الميزابيون:

ينتسب الميزابيون إلى قبائل بربرية الأصل، تسمى قبائل زناتة، التي تسكن عددا من الواحات الواقعة بين الأغواط وتوات على حدود الصحراء الجزائرية، دينها الإسلام، ومذهبها خارجي إباضي، لا يمت بصلة للمذاهب السنية الأربعة، يسميه الجزائريون بالمذهب الخامس،

وهم في نظر الأتراك العثمانيين خوارج. وقال عنه هاينريش أنه مذهب الوهابيين في الجزيرة العربية.(78)

كان الميزابيون يعيشون في منطقة طرد بشري، حيث كانت تنهب قوافلهم بسبب اباضيتهم ومنطقتهم فقيرة اقتصاديا، وهذا ما دفع بالكثير من الرجال الشباب إلى الاغتراب عن منطقتهم بعيدا عن أهليهم وذويهم،(79) قاصدين مدن تجارية في التل والصحراء، بحثا عن العمل، والربح المادي.(80)

ولاحظنا أن كل الدراسات التاريخية، تركز على وضعية الميزابيين بمدينة الجزائر، باعتبارها العاصمة المركزية للبلاد، مع الإشارة إلى أن الباحثين في التاريخ الاجتماعي للمدن الجزائرية يرون أن وضعية الميزابيين تتشابه في كل مدن البلاد الجزائرية.

ينتظم الميزابيون في شكل طائفة حرفية متميزة بمذهبها الخارجي الاباضي، وبدقة تنظيمها الداخلي مقارنة بغيرها من الطوائف، وبارتباطها المستمر بمنطقة ميزاب بمدنها الخمس، وبمجلسها القضائي المسمى بالحلقة، وبممتلكاتها التجارية العديدة داخل المدينة.(81)

والميزابيون أكثر الطوائف الاجتماعية تضامنا وتآزرا فيما بين أفرادها، إذ تتآزر الجماعة لأداء ديون من يتوفون، وتقدم العون لمن يفلسون في تجارتهم، وتدفع الغرامة على من يرتكبون محظورا ما.(82)

كان يرأس طائفة بني ميزاب، أمين حرفي، يختار من عاصمة وادي ميزاب "غرداية"، ولا يعترفون إلا بسلطته، وهم لا يختصون بحرفة واحدة بل بحرف متعددة يبدو وكأنها حكرا عليهم، تصب كلها في ما يسمى بالحرف التجارية والخدماتية مثل الاشتغال بالحمامات، وبيع اللحم، والنقل على الدواب، وطحن الحبوب، والاشتغال بأفران المخابز. ويمارسون في المدن كذلك دور الوكلاء المعترف بهم، والوسطاء التجاريين، بين التل والصحراء.(83) ويذكر الدكتور محمد أمين أنه بالرغم من الدور الاقتصادي لجماعة الميزابيين بالمدينة الجزائرية إلا أنها لم تندمج في المجتمع الحضري بحيث ظلت مهمشة بداخله، فمعتقداتها الاباضية وممارساتها الدينية التي تختلف عن المالكيين والأحناف، كانت من بين أسباب انكماش الميزابيين على أنفسهم.(84)

وعن علاقة الميزابيين كطائفة اجتماعية بالأتراك العثمانيين، فقد ورد عن وليم سبنسر أن الأتراك بحكم أصالتهم الدينية احترموا الصلابة الحنبلية الاباضية، للميزابيين الجزائريين، إذ سمح لهم بالمحافظة على أمين في مدينة الجزائر مع حق التقاضي عليهم من طرف قاضيهم المقيم في غرداية، واعترف لهم بمذهبهم الاباضي كعلامة شرعية لملتهم.(85)

وأشار هاينريش إلى أن الميزابيين يجمعون تمر واحاهم، لبيعه بالمدينة التي يقصدونها وشراء ما يحتاجون إليه من قمح، وهم لا يقيمون بالمدينة التلية إلا لبضع سنوات، يعودون بعدها إلى واحات بني ميزاب، وقد أصبحوا من وجهة نظرهم أثرياء.(86) فيشترون في بني ميزاب حقلا من النخيل، ويتزوجون عددا من النساء يشتغلن في الحقل ولحسابه، وبالتالي يطلق الحمامات العامة التي لا أثر لها في بني ميزاب والحرف الخدماتية الأخرى المشار إليها سلفا.(87)

ب-2- الأغواطيون:

ينتسب الأغواطيون إلى واحة الأغواط الواقعة جنوب الأطلس الصحراوي، في أطراف الصحراء، على إحدى أهم الطرق التجارية الصحراوية، وقد هاجر المنطقة عدد هام من أبنائها في اتجاه المدن الجزائرية خاصة مدينة الجزائر العاصمة، بسبب الظروف المناخية الصعبة وتقهقر التجارة الصحراوية ابتداء من مطلع العصر الحديث، وقد اختص الأغواطيون بمدينة الجزائر في تصفية الزيوت التي يأتي بها الجبايلية أو غيرهم، في فندق الزيت، وكان غالبيتهم يسكنون الفنادق التجارية بالمدينة. كما اشتهروا أيضا بمهنة التنظيف. (88)

ب-3- البساكرة:

ذكر هاينريش أن البساكرة ينتسبون إلى واحة بسكرة- عاصمة الزيبان- بالجنوب الشرقي الجزائري ، ويستمدون اسمهم منها، وهم يمثلون القبائل العربية الصحراوية في المدن التي يتنقلون إليها بحثا عن العمل(89) وتضم جماعة البساكرة عناصر عديدة ومختلفة، وفدت من مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوقرت وطولقا.(90)

ويكون البساكرة في مدينة الجزائر، جماعة نشيطة، تعاطوا نشاطات متواضعة حسب دفاتر المخلفات التي درستها الدكتورة غطاس عائشة، وهي بيع الخضر والفواكه وبيع المشروب المحلى، وحراسة الغنائم، والحمالة، والاستخدام في المنازل، وعجن الخبز وتحضيره، والاشتغال بالحمامات العمومية سيما مهنة " طياب الحمام"، والاشتغال في الأشغال العمومية، وعثرت الباحثة الجزائرية على حالات انخراط البساكرة في الجيش الانكشاري.(91)

وأغلبهم من أولئك الشبان الذين يعودون إلى بسكرة بعد أن يجمعوا شيئا من المال ليتزوجوا ويقيموا هناك بصورة دائمة ، ومكسبهم ضئيل جدا، ولكن قناعتهم تتيح لهم أن يوفروا شيئا من المال.(92)

اشتهر البسا كرة بحمل الأثقال، لذا سموا بالحمالين، ونص قانون صادر سنة 1694 بمحاكمة أي بسكري حمال يمارس شغلا آخر، كما اشتغل بعضهم بالحراسة الليلية داخل

المدينة،[93] وعنهم كتب شالر: " وكثيرا ما يستخدمون في المنازل حيث يتمتعون بالثقة، والبسكريون يحتكرون صناعة الخبز، وهم الذين يحملون الخبز في الجزائر، وهم وحدهم الذين تستخدمهم الحكومة في إنجاز الأشغال العمومية، والبسكريون أيضا هم الذين يعملون أيضا وسطاء في التجارة بين مدينة الجزائر وغدامس." [94]

وعن الحراسة قال شالر: " وفي الجزائر عدد كبير من البسكريين العمي الذين يعهد إليهم بمراقبة الشوارع والأبواب الداخلية في الليل." [95] وقد وافقه أيضا وليم سبنسر عندما قال: " كما اختص البسكريون العمي في حراسة الممرات لمختلف أحياء مدينة الجزائر، فيغلقونها ويحكمون أقفالها خلال الليل."[96] وحسب بعض الكتابات التاريخية نقرأ أن حراسة البساكرة بالمدينة قد امتدت إلى الأسواق.[97]

وأضاف الدكتور محمد أمين أشغالا أخرى، سماها بالمهن الوضيعة،[98] مارسها البساكرة بالمدن الجزائرية أواخر العهد العثماني، فذكر السقاية، تنظيف قاذورات المراحيض، حفر الآبار المائية، تنظيف المداخن، وأخيرا الاشتغال بالموانئ كحراس غنائم أو حمالين أو خدم.[99]

ب-4-الجبايلية:

الجبايلية هم الوافدون من المناطق الجبلية مثل جبال جرجرة والبليدة والمدية وتلمسان وعنابة وغيرها،[100] وبحكم الظروف الصعبة التي كان يعيشها الجبايلية، في مناطقهم الجبلية، اختار هؤلاء الهجرة إلى المدن المجاورة والبعيدة ببلاد الجزائر، بحثا عن العمل. وفي هذا الصدد كتب وليم سبنسر ما يلي: " أما القبائل وبنو عباس والشاوية وآخرون من صلف القبائل المغربية فقد تواردوا على مدن الايالة ليطلبوا الاستخدام..."[101]

وأشار شالر أن سماح السلطة التركية للجبايلية بالهجرة نحو المدن تطلب هدوء سكان المناطق الجبلية –الأمازيغ- والاتفاق على الصلح والكف عن القيام بالاضطرابات ضد النظام القائم. وهو ما نستخلصه من ما كتبه شالر عن الجبايلية قائلا:" وبعد عقد اتفاقيات الصلح بين هذه القبائل (أي القبايل الذين يشرفون على البحر ببايليك الشرق) والحكومة التركية أصبح كثير من أبنائها يقصدون إلى الجزائر وضواحيها للبحث عن العمل."[102]

ونتساءل فيماذا اشتغل الجبايلية وهم بالمدن الجزائرية؟ لقد ذكرت الكتابات التاريخية المعاصرة للفترة المدروسة، أنهم مارسوا الأشغال الآتي ذكرها:

*** الاشتغال كخدم في المنازل :**

اشتغل الجبايلية في منازل العائلات الحضرية الثرية، وفي منازل القناصل الأوربيين بمدينة الجزائر، وقال شالر أنهم " يبدون كثيرا من الذكاء والنشاط والأمانة."(103) ويظهر أن الجبايلي يرفض المكوث مدة طويلة في خدمة مترل أي قنصل إذ لا تزيد مدة خدمته عن ستة أشهر وأوعز شالر ذلك في تعلق الجبايلي إلى حد كبير بمسقط رأسه وحنينه لرؤية جباله.(104)

لكننا نتساءل، لماذا اقترن مغادرة الجبايلي لمترل القنصل الأوربي لرؤية ذويه، بعدم رجوعه لشغله بالمترل نفسه وبالتالي إضاعة مورد رزقه؟ ولماذا لم يتمكن أي قنصل أوربي بالاحتفاظ ولو بخادم جبايلي واحد؟ وهل تبريرات شالر كافية علميا لفهم نفسية الجبايلي وعلاقته بالقنصل الأوربي؟ أم أنه ثمة عوامل أخرى تقف وراء ذلك؟ وهل ما قيل عن الجبايلي الخادم بمترل القنصل هو نفسه بمترل العربي الحضري الثري؟

وما يزيدنا استفهاما هو ما لاحظه شالر بكون أن الموظفين السامين الأتراك، لا يستخدمون الجبايلية في أي عمل مترلي، شأن ذلك التوظيف في المؤسسات العمومية بمدينة الجزائر، ويبرر شالر ذلك قائلا: " والحكومة التركية التي يغار رجالها من ذكاء القبايل وشجاعتهم تعارض استخدام هؤلاء في أي عمل مترلي كان..."(105) .

ويظهر أن الأتراك العثمانيين مستاؤون من الروح الثورية للقبائل البربرية بجرجرة وبجاية وعنابة، (106) أو أنهم مستاؤون من أخلاقهم السلبية التي حاول هاينريش ذكرها لنا حيث كتب أن القبايلي متعصب جلف وعيبه الرئيسي هو البخل إلى درجة لا تصدق ويرضى أن ياكل قطعة خبز وفنجانا من زيت الزيتون يشربه معها، كما يقوم بدفن أمواله التي يجمعها. (107)

وفي السياق نفسه قال هاينريش عن القبايلي أنه رجل نشيط، مثابر على العمل، قوي العزيمة، شديد الاعتدال."(108)

وذكر الدكتور محمد أمين، أن لما كان الأتراك العثمانيون يعارضون دائما اشتغال الجبايلية في بيوت العائلات الجزائرية، اتجهوا إلى أشد الأشغال مشقة كالبناء وحرث الأرض وخدمة الأجانب المقيمين بمدينة الجزائر خاصة عند القناصل في منازلهم، حيث يتمتعون بحمايتهم ضد تعسف الأتراك العثمانيين. أما الذين كانوا يقومون بأعمال خاصة بالمدينة، فكانوا مرغمين بمغادرتها ليلا للإقامة في أكواخ فحص مدينة الجزائر بباب عزون، أو في مغارات باب الواد. (109)

* **الاشتغال بالرعي والزراعة بفحوص المدن:**

يمارس عدد من الجبايلية رعي مواشي العائلات الحضرية الثرية ويشتغلون في جنائنهم وبساتينهم بالفحص، كما يهتمون بزراعة الكروم. وفي ذلك قال سبنسر: " ...ليطلبوا الاستخدام كخياطين ورعاة (في الفحوص)..."(110)

* **الاشتغال بالبناء، و الخياطة.**

* **صناعة الفحم.**

* **الحراسة الليلية** وفرق زواوة دليل على ذلك.

ونبهتنا الدكتورة غطاس عائشة إلى فكرة مفادها أنه ضمن جماعة الجبايلية بمدينة الجزائر، هناك تمييز بين الجبايلية والجبايلية الغرباء، وافترضت تفسيرا لذلك يتعلق بالاستقرار الدائم والاستقرار المؤقت بالمدينة.(111)

ب-5-الجيجليون:

ذكرت الدراسات التاريخية جماعة الجيجلية، وبينت حظوتها ومكانتها الاجتماعية رغم أنها تنتمي إلى فئة البرانية، وكان الحديث عن الجيجليين بمدينة الجزائر، لكننا لا نعرف إن كان هؤلاء لهم نفس الاعتبار كإخوانهم الجيجليون بمدن الجزائر العثمانية الأخرى. وسبب هذه الحظوة الاجتماعية، بررتها الدكتورة غطاس عائشة، حسب روايات تاريخية، أن عناصر جيجلية رافقت عروج وخير الدين واسحاق وجماعتهم المجاهدة إلى مدينة الجزائر، لما استنجد بهم أعيان مدينة الجزائر وعلى رأسهم سالم التومي، ومنذئذ غدا الجيجليون شريحة اجتماعية محترمة بالمدينة لموقفها التاريخي.

وقد وضع "فونتور دي بارادي"، حظوة الجيجليين بمنزلة الحظوة التركية إذ هم دون سواهم من العناصر البرانية لهم حق حمل السلاح وارتداء الملابس المزركشة والمطرزة بخيوط الذهب على الطريقة التركية.(112)

لقد اقتحم الجيجليون بمدينة الجزائر وربما بمدن أخرى بالجزائر العثمانية، صناعة الحرارة، الدباغة، المقايسية، وتعاطى آخرون منهم التجارة، وتحكموا في أفران الخبز التابعة للجيش الانكشاري، وشاركوا في الغزو البحري مما يدل على أن هذا الأخير لم يقتصر على الأتراك والأعلاج والحضر. (113)

ب-6-الزنوج:

تعود أصول الزنوج بالجزائر العثمانية في غالبيتهم إلى بلاد السودان وقليلهم من طرابلس، وقبل أن يكون العدد الكبير منهم أحرارا في الفترة الأخيرة من حكم الدايات بالجزائر كانوا عبيدا سودا، إذ كان التجار التوارق البدويون يقومون بشرائهم مقابل بعض الحاجات الحرفية كالشواشي والأحذية والأقمشة الحريرية، وبالتالي كان العبيد وقتذاك عبارة عن بضاعة للمقايضة.(114)

كانوا يجلبون سنويا من تمبكتو وطرابلس بواسطة قوافل التجارة، كعبيد، وجميعهم أحرار بعد اعتناقهم الإسلام إلا أن بقايا وثنيتهم السابقة لا تزال عالقة في أذهانهم، من خلال الشعائر والطقوس التي كانوا يمارسونها ومعتقداتهم الروحانية اتجاه عالم الجن. ولما كان الجهل يخيم على أغلب سكان المدن من المسلمين واليهود رجالا ونساء، فقد تمكنوا من التأثير على عقول هؤلاء الصنف من العامة، وما حفلات النذور إلا دليل على ذلك.

وأشار شالر إلى أن فئة الزنوج أو المولدين، محدودة العدد مقارنة بالفئات الاجتماعية الأخرى المتواجدة بالمدينة، والتمييز العنصري ضدهم موجود في المدن الجزائرية مثله مثل مدن الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بسبب انحدار السود من أصل العبيد.(115)

وتفيدنا وثائق المحاكم الشرعية بالمركز الوطني للأرشيف بالجزائر العاصمة بقائمة من العلب الأرشيفية، في كل علبة بيانات عتق لعبيد وإماء سود، بمدينة الجزائر، بعضها وقعها ووثقها قاضي المدينة، والبعض الآخر وثقتها المحكمة الحنيفية، والمحكمة المالكية، والآخر تحت إشراف وكيل سبل الخيرات، ودار الإمارة العالية، بالمدينة المذكورة. كما نلفت الانتباه أن العتق الذي يبرهن على وجود العبودية في صف الزنوج رغم محدوديتها كان عتقا فرديا أمام القاضي، وعتقا جماعيا يقوم به جماعة من الأسياد في حالة وفاة سيد العبد أو الأمة،(116) كما قد يكون العتق في شكل وصية يتركها السيد ليتم تنفيذها من قبل القاضي أو غيره بعد وفاته،وأحيانا يستفيد العبد أو الأمة بعد العتق بجزء من الميراث.(117)

وذكرت الباحثة غطاس عائشة أنه كان للعبيد الزنوج قائد يدعى تارة قائد العبيد، وشيخ العبيد أو قائد الوصفان تارة أخرى، وقد انضوى تحت سلطته، العبيد المعتقين.(118)

ب-7-المعتقون:

صنف الباحثون العبيد بالجزائر العثمانية إلى صنفين: عبيد سود (119) أي من بلاد السودان، ويسمون عادة بالزنوج، وعبيد بيض وهم أعاجم، ويسمون الأعلاج بعد تحريرهم

وعتقهم. هؤلاء العبيد عتق الكثير منهم وكان لهم قايد أو شيخ الجماعة، وشكلوا صنفا مميزا فهم ليسوا أحرارا ولا عبيدا، فهم ما بين الحالتين إذ رغم عتقهم، هو مضطرون ليحافظوا على ولائهم لأسيادهم أو سيداقم، لأن عبوديتهم لعائلة ما، أصبحت جزءا من تراث العائلة. لكن في المقابل يصير للعبيد المحررين، علاقات عائلية ومرجعية اجتماعية وواجبات وحقوق فقدوها في فترة عبوديتهم.

وقد امتلك العبيد، ثلاث شرائح اجتماعية، مرتبة حسب حجم ملكيتها للعبيد، هي :

*شريحة الموظفين السامين الإداريين والعسكريين الأتراك العثمانيين، وفي مقدمتهم الداي وباياته والوزراء.

*شريحة رياس البحر والتجار والحرفيين الأثرياء، وفي مقدمتهم الأمناء الحرفيون.

* شريحة الوافدون أو البرانية كالجبايلية والجيجلية، والمعتوقين الذين بدورهم امتلكوا عبيدا ومارسوا العتق.[(120)]

ب-8-السلاويون والجربيون:

بالنسبة لجماعة سلا المنتسبين لمدينة سلا بالمغرب الأقصى، فإن الوثائق تشير إلى استقرار السلاويين ابتداء من 1584-1585 بحومة السلاوي بمدينة الجزائر، ونجهل التفسير التاريخي الذي جعل سكان سلا يمكثون بمدينة الجزائر.

أما جماعة جربة التونسية فيظهر أنهم هاجروا إلى مدينة الجزائر بعد احتكاكهم بالميزابيين، و قد تجمعوا في زنقة جربة أسفل القلعة، وتمارس هذه الجماعة التجارة في سوق جربة ويمثلها أحد الجربيين المهاجرين الذي يتكفل بجمع الضريبة السنوية، ويقوم بعمل الوسيط بين الجماعة الجربية وسلطات المدينة.[(121)]

ت-أهل الذمة:

يقصد بأهل الذمة، اليهود والنصارى، وينبغي في هذا المقام التمييز بين الجماعات الذمية اليهودية والنصرانية، أي بين من عايش المجتمع الجزائري فأصبح جزءا منه، وبين من قدم إلى الجزائر كأجنبي لممارسة تجارة أو حل بها حلولا اضطراريا كأسير.[(122)]

ت-1-اليهود:

سكن يهود الجزائر، المدن الجزائرية قبل مجيء العثمانيين، ولم ير العثمانيون مانعا من استمرار توطنهم بالجزائر، وتحتضن مدينة الجزائر أكبر عدد من اليهود، بين ستة وسبعة آلاف

شخص، وأصولهم أوربية، طردوا من ايطاليا سنة 1342، والبلاد المنخفضة سنة 1350، وفرنسا سنة 1403، وانجلترا سنة 1422، واسبانيا سنة 1462.(123)

و قدرت بعض الكتابات التاريخية عددهم سنة 1830 بمدينة الجزائر بحوالي خمسة آلاف يهودي، تلتف أغلب ملكياتهم حول قصر الداي، ومركز المدينة، وهذا التموقع الاستراتيجي لليهود غير خاص بمدينة الجزائر بل يتكرر في مدن أخرى من الاقليم الجزائري، وقد لعب المال والدهاء دورا في ذلك.(124)

وأشارت الكتابات التاريخية إلى وجود طائفتين يهوديتين بالجزائر العثمانية، طائفة اليهود المحليين أو اليهود المور حسب لوجي دي تاسي، الذين مارسوا أنشطة تجارية وحرفية ثانوية وغير مربحة كثيرا، فكثيرا من هؤلاء كانوا تجارا متجولين، أو حدادين، أو خياطين، وما شابه ذلك. وبالرغم من حصول هؤلاء منذ عهد حكم خير الدين بربروس، على حق ممارسة أنشطتهم بكل حرية، فإنهم كانوا أكثر فئات المجتمع رزحا تحت وطأة الضرائب المتنوعة، كما كان مفروضا عليهم التزام طريقة معينة في اللباس تميزهم عن بقية السكان.

وقد كان على رأس هذه الفئة مسؤول رسمي يدعى مقدم الطائفة، يعينه الداي وينسق مع المحكمة اليهودية في تطبيق أحكامها، المتعلقة بالشؤون الداخلية للطائفة، وكثيرا ما كان هذا المقدم يظفر بالمنصب وموافقة الداي، بالرشوة والتآمر، وهو يمارس وظيفته بقمع واضطهاد يساوي ما ينفقه من المال والجهد للاحتفاظ به.(125)

و ينحصر دوره في تمثيل أبناء قومه، لدى السلطات والتوسط في كل شؤونها سواء المتصلة بالإدارة أو لحل المشاكل الطارئة بين أفراد الطائفة أو بينهم وبين السكان الآخرين.(126) .

والطائفة الثانية هي طائفة اليهود الليفورنيين، أو الأوربيين، الذين كان من بينهم بعض كبار التجار. وتشير الدراسات التاريخية، إلى وجود ثلاثة أحياء يهودية هي :

-حي في أعلى طريق باب عزون باتجاه الباب الجديد.

-حي في أسفل طريق باب عزون باتجاه باب الجزيرة.

-حي بقرب باب الواد.

ومن هذه الأحياء الثلاثة، هناك حيان يسكنهما يهود إفريقيا ويهود الأندلس وفرنسا وايطاليا، وذلك بعد أن كان كل هؤلاء اليهود يسكنون حيا واحدا في عهد البايلربايات 1520-1587. وخلال القرن السابع عشر، كان العديد من اليهود يسكنون أزقة مختلفة، وكانوا يشغلون مائة وثمانون مسكنا، وعلى أية حال صارت أحياء اليهود بمدينة الجزائر في أواخر العهد

العثماني، حيين، مع التوزع عبر أزقة عديدة ، ويقع الحيان ضمن منطقة ذات نشاط تجاري، إلا أن التركز اليهودي موجود بزنقة القورنية، حيث يهود ليفورن الايطالية، وبها مكاتب اليهود المخصصة للتصدير، وحمام الجالية اليهودية، وأيضا يتركزون بطريق باب عزون التي بها دار اللحم بزنقة اليهود التي شهدت مجزرة بحقهم سنة 1805 في عهد الداي مصطفى باشا. وبنفس المنطقة سكن اليهود رفقة البساكرة بزنقة البوزا، وذكرت الكتابات أن اليهود الأثرياء سكنوا بأحياء الحضر، مما يفسر تلاشي النزعة الدينية الطائفية بمدينة الجزائر وأن الذي كان سائدا هو التجمع لمصلحة اقتصادية.(127)

*** اليهود بين الانعزالية والانفتاح :**

إن الخصومات التي قد تنتج عن معاملات بين اليهود والمسلمين، وعمليات البيع والشراء المنصوص عليها في الوثائق الشرعية، زيادة على تداخل الممتلكات بين الطرفين لدليل واضح على تفتح الجالية اليهودية على المسلمين داخل المدينة. لكن هذا التفتح لا يعني تعايشا بين المسلم واليهودي على الدوام بل ذكرت الكتابات التاريخية أن الأتراك العثمانيين والجزائريين هاجموا ممتلكات اليهود سنة 1804 بمدينة الجزائر وانتهت بتدخل السلطة التي عاقبت الجناة المسلمين.(128)

وإذا كان شالر قد كتب أن اليهود وبصفتهم رعايا الدولة الجزائرية العثمانية، قد تمتعوا بحرية المعتقد وممارسة الطقوس اليهودية وحرية التنقل والإقامة حيث يرغبون، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع أنحاء البلاد الجزائرية، ومحرم عليهم الاسترقاق، والسماح لهم باحتكار السمسرة وأعمال المصارف وتبديل العملة، حتى أنهم حضروا بقوة في دار السكة،(129) فإنه في المقابل لم يهمل ذكر الحقوق التي حرموا منها، فمثلا لا يسمح لهم بمقاومة أي نوع من العنف يصدر عن مسلم ضدهم، كما هم مجبرون على ارتداء لباس أبيض أو أسود، ويمنعون من ركوب الخيل، وحمل أي نوع من السلاح، بما في ذلك العصا، ولا يخرجون من المدينة إلا يومي الأربعاء والسبت من كل أسبوع، ويستدعون من قبل السلطة التركية للمشاركة في الأشغال الشاقة عند الضرورة. أضف إلى ذلك أنه في عدة مناسبات قامت فرق الانكشارية بالمدينة بنهب ممتلكاتهم دون تمييز، وحتى الأطفال كانوا يطاردون اليهود في الطرقات.(130) ونلاحظ أن هاينريش في عهد الاحتلال الفرنسي، وافق شالر فيما ذهب إليه بخصوص الحقوق التي لم يحظ بها اليهود في ظل نظام الدايات، فقد كتب هو الآخر أن اليهود في أيام الدايات، "كانوا يحيون حياة

الذل والخنوع والاضطهاد، مجبرين على إخفاء أموالهم وثرواتهم، وعلى ارتداء لباس أسود معتم على الدوام، وكان المسلمون يهينونهم دون أن يكون لهم الحق في رد الإهانة أبدا."(131)

وبناء على ما ذكرته الكتابات التاريخية بصدد هذا الموضوع نعتقد أن اليهود المحليين تفتحوا على الطبقة الاجتماعية المحكومة التي ينتمون إليها وفي مقدمتهم الحضر والبرانية، فسكنوا مثلا مع البساكرة في زنقة واحدة، ومع الحضر كما أسلفنا. أما يهود ليفورن الايطالية الذين كانوا أنشط يهود الجزائر في المجال المالي والاقتصادي،(132) وسيطروا على تجارة الجزائر العثمانية في مجال البضائع والعبيد، فقد تفتحوا على الطبقة الاجتماعية الحاكمة، وانعزلوا عن الطبقة المحكومة، وهذا ما نستشفه من كتابات وليم سبنسر حيث ذكر أن يهود ليفورن قد حظوا بمكانة اجتماعية محترمة خلال عهد الدايات، بحكم معرفتهم بقضايا العملة والتجارة الدولية، وقد وظف زعماء يهود ليفورن في الأعمال التجارية للدولة والقيام بالمفاوضات مع التجار الأوربيين، وهو ما كان يتطلب معرفة باللغات والمعاملات التجارية للبحر المتوسط التي كانت تفوق إمكانيات حكام الجزائر العثمانية، وقاد ذلك إلى احتكار عائلتي بوشناق وباكري للتجارة الخارجية الجزائرية الأمر الذي تسبب في سقوط الدولة سنة 1830.

وكان هؤلاء اليهود المتنفذون نادرا ما تلاحقهم السلطة التركية العثمانية، وإذا لوحقوا فإنهم يتجاوزون ذلك بتقديم مساعدات مالية ضخمة لبيت المال.(133) وعنهم فيما يبدو، كتب شالر أن هؤلاء الأغنياء من اليهود هم الوحيدون الذين لم تثبط عزائمهم لأنهم يتراسلون مع يهود آخرين يقيمون في الخارج، وبواسطة ذلك أصبحت لهم معرفة صحيحة بالشؤون الخارجية، وهم ينغمسون في مختلف أنواع المؤامرات التي يقامرون فيها، أحيانا، بحياتهم.(134)

وقد لعب هؤلاء دورا مؤثرا في الميدان المالي للجزائر العثمانية، فكثير من هؤلاء الأغنياء قاموا بدور الوساطة التجارية، وتقديم القروض المالية بفوائد مرتفعة عند الحاجة، كما أنهم كانوا لا يتورعون عن عرض خدماتهم على رجال الدولة الجزائرية في المهام الاقتصادية والقضايا المالية.(135)

وقد تعرض هؤلاء اليهود الليفورنيون للاحتقار من السكان المسلمين كرد فعل على الأموال التي جمعوها، والنفوذ الذي كان لهم على الأجهزة المالية للبلاد، وهذا ما دفع أغنياء اليهود إلى التقرب أكثر من الحكام، بتوفير الحاجات المادية لهم، حتى لا يتعرضوا للتضييق والقمع، ويتمكنوا من اكتساب الامتيازات التجارية والتهرب من الضرائب. وفي السنوات الأخيرة من عمر الدولة الجزائرية العثمانية أشار شالر أن عددا من الأثرياء اليهود قد تدهورت

أحوالهم وأصابهم الإفلاس، أو وجدوا طريقا للهجرة، بسبب ما حل بهم من اضطهاد.[136] وعاشت الجالية اليهودية الأوربية في عزلة عن بقية المجتمع لا يهمها سوى مكاسبها المادية وأرباحها التجارية، كون اليهود في ظل نظام الاحتكار، برجوازية اجتماعية، سيطرت على الأسواق التجارية وأخذت تمارس ضغطا ماليا على الجهاز الحكومي، كان له فيما بعد أثر على مستقبل الجزائر نفسها، ويتجلى ذلك في إبعاد بقية السكان عن كل مساهمة جدية قادرة على التأثير في المجالات الاقتصادية الحيوية.[137]

*** الزواج اليهودي:**

تحدث هاينريش عن مراسيم الزواج اليهودي نلخصها كالآتي:

-قص شعر العروس التي تجلس في وسط الغرفة.

-تقترب منها قريباتها الواحدة بعد الأخرى، وتأخذ كل واحدة منهنَ خصلة من شعر العروس وظفيرتها.

-يحضر الحاخام ويقطع شعر العروس بقسوة، وتقدم ظفيرة صغيرة لكل قريبة للعروس بعد جمع الشعر بعناية وتبقى الظفيرة ذكرى ثم يقوم الحاخام بتغطية رأس العروس.

-يجتمع العريس بعروسته ويدخل عليهما الحاخام، ليضع خاتم العريس في أصبع العروس، ثم يحضر كأسان مذهبان، فيشرب العريسان الخمر من أحدهما، ثم يرمي الحاخام الكأس على الأرض ويدوسه بقدمه، وبذلك يصبحا زوجين، لأن كسر الكأس هو رمز للارتباط.

-وأخيرا تقدم الحلويات المتنوعة والكثيرة.[138]

*** لباس اليهود:**

كان اليهود بمدن الجزائر العثمانية يلبسون لباسا أسودا من الرأس إلى القدمين، عبارة عن عباءة طويلة تصل إلى منتصف الساقين، وعمامة سوداء تلفها عصابة بلون قاتم ذات خطوط، كل ذلك للتمييز بينهم وبين الأجناس الأخرى الإسلامية والمسيحية. [139]وتطرق وليم سبنسر هو الآخر إلى لباس الرجل اليهودي بالجزائر العثمانية ووافق وصفه، وصف" دي تاسي" إلا أنه أكثر تفصيلا، نختصره كالآتي: " ويلبس اليهودي جببا...ومعطفا ذا أكمام عريضة...وكذلك حزاما عريضا وخناجر كبيرة جميلة في جراب على الجانب الأيسر. وفي الشتاء يلبسون سراويل تضيق عند أدنى الركبة كما يفعل الاسبانيون، وأحذية ملونة توضع في الرجل وتخلع دون أن تلمسها اليد، وضباطات هي عبارة عن نوعية من الأخفاف للجوانب العالية، وبمثل المسلمين كانوا يلبسون دائما غطاء على الرأس."[140]

وذكر لوجي دي تاسي أن المرأة اليهودية تلبس مثل المرأة المسلمة بالمدن، وتخرج إلى الشارع بدون قناع، فوجهها يبقى ظاهرا قصد التمييز بينها وبين المرأة المسلمة التي تحمل قناعا ولا يظهر سوى عيناها.[141] أما وليم سبنسر فذكر حرية نساء اليهود بين العامة، حيث يجلسن باستمرار عند باب منازلهن على الحصير أو الزربية، وهن قليلات العناية بأولادهن، وقد يقصدن عادة الأماكن التالية: المعابد للتدين- السحرة والمشعوذون- المدافن أو المقبرة اليهودية، والحدائق بالفحص...[142]

ت-2-الأسرى(الأرقاء) المسيحيون:

احتجزت السلطة العثمانية بالجزائر في إطار حربها ضد الأوربيين الصليبيين عددا معتبرا من الأسرى المسيحيين، أصبحت المدن الجزائرية تعج بهم، وهم من جنسيات مختلفة، صنفت لدى الحكام العثمانيين ضمن الجنسيات المعادية. وتفيد الكتابات التاريخية أن هؤلاء المساجين قد توزعوا إلى فريقين أحدهما يخدم الحكام في قصورهم، استطاع أن يوفر ثروة مالية طائلة، وعومل بأقصى لطف، والآخر في قبضة الخواص، يرزح تحت ثقل العديد من الممارسات .

وذكر شالر أن الأسير المسيحي الذي يقع في يد القراصنة العثمانيين إنما هو ملك للحكومة، التي قلما تبيعه ولا تتنازل عنه إلا على سبيل الهبة والترضية، وبالتالي فإنه من أندر الأشياء أن يعرض مسيحي للبيع في أسواق الخناسة.[143]

لكن اشتهر الأسرى المسيحيون باعتبارهم عبيدا بيضا في الأشغال الشاقة التابعة للبايليك، فمثلا هم الذين أوصلوا بين الجزر الخمس وربطوها بساحل مدينة الجزائر بعد تهديم قلعة البنيون سنة 1529وفي إنجاز ميناء مدينة شرشال، وقنطرة وادي الشلف سنة 1229هـ/1814.[144]

كما استغلوا في المهن التي يتقنونها سواء البناء أو النجارة أو صناعة وإصلاح الأشرعة وغير ذلك. وفي هذه الحالة كان الأسرى المسيحيون الذين يتقنون مهنة ما، أحسن حالا من لا مهنة لهم، إذ كانوا إلى جانب حقهم في حرية التجول بالمدينة، يتقاضون بعض النقود. [145]

هذه اليد العاملة المسيحية، أخذت تتضاءل بالجزائر، في الفترة الأخيرة من عمر الحكم التركي العثماني إلى أن تم إلغاء الاسترقاق المسيحي سنة 1816 في أعقاب نجاح حملة اللورد اكسموث، التي كانت وراء فك اثنين وأربعين وستمائة وألف أسير أوربي، والدليل على ذلك يتعلق بإنشاء مدينة البليدة الجديدة سنة 1824 حيث وضع يحي آغا العرب أجرة لمن أراد الاشتغال في ذلك.[146]

وعلى ضوء ما تقدم نلاحظ أن مجتمع مدينة الجزائر كان موزعا إلى طبقتين اجتماعيتين متمايزتين من حيث الجاه والمال والنفوذ، وأن الأقلية التركية لم تحكم المدينة لوحدها بل شاركتها فئات اجتماعية أخرى، تمثلت في الكراغلة والأعلاج، وكلهم تقاسموا مناصب الحكم فيما بينهم حسب درجاتها وأهميتها في جهاز الدولة. أما المحكومون فقد تعددت فئاتهم فنجد سكان المدينة الأصليين (الحضر)، والبرانية (الغرباء)، والأجانب (الدخلاء)،وإذا كانت المدينة تعيش في هذا الزخم الاجتماعي، تعددا عرقيا، إلا غالبية هذه الأعراق صهرها الإسلام، في قالب واحد وهو المجتمع الإسلامي -بمذهبيه المالكي والحنيفي- الذي ضم الأتراك والكراغلة والأعلاج والحضر- عربا وبربرا- والبرانية بمختلف انتماءاتهم الجغرافية ، وبقت الأقلية العرقية تشمل اليهود والنصارى، كل واحد متمسك بدينه وطقوسه، لهذا عاش المجتمع الجزائري المسلم في أواخر العهد العثماني، في هدوء، بعيدا عن فضاء الفتنة العرقية أو الصراعات المذهبية الدينية، وما زاد في تماسكه في اعتقادي إلى جانب إسلامه، هو هيمنة عادات وتقاليد قبلها المسلمون بمختلف شرائحهم وأعراقهم، كانت وراء ثبات المسلمين بمدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي سنة 1830، ونحاول في هذا الصدد التلميح إليها بغية اكتشاف دورها في تكريس ذهنية الوحدة داخل مجتمع مدينة الجزائر.

ثانيا-عادات وتقاليد مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

1-الأطعمة والحلويات:

أ-الأطعمة:

ذكر هاينريش أن معرفة الأطعمة لشعب ما يندرج ضمن معرفة عادات وتقاليد هذا الشعب ومن بين الأطعمة التي ذكرها:

***الكسكسي**: وهو طعام مشهور في كل بلاد الجزائر مدنا وأريافا، وهو الأكلة الرئيسية لدى الجزائريين، وأساسه دقيق القمح، يفتل حبات صغيرة عادة، في قصعة مصنوعة من الخشب، ثم يوضع في كسكاس ويطهى بالبخار،[147] ويقدم على شكل كومة به سمن وزبدة وحساء، وبصل وفلفل وخضر، ويسقى بالمرق، ولا يخلو من اللحم أبدا. وقد تكون هذه الملحقات وغيرها قليلة أو كثيرة، متنوعة حسب استطاعة المضيف. وكثيرا ما يصب اللبن أو الحليب فوق كومة الكسكسي. ويكلل ذلك كله عند الأغنياء بالزبيب وبالتين وشرائح البطيخ.[148] وذكر شالر أنه يمكن تقديمه بالبيض المسلوق أو بأعشاب حلوة.

***اللحوم**: يستهلك مجتمع المدينة، اللحوم بشكل محدود، ويكاد يقتصر على الأغنياء . أما الميسورين والفقراء فقليلا ما يتناولونه، ومن اللحوم الرائجة نجد لحم البقر، لحم الضأن، لحم الدجاج، والأسماك.(149)

***شرب القهوة**: ونعتها شالر بمشروب الترف بالنسبة لمجتمع المدينة بالجزائر العثمانية، لأنه لا يشرب الخمر.(150)

***الزبدة**: وتستعمل في تحضير الكسكسي.

***زيت الزيتون**: ويستعمله الفقراء في تحضير الكسكسي .

***البيلاف**:وهو طبخ أناضولي ثابت شاع كثيرا في مدينة الجزائر حسب وليم سبنسر. (151)

***الدولما**: أي المحشوة، وتطبخ على أنواع منها:

-سوبان دولماسي وهي بصل مملوء بلحم الخروف المرحي والأرز.

-يابراك دولماسي، عبارة عن لحم مغلق بأوراق العنب.

***الكباب**: عبارة عن لحم العجول والغنم، وقد شاع في المطبخ الجزائري.

***الكفتة**: عبارة عن كراكب من اللحم وتطبخ بطرق متنوعة.(152)

***أطعمة أخرى**: مثل الحليب، الخمر، الزيتون، الفواكه، والخضروات.

ب-الحلويات:

***المشلوش(الكعك)**:وهي قطع صغير من الطحين تصنع بالعسل وتنقع في الزيت ثم يُذرذَر فوقها السكر، وتوضع فوقها بعد ذلك قطع من البيض المسلوق.

***الزلابية**: نوع من الحلويات، زيتي دسم طري، ويعوم في حساء من العسل.

***البوراق**: طعام صلب ومجوف في وسطه لحم محلى بالعسل.

***القطائف**:وهو على شكل دُود من العجين المقطع، وكانت القطائف محلاة بالعسل والسكر.

***البقلاوة**: وهي حلوى تركية الأصل محشوة باللوز والزبيب، دسمة جدا، زيتية ومشربة بالعسل.(153)

2-الاحتفال بالمناسبات الدينية:

*** عادة الاحتفال بيوم الجمعة:**

كان سكان مدينة الجزائر العثمانية يحتفلون بيوم الجمعة، بتنشيط ألعاب بهلوانية شبيهة بالمصارعة، التي كان يمارسها الأتراك العثمانيون، وخلاصتها أن يتقدم أشهر اللاعبين أزواجا،

ويصعدون على الحلبة المعدة لذلك، ويتجمع الناس حولها، ثم يشرع المتصارعون في مصارعتهم القائمة على خفة الحركة والمهارة في الغلبة وإظهار القوة.

وإلى جانبها هناك لعبة أخرى، تسمى لعبة العصي، ومفادها أن فرسان الصبائحية يسيرون الواحد تلو الآخر ويرمون عصيهم التي تشبه الرماح على بعضهم البعض، والفائز هو الذي يصيب صاحبه، وفي نهاية اللعبة يركب الباشا أيضا فرسه ويسير خلف أحد الفرسان ويحاول إصابته بعصاه، والفارس المحظوظ هو الذي يصيبه الباشا بعصاه، لأنه عندئذ يترل عن فرسه ويقترب من الباشا لقبض بعض المال.

وإذا كان العامة يكتفون بمشاهدة سيناريو اللعبة فإن الخاصة كانوا يمكثون حيث نصبت خيمة الباشا، ويقضون بعض الوقت في الأكل والشراب واحتساء القهوة.(154)

***احتفالات شهر رمضان:**

أشار هاينريش أن شهر رمضان من كل سنة، هو شهر الحلويات والضيافة والأفراح عند الجزائريين، لكن الحفلات الوحيدة الصاخبة التي نقلها الأتراك العثمانيون إلى الجزائر والتي تقام في هذا الشهر حتى في العهد الفرنسي هي حفلات القرقوز التركي، وكان يحضر القرقوز مئات الأشخاص، ويتم ذلك بعد الإفطار.(155)

ومن عادات شهر رمضان بالمدينة، ختم صحيح البخاري في المساجد وإضاءة الشموع فيها وفي غيرها، وأهم ظاهرة اجتماعية في هذا الشهر هي أن المدينة تسهر خلافا لسائر الشهور، فقد جرت العادة أن لا يخرج أحد من داره من سقوط الظلام إلى شروق الشمس، أما في رمضان فالجميع يخرجون ويسهرون حتى النساء، ومن الواضح أن المرأة لا تخرج وحدها في هذه المناسبة.(156)

أما موريتس فاغنر الألماني، فقد كتب عن الاحتفال في شهر رمضان، فقال أن طعام الصائمين في الليل الكسكسي بالزيت، يضاف إليه اللحم المقلي والفواكه، وبعد الفطور ينصرفون إلى سماع الموسيقى طيلة شهر رمضان، ويتسلون بمشاهدة الرقص والعروض المسرحية والهزلية المتنوعة كعروض القرقوز.(157)

***احتفالات عيد الفطر:**

يعرف عيد الفطر عند الأتراك العثمانيين بـــ "قربان بيرام"، ويقوم المسلمون على اختلاف أجناسهم بالمدينة الجزائرية بالاحتفال بهذا العيد مباشرة بعد إتمام شهر الصيام، وتتجلى أشكال الاحتفال في ارتداء المسلم الساكن بالمدينة أجمل ثيابه عكس الريفي الذي لا يأبه بالثياب

الجديد ويسمى عند الجزائريين بالعيد الصغير أي عيد الأطفال وفي هذا اليوم، تقدم الهدايا للأطفال التي غالبا ما تكون في شكل نقود.(158)

وذكر فاغنر أن فرقا زنجية تجوب أحياء المدينة عازفة أنغاما موسيقية صاخبة، بواسطة الطنابير والصفائح الحديدية، وموسيقاهم ذات ايقاع همجي، وتصاحبها حركات الفنانين السود، وتمثيلهم الصامت واهتزازات أجسادهم، منتظرين نقودا يهديها لهم الناس. وكان هؤلاء السود هم أنفسهم الذين يوقظون الداي بمدينة الجزائر من نومه صبيحة العيد، ويعزفون موسيقاهم في قصر القصبة –ونعتقد أنهم كانوا يعزفون أمام قصر الجنينة قبل 1817م- مثلما يفعلون ذلك في الأماكن الأخرى، ويتلقون عليها الهدايا.

ويرتدي المسلمون في أيام العيد، الثلاثة، أجمل ما لديهم من ألبسة، خاصة الأطفال، ويشير فاغنر إلى أن احتفالات العيد أيام العثمانيين كان يشوبها الإهانات والمعاكسات ضد اليهود والمسيحيين الذين لا يبرحون منازلهم، وكان السكان يرهبون من رجال شرطة المدينة، فالمرح والبهجة حملت في ثناياها حذرا.(159)

***الاحتفال بعيد الأضحى:**

يدعوه الأتراك العثمانيون بعيد القربان "بيرامي"، وذكر سبنسر أن الاحتفال بعيد الأضحى يتم بدءا من إطلاق نيران البنادق بكثرة، عند بزوغ الفجر، ولما تقام صلاة العيد تفتح أبواب قصر الداي على مصراعيها، للعامة، ويقدم الكسكسي المطبوخ، لكل الحاضرين. ثم يستعد الداي لاستقبال تهاني وهدايا أعضاء حكومته وممثلي الحكومات الأجنبية المقيمين في مدينة الجزائر، ثم يقود وجهاء المدينة وأوجاقها وسكانها إلى جامع الحواتين، حيث يقع ذبح الأضحيات، تحت وقع طلقات البنادق وموسيقى الفرقة العسكرية.(160)

وعن تجاوب وتنظيم نظام الداي مع الاحتفال بالعيدين الإسلاميين: عيد الفطر وعيد الأضحى خلال كل سنة، كتب وليام شالر ما يأتي: " وعيد الفطر...مثل عيد الأضحى ...مناسبة جليلة تعلنها طلقات المدافع المدوية ويطلق المسلمون فيها العنان للفرح والسرور. وفي هذه المناسبة تجري ألعاب شعبية وتصفف موائد الطعام في القصر وفي كل مكان".(161)

واقتضت بروتوكولات نظام الداي أن توجه الدعوة إلى قناصل الدول الصديقة والمستقلة، وكذا رئيس الطائفة اليهودية بالجزائر، للمشاركة في الاحتفالات، في وسط الجماهير من أجل تقديم تحياتهم وتهانيهم إلى الداي، بمصافحة يده والانحناء أمامه.(162)

3–الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية:

*** الزواج الإسلامي في المدينة:**

تطرق شالر إلى عادة الزواج في المدينة بين المسلمين، وقال أن أغلب الرجال المسلمين يكتفون بزوجة واحدة، تلحق بها عددا من الإماء، والقليل منهم يعددون زوجاتهم.(163) وذكر سبنسر وشالر، أن حفلات الزواج بالمدينة الجزائرية خلال العهد العثماني تختلف حسب الظروف المالية للعائلات، وكلهم استقوا معلوماتهم عن عادة الاحتفال بالزواج الجزائري انطلاقا من عائلات برجوازية حضرية بمدينة الجزائر، وكلاهما بينا دور الأمهات والعلاقات النسوية في التخطيط للزواج وعقده، فشالر وليم، يرى أن النساء يلتقين في زيارات متبادلة للبيوت، أو في الحمامات العمومية، التي يتردد عليها النساء كثيرا، ويستغرقن عدة ساعات متوالية في الحديث الممتع، من بينها أحاديث الزواج والشباب والشابات.

أما وليم سبنسر فقد كتب معلومات عن عرف التوسط في الزواج بين الشاب والشابة، وقال أنه عادة ما يتم على يد امرأة متقدمة في السن، تربطها علاقة قرابة أو صداقة بين عائلة العريس وعائلة العروس، لكنه ركز في مجال التوسط على السيدات المتزوجات المتوسطات في السن، وذكر أنهن يزرن بيوت العائلات اللائي لهن بنات في سن الزواج، ويستعلمن عن أحوالهن الشخصية التي قد تفيد العائلات اللائي تردن تزويج أولادهن الشباب، كما يمكن أن تقدم النساء الزائرات معلومات اقتصادية عن عائلة العروس بإيعاز من عائلة العريس.(164)

ولما تتفق النساء سرا وفي الكواليس على الخطبة وعقد الزواج، يجهر بذلك أمام أهل الزوج والزوجة من الرجال لعقد الفاتحة الشرعية التي يقدم خلالها الصداق، وإقامة العرس والإعلان عنه في احتفال يجمع الأهل والأقارب. ولما تتم الفاتحة أو العقد الشرعي بين العروسين، تقام عقبها حفلة دينية، وبعد مدة، يتم الزواج، فترتدي العروس ثوبا أبيضا وتتزين بمجوهرات قريباتها، وتبذل مجهودا في التصنع والتجميل، ومن يحضر العرس يليق به أن يحمل هدايا للعروسين.(165)

وذكر سبنسر أن الزوج، يقوم بجولات في نواحي مدينته قبيل حفل زواجه، لتكون الجولة الأخيرة في يوم زفافه، يحمل سيفا رفيعا، ويرتدي جلبابا أحمر، وخمارا ملقى على وجهه اعتقادا منه أن ذلك يحول بينه وبين الشيطان، وخلال الثلاثة أيام للحفل، يؤخذ العريس إلى الحمام إلى أن يلتحق بزوجته. أما الزوجة فتنتقل إلى بيت زوجها على ظهر حصان، تمتطيه في هودج ويرافقها أهلها وصديقاتها حاملين المشاعل والمزامير والطبول.(166)

ويبدو أن سبنسر استقى أخبارا عن ذهاب العروسة إلى الحمام وكيفية الاحتفال باستحمامها، لكن يظهر أنه التبس عليه الأمر فأخلط بين استحمام المرأة العادي الأسبوعي باستحمام المرأة العروس بعد أيام معدودات من زفافها، وعليه ذكر سبنسر أن استحمام العروس يختلف قليلا عن استحمام الرجل ولعله كذلك العريس، فكتب مقطعا نلخصه فيما يأتي:

-تمر المرأة على نفس مراحل البخار التي يمر بها الرجل.

-تغسل جسدها مستعملة ماء الزهر.

-تبخ خادمات الحمام عليها بالمسك والعطور الأخرى.

-تصبغ حاجبيها وتلبس ثيابها ثم تتناول مشروبا محلى وفاكهة وجوزا وحلويات أخرى في جو موسيقي ورقصات لفتيات.(167)

وكتب موريتس فاغنر –الرحالة الألماني- عن أعراس الجزائريين وقد حضر حفلة عرس عربي بمدينة الجزائر وحفلة عرس كرغلي في مستغانم وحفلة عرس تركي في عنابة، ويصف الحفلات بأنها كانت كلها متشابهة، وسجل لنا الملاحظات التالية:

-تقدم في حفلات الأعراس، الكسكسي والخروف المشوي والفواكه المختلفة، خاصة البطيخ والتمر والبرتقال، الذي يوجد في مدينة الجزائر طوال السنة تقريبا، وفي النهاية تقدم القهوة ويستمر تقديمها حتى الصباح، وذلك أثناء مشاهدة عروض فنية.

-يحضر العرس، موسيقيون ومغنون، يقودهم موسيقار الداي، الذي يقوم بالدور الأول حيث يحدث الحاضرين طورا ويغني طورا آخر، أما الراقصات فهن –حسب فاغنر – من بنات الشارع، وغالبا ما يرتدين ثيابا فاخرة، ويمارسن مهنتهن لقاء بعض المال.(168)

***الاحتفال بالختان :**

حدثنا الدكتور أبو العيد دودو –رحمه الله- عن انطباعات الرحالة الألماني فاغنر موريتس فيما يخص حفلات الختان بمدينة الجزائر، فقال أن ختان الأطفال يتم على يد رجل يدعى البشار، ويختن أطفال الفقراء مجانا . أما أطفال الأثرياء فينتظر هدية لاتزيد عن ثمانية بوجو في عصر فاغنر، وقد يقدم أهل الطفل الطعام في مناسبة الختان ويقيمون حفلة تشبه حفلة العرس حيث تتزين النساء ويرقصن على أنغام الموسيقى ويزغردن.(169)

4-عادات أخرى:

*** ارتياد المقاهي:**

ما ميز الحياة الاجتماعية بمدينة الجزائر العثمانية وغيرها من مدن البلاد، ارتياد سكانها المقاهي[170] التي اعتبرت مكانا يلتقي فيه المعارف لشرب القهوة والتمتع بنغمات الموسيقى الأندلسية وعرائس القراقوز في كثير من الأحيان، وبالتالي الترفيه عن النفس وصد السأم .

كثرت المقاهي الشعبية بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، وقد سبق لنا في الفصل الأول أن قمنا بتعدادها وتسميتها، وذكر موريتس فاغنر في أوائل الاحتلال الفرنسي أن المقاهي العربية بالمدينة من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الجزائريين، ويتعلم تعابيرهم الشعبية، وقد يرتادها كثيرا، الحضر والأتراك، وكلهم يجدون في المقهى ملاذهم للحديث الممتع، إلى جانب العناصر الزنجية والعناصر البرانية وحتى سكان الفحوص من أهل الريف، ويقدم الندل وهم من أبناء الحضر الذين لا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة، بلباسهم النظيفة، لهؤلاء الزوار القهوة في فناجين خزفية فوق صحون من الصفيح، ويوضع فيها مسحوق من السكر، وعادة ما يدخن الجزائري وهو يشرب القهوة .

ويظهر أن العادة قد استمرت في العهد الفرنسي فيما يخص عزف مقاطع موسيقية في المقاهي الكبيرة، من طرف فرق جوق موسيقي تستعمل الناي والقيتار والرباب وغيرها، وعادة ما تكون الموسيقى هادئة ورتيبة يتجاوب معها مزاج رواد المقاهي.[171]

*** ارتياد الحمامات:**

كتب شالر أن إقبال سكان مدينة الجزائر العثمانية، من المسلمين والمسلمات على الحمامات العمومية، واسع وكبير، وبالتالي الحمامات كثيرة من أجل استيعاب هذا الجمهور،[172] الأمر الذي دفعنا إلى إدراجها ضمن عادات المجتمع في الجزائر العثمانية. وقد كتب هاينريش عن هذه العادة، والغرض من وراء هذا الإقبال، ذاكرا أن الاستحمام يفيد في معالجة السعال والنزلة وداء المفاصل، فلما يلج الشخص إلى الحمام، يقدم له شاب ميزابي، إزار يلفه حوله، وقبقاب يلبسه، ثم يدخل القاعة الثانية ذات البخار الحار، فيتمدد المستحم فوق غطاء الدكة المرمري التي تتوسطها، ثم ينبطح فوق لوحة مرمرية، وعندئذ يبدأ الخدم الميزابيون بالمسد والدلك بقفاز مصنوع من شعر الحصان.

بعدها ينتقل إلى القاعة الثالثة وهي أكثر القاعات حرارة، وفيها يبدأ المسد والدلك من جديد، وسحب الأعضاء وفرقعة المفاصل، ثم يبدأ الغسل بدءا من الرأس ثم الجسد.

يلف المستحم بعد ذلك في لباس، وتوضع فوق رأسه عمامة كبيرة ويتوجه إلى القاعة الأولى ليستريح على فراش، ثم تقدم له القهوة. ثم يأتي شاب ميزابي ويدلك الجسد مرة أخرى خلال مدة الاستراحة.(173)

وفيما يتعلق بالمرأة المدينية الحضرية في الحمام فقد كتب وليام سبنسر أنها تزور الحمام يوما واحدا في الأسبوع، ابتغاء للطهارة الجسدية، وإظهارا لزيها أمام نساء المدينة إلى جانب تبادل الأخبار العائلية مع معارفها. واستنتج سبنسر أنه مادام الحمام مناسبة لعرض النساء الحضريات لأزيائهن فإنه من غير المستبعد أن يلبسن الذهب والحلي المرصعة بالأحجار الكريمة وحبات المرجان المجلوبة من مراكز صيد المرجان بالقالة وعنابة.(174)

وقد لخص سبنسر وليم، الدور الاجتماعي للحمامات العامة، إلى جانب دوره التنظيفي والصحي في النقاط الآتية:

-الاتفاق على الزواج، وعادة ما يتم ذلك في وسط نسوي.

-التحدث عن مراسيم الدفن.

-الاتفاق على الأعمال التجارية وعادة ما يكون حديث الرجال.

-عرض ومناقشة الحوادث العائلية.(175)

*** دفن الموتى المسلمين:**

ذكر لامبير Lambert الفرنسي أن لما يتوفى المسلم يقوم أهله بغسله وكفنه بأغطية ثم وضع حايك على جثته، وإحاطته بحزام على مدار كليتيه، وعند اقتراب صلاة الظهر يحمل الميت في تابوت على أكتاف أربعة رجال وتسير الجنازة في قافلة من الأشخاص مشيا على الأقدام بخطى متوازنة، وكانت النساء تمشين خلف الرجال ويمنعن من البكاء والعويل.

تتجه الجنازة إلى المسجد، وبعد إتمام صلاة الظهر يعلن الإمام صلاة الجنازة، على المصلين، وبعد ذلك تسلك الجنازة طريقها إلى المقبرة لدفن الميت في قبره ذي الشكل المستطيل. ويوضع الميت على جهته اليمنى ورأسه نحو القبلة ويده اليمنى عند أذنه اليمنى التي يرقد عليها، ثم يوارى عليه التراب. ويتم تعيين القبر بأحجار عند رأس الميت وعند قدميه ولا يوجد عند القبر كتابة تدل على اسمه وتاريخ وفاته ولا يمكن تمييزه عن بقية القبور، لكن في موضع آخر يكتب أن اسم الميت وآيات قرآنية، تنقش على القبر.(176)

***الحزن على الميت:**

ذكر وليم سبنسر بعض مظاهر الحزن التي تتحلى بها نساء مدينة الجزائر بعد وفاة شخص من ذويها، فقال أنه بعد دفن الميت، يلبس أهله من النساء اللباس الأسود تعبيرا عن حزنهن، كما يقضين وقتهن كل صباح ولمدة ثمانية أيام، حول القبر، ينشدن ويتذكرن ويرددن الخصائص الحسنة للميت، وبعد انقضاء الثمانية أيام يقمن بزيارة قبر الميت كل يوم جمعة وكأنه واجب الوفاء، ويتحللن من عادة اللباس الأسود، لكن تبقى أرملة الرجل ذي المكانة الاجتماعية، تعبر عن حزنها لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وخلالها تخلع خواتمها وتلبس عن قصد ثيابا قديمة.
ويذكر سبنسر أن الأرملة التي فقدت زوجها تتوجه بعد انقضاء فترة أربعة أشهر وعشرة أيام، إلى حافة البحر حاملة حقيبة صغيرة من الأمشاط والبيض غير المطبوخ فتعطي لأول المارين بها، وهذا العمل كان يحللها من محنتها وتستطيع الزواج من جديد.(177)

ثالثا–دور الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني:

أصبح حق الأوقاف في الجزائر العثمانية حقا مشروعا، اكتسب حصانة ومناعة تبعد أنظار الطامعين وأصبحت الأملاك الموقوفة في مأمن من الضرائب والمصادرات، وهذا ما أعطى لمؤسسات الأوقاف بالمدينة الجزائرية الفرصة، وسهل لها السبيل في الارتقاء بالعمل الخيري في أوساط المجتمع المديني بالجزائر العثمانية حتى أصبحت هذه المؤسسات الوقفية التي حازت أملاكا عقارية وأراضي زراعية ومراعي وغابات بفحوص المدن، مؤسسات رعاية اجتماعية ومركز تعليمي ديني حافظ على الحياة الدينية والثقافية داخل المدينة.
ويمكن تمييز عدة أنواع من الهيئات الإسلامية المنبثقة عن مؤسسات الأوقاف منها:

***مؤسسة سبل الخيرات:**

تختص هذه المؤسسة الوقفية بالأحناف (أتباع المذهب الحنيفي بمدينة الجزائر)، وهي مؤسسة خيرية أسسها شعبان باشا سنة 1073هـ/1662م، وقد كانت تشرف على تسيير ستة جوامع حنيفية ومسجدين بمدينة الجزائر هي كالآتي:

-الجامع الجديد.
-جامع صفر.
-جامع شعبان باشا.
-جامع كتشاوة.

-جامع حسين داي " ميزومورطو".

-جامع علي خوجة.

-مسجد دار القاضي.

-مسجد الشبارلية.(178)

وهكذا نلاحظ أن مؤسسة سبل الخيرات الحنيفية بمدينة الجزائر، تنفق أموالها في بناء المساجد الحنفية في الغالب، والزوايا وترميمها، أو في إقامة بعض العيون وتهيئة الثكنات ومساعدة أشراف المدينة والتكفل بدفع أجور الطلبة المكلفين بتلاوة القرآن بالمساجد وتوزيع بعض الصدقات.

***مؤسسة أوقاف الأولياء والمرابطين:**

تخصص مدا خيلها لرعاية وصيانة أضرحة هؤلاء الأولياء الذين تكاثر عددهم وتضخمت عائدات أوقافهم لا سيما في مطلع القرن التاسع عشر، كما يوزع جزء من المداخيل أيضا على فقراء المدينة، ونشير إلى أن مؤسسة أوقاف الأولياء والمرابطين بمدينة الجزائر وحدها حازت أملاكا موقوفة على تسعة عشر وليا، تقع كلها بالمدينة.

وذكر علي تابليت أن أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي (1387-1468) تأتي على رأس أوقاف الأولياء والمرابطين، قدرت سنة 1830 بإثنين وثمانين وقفا ذات دخل سنوي يصل إلى ستة آلاف فرنك فرنسي قديم.(179)

***مؤسسة أوقاف أهل الأندلس:**

أصبحت مؤسسة أوقاف أهل الأندلس بمدينة الجزائر العثمانية، مؤسسة خيرية ذات مردود مالي محترم يوزع على بعض العائلات المنتسبة إلى أهل الأندلس.(180) فالأوقاف التي كانت تسيرها، كان مردودها الذي قدره ألبير ديفولكس بأربعة آلاف فرنك فرنسي قديم خلال السنة، يخصص للإنفاق على المكلفين بالتعليم والشعائر الدينية، بالإضافة إلى ما كان يرصد لسد حاجيات أبناء السبيل والفقراء والمعوزين، كما خصصت بعض أملاكها الوقفية للإنفاق على الحرمين الشريفين تعبيرا عن ارتباط الأندلسيين بالأماكن المقدسة روحيا.(181)

***مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين:**

احتضنت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، كسائر عواصم الولايات العثمانية، مؤسسة الحرمين الشريفين –مكة والمدينة المنورة- الوقفية، ونظرا لأهمية أوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر، والتي قدرها ديفولكس بثلاثة أرباع الأملاك الموقوفة بمدينة الجزائر، فقد سهر على

تسييرها عدد هام من الموظفين، بعضهم تركي والبعض الآخر أندلسي، وكانت مداخيل الأملاك المحبسة تجمع وتضبط، وتصفى جل الحسابات المتعلقة بها، بالمجلس العلمي القضائي الأعلى، الكائن مقره بالجامع الأعظم، بحضور اللجنة المشرفة على مؤسسة الحرمين، وكذا المفتيين المالكي والحنيفي، والقاضيين المالكي والحنيفي، وبحضور شيخ البلد وأمين الأمناء، وممثل عن الجيش، ويتم ذلك كله تحت رعاية الداي.

ولا يستفيد فقراء مكة والمدينة المنورة وحدهم بمداخيل تلك الأحباس، بل تقتطع منها مبالغ لتسديد رواتب الموظفين، وأخرى لصيانة العقارات الموقوفة وغير ذلك، وما يبقى من ذلك كله يوجه صدقة، سنويا إلى فقراء المدينتين، وهو ما يعرف بالصرة، التي كان يكلف أمين بيت المال، بحملها في موسم الحج مع أمير الركب الذي يترأس موكب الحج. (182)

ورصد لنا ألبير ديفولكس بيانا للأملاك الموقوفة لصالح فقراء الحرمين الشريفين بالمدينة المذكورة اعتمادا على سجل يعود تاريخه إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي، وهي كالآتي: (183)

نوع الوقف	العدد	المدخول
الديار	80	26, 653 فرنك فرنسي.
الحوانيت	258	4, 278.60
المخازن	33	449.70
الأفران	11	102.60
المقاهي	04	161.70
الفنادق	01	135.00
الجنائن	62	1,257.45
المطاحن	06	97.50
الغرف	82	846.65
الحمامات	03	200.45

ويلاحظ أن وتيرة التحبيس قد تصاعدت في أواخر العهد العثماني لصالح فقراء الحرمين الشريفين، حيث يفيدنا سجل من سجلات البايليك ببيانات تتعلق بأملاك وقفية خاصة لصالح فقراء الحرمين الشريفين، تمتد على مدار الفترة الواقعة بين 1791-1829 نوردها كالآتي:

-78 مخزنا خاصا .

-92 فندقا.

-90 بين كوش وأفران.
-85 بين بيوت وغرف.
-68 حانوتا
-92 حماما.[184]

وإذا كان التصاعد في حجم التحبيس لصالح مؤسسة الحرمين الشريفين، في أواخر العهد العثماني فإنه في المقابل كان هناك تراجع في عدد الأسر بمدينة الجزائر المشتركة في أحباس الحرمين بين 1781 و1830، وبرر خليفة حماش ذلك بانقطاع الحج بفعل حملة نابليون بونابرت على مصر ونشاط الحركة الوهابية وسيطرتها على مكة والمدينة بين 1803-1805.[185]

وختاما لهذا الفصل يمكننا ملاحظة إحدى خصوصيات مجتمع المدينة الجزائرية في أواخر العهد العثماني، والتي تغيب في مجتمع الريف، ومفادها أنه كانت مدينة الجزائر المحروسة في الفترة المدروسة، مدينة كبيرة بثقلها البشري، و مجتمعها موزع إلى طبقتين، حاكمة ومحكومة، وكل طبقة مصنفة بدورها إلى فئات أو شرائح اجتماعية، مرتبة حسب وضعها المعيشي والمادي، ونفوذها السياسي، كما يلاحظ أن مجتمع مدينة الجزائر، كان مجتمعا متعدد الأجناس والأعراق، فمنهم التركي، والأوربي، والعربي، والبربري، واليهودي، ناهيك عن تعدد أديانه ومذاهبه، حيث نجد الدين الإسلامي هو المهيمن، مع ازدهار للمذهب الحنيفي على حساب المذهب المالكي، وهامشية المذهب الإباضي الذي كان يتمذهب به الميزابيون.

ورغم هذا التنوع في الثقافات والفوارق الاجتماعية ظل مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني متماسكا، وتعايش المسلمون مع بعضهم البعض ومع أهل الذمة، وجمعت بينهم المصلحة الاقتصادية.

وما لفت انتباهنا أنه إذا كانت الهوية الإسلامية هي التي كان لها باع طويل في استمرار ذلك التراص الاجتماعي، فإن العادات والتقاليد التي جمعت مسلمي المدينة رغم اختلافاتهم المذهبية وفوارقهم المادية وتباين أصولهم، كان لها هي الأخرى نصيب من هذا التماسك الاجتماعي، دون إغفال دور الوقف أو الحبس باختلاف أنواعه وتعدد أصنافه، الذي كان موجها لخدمة سكان مدينة الجزائر من المسلمين، عملا بالسنة النبوية وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، والذي أثبت نجاعته وفعاليته، في تمتين التماسك الاجتماعي، من خلال تنظيمه في شكل مؤسسات خيرية وفي إطار تشريعي واضح ودقيق يقصي البيع والشراء والوراثة لكل الأملاك الموقوفة.

الهوامش

---

(1) شالر ، وليام. **المصدر السابق**، ص 74.

(2) Esquer, Gabriel. O**p.Cit.,** p.72.

(3) **Ibid.,**p 73

(4) أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1،المرجع السابق**، ص 180.

(5) **المرجع نفسه**، ص 222(هامش).

(6) كان الانتماء الأناضولي هو الطاغي على طائفة الأتراك.

(7) معاشي، جميلة." اندماج الانكشارية في المجتمع القسنطيني من خلال سجلات الزواج والطلاق بأرشيف ولاية قسنطينة." **أعمال الملتقى الدولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري بقسنطينة، 2001، صص.204- 205.

(8) أمين، محمد. "ملاحظات حول سياسة التهميش ووضع المهمشين بولاية الجزائر العثمانية". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 25، زغوان، تونس، 2002، ص ص 24-26.

(9) اليطغان هو السيف الحاد من الجهتين.

(10) غطاس، عائشة. **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830.مقاربة اجتماعية واقتصادية**. أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2000-2001.ج1. ص 08.

(11) أمين، محمد. **المقال السابق**، ص ص 24-26.

(12) غطاس، عائشة. **المرجع السابق**. ص ص 7-10

(13) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**. ص 111.

(14) **المصدر نفسه**، ص 119.

(15) أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...ج1، المرجع السابق**، ص 182.

(16) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص 105.

(17) شالر، وليم. **المصدر السابق**، ص 54.

(18) **المصدر نفسه**، ص 107.

(19) De Tassy, Laugier. **Histoire du Royaume d'Alger.Eds Loysel**, Paris, 1992, P.58.

(20) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**.ص 119.

(21) Dentu, A.G. **L'Histoire et les Révolutions D'Alger**. Imprimerie –Librairie De G-A. Dentu, Paris, 1838.p.10.

(22) De Tassy, Laugier.**Op.Cit**, P.59.

(23) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص 86.

(24) De Tassy, Laugier. Op. cit., p.58.

(25) أبو القاسم سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...ج1، المرجع السابق**. ص 158.

(26) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص89.

(27) **المرجع نفسه**. ص 90.

(28) سي يوسف، محمد. "المرأة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني" **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**. العدد 25، زغوان تونس، 2002، ص 73.

(29) Rozet, M. **Voyage dans la Régence D'Alger**. Paris, Arthus Bertrand, Libraire-Editeur, Tome 02, pp.276-277.

(30) أمين، محمد .**المقال السابق**. ص 27.

(31) De Tassy, Laugier. **Op.Cit,** P.57.

(32) شالر، وليم. **المصدر السابق**. ص 55.

(33) معاشي، جميلة، **المقال السابق**. ص ص.204- 205.

(34) سي يوسف، محمد. **المقال السابق**، ص 67.

(35) Ocal Oguz. « Mariage entre les Turcs et les Femmes D'Afrique du Nord et problème de Kuloglu. » **In Arab Historical Review For Ottoman Studies**.n°29/2004, pp.93-95.

(36) شالر، وليم. **المصدر السابق**. ص 56

(37) انتشر الكراغلة في المدن الجزائرية التالية:

-مدينة الجزائر (العاصمة المركزية).

-مدينة تلمسان.

-مدينة معسكر .

-مدينة مستغانم.

-قلعة بني راشد.

-مازونة.

-مليانة.

-المدية.

-القليعة.

-بسكرة.

-قسنطينة.

-عنابة.

(38) سي يوسف، محمد." **المقال السابق**. ص 67.

(39) غطاس، عائشة. **المرجع السابق**. ص ص 15-16.

(40) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800–1830**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979. ص 227.

(41) شالر، وليم، **المصدر السابق**. ص 56.

(42) Rozet, M. **Op.Cit, Tome 02**, p.293.

(43) الكيلة الواحدة تعادل 25 كيلوغراما.

(44) أمين، محمد.**المقال السابق**، ص 27.

(45) Gaid Mouloud.**Op.Cit**. P. 200.

(46) شالر، وليم. **المصدر السابق**. ص 83.

(47) Rozet, M **Op. Cit**, p.293.

(48) François Arnoulet. « La condition de renégat dans les provinces ottomanes d'Afrique du nord. » **In Arab Historical Review For Ottoman Studies**.n°21,2000, p11.

(49) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص.82.

(50) François Arnoulet.**Op.Cit**, p.15.

(51) Laugier de Tassy.**Op.Cit** P.57.

(52) غطاس، عائشة. **المرجع السابق**، ص ص 17-19.

(53) Noushi André.**Op.Cit.** p 38.

(54) برنيان أندري، وآخرون. **الجزائر بين الماضي والحاضر**.ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984 ص. 203. وأيضا:

غطاس، عائشة. **المرجع السابق**، ص 05.

(55) هاينريش، فون مالتسان.**المصدر السابق**، ص56.

(56) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة... المرجع السابق**، ص 197.

(57) Gaid Mouloud. **Op . cit.,** p.201.

(58) شالر، وليم، **المصدر السابق**، ص 80.

(59) دلندة، الأقرش. " المدينة وفضائها الخارجي. المنستير في القرن التاسع عشر." **المجلة التاريخية المغربية**، العدد 47-48، تونس 1987، ص 10.

(60) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**. **ج1**.ص ص 65-66.

(61) أمين، محمد. **المقال السابق**، ص ص.26-27.

(62) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص 92.

(63) برنيان أندري، وآخرون. **المرجع السابق**، ص 203.

(64) سعيدوني، ناصر الدين .**النظام المالي...المرجع السابق**. ص 226.

(65) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 83.

(66) **المرجع نفسه**، ص 87

(67) **المرجع نفسه**، ص 88.

(68) هاينريش، فون مالتسان،**المصدر السابق. ج1**.ص57.

(69) أبو القاسم سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...المرجع السابق.ج1**، ص ص. 158-159.

(70) شالر، وليم. **المصدر السابق**، ص 86.

(71) **المصدر نفسه**، ص 85.

(72) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1**.ص 137.

(73) **المصدر نفسه**. ص ص 57-58.

(74) شالر، وليم. **المصدر السابق**. ص 80.

(75) عادة ما يطلق عليهم تسمية الدخلاء أو الغرباء أو الوافدون .

(76) غطاس، عائشة. **المرجع السابق** . ص 20

والبرانية بتعبير دقيق وواضح هم رجال يعيشون لوحدهم، ليس لهم مسكن ثابت، وعموما يسكنون الفنادق وينامون أمام المنازل والمحلات، وبالتالي لم تتوفر لهم الشروط للاستقرار بحي سكني ، إلا عددا قليلا ممن تزوجوا بنساء المدينة.

Missoum, Sakina. **Alger à L'époque Ottomane**.**Op.Cit**.p.90.

(77) غطاس، عائشة." الوافدون-البرانية- على مدينة الجزائر 1787-1830 بين التهميش والاندماج." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 25، تونس، أوت 2002. ص 171.

(78) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1**.ص.79

(79) ذكر الدكتور محمد أمين أن الهجرة الميزابية إلى المدن التجارية التلية لا تشمل الأسرة الميزابية بما فيها الزوجات والأطفال والشيوخ.

(80) بحاز، ابراهيم." الميزابيون بالجزائر في العهد العثماني." **المجلة التاريخية المغاربية**، العددان 89-90، تونس، 1998، ص...غير مرقم.

(81) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**. ص 171.

(82) أمين، محمد، **المقال السابق**، ص 35.

(83) شالر، وليم، **المصدر السابق**.ص 111.

(84) أمين، محمد، **المقال السابق**، ص 36.

(85) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص 83.

(86) هاينريش. فون مالتسان، **المصدر السابق. ج1**.ص 78.

(87) **المصدر نفسه**.ص 85.

(88) أمين، محمد. **المقال السابق**. ص.36.

(89) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق.ج1**.ص 77.

(90) **المقال السابق**، ص .169.

(91) **المقال نفسه** ص.176.

(92) هاينريش. فون مالتسان، **المصدر السابق. ج1**.ص 77.و**ج3**.ص 108

(93) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**.ص 183.

(94) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص ص 109-110.

(95) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 110.

(96) سبنسر، وليم. **المصدر السابق**. ص 83.وفقد البصر لدى العدد الكبير من البسكريين راجع إلى مناخ بسكرة الصحراوي حسب ما اعتقده شالر.

(97) أمين، محمد. **المقال السابق**. ص 36.

(98) سمت التقارير الفرنسية أعمال البساكرة بالمدن الجزائرية العثمانية بالأعمال القذرة والشقية.

(99) أمين، محمد. **المقال السابق**، ص.36.

(100) غطاس، عائشة. **الوافدون... المقال السابق**، ص 169.

(101) سبنسر، وليم.**المرجع السابق**. ص. 84.

(102) شالر،وليام. **المصدر السابق**. ص 116.

(103) **المصدر نفسه**، ص 116.

(104) **المصدر نفسه**، ص 107.

(105) **المصدر نفسه**، ص 117 . وذكرت الدكتورة غطاس عائشة أن بعض الجبايلية اشتغلوا بقصر الباشا بمدينة الجزائر مثل محمد القبايلي سنة 1816. عن غطاس، عائشة." **الوافدون...المقال السابق**. ص 175.

(106)ذكر شالر مطالبة الحكومة التركية من القناصل الأجانب بوضع جميع الأشخاص الخدم الذين ينتمون إلى منطقة جبال بجاية الثائرة سنة 1823 تحت تصرفها، لكي يعاملوا معاملة الرهائن والأسرى. عن شالر، وليم. **المصدر السابق**، ص 194.

(107) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. .ج1**ص.76.

(108) **المصدر نفسه**.ص 76.

(109) أمين محمد. **المقال السابق**،ص 36.

(110) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص.84.

(111) غطاس، عائشة. **الوافدون...المقال السابق**، ص 169.

(112) **المرجع نفسه**، ص 169.

(113) **المرجع نفسه**، ص 177.

(114) **المرجع نفسه**، ص 170.

(115) شالر، وليم، **المصدر السابق،** ص 93. وأشارت الكتابات التاريخية أنهم استخدموا في شرطة قصور الحكام مثل قصر باي قسنطينة.عن بوضرياسة، بوعزة. " الأعمال الإدارية والسياسية للحاج أحمد باي حاكم الاقليم الشرقي للجزائر" . **مجلة الرؤية**، العدد الأول، الجزائر، 1996، ص 91.

(116) أنظر الملحق الخامس، حول بيانات عتق العبيد والإماء بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

(117) طالع وثائق المحاكم الشرعية، العلبة 59، السجل 117 (17ف)، سنة 1246هـ.

(118) غطاس، عائشة. "الوافدون..." **المقال السابق،** ص.172.

(119) أوردت الدكتورة غطاس عائشة أن العنصر النسوي طغى على شريحة العبيد السود في الفترة ما بين 1807-1817.

(120) الواليش، فتيحة. " فئة المعتقين بمدينة الجزائر –نهاية القرن الثامن عشر إلى منتصف التاسع عشر من خلال وثائق المحاكم الشرعية." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية،** العدد 25، زغوان، تونس، 2002، ص ص. 184-192. وأيضا غطاس، عائشة . "**الوافدون...**" ، **المقال السابق** ص 171.

(121) Missoum, Sakina. **Op. Cit**.p.89.

(122) أمين، محمد. **المقال السابق،** ص 37.

(123) Laugier de Tassy , **Op, Cit**. P55.

(124) ابن حموش، مصطفى .**المدينة والسلطة...المرجع السابق،** ص ص 160-161. وقد وجدنا هذا الرقم في مذكرات شالر، وليام، **المصدر السابق،** ص 89.

(125) شالر، وليام، **المصدر السابق،** ص 91.

(126) أمين، محمد .**المقال السابق،** ص 37

(117) Missoum, Sakina .**Op, Cit**.p.87-88.

(128) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق،**ص 163.

(129) شالر، وليام، **المصدر السابق،** ص 89.

(130) شالر، وليام، **المصدر السابق،** ص 90.

(131) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1**.ص 81. وظهر أن الإهانة كانت مزدوجة: إهانة المسلمين لهم وإهانة اليهود لبعضهم البعض.

(132) Noushi, André. **Op. Cit.,** p52.

(133) سبنسر، وليم. **المرجع السابق** ص. 84.

(134) شالر، وليام، **المصدر السابق،** ص 90 .

(135) حول التأثير التصاعدي الاقتصادي للجالية اليهودية بالجزائر العثمانية طالع:

Rachida, Yacine. « The économic and political roles of the jewish minority in Algiers at the beginning of the 19 th century. » **In Arab Historical Review for ottoman studies,** n° 5-6, 1992, pp.123-133.

(136) شالر، وليام، **المصدر السابق،** ص 91.

(137) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي... المرجع السابق**. ص ص 227، 233.

(138)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج3**.ص ص 50-51.

(139) De Tassy Laugier.**Op, Cit.** P57.

(140)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص ص. 84-85.

(141) De Tassy Laugier.**Op, Cit.** P57

(142)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص.85.

(143)شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 100.

(144)ابن حموش، مصطفى، **المدينة والسلطة... المرجع السابق**. ص ص 205-206.

(145) أمين، محمد. **المقال السابق**، ص 39. وقد بالغت المصادر الأوربية كثيرا في تصوير حالة البؤس والظروف الصعبة للأسرى المسيحيين إما بهدف تأجيج نار القرصنة المضادة أو للدعاية من أجل جمع الأموال المطلوبة لافتدائهم.

(146)ابن حموش، مصطفى. **المدينة...المرجع السابق**. ص 207. وذكر الدكتور حليمي عبد القادر أن الأسرى المسيحيين .بمدينة الجزائر بلغ 122 أسير سنة 1830.

(147)شالر،وليام. **المصدر السابق**، ص 87.

(148)هاينريش، فون مالتسان، **المصدر السابق.ج1**.ص 227.

(149)شالر، وليام، **المصدر السابق**، ص 87.

(150) **المصدر نفسه**، ص 87.

(151)سبنسر، وليم . **المرجع نفسه**، ص 95.

(152) **المرجع نفسه**، ص 95.

(153)هاينريش. فون مالتسان، **المصدر السابق**، ج3. ص59.

(154)أبو القاسم سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...المرجع السابق، ج1**، ص ص.155-156.

كما يشهد يوم الجمعة زيارة النساء للمقابر صباحا، ترحما على موتاهم، وبعد صلاة الجمعة يتفرغ الناس للنزهات الخاصة بالبساتين القريبة أو يزورون بعضهم البعض.

(155)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج3**. ص63.

(156)أبو القاسم سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...المرجع السابق،ج1**، ص 155.

(157) أبو العيد، دودو. **المرجع السابق**، ص119.

(158)هاينريش، فون مالتسان.**المصدر السابق**، ج3. ص66.

(159) أبو العيد، دودو. **المرجع السابق**، ص ص.118-119.

(160)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص.101.

(161)شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 67.

(162)**المصدر نفسه**، ص 67.

وكان القناصل في عهود ماضية يقبلون يد الداي كلما وقفوا أمامه ثم تراجعوا عن هذا التقليد لما يحمله من إهانة في نظرهم، فتحولوا إلى المصافحة والانحناء أمام الداي، وبعض القناصل يلتمسون العذر من الداي ولا يحضرون الاحتفالات.

(163)شالر، وليام.**المصدر السابق**، ص 87. وقد وافقه في ذلك فاغنر .أنظر أبو العيد، دودو. **المرجع السابق**. ص 122

(164)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص ص. 97-98.وأيضا أبو العيد، دودو. **المرجع السابق**، ص ص121-122.

(165)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج3**. ص ص68-69، 182.

(166)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص 98.

(167)سبنسر، وليم.**المرجع السابق**، ص. 96.

(168)أبو العيد، دودو. **المرجع السابق**، ص ص.120-121.

(169)**المرجع نفسه**، ص ص 122-123.

(170)لم يقتصر شرب القهوة مع التدخين بمدن الجزائر العثمانية على المقاهي العامة بل وجد في كل مترل، وهي عادة تركية الأصل نقلها العثمانيون إلى الجزائريين.

(171)أبو العيد، دودو. **المرجع السابق**، ص ص .112-114.

(172)شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 99

(173)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1**.ص 83-84.

(174)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص. 91.

(175) **المرجع نفسه**. ص 95.

(176) L'abbé Edmond lambert. **Cit**.. **Op** pp.239-241.

(177)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص106.

(178)عقيل، نمير. " حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر –أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال المساجد الحنفية-" **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية**، عدد خاص بعنوان دراسات إنسانية –الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- جامعة الجزائر، 2001، ص ص.120-121.

(179)تابليت، علي. "أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي". **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية**، عدد خاص بعنوان دراسات إنسانية –الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- جامعة الجزائر، 2001، ص.173.

(180)سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق**. ص ص 141-143.

(181) موساوي، فلة القشاعي. " أوقاف أهل الأندلس بمدينة الجزائر أثناء العهد العثماني". **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية**، عدد خاص بعنوان دراسات إنسانية –الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- جامعة الجزائر، 2001، ص .169.

(182) غطاس، عائشة. "حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر" **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية**، عدد خاص بعنوان دراسات إنسانية –الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- جامعة الجزائر، 2001، ص ص. 140-142.

(183) Devoulx, Albert. « Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger. » **In R.A**, 1859, p 471.

(184) البايلك. العلبة 71-74. رقم السجل 158. الرقم القديم 74. السنة 1213-1244/1791-1829. ورقة 04.

(185) حماش، خليفة. " أوقاف الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 35، تونس، نوفمبر 2007، ص.84.

الفصل الثالث

الوظائف الحضرية لمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

أولا–الوظيفة الإدارية.

ذكرت بعض الدراسات الغربية الاستشراقية أن الحياة داخل المدينة الجزائرية خلال العهد العثماني شأنها شأن المدن الإسلامية، كانت تعمها الفوضى بسبب تطورها العفوي، والتراكمي إذ أن معظم البناء كان يتم بالتدرج حسب إيقاع احتياج السكان للتوسع، وأدت هذه العفوية في البناء إلى نشأة عوائق متتالية كلما دعت الضرورة إلى إنجاز، أو توسيع، أو تغيير في المساكن.

هذه الفوضوية في البناء تعكس غياب مؤسسات إدارية تسير شؤون السكان، وتنظم حياتهم الحضرية، إلا أن هذه الآراء لا أساس لها من الصحة إذا استنطقنا الوثائق، وتمكنا من غربلة المصادر التاريخية.

وقد تبين أن السلطة بالجزائر العثمانية كانت حاضرة في التسيير الإداري للمدينة، إذ انطوى تدخلها على ثلاثة مهام هي :

–دفع الضرر عن المجتمع المديني.

–جلب المصلحة والمنفعة للمجتمع المديني.

–حفظ حقوق، وحريات الأفراد، والجماعات بالمدينة.

إلا أن دفع الضرر هو من أولى الأولويات، وآلية إدارية قوية أثرت في نوعية المحيط الحضري بالمدينة الجزائرية ذات الطابع الإسلامي كما لدفع الضرر دور ردعي في الإدارة الحضرية تجاه التصرفات السلبية سواء كانت من السلطة، أو من أفراد المجتمع، فكل سلوك حضري كان يقاس بدرجة الضرر الذي يحدثه للحياة العامة.(1)

وقبل الخوض في المؤسسات الإدارية التي وجدت بالمدينة علينا أن نذكر أنه لا بد من التمييز بين الإدارة السياسية، والإدارة المدنية، وفيما يتعلق بهذه الأخيرة فجل الكتابات التاريخية تركز على مدينة الجزائر كعاصمة إدارية مركزية، إلا أنه يجوز لنا علميا إسقاط ذلك على المدن الجزائرية الأخرى، أما الإدارة السياسية فتختلف خصوصياتها باختلاف خصوصيات المدن، فالفرق واضح بين المدينة العاصمة المركزية، والمدينة العاصمة الإقليمية والمدينة العادية.

1-السلطات السياسية المركزية ودورها في إدارة مدينة الجزائر.

أ-السلطة التنفيذية:

*** الداي:**

تطرق شالر في مذكراته إلى التعريف بنظام الدايات، وقال أن الداي التي تعني في اللغة التركية " العم" كان ينتخب لمدى الحياة، والشائع عنه أن لقب الباشا هو المستعمل في الجزائر والعالم العثماني أما لقب الداي فلا يكاد يلفظ ولا يستعمله سوى الأجانب الأوربيون.

وعن كيفية انتخاب الداي من طرف الديوان أو المجلس الأعلى، دون الجماهير، فقد أكد شالر أنه كان يتم في جو من المؤامرات، والصراعات بين جماعات ضغط عسكرية انكشارية، والجماعة القوية هي التي تظفر بالسلطة التنفيذية.(2)

والداي الباشا مؤسسة سياسية وإدارية، تساعده حكومة يختارها بنفسه، قصد تسيير شؤون البلاد عامة، ومدينة الجزائر كمقر للرئاسة، والحكومة المركزيتين بشكل خاص، وبالتالي، فإسهام الداي في إدارة المدينة العاصمة واضح من خلال الإمعان في صلاحياته الآتي ذكرها:

-باعتبار أن الداي هو الحاكم الأعلى لجمهورية الجزائر، فإنه يتصرف في جميع بايليكات القطر عن طريق آغا العرب والبايات والقياد.

-تمتد صلاحياته إلى تولية أو عزل أو إقرار الموظفين الكبار، مثل الخزناجي، الآغا، وكيل الحرج، خوجة الخيل... إلا أنه كان يوكل صلاحياته لهؤلاء الموظفين، ونادرا ما يتدخل شخصيا في القضايا التي تهم السكان أو تتصل بالإجراءات الإدارية على المستوى المحلي.(3)

-يعتبر الداي، القاضي الأعلى بمدينة الجزائر إذ كان يصدر أوامره في القضايا المدنية أو الجنائية أمام المتحاكمين، أعيان أو بسطاء،(4) وكان يسجل الأوامر باللغة التركية العصمانلية أربعة كتاب أو خوجات لكل خوجة سجل . وإلى جانب الداي، ترجمان، يسهل الاتصال بالسكان المحليين ويفتح البرقيات والمراسلات الخاصة والتعاقدات أو كتابتها حيث كان الداي لا يمضيها إلا بحضوره.(5)

*** حكومة الداي:**

يختار الداي رجال حكومته وينظم اجتماعاتها وقت ما شاء، وتحدثت الكتابات التاريخية عن الوزراء الأساسيين بالحكومة، الذين يشغلون المناصب المفتاحية، مما يعكس نفوذهم في جهاز الدولة وتأثيرهم في صياغة القرارات السياسية، ودورهم في إدارة مدينة الجزائر بشكل خاص وباقي أنحاء البلاد الجزائرية بشكل عام. ويمكن التطرق إلى هؤلاء الوزراء الأساسيين كالآتي:

-الخزناجي:

يعتبر الخزناجي أو الوزير الكلف بالخزينة المالية للدولة، الرجل الأول في الحكومة، وتنحصر صلاحياته في :

-ضبط حسابات المداخيل التي استفادت منها خزينة الدولة، في سجل خاص.

-تسديد أجور الانكشاريين بعد أن يحدد الداي قيمة الأجر.(6)

-خوجة الخيل:

يقصد بهذا المنصب " كاتب الخيل" أي أن هذا الموظف السامي كان يسجل ويحصي خيول البايليك التي تمت حيازتها في شكل ضرائب، وبعد تراجع مداخيل الغنائم البحرية، في أواخر العهد العثماني، توسعت صلاحيات خوجة الخيل لتشمل مراقبة جميع الضرائب العينية من حبوب وحيوانات وأصواف وشمع وعسل وزيت وسمن...ثم توزيعها على ضباط وجنود الجيش الانكشاري أولا والسكان ثانية، وبالتالي أصبح هذا الوزير بمثابة وزير التموين بدار السلطان.(7)

-وكيل الحرج:

وهو في الأصل الوزير المكلف بشؤون البحرية بدار السلطان، وقد تراجع دوره بفعل تراجع مداخيل الغنائم البحرية في أواخر العهد العثماني، فأوكلت إليه إلى جانب أعمال البحرية، إدارة الشؤون الخارجية للدولة الجزائرية العثمانية، التي كانت تتحكم فيها مشاكل البحر الأبيض الموسط.(8)

-بيت الماجي:

وهو الموظف المشرف على مصلحة الأملاك والثروات التي تؤول إلى الدولة بعد موت أصحابها خصوصا من الأتراك العثمانيين الذين لم يتزوجوا، وبالتالي ليس لديهم ورثة شرعيون من أخوة أو أبناء أو أقارب. كما يشرف بيت المالجي على مراسيم الدفن، وأمور المقابر كما يبيع التركات والأملاك التي صادرتها السلطة الحاكمة في المزاد العلني.(9)

ب-السلطة التشريعية:

*** مجلس الديوان الأكبر:**

الديوان هو هيئة سياسية وتشريعية عليا في هرم الحكم العثماني بالجزائر، كان قبل عصر الدايات جهازا فعالا إذ يعقد جلساته بانتظام، ويتصرف في الأموال، ويدعي الحق في مناقشة جميع الإجراءات الحكومية، ويتخذ قرارات بشأنها، ولكنه أصبح في عهد الدايات مجرد مؤسسة

صورية في نظام الحكم الجزائري، وفاعليته لا تكون إلا بإرادة الداي رغم أن انتخابه منبثق من الديوان.(10)

وهكذا يشارك الديوان الداي في إدارة شؤون الإقليم، من خلال القضايا التي يرى الداي عرضها عليه. وتذكر الكتابات الأجنبية مثل كتابات القسيس دان Dan أن كل ضباط الأوجاق كانوا أعضاء في هذا الاجتماع، كما جمع أيضا هذا الديوان القاضي، والمفتي الحنيفي(11) وأعيان البلد المحليين.(12)

ويجتمع الديوان أربعة أيام في الأسبوع، ويتم الاجتماع الرئيسي يوم السبت، أما الاجتماعات الأخرى فتنعقد يوم الأحد والاثنين والثلاثاء، ويسير نظام الجلسة، آغا الانكشارية، ورؤساء المليشيا الذين يقترحون المسائل المعروضة للبحث، ويحتلون الأماكن الشرفية، ويحضر الجلسة إلى جانب هؤلاء كاتب الديوان الذي يسجل القرارات، وضباط المليشيا الكبار، ثم البولوكباشية ولهم حق التعبير عن الرأي والتصويت، ويليهم الأودباشية، وقدماء المحاربين وشاوشية الديوان الذين يتولون تنفيذ أوامر المجلس. ويتراوح عدد أعضاء الديوان بين السبعمائة والثمانمائة عضو، وقد يرتفع إلى ألف وخمسمائة.(13)

وعن دور الديوان في السياسة الاقتصادية للبلاد، فقد بين الكاتب مولود قايد أن الديوان هو أهم مفاوض في قضايا التجارة الخارجية التي تختص بها كبريات المدن الجزائرية مع الخارج، فهو الذي له حق بيع الحبوب، الجلود، الشمع، الزيت، الصوف والملح، وتحت سلطته موظفون مكلفون بتخزين البضاعة المخصصة للتصدير.

وتلعب إدارة، وتسيير الديوان للاقتصاد الوطني، دورا في استقرار الأسعار، لأنه يحدد في آن واحد ثمن البيع، وثمن الشراء للسماسرة و المستهلكين. و عندما تحل الأزمة الغذائية، يستورد الديوان الحبوب و يحدد سعرها المألوف لتفادي المضاربة لكن السكان لاينجون من الانتهازيين الخواص، حسب ما ذكره الكاتب.(14)

*** مجلس الديوان الأصغر:**

ظهر الديوان الأصغر في بداية القرن السابع عشر، ويجمع الضباط السامين في الجيش، والقاضي، والمفتي الحنفي، وهؤلاء الأعضاء هم أنفسهم، نجدهم في مجلس الديوان الأكبر، وقد وصل عددهم في سنة 1681م إلى حوالي ثلاثين عضوا ليتطور لاحقا إلى مائة عضو، ويجتمع المجلس يوميا لدراسة القضايا المعاشة للدولة، ويترأسه آغا الانكشارية، وهو الرئيس نفسه لمجلس الديوان الأكبر.(15)

و على هذا الأساس نلاحظ أن الديوان الأصغر يدرس قضايا الساعة، ويقترح بشأنها قرارات ثم يمررها إلى الديوان الأكبر لدراستها ودراسة قرارات الديوان الأكبر، ومن ثمة المصادقة عليها أو تعديلها أو تأجيلها أو رفضها.

ت–السلطة القضائية

*** المؤسسات القضائية:**

– المجلس القضائي العلمي:

أنشأت هذه الهيئة التشريعية والقضائية لتجاوز التضارب بين المذهبين الملكي والحنفي،[16] وتقريب الرؤى بينهما، أو على الأقل عدم إفضاء ذلك الاختلاف إلى الإخلال بالإدارة العامة، وحصره بين العلماء دون العامة. وينعقد المجلس العلمي للقضاء كل يوم خميس بالجامع الأعظم، بمركز مدينة الجزائر، ويرأسه المفتي الحنفي .

وتضم هذه الهيئة كلا من المفتي، والقاضي الحنفيين والمفتي والقاضي المالكيين، وشيخا البلد (شيخ المدينة ونقيب الأشراف) وبيت المالجي، وملحق عسكري، وأمناء الحرف كأهل خبرة لمساعدة المجلس في دراسة القضايا ذات الطابع التقني، والتي تتطلب أهل التخصص، وهي عادة قضايا الضرر بين الشركاء وخصومات الملكية والبيع والإيجار، وإصلاح عقارات الأحباس.[17]

وتتجلى وظائف المجلس العلمي للقضاء في :

–تسيير الأحباس، بجمع غلتها السنوية، وتوزيعها حسب وصايا المحبسين، وصيانة العقارات الوقفية، وتعيين الوكلاء الأكفاء عليها، وإصدار الحكم الشرعي في المعاملات المختلفة التي تمس العقارات الوقفية من إيجار، واستبدال، وإحياء.

–إصدار الفتاوى المتعلقة بالقضايا العامة.

–معالجة القضايا التي تحدث بين الهيئات الحكومية، وموظفي الدولة من جهة، وأفراد المجتمع من جهة أخرى.

–النظر في القضايا العالقة المستعصية على الحاكم، والمحاكم.

–الحكم في التراعات التي تحدث بين أهل الذمة، والمسلمين حسب أحكام الشريعة الإسلامية.

ينفذ قرارات المجلس، ملحق عسكري، يحضر الجلسات، ويتلقى مباشرة الأوامر بعد تحرير العقود وإمضائها من رئيس المجلس لتنفيذها.[18]

-المفتي:

شرحت المعاجم اللغوية العربية كلمة الإفتاء، والمفتي، والفتوى، وجزمت أنها تعني إبانة الحكم في قضية عالقة من الناحية الشرعية، أو القانونية، والمفتي هو فقيه تعينه الدولة ليجيب على ما يشكل على الناس من المسائل الشرعية والتي يتقدمون بها إليه لأخذ رأيه فيها.[19]

وقد احتل المفتي بالجزائر العثمانية سواء كان مالكيا أو حنفيا، المرتبة الأولى في صف العلماء،[20] يعينه الداي ويمنحه لقب شيخ الإسلام، ويعترف به جميع القضاة في الجزائر العثمانية وكلاهما يستقران بمدينة الجزائر، إلا أن المفتي الحنفي هو المفضل لدى حكومة الأتراك العثمانيين إلى غاية الاحتلال الفرنسي للبلاد سنة 1830. وقد يلجأ إلى المفتي كل من يطعن في قرارات القاضي .[21]

-القاضي الحنفي والمالكي:

كان كلا القاضيين المالكي والحنفي، يتولى كل الشكايات المعروضة على محكمته إلا ما تعلق منها بالأوجاق،[22] ويستعين القضاة في كثير من الأحيان عندما تعرض عليهم المنازعات العقارية بأهل الخبرة الذين يعاينون المواقع ويقدمون رأيهم التقني للقضاة، وأحيانا أخرى يضطر القضاة إلى الاستعانة بآراء الجيران باعتبارهم شهود عيان لفض النزاع بين الأطراف المتنازعة.[23]

وكان النظر في القضايا يجري يوميا باستثناء يوم الجمعة من طرف القاضي المعني بالأمر، ويساعده موثقون، وكان المتحاكمون يعرضون قضاياهم بأنفسهم حيث أن استعمال المحامين لم يكن معروفا، ولكنه كان مسموحا لهم باستعمال الشهود للتثبت من الحقائق وكمراجع عينية، أما استئناف الحكم فلم يكن حسب سبنسر إلا من حق التركي إذا لم يرض بالحكم، ويظهر أن الاستئناف يتم على مستوى المفتي الحنفي المعين من طرف الداي، والذي يعقد جلساته مرتين في الأسبوع.[24]

وذكر سبنسر أن نظام العدالة كان سريعا، إذ نادرا ما تستمر المحاكمات أكثر من بضع ساعات، وكان مختصرا حيث لم تكن الأحكام القضائية تسجل بالاسم وإنما بالختم وأخيرا كان نظام العدالة حياديا [25] ، ويظهر لي أن هذه النقطة تحتاج إلى تحقيق، وتثبيت.

وذكر فاغنر الألماني أن: "القاضي المالكي يمثل الجانب الدنيوي للمسلمين في حين أن المفتي الحنفي يمثل الجانب الديني." والقاضي المالكي يعقد جلساته في قاعة بسيطة، تغطي أرضها الزرابي، ويتميز عن غيره بعمامته الكبيرة، ويتخذ القاضي مكانه فوق مقعد عند مائدة بيضوية الشكل، وأمامه نسخة من القرآن مذهبة الجلد، وعن يمينه وشماله كتابه، البالغ عددهم اثني عشر

كاتبا، تتمثل مهامهم في تسجيل محاضر الجلسات، وإعداد الوثائق الخاصة بعقود البيع، وغيرها من الملفات الرسمية، والتوجه بالنصيحة إلى القاضي في المسائل التي تشكل عليه، وهم يتناوبون فيما بينهم في أيام معينة.[26]

وحين يدخل الشاوش أو خادم المحكمة، المتخاصمين ليمثلا أمام القاضي، يقفان في النهاية الأخرى من المائدة، أما إذا كانا من النساء، فإنه لا يسمح لهن بالدخول إلى قاعة المحكمة، وإنما يتحدثن إلى القاضي من وراء قضبان نافذة الفناء.

يتسم القاضي أثناء المرافعات، بالهدوء، تاركا المتخاصمين يتراشقان بالكلمات دون أن يبدي حركة تدل على سأم أو ملل، وبين الحين والآخر يلقي على المتخاصمين سؤالا، ويستنطق الشهود إن وجدوا، وليس هناك حادث يمكن أن يخرج القاضي عن هدوئه.

ويصدر القاضي بعد الانتهاء من المرافعة حكمه في القضية بكل رزانة ووقار، فيقبل حكمه دون أن يبدي أحد الطرفين رغبة في استئناف الحكم، فينحني المتخاصمين لتقبيل يد القاضي قبل الحكم وبعده، وينفذ الحكم عادة في الحين، وفي المكان نفسه.[27]

واعتمادا على وثائق المحاكم الشرعية المودعة بالمركز الوطني للأرشيف، بالجزائر العاصمة، نلاحظ أن قضاة المدن يصدرون أحكامهم، ويثبتون ويوثقون قضايا سكان المدينة اليومية التي نعددها كالآتي:

الزواج	توكيل	إثبات نسب عائلي	الشفعة
الطلاق	الفريضة	فرض نفقة	بيان أملاك
الكراء	حقوق مالية	إثبات نسب الأشراف	شراكة
كراء دواب	وصايا	تحرير رقبة	تسوية نزاع
العناء(كراء الأحباس)	ذمة مالية (إثبات دين)	تفويض	تسوية شرعية في مسألة ما.
تحبيس	إثبات عزوبة	بيان بالدفع	معاوضة
بيع بالمزايدة	شراء دابة	الصدقة	إثبات ضياع عقد (رسم)

-قاضي المواريث:

استحدثت الإدارة العثمانية جهازا خاصا بالمواريث، يشرف عليها موظف يدعى " بيت المالجي" أو المكلف بشغل المواريث المخزنية، وتتمثل وظيفته في متابعة التركات والمطالبة بنصيب بيت المال، وكذلك تأميم التركات التي ليس لها أهل، ويشاركه في ذلك قاض خاص يدعى قاضي بيت المال.(28)

وهكذا يتمثل دوره كرئيس لمؤسسة إدارية في:

*إعداد الفرائض، وتحديد التركات.

*استعادة الملكيات التي لا وارث لها.(29)

*** مستويات الأحكام العقابية:**

-الإعدام:

علق دانتيDentu سنة 1838 على الإعدام المعمول به في دولة الجزائر العثمانية بأنه لا يقره أي فرمان أو قانون مكتوب، بل هو نابع من إرادة القضاة.(30)

كانت عقوبة الإعدام مفزعة للمخالفين الذين كانوا يعملون ما في وسعهم لتجنبها، لذا كانت الوفيات بالإعدام قليلة. وكان الإعدام يتم بأربع طرق هي:

-القتل بالسفود:

شرحه وليم سبنسر كالآتي: " تؤخذ قطعة دائرية من الخشب، طولها ثلاثة أذرع، وعرضها في حجم ساق الرجل، أحد طرفيها حاد، ثم تدخل في جسم الرجل بين الكتفين وتخرج، وهكذا يتركونه حتى الوفاة."(31)

-الجلد بالسوط:

يأخذ الجلادون المجرم، ويضعونه مضطجعا على ظهره بعد نزع ثيابه، ويباشرون بضربه على بطنه، وأمعائه بحبلين شديدين، ويستمر الجلد حتى يلفظ المجرم أنفاسه.(32)

-الارتماء القصري:

عادة يعلق المدان ثلاثة أو أربعة أيام قبل إعدامه، ثم يرمى من حائط عال، أو سور ليقع على قلنسوة حديدية قوية، وحادة جدا.(33) أما دانتي فقد كتب بشأن هذا النوع من الإعدام أنه يمس اليهود، والأسرى المسيحيين الذين يرتكبون جريمة قتل ضد الجنس التركي، فبعد رميه من أعالي السور يبقى أحيانا قابعا على القلنسوة الحديدية يوما، أو يومين قبل دفنه.(34)

–الخنق والشنق وقطع الرأس:

وعادة ما يصدر حكم الخنق، أو الشنق وقطع الرأس ضد المتمردين، أو المتآمرين على الحاكم، أو الذين يمارسون التهريب.(35) لكن يذكر مولود قايد أن الخنق يتم في السر بمعزل عن أنظار العامة ضد الأتراك العثمانيين المدانين، أما الشنق، وقطع الرأس فينفذ أمام الملأ ضد الأشخاص من غير الأتراك. (36)

–الحرق وإطلاق النار:

يختص حكم الحرق، أو إطلاق النار الصادر عن سلطة الداي بالمجرمين اليهود، الحالة الأولى وهي الحرق، تخص اليهودي الذي ثبتت ضده، جريمة احتيال مالي. أما إطلاق النار هو إعدام في حق اليهودي الذي يثبت تورطه في مؤامرة على مصالح الحكم العثماني. وقد يميز هذا النوع من الإعدام بين المجرمين اليهود من جهة، والمجرمين الأتراك، والعرب، والأمازيغ، والمسيحيين.(37)

–الرمي في البحر:

ورد في كتب الفرنسيين المهتمين بتاريخ الجزائر العثمانية عقوبة إعدام من خلال رمي المرأة في البحر، ورأسها مشدود بداخل كيس، إذا ضبطت في حالة زنا مع أسير مسيحي، ويمكن عدم تنفيذ هذا الإعدام إذا اعتنق الأسير المسيحي الزاني، الإسلام علنا.(38)

*** عقوبات الجنح:**

–عقوبة الضرب:

تنفذ أحكام الضرب بالهراوة، والعصي على كل مخالف، وعدد الضربات يختلف حسب اختلاف طبيعة المخالفات، وتتراوح بين خمسين إلى ألف ضربة، ويضرب المخالف، وهو ممدد، ويتم تركيز الضرب على قدميه، أو أعلى بطنه، وبعد الضرب يتم صب الخل على الجروح حتى يزداد المخالف ألما، ولا يعود لجريمته ثانية.(39)

ويعاقب المذنبون في الغالب بالضرب على الأرجل، وهم يفضلون الفلقة على السجن، لأن المذنب يبقى محافظا على كرامته بعد أن ينال العقاب الذي يستحقه، بحيث يمكن له أن يعود إلى أهله ليجد مشاعرهم نحوهم كما تركها، ولا يلصق به أي عار. وقد كانت الفلقة مستعملة ضد أي موظف، ولو كان وزيرا.(40)

-عقوبة السجن:

كان الجزائري المذنب، يخشى السجن، لأنه يبعده عن أسرته من جهة، ويحول بينه وبين واجباته من جهة أخرى. ويعاقب بالسجن كل من لم يسدد ديونه، ولا يطلق سراحه حتى تباع ملكياته، شريطة أن يكون ثمنها يساوي، أو يفوق قيمة الدين. أما إذا كانت قيمة البيع أقل من قيمة الدين، يسرح المدين من السجن ويخدم البايليك مائة يوم ويوم، ويجلد مائة جلدة.(41)

-قطع اليد:

ينفذ حكم قطع اليد اليمنى، ضد السارق واللص والمزور، وذكر وليم سبنسر أنه لما تقطع اليد تعلق على كتف صاحبها، وهو على ظهر حمار، ويوجه إلى الخلف، للتشهير به في أحياء المدينة ويسبقه ممثل حكومي ينادي بين الناس ويعرفهم بجنحة الشخص المعاقب فمثلا إذا كان لصا يردد العبارة التالية: " هذا لص عوقب".(42)

-الغرامة المالية:

وأقسى العقوبات بالنسبة له هي الغرامة المالية، لأن حرصه على جمع المال لا يسمح له بدفع أي غرامة مالية مهما كان مبلغها.(43)

-سحب الرتبة العسكرية:

ذكر دانتي عقوبة سحب الرتبة العسكرية من أي عسكري في الجيش النظامي بالجزائر العثمانية ارتكب جنحة.(44)

2- السلطات المحلية المدنية:

أكد الدكتور مصطفى بن حموش أن البيبليوغرافيا الأدبية، والقضائية لا توفر المعلومات الوافية حول تركيبة السلطة المحلية المدنية التي تتولى إدارة المدينة، ورأى أن قلة هذه المعلومات حول الوظائف الإدارية المدنية راجعة إلى ارتباطها بالقضايا اليومية داخل الإطار الحضري، وأن قراراتها في الغالب هي قرارات تقنية تمر في صمت وبموافقة الحاكم التركي الذي ترجع إليه جميع المسؤوليات.

وعلى أية حال فالإدارة المدنية هي ببساطة إدارة الخدمات العامة داخل المدينة، وفحصها، تمولها أحباس المحسنين، ويؤطرها موظفون إداريون يمثلون السلطة الإدارية المحلية، ولكل قطاع إداري ميزانيته الخاصة.

*** مشيخة المدينة (البلد) .**

إذا كان لدينا شيخ القبيلة في نطاق التجمعات الريفية فكذلك نجد في المقابل شيخ البلد، في التجمعات الحضرية المدينية، مما يدل على أن السلطات العثمانية كرست النظام القبيلي في المدن الجزائرية، وتبنته كليا في إدارتها. كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن شيخ البلد يغيب في المشرق الإسلامي، ويحضر في المغرب الإسلامي.

أشار شالر في مذكراته إلى شيخ البلد، أو الحاكم المدني، والكاهية أو قائد المليشيا في مدينة الجزائر وقال أن جميع الموظفين في هذه الإدارة من الأهالي(45) أي من السكان الأصليين للمدينة، ويختار شيخ المدينة بناء على شروط، كإتقانه للغة العربية ومعرفته للعادات المحلية حتى يكون واسطة بين الأهالي، والحكام الأتراك العثمانيين. وعادة، ماكان يتحكم في مشيخة المدينة عائلات ثرية امتلكت الجاه بالمال.(46)

وإذا كان دفتر التشريفات المترجم جزئيا إلى اللغة الفرنسية عن اللغة العثمانية من قبل ألبير دو فولكس، قد أشار إلى حاكم مدني واحد، فإن الدكتورة غطاس، واعتمادا على مخطوط قانون على الأسواق، بينت أن حاكمي أو شيخي المدينة قد اشتغلا سويا، وافترضت أن أحدهما كانت له صلاحيات اقتصادية والآخر له صلاحيات إدارية واجتماعية، وإن كنا لا نقوى على التمييز بين مهام كل حاكم بكل دقة، فإننا نستطيع أن نبين أن كلا الشيخين كانا يسهران على مراقبة الحرف والصنائع داخل المدينة والبت في النزاعات والخلافات التي قد تطرأ بين الحرفيين، كما قاما معا بجباية الضرائب المستحقة على الجماعات الحرفية مرة كل شهرين.(47) ويشرفان على مختلف المصالح المدينية من نظافة المدينة وصيانة الطرقات وتوفير المياه لسكان المدينة . وكان يساعد مشيخة المدينة مجلس استشاري، يحتمل أنه يضم ممثلين عن أعيان المدينة وأمناء الجماعات الحرفية البارزة وأمناء الجماعات البرانية، أضف إلى ذلك لشيخ البلد شاوشا ينوبه في غيابه ويقوم مقام الكاتب العام، كما يخضع لشيخ المدينة جميع الموظفين الساهرين على مصالح المدينة المختلفة أبرزهم : القياد بمختلف تخصصاتهم مثل قائد العيون المائية، وقائد الشوارع، وقائد الزبل (قمامات الشوارع).

وعليه كانت مشيخة مدينة الجزائر كسلطة إدارية تأتي على رأس الإدارة المدنية وهي على اتصال مباشر بالسلطة السياسية المركزية.(48) وننبه أن حاكم المدينة يبسط نفوذه على النواحي القريبة منها(الفحص) مما جعله على اتصال دائم بسكان ريف المدينة.(49)

إن السلطة الثنائية لمشيخة مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، يؤكدها صاحب المرآة حمدان بن عثمان خوجة، والفرنسي لامبير Lambert بصيغة أكثر وضوحا، فيذكران حاكمين: الأول يدعى شيخ أو والي المدينة يرأس كل أمناء الحرف (الأمناء الحرفيون هم المفتشون بالتعبير المعاصر) والنقباء المتواجدون بالمدينة. والثاني نقيب الأشراف، يختار من بين الأسر الشريفة وواجبه أنه يعقد اجتماعا ببيته لدراسة ما قد يطرأ بالمدينة من أحداث هامة، وقد يحضر هذا الاجتماع الطارئ كل من شيخ المدينة وسائر الأمناء التابعين له للبحث في التدابير الواجب اتخاذها.(50)

و يمكن تلخيص مهام شيخي المدينة والأمناء الحرفيين كجهاز إداري واحد، فيما يلي:

-تنظيم شؤون المدينة.

-الحفاظ على الأمن في أوساط مختلف الفئات العاملة.

-مراقبة الشرطة المحلية.

-مراقبة الأخلاق العامة في المدينة بمساعدة "المز وار".

-مراقبة النظافة والقنوات المائية، والمؤسسات العمومية والجمعيات الخيرية، والمستشفيات.(51)

-إدارة الخدمات، والمباني العمومية وصيانتها.

-الإشراف على النقابات المهنية، والطوائف السكانية حيث يتصل بأمناء هذه المهن، ورؤساء هذه الطوائف ليتعرف على مشاكلهم، ويلبي حاجاتهم عند الضرورة ويتفهم مطالبهم، ويسعى لدى السلطات العثمانية بالمدينة لإيجاد الحلول لها، كما تناط به مهمة حفظ سجل الاتفاقات التي تقع بين أهل الحرف. وفي مقابل ذلك كان يتسلم من هؤلاء الأمناء الضرائب، والرسوم ليودعها في الخزينة المالية كل شهرين.

-استخلاص رسوم عن بعض النساء المنحرفات ذوات المكانة الاجتماعية المرموقة، واللاتي يحتجزن عند المخالفة في سجن خاص.(52)

وننبه أن تعقيدات الحياة اليومية بمدينة الجزائر كعاصمة سياسية، إدارية، واقتصادية مركزية للبلاد الجزائرية فرضت على النظام التركي العثماني، تعيين شيخين يسيران شؤون المدينة، بخلاف على ما يبدو في المدن الأخرى سواء العواصم الاقليمية، أو المدن العادية إذ نفترض وجود شيخ بلد واحد، يسهر على تسيير شؤون المدينة الإدارية، والتوسط بين الحاكم التركي، والسكان الجزائريون، وبل ونشير إلى أن مصطلح شيخ البلد يغيب في تاريخ المدن الجزائرية الأخرى فمثلا نجد في مدينة قسنطينة أن قائد الدار يحل محل شيخ البلد الذي يتم تداوله في مدينة

الجزائر، إذ كان له مركز ممتاز فهو ينوب الباي في تسيير أمور البلاد عندما يكون هذا الأخير خارج المدينة كما أنه يتصرف في مرتبات الجند، ويوزع عليهم المؤونة الشهرية، كما يخضع لأوامره مباشرة قائد الباب المكلف بمراقبة عوائد، ومداخيل حقوق الكراء داخل المدينة.(53) وبالتالي يتراءى لنا أن قائد الدار بمدينة قسنطينة عاصمة بايليك الشرق يعتبر شيخا أو حاكما للمدينة، وخليفة للباي على الكرسي، وصلاحياته، وسلطاته سياسية أكثر منها مدنية. وهكذا نلاحظ أن صلاحيات الأجهزة الإدارية المحلية المدنية تختلف نسبيا من مدينة إلى أخرى بحسب اختلاف خصوصياتها.

* **الشرطة:**

كانت فرق الشرطة تتجول في مدينة الجزائر العثمانية في أوقات معينة، ليلا ونهارا، تراقب التجاوزات الأخلاقية والسلوك القانوني، وهي في غاية التنظيم.(54)

ولاحظ مولود قايد أن الشرطة الليلية في كل مدينة جزائرية كانت صارمة جدا، فهي لا تسمح لأحد بالخروج من بيته، والتحرك بداخل المدينة عقب إغلاق أبواب المدينة، وأحيائها، فكانت فرق الشرطة تقبض على كل من وجدته بشوارع، وأزقة المدينة ليلا بدون إنارة، ورخصة مرور، وقد عاش سكان كل مدينة هذا الوضع الأمني وكأنه حالة طوارئ طول السنة باستثناء شهر رمضان حيث كانت العامة تؤدي سهراتها خارج بيوتها إلى غاية صلاة الفجر.(55)

وقد اتفق الكتاب على أن هذه المدينة العاصمة، قد عرفت في أواخر العهد العثماني هدوءا وعاش المديني راحة، فنادرا ما يوجد اللصوص، و قلما تقع الجرائم، والاغتيالات، كل ذلك ينبئ بوجود نظام شرطة صارم، وفعال، نوه به شالر في مذكراته عند حديثه عن شرطة مدينة الجزائر قائلا: " وأنا أعتقد أنه لا توجد مدينة أخرى في العالم يبدي فيها البوليس نشاطا أكبر مما تبديه الشرطة الجزائرية التي لا تكاد جريمة تفلت من رقابتها، كما أنه لا يوجد بلد آخر يتمتع فيه المواطن وممتلكاته بأمن أكبر."(56) والإشادة نفسها وردت في كتابات الضباط الفرنسيين في أوائل الاحتلال فقالوا عن الشرطة الجزائرية أنها نشيطة وحازمة ومهابة.(57)

ولا يختلف عنهم صاحب المرآة عندما ذكر أن الأمن يسود مدينة الجزائر.(58) وكمثال عن صرامة شرطة المدينة ذكر شالر أن: "أوامر الشرطة تقضي بأن يحمل المسلم، أو المسيحي الذي يسير في الشوارع ليلا مصباحا مشتعلا. وأما اليهودي فيجب عليه أن يحمل ضوءا بدون مصباح.وكل شخص لا يمتثل لهذه الأوامر يعتقل، ويعاقب."(59)

وبينت الكتابات، المناصب الإدارية التي سيرت جهاز الشرطة بمدينة الجزائر دون الغوص في تفاصيل مهامها فكانت كالآتي:

-كاهية الداي: وهو بمثابة المحافظ العام للشرطة.

-كاهية الخزناجي: وتقع تحت إشرافه، الرقابة العامة للشرطة النهارية.

-**المزوار**: تقع تحت إشرافه، الرقابة العامة للشرطة الليلية، وكان يقدم للداي بمدينة الجزائر كل صباح تقريرا واصفا فيه نشاطات الليلة المنصرمة.(60) واقتصرت مهنة المزوار على جماعة الحضر دون الأتراك، لأن المزوار تشمئز منه نفوس السكان لأنه يرتبط بممارسة العنف، والإشراف على سير أعمال الدعارة الرسمية. وكان المزوار يتسلم كل شهرين مقدارا من المال يتراوح ما بين خمس إلى عشر قطع بوجو عن كل بنت عمومية (بائعة الهوى) وذلك حسب زبائنها، وهذا ما يوفر له دخلا متوسطا يقدر بألفي قرش يقدم عليه حسابا دقيقا للداي الحاكم الأول للمدينة.(61) وهكذا يؤدي المزوار مهامه بمساعدة أعوانه من الحرس، وعلى رأسهم:

-السركاجي .

-قول آغا الذي تقع تحت إشرافه مراقبة الحمامات، وأماكن الدعارة في الليل.(62)

-باش سيار الذي يرأس حراس السجون.

-باش سايس الذي يرأس فرقة الشرطة المخولة بإلقاء القبض على الأتراك الجناة، ومعاقبة العصاة.

-البراح الذي يعلن الأوامر، والقرارات الصادرة عن سلطة المدينة، ويشهر بالمجرمين واللصوص والمحتالين أمام الملأ، وفي الساحات العمومية.(63)

-قائد الفحص.

وقد نجمل هذه المهام التي تتعلق بشرطة الأخلاق، والمخالفات الاجتماعية في أواخر العهد العثماني، فيما يلي:

-إدارة صنعة البغاء الرسمي، لنساء ينتسبن إلى الفئات الدنيا في مجتمع المدينة، وقد انتشرت ظاهرة البغاء الرسمي بالمدن الجزائرية خاصة مدينة الجزائر التي قدر فيها عدد بنات الهوى حوالي ثلاثة آلاف امرأة بهدف إمتاع العزاب من اليولداش. وقد خضعت نساء البغاء الرسمي لمراقبة شديدة، وتفتيش منتظم، ومطلوب منهن حسب سبنسر أن يعشن في حي مديني خاص محجوز ومقفل على القادمين من خارجه. وقبل زيارة الحي من قبل الزبون كان عليه أن يقدم طلبا إلى المزوار يذكر فيه السعر الذي يستطيع الدخول على أساسه، ويحدد اليوم الذي يريد الدخول فيه، وعند ذاك يصدر في شأنه إذن. (64)

لقد كان المزوار يجمع الضرائب من النساء المسجلات عنده (المومسات) ويعاقب اللاتي يتعاطين الحرفة سرا، أي بدون رخصة، بحيث يحتجزهن في السجن، وينفذ فيهن ما يصدر في شأنهن من الأحكام الشرعية الصادرة في حقهن.[65]

وذكرت الكتابات التاريخية في هذا الشأن أن البعض من اللاتي يضبطن في حال ارتكاب الفاحشة كن يوضعن في كيس، ويرمين في البحر، وربما يكون هذا الكلام صائبا إذا كانت الزانية من النساء المتزوجات.

إن قيام المزوار بهذه المهمة لدليل واضح على انتشار الرذيلة، وفساد الأخلاق بين سكان المدينة بفعل انتشار حياة العزوبية بين الأتراك العثمانيين، وارتفاع نسبة الولادات غير الشرعية.[66]

-تطبيق العقوبات الجسدية على المخالفين والعصاة بالتعزير والضرب بالعصا وتنفيذ عقوبة الإعدام فيما إذا تلقى الأمر بذلك من الحاكم.

-السهر على المحافظة على أمن شوارع المدينة، وأزقتها، وحراسة زنزانات السجون.[67]

* **المحتسب (إدارة الأسعار والأسواق):**

تحتل الأسعار مكانة هامة في اقتصاد الجزائر العثمانية إذ يتعلق أمرها بالتوازنات الاستهلاكية للمجتمع بمختلف فئاته بالبلاد الجزائرية مدنا، وأريافا، وقد لاحظ الكتاب أن الداي عند توليته، يقسم اليمين للمحافظة على قوانين السعر، ودعم مراقبة الدولة لأسعار الأغذية بالدرجة الأولى، من خلال دعمه لإدارة الأسعار المسماة وقتذاك بالحسبة.

وهكذا تشغل الحسبة مكانة متميزة في الإدارة الحضرية بالمدن الإسلامية، وقد عرفت الحسبة التي تعني من الناحية الشرعية " الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر" تطورا كبيرا من الناحية الإدارية خصوصا في العهد العثماني.

وعمل المحتسب عمل ميداني إذ تراه يجوب الأسواق، والشوارع، ويستمد سلطته من القرآن، والسنة النبوية، وهو المسؤول عن السوق بالدرجة الأولى حتى أنه سمي بصاحب السوق، ويساعد في دائرة اختصاصه، شيخ المدينة، وشرطتها في السهر على السير الحسن للمدينة، ويمكن ذكر صلاحياته كالآتي:

-مراقبة جودة البضائع، ونوع السلع من مختلف الصنائع.

-تحديد، وتثبيت الأسعار، وتسجيلها، ومراقبة تنفيذها في السوق.

-مراقبة جودة الخبز.[68]

-تحديد، ومراقبة المكاييل والموازين، والقياسات، والنشاط التجاري، والحرفي داخل السوق.

-التأكد من مطابقة المواد المصنوعة للقواعد المرسومة والمتعارف عليها.
-مراقبة صيانة الشوارع، ومنع كل ما من شأنه إعاقة حركة المرور وعرقلتها بالمدينة، حيث يحظر على الحمالين حمل الأثقال، وتواجد الدواب بكثرة واكتظاظها.
-الأمر بهدم البنايات القديمة المهددة بالانهيار.
-السهر على توفير الإنارة بشوارع المدينة.(69)

وتذكر بعض الكتابات التاريخية أن صلاحيات المحتسب قد تقلصت في أواخر الفترة العثمانية نتيجة تدخل عدة أطراف في تسيير المدينة عموما، مثل وكيل الحرج، والقاضي، وأمين الأمناء، وشيخ المدينة، فأصبحت تقتصر على مراقبة الحرف لاسيما المتعلقة بالتغذية مثل القصابة، الفرانين، الكواشين، ومراقبة أسواق تلك الحرف.(70) وبعضها الآخر، استنتجت أن الحسبة قد تفرعت في أواخر العهد العثماني إلى ثلاث وظائف متميزة، ومتكاملة هي:
-وظيفة شيخ البلد .
-وظيفة حسبة الأسواق.
-وظيفة قائد الفحص.(71)

وقد استعان المحتسب لأداء مهامه المذكورة، بمساعدة القاضي والأمناء وأمين الأمناء ، وأجرته عبارة عن مبلغ محدد يتقاضاه من السلع الواردة إلى السوق، فهو مثلا يأخذ نصف ريال عن كل رأس غنم، وسبع قطع ذهبية عن كل حمل من التمر الواردة من الجنوب، وبالتالي لم يكن له أجر محدد من الخزينة بل يأخذ من كل سلعة واردة إلى السوق مقدارا محددا يعتبر بمثابة أجر له.(72)

وعليه فالمحتسب كما عبر عنه أحد الكتاب الفرنسيين أنه لا يمكن أن نجد موظفا يناظره خارج الإسلام، فهو يربط بين الإسلام، والنشاط الاقتصادي، وهو الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، وذلك من شأنه أن يحافظ على معنى المدينة المادي والمعنوي.(73)

*** قياد الخدمات الاجتماعية بالمدينة:**

-قائد الزبل:

انحصر دور قائد الزبل في :

-السهر على نظافة المدينة، بالسير في الطرقات، والأزقة مصطحبا فرقتين بدوابها، الأولى تكنس الطرقات، والأزقة المسدودة، وتجمع القاذورات في أماكن مخصصة لها، والثانية تجمع قمامات المنازل داخل "الشواري" الموضوع على ظهر الدابة، وتنقلها إلى مكان مخصص لتفريغ القمامات

العمومية، عادة ما يتحدد خارج أسوار المدينة. ونشير أنه كان للبيوت، حفر خاصة على شكل جيوب ذات أفواه مفتوحة على الشارع يلتقط منها الكناسون أوساخ المنازل، وأن سكان المدينة كانوا يساهمون في نظافة محيطهم الحضري ما دامت طرقات المدينة ضيقة، ومسدودة تطرح على عمال النظافة صعوبة في ولوجها.(74)

- قائد الطرق والشوارع:

يختص هذا الموظف المدني بإدارة طرق، وشوارع المدينة، من خلال رئاسته لشركة الطرقات، وقد تساءل الباحثون عن مهمات شركة الطرقات، وقائدها خصوصا إذا علمنا أن تنظيف الشوارع والطرقات يعود لقائد الزبل وفرقتيه، والترصيف لقائد الشواري، وتتعقد المسألة أكثر إذا تذكرنا أن بالمدينة طرقات عمومية، وطرقات ترتبط بالقطاع الخاص أي الأزقة مسدودة النهاية التي لا يلجها سوى ساكنوها في غالب الأحيان.

وأمام هذا الإشكال، والتداخل في الوظائف يرى الباحثون أن قائد الطرق، والشوارع وفرقته التي يرأسها يختص بتنظيم حركة المرور في شوارع المدينة الضيقة، وكذا ربط الدواب في الأفنية، وعرض السلع والتوقف والانتباه إلى كل ما يضر بالشارع.(75)

ويلاحظ أن قائد الشوارع لا يختص بالدروب المسدودة بفعل ازدحام المساكن مثل ما هو واقع في القصبة العليا بمدينة الجزائر، حيث يترك الأمر للسكان.

*** نظار ووكلاء الأوقاف (الأحباس):**

كان بمدينة الجزائر في العهد العثماني جهاز خاص بمؤسسات الأوقاف، يشرف على كل مؤسسة وقفية، موظف رئيسي، يعينه الداي يدعى "الشيخ الناظر أو الوكيل الرئيسي أو المتولي" وهو لا يقل أهمية عن القاضي أو المحتسب، خصوصا إذا علمنا أن مدينة الجزائر كانت غنية بعدد مؤسساتها الثقافية والدينية. وتتلخص مهام ناظر الأوقاف في:

-التطبيق الحرفي لقرارات المجلس القضائي العلمي بشأن القضايا الوقفية.

-كراء العقارات المحبوسة وجمع أموالها من الوكلاء ثم توزيعها على الجهات المعنية بمردود الوقف حسب ما يتضمنه العقد الوقفي.(76)

-الاهتمام بصيانة العقارات الوقفية كإصلاح البناء، وشراء زيت المصابيح، وفرش قاعات الصلاة.

-مراقبة الحسابات الخاصة بالمؤسسة الوقفية، وتدوينها في سجلات متعددة، تودع نسخة منها لدى القاضي أو المفتي إبعادا لكل ما قد يطرأ عليها من لبس، أو تحريف، أو ضياع.

-تقديم عرض مفصل، ودقيق عن كل ما يقوم به من أعمال وإجراءات، وخدمات خيرية، واجتماعية، وثقافية للمجلس العلمي.

ولناظر الأوقاف منحة معينة، وأجرة متواضعة قد لا تتجاوز الأربعين ريالا في السنة، الأمر الذي دفع بعض الشيوخ النظار إلى مد يدهم إلى مردود الأوقاف لسد حاجاتهم.

أما وكلاء الأحباس فهم الذين يشرفون على الأحباس، ويتسلمون عناءها ومحصولها ويقومون بصيانتها وتسيير أمورها، وقد يساعد كل وكيل أوقاف مجموعة من الأعوان، منهم الكتاب المعروفون بالخوجات، مهمتهم ضبط الحسابات، وحفظ الأوراق، ومنهم العدول المعينون من طرف القضاة، والمكلفون بتسجيل العقود، ومنهم الشواش الذين يكلفون بالخدمات، ويقومون على حراسة الأوقاف وصيانتها، كما يرتبط بهؤلاء الموظفين، موظفو بيت المال الذين لهم اهتمام بقضايا الوقف.

ويلحق بموظفي مؤسسة الوقف، مجموعة من الوكلاء القائمين على الجوامع، والمساجد، والزوايا وأضرحة المرابطين، التي تتوفر على أملاك موقوفة، وكذا الخوجات القائمين على أوقاف العيون المائية، والآبار، والقنوات، وجميعهم كانوا يعينون من قبل الديوان.(77)

*** إدارة الجماعات الحرفية:**

-أمين الحرفة:

ينتخب مجموع معلمي الحرفة الواحدة في كل مدينة، رئيسهم، ولا يتم ترسيمه إلا بعد موافقة سلطات البايليك العثمانية على الاختيار،(78) ويتميز عموما بتمكنه من الصنعة، والسلوك المعتدل، ويتجلى دوره في التنسيق مع السلطات المدنية المحلية بخصوص جمع الضرائب الحرفية، والمشاركة في تسيير شؤون المدينة العامة إذ كان يكلف من طرف الإدارة القضائية بالتحقيق في القضايا التقنية التي تعرض على القاضي باعتباره خبيرا تقنيا، ويتعاون مع المحتسب في مراقبة السوق بالتركيز على فحص المكاييل وجودة السلع، والانتباه إلى سلوك جماعته الحرفية تجاه الزبائن، كما كان يدافع عن حقوق أفراد الجماعة الحرفية التي ينتمي إليها، ويمارس الرقابة عليهم والبت في خصوماتهم مما يوحي أنه كان للأمين سلطة قضائية تنفيذية لا تتعدى جماعته الحرفية.(79)

ولم يكن الأمين الحرفي حسب بربروجر Berbrugger موظفا لدى البايليك بل هو وسيط بين السلطة، والحرفيين، وحسب أهمية الحرفة، قد يعين الأمين مساعدا، أو اثنين يسميان " خليفة". وإذا وقع حادث على مستوى الجماعات الحرفية، واستدعى تدخل الجهات القضائية،

فإن الأمين يعرض القضية على القاضي لينظر ويصدر حكمه فيها، ثم يكلف المحتسب بضرب المذنب، أو سجنه، وكان الأمين مكلفا بمحاربة المنافسة غير الشريفة بين أهل حرفته.[80]

– أمين أمناء الجماعات الحرفية:

يبقى دوره غامضا في غياب معلومات مستفيضة، وكل ما يعرف عنه أنه كان ينتخب من بين أمناء الجماعات الحرفية الموجودة بالمدينة، وقد كان هذا المنصب يثير المنافسة بين الأعيان، فكثيرا ما تنفرد به عائلات لمدة سنوات، وقرون.

وقد كان لأمين الأمناء دور في عقد المصالحات بين الجماعات الحرفية، وحتى بين أفراد الجماعة الواحدة، هذه المصالحات التي تساعد على صياغة نظام حرفي ايجابي، وعلى التنسيق مع شيخ البلد في جمع الغرامات من أصحاب الحرف المتنقلة، ومترلة أمين الأمناء محترمة لدى الحاكم السياسي للمدينة، فهو الواسطة بينه، وبين أمناء الحرف في قضايا عالم الاقتصاد الحرفي بالمدينة.[81]

*** خوجات الخدمات العامة:**

يمكن تصنيف الخواجة ضمن المناصب الوظيفية الحكومية ذات الطابع الإداري المدني المحلي، واعتقد أنها تتواجد بكل مدينة بالجزائر العثمانية إلا أن ألقابها قد تختلف من مدينة عاصمة إلى مدينة عادية، ومن مدينة ساحلية إلى مدينة داخلية.

فبالنسبة لمدينة الجزائر كمدينة ساحلية، وعاصمة مركزية، فقد عرفت منصب خوجة قصر الداي، الذي كان يقدم للخزينة، مبالغ مالية معتبرة، مقابل تسلمه حقوق بيع المناصب (رسوم التولية) للخوجات الآخرين، وهذا ما جعله يتحصل على أكبر قسط من الهدايا، من الموظفين الكبار في جهاز الدولة.

أما خوجة الجمارك، وخوجة الغنائم فيظهر أن مثل هذه المناصب لا توجد إلا في المدن الساحلية كمدينة الجزائر، ووهران، وعنابة حيث تتوارد عليها السفن التجارية من أوربا الغربية وآسيا الصغرى، ومنها تنطلق مراكب الغزو البحري.

وفيما يتعلق بمناصب الخواجة الموجودة في كافة المدن بالجزائر العثمانية، وعلى رأسها مدينة الجزائر نذكر ما يلي:

–خوجة الرحبة الذي يتسلم الرسوم على الحبوب المعروضة في سوق المدينة المفتوح.

–خوجة الزرع الذي يوزع الحبوب، ويراقب كمية، ونوعية الخبز الذي يوزع على الحاميات العسكرية المتواجدة بالمدن، كما يتسلم ضريبة عينية من الحبوب بعد موسم الحصاد.

-خوجة الملح: يتكفل بشراء، وتعبئة الملح، ثم الإشراف على بيعه بالتفصيل لكون تجارة الملح كانت محتكرة من طرف البايليك، ولا تخضع للمعاملة التجارية الحرة.(82)

-خوجة الجلود: بيده مفاتيح فندق الجلود، لكون تجارة الجلد كذلك كانت محتكرة من طرف البايليك دون التجار الخواص.

-خوجة الفحم: يمثل الفحم في الفترة العثمانية طاقة العصر، لذلك خصصت السلطة موظفا حكوميا وهو خوجة الفحم مهمته استخلاص الرسوم المفروضة على كل حمولة فحم، تدخل المدينة، وتسوق عن طريق سوق الفحم الواقعة بالفحص.

-خوجات أبواب المدينة: وضعت السلطة العثمانية موظفين بمرتبة خوجة على كل باب من أبواب المدينة، ويظهر لي أن مهمتهما تتجلى في فحص البضائع الداخلة، والخارجة من المدينة واستخلاص رسوم عليها.

-خوجات المنازل، والدكاكين، والحدائق: يظهر لي أن هؤلاء الخوجات يتوزعون على أحياء المدينة لاستخلاص رسوم عقارية على المنازل، والدكاكين، والحدائق.(83)

-خوجة العيون: اهتم العثمانيون بالشبكة المائية داخل المدينة حيث أوقفوا عدة أحباس لإصلاح العيون، والخزانات المائية وقنوات صرف المياه الصالحة للشرب، وسخروا لها الموظفين يعملون تحت إمرة شيخ البلد، وعلى رأس هؤلاء الموظفين :" خوجة العيون"الذي تتجلى مهمته في:

-اقتراح عملية بحث عن منابع مائية جديدة بفحص المدينة عند الحاجة على شيخ البلد.

-اقتراح مشاريع جلب المياه ببناء قنوات وحفر مجاري على شيخ البلد.

-مراقبة أحباس القنوات والمنابع المائية.

-مراقبة موظفي شيخ البلد المكلفين بتوزيع الماء، وجمع الأتاوات المائية من سكان المدينة.(84)

وعليه ذكر الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني أن مناصب الخواجة ثلاثة أصناف:

-صنف ذو مردود وفير يظفر به عادة العنصر التركي العثماني.

-صنف ذو مردود متوسط ينفرد به الكراغلة.

-صنف ذو مردود ضعيف يحظى به الحضر.

ومنصب الخوجة، يحكمه نظام الالتزام، فكل خوجة كان مضطرا أن يدفع المال مقابل الظفر بالمنصب خصوصا مناصب الصنفين الأولين المذكورين أعلاه، أضف إلى ذلك يتعهد الخوجة بتسليم مقدار من المال للخزينة كل شهرين مقابل الأرباح التي يحصل عليها، ويحتفظ بجزء منها

يعرف بفائض الالتزام، وهو لا يتعدى غالبا عشر الضرائب، أو الرسوم التي جمعها، يضاف إليها العديد من الهدايا التي كان يتلقاها في المناسبات الدينية، أو غير الدينية، كمناسبة التدنيش وزيارة القناصل الأوربيين إذا تعلق الأمر بخوجات مدينة الجزائر.(85)

ثانيا-الوظيفة الاقتصادية.

1-الحرف بمدينة الجزائر.

عرفت المدينة الإسلامية عموما طوائف حرفية متميزة، اختلف عددها من مدينة إلى أخرى، وذهبت بعض الأقلام المهتمة بالمدينة الاسلامية مثل "أندري نوشي" و" أندري ريمون" إلى اتخاذ الكثافة العددية للحرف مقياسا لأهمية المدينة في العهد العثماني، وذهبا إلى الاعتقاد أن تطور المدينة مرتبط أساسا بتطور الحرف.(86)

لكننا نتحفظ أمام هذا الاعتبار إذا لاحظنا أن عدد حرف مدينة الجزائر كمدينة تجارية مركزية في البلاد أقل من عدد حرف مدينة قسنطينة، وبالتالي تشترك عدة عناصر في قياس أهمية المدينة.

أ-الطوائف الحرفية: مفهومها وتنظيمها.

يطلق عادة على الطوائف الحرفية في مدن الجزائر العثمانية مصطلح " الجماعة"، والجماعة هي تنظيم اقتصادي، واجتماعي ذو أسس أخلاقية خاصة، تحمي أصحاب كل حرفة من التعدي، وتضمن مستوى مقبول للحرفة، وتحدد أسعار منتوجاتها وتنظم العلاقة بين الدولة، وأرباب الحرف، فالجماعة الحرفية ليست إطار عمل فحسب، بل إطارا لحياة اجتماعية. (87)

والطوائف الحرفية عادة ما تأخذ طابعا عرقيا عندما نجد حرفا تقع تحت احتكار اليهود أو الأندلسيين أو الميزابيين أو الجبايل أو الجيجليين أو البساكرة.

وتعتبر وراثة الصنعة أو الحرفة في العائلة الواحدة، من التقاليد الراسخة لدى الطوائف الحرفية، فيجب ألاّ تخرج أسرار الصنعة من العائلة على امتداد جيلين على الأقل، والحرفة لا تؤخذ بالضرورة عن الوالد فحسب بل عن الأخ الكبير، أو عن الجد دون المرور بالأب، أو عن الخال.(88)

يمكن للعائلة الحرفية أن تتخصص في حرفة واحدة كما يمكن لأفرادها أن يخوضوا حرفا أخرى فهذا خياط، وذاك كواش، والآخر قهواجي، وغيره حرار، ويلاحظ أن اختيار الحرف في بعض العائلات هو اختيار استراتيجي، فقد وجهت الأسر الحرفية أبناءها إلى حرف ذات صلة

وطيدة، أو قريبة جدا من الحرفة التي تعاطاها الوالد، وتبين أن هناك نزعة واضحة داخل العائلة الواحدة إلى تنويع الاختيارات المهنية.[89]

*** تقسيم العمل بين الجماعات الحرفية:**

من خصائص التنظيم الحرفي، تقسيم العمل، إذ نجد الجماعة الواحدة تتفرع إلى عدة جماعات حرفية، والجدول التالي يبين ذلك بمدينة الجزائر:

جماعة الحمالين ⇓	جماعة الدلالين ⇓	جماعة حرفة الجلود ⇓	جماعة صناعة الأسلحة ⇓	جماعة صناعة الخشب ⇓	جماعة الكواشين ⇓
حمالو الرمان	دلالو سوق الخياطين	الدباغون	الجقماقجية	النجارون	الكواشون
حمالو الجير	دلالو باب عزون	الشبارلية	القنداقجية	النشارون	البشماطية
حمالو مخزن الزرع	دلالو الحوائج	البرادعية	المكاحلية	الخراطون	
حمالو باب البحر	دلالو سوق الكبير	البابوجية			
	دلالو الديار	التماقون			
	الدلالون البساكرة	الرقاقون			
		البلاغجية			
		الحرازون			

وأشارت الدكتورة غطاس إلى أنه هناك جماعات حرفية غير متفرعة مثل الصباغون والحرارون والقزازون...[90]

*** الجانب التنظيمي لعلاقات الإنتاج:**

توزعت الحرف على نقابات مهنية، وكل نقابة لها وظائف محددة، تمثلت في :

-إصلاح ذات البين، وتصفية الخلافات التي كان يؤخذ فيها برأي أصحاب الخبرة في ميدان الحرفة.

-التدخل للتفاوض مع السلطات الرسمية في المسائل التي لها علاقة بالحرفة.

وعن التركيبة الاجتماعية للنقابة الحرفية، يذكر أنها تشكل نوعا من العائلة الوسعة، حتى ولو كان أعضاؤها لا يرتبطون برابطة دم حقيقية. هذا الإطار كان يمثل بالنسبة لسكان المدن، وتحديدا مدينة الجزائر ما يمثله العرش أو القبيلة، بالنسبة لسكان الريف، وهذا يعني أن الفرد المعزول خارج المجموعة ظل استثناء غير مقبول داخل مجتمع المدينة، وأن الاحتماء بمجموعة بشرية كبيرة، أو صغيرة كان هو القاعدة الوحيدة المعترف بها.

وبخصوص قيم النقابة الحرفية، ذكر الكتاب:

-العمل على إشباع مطالب، وحاجات معينة.

-غياب الصراع الاجتماعي، والاقتصادي داخل النقابة الحرفية.

-سيطرة القيم الإسلامية داخل النقابة الحرفية، حيث أن العمل الحرفي منظم حسب وتيرة الصلوات اليومية التي تؤدى في المساجد جماعة.(91)

*** شعائر الجماعات الحرفية:**

من بين الشعائر التي كانت تمارسها الجماعات الحرفية بالمدن الجزائرية، خاصة مدينة الجزائر، في أواخر العهد العثماني، نذكر ما يأتي:

-التوقف عن العمل داخل الورشات الحرفية في مواعيد الصلاة خلال كل يوم، بحيث يتوجه العمال إلى المسجد، أو الجامع القريب من ورشاتهم.

-احتفال كل جماعة حرفية بالعيد السنوي لولي صالح تحتمي به.

-ترديد الجماعات الحرفية لأدعية، وأذكار قرآنية، وأقوال عامية ذات صبغة سجعية، فمثلا لا يباشر الدلالون بمدينة الجزائر نشاطهم إلا بعد التوجه إلى جامع، أو مسجد الدلالة، ويقومون بتلاوة سورة الفاتحة ثم يرددون العبارة التالية: " **يا فتاح يا رزاق يا رب، العمل عليك والشهادة، الطلبة فيك يا ربي.**"

وحينما ينتقل الدلالون إلى السوق يرددون، وهم يطوفون عارضين بضائعهم : " **باب الله من يستفتح يا رباح، ومن يصلي على النبي يسعد ويربح.**"(92)

*** الوضعية الاجتماعية للحرفيين:**

ذكر مولود قايد أن عدد الحرفيين بالمدن الجزائرية في أواخر العهد العثماني، كثير خاصة في الجزائر، وتلمسان وقسنطينة، وهم أشخاص بسطاء، ومتواضعون ويجهدون أنفسهم في العمل، ويستغلون حرفهم لقضاء وقتهم والحصول على لقمة العيش، وهم يعيشون على الكفاف بمدخول حرفهم، ورغم أن السلطات التركية العثمانية بالمدن تحدد أسعار المنتوجات الحرفية إلا أن المنافسة

بين الحرفيين قائمة حول الجودة، والسعر، خاصة فيما يتعلق بحرفة الحلي والملابس الرجالية والأحذية، وغيرها. (93)

ب- أهم الحرف بمدينة الجزائر.:

*** الحرف الإنتاجية:**

-حرفة ضرب النقود:

اختصت مدينة الجزائر كعاصمة مركزية للدولة بضرب العملة المحلية، دون غيرها من المدن، وكانت تقع دار السكة أو العملة قرب قصر الداي، لتنقل إلى القصبة على يد الداي علي خوجة سنة 1817وحتى لا يقع هناك تسرب للعملة أو تهاون في صنعها، اختير بعض الصناع الماهرين من اليهود للعمل بدار السكة تحت مراقبة أمين السكة. وحددت لهم مرتبات كانت تتناسب طردا مع الكميات التي يقومون بصبها من العملة، وتتمثل مهارة عمال دار السكة في المحافظة على شكل النقود، ومعيارها رغم أن دار السكة لم تتوفر إلا على آلات بسيطة كبعض الموازين، وأحجار الرحى، وقوالب صب العملة، وسبكها.

وكانت العملة الجزائرية، إما ذهبية، أو فضية، أو برونزية، أو نحاسية، أما مزج المعادن الثمينة فإنه قد خضع لقوانين تحدد نسبة المزج، وعدد القطع المضروبة للقنطار. ولتوفير هذه المعادن النفيسة التي تتطلبها عملية المزج المعدني، وصبها اضطرت دار السكة إلى شراء السبائك الذهبية، والفضية من الصاغة، وبعض السكان الذين كانوا يملكون كميات كبيرة منها بفضل غنائم البحر، وممارسة التجارة. كما كانت دار السكة تستورد كميات من المعدن الثمين من البلاد الأوربية، ومن أقطار السودان الغربي، لأن المناجم لم تكن تغطي إلا جزءا ضئيلا من متطلبات دار السكة، لذا كثيرا ما كان حكام مدينة الجزائر، يضطرون إلى استغلال كميات من الذهب، والفضة المودعة بالخزينة العامة، لسد حاجة دار السكة، أو لتسديد قيمة بعض المواد المستوردة من طرف أحد البايليكات.(94)

-حرفة البناء:

يبدو أن حرفة البناء قد عرفت ازدهارا كبيرا عند مجيء الأندلسيين، وقدمت حرفة البناء خدمات للدولة الجزائرية الحديثة، إذ كانوا يقومون بما نصطلح عليه حاليا " بالواجب الوطني"، لأنهم كانوا يستجيبون لنداء الحاكم السياسي من مختلف مدن البلاد الجزائرية لتعمير مدينة إذا ما أصابتها الحرب، أو الكارثة الطبيعية، فقد استدعى الداي عمر باشا البنائين لإعادة بناء جزء كبير من السور الخارجي، والجامع الكبير بصومعته اثر الحملة الانجليزية الهولندية على مدينة الجزائر

سنة 1816. كما استدعى آغا العرب "يحي" كل بنائي منطقة دار السلطان، للمشاركة في مشروع إنشاء المدينة الجديدة المسماة "خزرونة" بجوار مدينة البليدة التي خربها زلزال 1824.(95)

وتشير الكتابات التاريخية إلى استعانة الحكام العثمانيين، بالجزائر ببنائين وافدين، مثل المهندس الايطالي الذي بنى قنطرة مدينة قسنطينة، والمهندس الحاج علي أمازيالي الأناضولي الذي بنى دارا للبارود بالقصبة سنة 1230هـ/1815م.(96)

-حرفة بناء السفن:

تعد حرفة بناء السفن بالمدن الساحلية بالجزائر العثمانية من بين الحرف المتقدمة غرضها تلبية حاجيات السكان الذاتية، فمثلا نجد بمدينة الجزائر صناعة السفن التي تزن بين 307 و 400 طن، وكذلك صناعة الفرقاطات المدعمة بـ 20 إلى 30 مدفعا الموجهة للبحرية الحربية.(97)

وأشار شالر أن الخشب الذي يجلب من بجاية غير جيد، وقلما يستعمل لبناء السفن.(98) وهكذا نستنتج أن السفن المصنوعة بميناء الجزائر العثمانية هي سفن من الحجم الصغير، وهي لثلاثة استعمالات: للصيد، للتجارة، وللغزو البحري، وذكر شارل فيرو **Féraud Charles** في المجلة الإفريقية الناطقة باللغة الفرنسية، أن الجزائريين في العهد التركي العثماني، لا يمكنهم تطوير صناعة السفن إلا بالاعتماد على المهندسين المتخصصين المسيحيين الأوربيين.(99)

-صناعة الحرير:

حسب ما ذكره شالر، تصنع بمدينة الجزائر العثمانية منتجات حريرية مختلفة مثل الشالات، والمناديل، والأحزمة ونوع العمائم، والقماش الذي يطرز بالذهب، وغير ذلك من المنتجات التي تستهلك محليا. وهذه المنتجات الحريرية، أجمل وأمتن وألوانها جميلة ودائمة، تباع بأسعار أغلى قليلا من مثيلاتها من المنتجات الفرنسية، والايطالية. وعموما لا توجد بضاعة أوربية تفوق المنتجات الجزائرية في هذا المجال." (100)

-نسج الصوف والألبسة والمفروشات:

شاعت حرفة نسج الصوف في كل أرجاء البلاد الجزائرية، في المدن، والقرى الكبيرة، وقد نجدها في منازل العائلات، فهي حرفة عائلية، بغرض الاستهلاك العائلي فقط، وفي المعامل فهي حرفة عمومية، بغرض الاتجار بها. وأشار شالر أن نسج الصوف يتم بطرق بدائية، وهذا الصوف المنسوج يستعمل في نسج البرانس للرجال، والحايك، والشالات للنساء، ونسج السجاد.(101)

وأشار محمد بن الأمير عبد القادر أن الصناعة النسيجية هي من أهم الحرف لدى حضر المدن الجزائرية، فقال: "من نفيس مصنوعاتهم، نسج أقمشة الحرير، ومنسوجات الصوف، كالبرانس، والأكسية أي الملابس، وغيرها من أنواع الملبوسات، والبسط والسجاد، وغيرها من المفروشات، ويساعدهم على ذلك نعومة الصوف ولطافته."(102)

-صناعة الحصائر:

تنتج حصائر رفيعة، ومتنوعة، وتشكل فرشا للأرضية تشبه السجاد، ويستعان في صناعة الحصائر بأوراق النخيل، والخيط المتين.(103)

-صناعة المدافع:

وجدت مسابك لصناعة المدافع بمختلف الأحجام بباب الواد بمدينة الجزائر، موجهة للسفن الحربية، وبطاريات الحصون، والعتاد المدفعي لغزو الريف. هذه المسابك عبارة عن بناية بها قلعة تعلو بـــعشرين مترا، مجهزة بفرن، وخندق لاحتواء المعدن المنصهر.(104)

-حرفة الطرز :

انتشرت حرفة التطريز بين العائلات بمدينة الجزائر، فهي حرفة مترلية عائلية، ارتكزت على عمل الإبرة، وهي نشاط أساسي للمرأة الحضرية، وبشأنها كتب وليم سبنسر ما يأتي: " وقد كانت المطرزات قد اختصصن في القطع الخاصة بالنوافذ، وألبسة الرأس والمحارم اليدوية، وكذلك تطريز القفطانات، والأدوات الأخرى من الألبسة الخاصة بالرجال، والنساء. وكذلك هذه الأعمال تشغل من وقت عملهن الكثير من الساعات وينتجن خلالها إنتاجا مرتفعا..."(105)

ولا يعني ذلك أن حرفة الطرز كانت مقصورة على النساء الحضريات بل شاركهن فيها الرجال الحضر الذين اعترف صاحب تحفة الزائر ببراعتهم قائلا:" ولهم براعة في طرز المناطق، والسروج المذهبة والمفضضة على وجه لا يهتدي إليه غيرهم."(106)

-حرفة الصباغة:

ذكر محمد بن الأمير عبد القادر في تحفته، مقطعا عن الصباغة التي مارسها سكان المدن الجزائرية قبل، وأثناء العهد العثماني قائلا: " ويترل المن من السماء على شجر البلوط، فيجمعه الناس بعد انجماده، ويصبغون به، فيخرج منه اللون الأحمر الثابت، الذي لا تفوقه حمرة، ولا يؤثر في غيره من أدوات الصبغ، ويسمونه " القرمز"، ويعرف في بلاد المشرق " بالدودة" يجلبه إليها التجار من بلاد المغرب، والأندلس."(107)

* **الحرف الخدماتية:**

تعددت الحرف الخدماتية بمدينة الجزائر، وترك أمر الإشراف عليها للفئات البرانية، بحكم أنها حرف متواضعة، ويمكن ذكر أهم هذه الحرف كالآتي:

-**حرفة الفرانين،** حيث اقتصر العمل في الأفران على جماعة بني ميزاب إلى غاية 1830، أما أفران البايليك الموجهة لإعداد الخبز للجيش الانكشاري، والعبيد فكان يشرف عليها الجيجليون بمدينة الجزائر.

-**حرفة الحمايمية،** ويشرف على الحمامات العمومية جماعة بني ميزاب.

-**حرفة الهرقماجية.**

-**حرفة اللبلابجية.**

-**حرفة السفاجين.**

-**حرفة القصابة أو الجزارة،** كذلك احتكرها الميزابيون.

-**بيع الخضر والفواكه والمشروب المحلى،** وتعاطت هذا النوع من الخدمات طائفة البساكرة، فقد ورد أن الحاج محمد بن محمد البسكري كان على رأس أمانة جماعة الفكاهين عام 1609م.

-**حراسة الغنائم.**

-**الحمالة.**

-**الاستخدام في المنازل.**

-**تحضير الخبز.**

-**الحراسة الليلية،** ومراقبة الشوارع وبوابات الأسواق، والحومات ليلا، وقد يتولاها البساكرة، بالاشتراك مع زواوة فيما يخص الحراسة الليلية.

-**الحرارة.**

الدباغة.

-**المقايسية.** (108)

2-تجارة مدينة الجزائر:

أ-صادرات وواردات مدينة الجزائر:

من البديهي أن تقوم المدن الكبرى في الجزائر العثمانية، وعلى رأسها مدينة الجزائر بعمليتي تصدير واستيراد مع الجهات الخارجية، وأفادنا دانتي في كتابه المطبوع سنة 1838 بباريس بقائمة صادرات، وواردات الجزائر في أواخر العهد العثماني نعددها كالآتي:

* **الواردات:**

الذهب والفضة.

الأغطية .

التوابل .

الحديد والنحاس والرصاص.

الحبال.

الأرز والسكر.

الصابون والقطن.

الصباغة والورق.

الفواكه الجافة.

* **الصادرات:**

ريش النعام.

الشمع.

جلود الاسود والنمور.

الصوف المحلي.

أغطية نوم.

الحرير.

التمور.

المناديل المطرزة.

العبيد المسيحيون المفدون.(109)

ب–الهياكل التجارية بمدينة الجزائر:

***الفنادق:**(110)

تعد الفنادق التي تنتشر بمدينة الجزائر –كمدينة تجارية كبرى– ذات أهمية، حيث هي مستودع للبضائع والسلع، ونزل للتجار في الوقت ذاته، ويدل العدد الكبير للفنادق بالمدينة، على حجم التبادل التجاري الكبير وسعة النشاط التجاري لأسواقها التي كانت مقصداً للتجار من جميع مراكز التبادل السلعي في داخل البلاد، وخارجها مثل تجار تونس، والمغرب الأقصى. ولهذه الفنادق ضوابط قانونية، ففيها تحدد مواعيد وصول، وانطلاق القوافل التجارية الشهرية، باتخاذ بعين الاعتبار مسافة، وطبيعة الطريق، وأمنها، ووزن الشحنة السلعية التي تحملها القافلة.(111)

وعليه، لعبت الفنادق دورا مهما في الحياة الاقتصادية للمدينة، وذلك من خلال استقبالها للتجار، والبضائع، وكانت الفنادق الرئيسية تتموقع، بالأحياء التجارية القريبة من المركز الحضري. أما الفنادق الثانوية فنجدها بالأحياء الشعبية، وبالقرب من الأبواب الإستراتيجية المتصلة بالطرق التجارية.(112)

*** الدكاكين:**

يمتلك الدكاكين الحضر، والكراغلة، ويعرضون فيها البضائع التالية:

المصنوعات المطرزة بالذهب، مثل الخفاف، والمحافظ، وأدوات الزينة الخاصة بالأسلحة وغيرها، والروائح، والعطور المستخرجة من الورد، والياسمين، ومن المصنوعات القطنية المحلية، وكثير من الأشياء المصنوعة من خيوط الصبر مثل أكياس الصيد، وأحذية الأطفال...(113)

وعن طريق التنظيمات النقابية، يساهم كل دكان، بضريبة شهرية مقدارها ثلاثون سنتيما، حسب العملة الفرنسية وقتذاك.(114)

*** الأسواق والسويقات:**

توزعت –كما أسلفنا في موضوع خطط المدينة – أسواق، وسويقات عبر أنحاء مدينة الجزائر داخل أسوارها، وما يميز السوق عن السويقة، هو أن الأولى تختص بالمواد المتشابهة مثل سوق السمن، وسوق الخضر، وغيرها، وتتركز في الأحياء التجارية بالمنطقة الواطئة بمدينة الجزائر. والثانية أي السويقة هو سوق صغير تباع فيه منتوجات مختلفة، نجدها في الأحياء السكنية الشعبية في المنطقتين الوسطى، والمرتفعة، يرتادها السكان الذين يعجزون عن ارتياد السوق المتخصصة لبعد المسافة، أو غيرها من الأسباب.(115)

ثالثا-الوظيفة الثقافية.

يرى الكثير من المؤرخين أن الجزائر العثمانية كان يسودها فراغ ثقافي وعلمي، وأن المجتمع الجزائري قبيل الاستعمار الفرنسي قد تغلبت عليه الأمية، وما طغيان الحياة الريفية والبدوية على الحياة الحضرية إلا برهانا على ذلك، وحتى في المدن الرئيسية قد انهارت بها المؤسسات الثقافية إلى مستوى الضعف المفرط. وقد يستند هذا الطرح إلى جملة من المبررات هي:

-غياب جامعات كبرى ذات إشعاع عالمي، أو إقليمي مثل جامع القرويين، وجامع الأزهر وجامع الزيتونة.

-هجرة طلاب العلم إلى الخارج لأخذ العلم.

-غياب سياسة ثقافية من قبل السلطة المركزية التي تعكس إهمال، وتغافل الحكم العثماني عن الثقافة، والعلم بالجزائر.

والموضوعية العلمية تفرض علينا التمحيص في الأمر الثقافي بالجزائر العثمانية، وتجنب اتخاذ أحكام مسبقة بهذا الشأن، لأن المدينة الجزائرية كمدينة إسلامية، تعد أساسا تجمعا سياسيا حمل على عاتقه نشر الثقافة بإلحاق الأميين بالمتعلمين، والريفي بالحضري، باعتماد الجماعة وسيلة لتحصيل المعارف، إذ في المدينة تتحدد أوقات العمل، وأوقات حلقات الدروس، وأوقات العبادات، والمواسم، والأعياد، ولعل المعطيات الثقافية التي سجلها الكتاب وهم يكتبون عن تاريخ مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، تشرح مرامينا، وتستبعد ما يسمى بالفراغ الثقافي، وتبرز قيام المدينة بوظيفتها الثقافية.

1-مظاهر النشاط التعليمي والثقافي بمدينة الجزائر:

أ-مراكز التعليم والثقافة بمدينة الجزائر:

*** الجامع والمسجد:**

الجامع هو منطلق النظام الجامعي، يحتوي على نوعين من الثقافة، ثقافة عالية للطلاب، وحلق للدروس العمومية مخصصة للجماهير. ويهيمن عليه كبار الأساتذة ورجال الفكر والإفتاء، وهو ملتقى القادة السياسيين، وكبار الموظفين، والعلماء، وكافة المواطنين وهو محل الشورى الواسعة، وحبك الرأي العام، ومنبع التدابير الكبرى، ومنطلق كل سياسة ثقافية للبلاد.[(116)]

وتحدث الدكتور عمار هلال عن مهمة المسجد قبل، وأثناء العهد العثماني مبرزا أنها لم تقتصر على الجانب الروحي بل تعدته لتشمل الحياة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية للمجتمع الجزائري فقد برز المسجد، والجامع كثيرا في المجال التربوي والتعليمي، مقارنة بالمدرسة والزاوية

المدينية، حيث أن هناك كثيرا من رجالات العلم والمعرفة المسلمين الذين لم يدرسوا في مكان آخر سوى المسجد.(117)

* **المدرسة:**

هي مؤسسة التعليم الصرف، يجمع مستواها بين الثانوي والعالي، وتتعدد تخصصاتها في غالب الأحيان فتجمع بين علوم العربية، وعلوم الشريعة، وبعض العلوم العقلية إن وجد من يستطيع تدريسها. وقد ظهرت المدارس بالمغرب العربي ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي علي يد المرينيين، والزيانيين بعد إعلان هاتين الدولتين، تمسكهما بالسنة الجامعة بين مذهب مالك في الفقه، والعقيدة الأشعرية في التوحيد، فنبه رجال السياسة لأهمية التعليم المنظم حماية لهذه العقيدة الرسمية.

وما من مدرسة وجدت بالجزائر إلا وقد حصرت برامجها العلمية في إتقان مواد الشريعة، والعقيدة مع ما يمكن أن يكون ردفا لها من علوم العقليات مثل الحساب لمعرفة الفرائض، والمنطق لبناء العقيدة على البراهين. أما علوم الطب، والفلك فقد كانت نادرة.(118)

يجري النظام في هذه المدارس على قبول طلبة غرباء عن المدينة، تجري لهم منحة يتقاضونها في شكل مواد غذائية، ويلازمون الدروس إما متخصصين في علم واحد أو مشاركين في عدة علوم. ويكونون مع الطلبة المداومين من أهل المدينة طائفة الطلبة الرسميين وحلقات الدروس مفتوحة مع هذا لكل من يريد أن يكتسب معارف دون قصد الإجازة للتدريس أو، التوظيف.

وللأستاذ أن يشاهد تقدم طلبته، ويقرر إجازة من يستحق منهم لقب الأستاذية أو العالمية فيرخص له بالتدريس مع ذكر ما أخذ منه من العلوم لتثبيت إجازته. وما يلاحظ في هذا النظام التعليمي أنه مبني على التدرج في مرونة تراعي الأحوال الشخصية، والقدرات الخاصة لطلبة العلم. فبعضهم يجاز في سنتين وبعضهم الآخر في عدة سنوات، وللأستاذ أن يعمل بأخلاقيات مهنته في تقييم مستوى طلبته، ولا يدرك العالمية في غالب الأحيان إلا من كانت له قدرة على التأليف، والتدريس معا بالإضافة إلى إتقان عدد من العلوم الشرعية، بالإضافة إلى العلوم اللغوية. أما الإفتاء وهو أعلى منصب علمي، فلا ينصب فيه إلا العالم القادر على الاجتهاد، واستنباط الأحكام، وبعد أن يتفق جل العلماء على مقدرته وتفوقه في الميدان.(119)

ويمكن تلخيص ما تلقنه المدارس فيما يلي:

-الإلمام بتفسير القرآن مع الاطلاع على علوم القراءات.

-معرفة بعض علوم الحديث.

-الفقه المالكي صعودا من المختصرات مثل الرسالة، ومختصر خليل إلى المدونة.

-علم الفرائض، ويدرس مقرونا بالحساب أي نظريا وتطبيقا.

-علم التوحيد من رسائل السنوسي، إلى مؤلفات الجويني، والأشعري.

-علوم العربية وخصوصا منها النحو بالاعتماد على ألفية ابن مالك.(120)

*** الكتاتيب القرآنية:**

سماها شالر في مذكراته بين 1816-1824 بالمدارس العادية، التي يتردد عليها الأطفال ذكورا وإناثا ابتداء من سن الخامسة، أو السادسة، فصاعدا.(121)

وقد يلقن فيها التلاميذ المعارف، والمبدئيات التي تضمن الخروج من الأمية كتابة، وقراءة، واعتقادا وهي:

-حفظ القرآن، ومعرفة العربية المقتصرة على متن الأجرومية.

-حفظ وفهم لمنظومة ابن عاشر الأندلسي في الفقه، والعقيدة .(122) وعن كيفية التعلم بالكتاتيب القرآنية كتب شالر أن كل تلميذ يحمل معه لوحة يكتب عليها سورة من القرآن، ويقوم تلميذ كبير في السن، أو المعلم بتحفيظ السورة وتعليم معنى ألفاظها للتلاميذ، وقد يستعين المعلم بعصا لحفظ الهدوء، ولإثارة انتباه التلاميذ.(123)

ويظهر أن الكتاتيب ملحقة بالمساجد والجوامع إذ كتب الرحالة هاينريش :"غير بعيد عن الجامع الكبير، يوجد الكتاب الذي يشرف عليه الطلبة وهو مكان مكشوف .وفي إمكان الإنسان أن يرى هناك يوميا مجموعة صغيرة من أطفال نصف عراة وقد تربع بعضهم وجلس بعضهم الآخر القرفصاء، يقرؤون الكتاب المترل."(124)

ب-حرية التعليم ودور الجماعات الشعبية:

تتجلى مظاهر الحرية في التعليم في أشكاله، ومنهجه، وقلة الضوابط بالنسبة للطالب، والمرونة النظامية للمؤسسات الثقافية، التي تستجيب للحاجيات الجماعية إذ هي في غالب الأحيان مفتوحة الأبواب والحلقات للصغار والكبار، والأساتذة أحرار في تعيين موادهم وتوقيتهم ومنح إجازاهم، والطلبة أحرار في اختيار أساتذهم، وأوقات دروسهم ومدة بقائهم في المؤسسة التعليمية. كما أنه لا توجد تحديدات ضيقة تفصل بين طبيعة المؤسسات نفسها: فمسجد الحي، والجامع، والمدرسة، والزاوية لها ميزاها، بالإضافة إلى صفاها المشتركة، والتكاملية فيما بينها.

وما ننبه إليه أن المحتوى التكويني مضبوط ومعروف وهو في صلب الكيان الثقافي للأمة، وعليه إجماع كل الأطراف من مفكرين، وقادة ومواطنين، ما دامت الجزائر تعيش روح المقاومة وإنقاذ الذات، وبالتالي الوقت غير ملائم للاجتهاد والإبداع.[125]

والجماعات الشعبية في المدينة هي المهتم الأساسي بثقافة البلاد، وتعليمها، وهي التي أنشأت المؤسسات الثقافية التي تحيى بمردود الأوقاف، وهي التي كان لها الباع الطويل في إنقاذ الأساسيات العقائدية، ودعم أخلاق المجتمع الإسلامي، ونشر القيم الحضارية بين السكان.

وما يؤكد الدور الفعال للجماعات الشعبية في تنشيط العمل التعليمي، والثقافي بمدينة الجزائر، وغيرها من مدن الجزائر العثمانية هو تلك الأوقاف التي حظيت بها مراكز التعليم والثقافة، إلى جانب مساهمات بيت المال، ومساهمات المسؤولين العثمانيين. وملخص نظام الوقف الثقافي من الوجهة الاقتصادية هو أن يتبرع السكان بعقار، من أرض زراعية أو بيت سكني أو محل تجاري، لفائدة مدرسة بعينها، أو لكافة المؤسسات التعليمية دون تعيين.

والشرط القانوني في الأوقاف هي أن تبقى أبدية لما عينت له، لا يجوز بيعها أو استرجاعها، أو انتقالها إلى منفعة خارج النطاق الذي عينت له، وغالبا ما تنقل عقود هذه الأوقاف إلى النقش على الرخام أو الحجر، ويحتفظ بها في المؤسسة نفسها حتى لا ينتهك مقصودها مع مرور الزمن.[126]

وقد بينا سابقا كيف أن أوقاف المساجد، والجوامع، والمدارس، وحتى الزوايا، قد نسخت في سجلات متعددة من قبل إدارة الأوقاف بمدينة الجزائر العثمانية، تحفظ بالجامع الأعظم و يحتفظ المجلس العلمي بنسخة واحدة، كل ذلك قصد تجنب كل التباس أو ضياع أو تزوير. وأن كل مركز من مراكز التعليم المذكورة التي تحظى بأوقاف عين له وكيل تابع لإدارة الأوقاف، يقدم تقريرا للشيخ الناظر كل ستة أشهر حول مداخيل، ومصاريف المركز.

وبالتالي نستنتج أن الفراغ الثقافي غير وارد بل هو تقلص للمعارف ونزول مستواها، وضعف العلوم العقلية مثل الطب والرياضيات والفنون...[127]

2-واقع العلوم والفنون بمدينة الجزائر:

ذكر أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي (الجزء الأول، صفحة 190) اعتمادا على الدكتور شو shaw أن العلوم والفنون بالجزائر لا تزال عند المسلمين "كما كانت منذ مدة في حالة دنيا...فالفلسفة، والحساب، والطبيعيات، والطب لا تكاد تعرف أو تدرس."

فالبنسبة لعلم الطب، كنموذج للعلوم العقلية، قدم شالر صورة قاتمة عن واقعه بالمدينة الجزائرية فقال: " أنها (العلوم العقلية) غير موجودة، أو هي ، متى كانت موجودة، محتقرة، بل إن علم الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين، وكتاب الحروز."[128] أما الأمير محمد صاحب تحفة الزائر فإنه يبرر عدم اعتناء سكان الجزائر من المسلمين بتحصيل علم الطب، بطريقة أخرى، مفادها أن البلاد الجزائرية، معتدلة الهواء وأمزجة أهلها معتدلة، وبالتالي قلت أمراضهم وداءاتهم. ثم يذكر أنه كان قصارى أمرهم فيما يعرض لهم من الأمراض، إذ يتطببون بأدوية يستعملها غالبا عجائزهم من الحشائش وغيرها.[129]

وبشأن الفنون فقد تناولت الكتابات التاريخية نموذجين لذلك: الموسيقى، والمسرح. فالبنسبة للموسيقى، ذكر شالر أن العرب الحضر بمدينة الجزائر، يملكون عبقرية أصيلة في الموسيقى لكنهم لا يعتنون بتدريسها بوصفها علما، على الرغم من أنهم يعزفون على عدة آلات يرجح أنهم هم الذين اخترعوها.[130]

لكن يبدو من خلال إشارات وليام سبنسر أن الموسيقى العسكرية كانت تهيمن على عالم الموسيقى، والطرب، إذ تحدث عنها مبينا أصولها العثمانية، وأنها موسيقى تمارسها فرق انكشارية، بواسطة الطنابير، وعددها ثمانية تدعى "الداوول" يضرب عليها بالأصابع، وعشر مزامير مرصعة، وخمس آلات نحاسية تدعى النكاريات، وزوجان من اللوحات الكفية.

أما طراز هذه الموسيقى العسكرية فقال سبنسر أنها من نوع المختار، وهو طراز شديد النغمة، وقد أصبح طرازا شعبيا في الإمبراطورية العثمانية.[131]

وإلى جانب الموسيقى العسكرية يتحدث سبنسر باختصار شديد عن الموسيقى الأندلسية، التي كانت تمارسها فرق موسيقية عازفة على العود، والطار، والرباب، والناي، يبلغ عدد كل فرقة عشرين أو ثلاثين شخصا، وكانت تسمع هذه الموسيقى الأندلسية في كبريات المدن التي استقر بها المهاجرون الأندلسيون مثل مدينة الجزائر، وتلمسان، وقسنطينة، وفي مناسبات احتفالية، وكثيرا ما تسمع في المقاهي الجزائرية حسب سبنسر وليم.[132]

أما المسرح، فقد كانت تنشطه عرائس القراقوز، والقراقوز عبارة عن صور للعرائس مصنوعة من الجلد الشفاف، تلصق بها الخيوط، وتوضع وراء حجم مضيئ. ويعني القراقوز في اللغة التركية العيون السوداء، واعتقد سبنسر أن الموطن الأصلي لمسرح القراقوز هو الصين أو الهند، وانتشر في غرب آسيا من طرف القبائل التركية، و يروي الكاتب قصة تطور عرائس القراقوز في تركيا قائلا أن السلطان العثماني أورخان قد أمر ببناء مسجد في مدينة بورسا، وكان

من بين عمال المسجد، رجلان أحدهما يدعى قراقوز، والآخر يسمى حصيبات، وكانا بسببهما يتوقف العمل في المسجد نظرا لكثرة مساجلاتهما الممتعة وتهريجهما، وجذبهما للعمال الذين يزدحمون لسماع ما يرويه الرجلان المهرجان.

ولما ضاق السلطان بالرجلين ذرعا أمر بشنقهما، لكنه ندم على ذلك، فبني تخليدا لذكراهما تمثالين رمزيين للمضحكين الميتين، ثم أصبحت مساجلات القراقوز منتشرة من وهران إلى زغاروس بايران وأصبحت من التسليات الشعبية.

ويفيدنا سبنسر أن محتوى مساجلات عرائس القراقوز كان يختلف من النكتة المفرطة في الإضحاك إلى الانتقاد السياسي اللاذع، وتقليد الرسميين الكبار، وكان القيام بها يتم أحيانا في البيوت الخاصة، وأحيانا أخرى في المقاهي، وكثيرا ما كانت تقام مساجلات القراقوز أمام جنود الانكشارية للترفيه عنهم.[133]

لكن يذكر موريتس فاغنر في أوائل الاحتلال الفرنسي للجزائر أن مسرح القراقوز الشعبي عادة ما ينشط في شهر رمضان بعد الإفطار، ويقع في أقذر زاوية بمدينة الجزائر، فهو عبارة عن قبو مظلم، يحتشد فيه سكان المدينة من المسلمين، جالسين فوق الأرض، وأنظارهم متجهة إلى العرائس، في أشكال سوداء ناطقة.[134]

وإلى جانب عرائس القراقوز، عرف المسرح بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، ألعابا بهلوانية حيث ذكر سبنسر أن سكان المدينة الجزائرية مارسوا ألعابا بهلوانية في إطار منافسات تسمى "القريس" تجري بانتظام أيام الجمعة بعد الانتهاء من صلاة الجمعة مباشرة. وكان ينشط هذه الألعاب البهلوانية شخصان يقومان بحركات تثير الإعجاب والتسلية في حلبة يسورها العامة من سكان المدينة، وفي نهاية الألعاب يدور البهلوانيون على الناس الحاضرين لجمع الدراهم.[135]

وفي سياق هذه الألعاب البهلوانية التي هي مودة ثقافية وقتئذ، بين سبنسر أن ذلك لم يقتصر على صنف الرجال، بل شاركهم فيه النساء حيث كتب أنه في مناسبات الاحتفال بالأعياد الدينية تمارس بعض النساء ألعابا بهلوانية في إطار مباريات، إذ تنطلق ثماني عشر لاعبة ماهرة فينقسمن إلى اثنتين، اثنتين، وحينئذ يكيسن بزيت الزيتون حتى تلمع أجسامهن وتصبح أملس من السمك، ولا يلبسن شيئا غير حبوات من الجلد المدهون بالزيت.[136]

وبناء على ما تقدم، نلاحظ اتفاق الكتاب على أن مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني قد ورثت انحطاطا حضاريا، وهي تعيش مرحلة ثقافية لا تخرج عن نطاق إنقاذ الذات، دون الإبداع والاجتهاد الخلاق، ولا يعتبر ذلك فراغا ثقافيا، بل هو ضعف ثقافي، نابع عن جملة من

الأسباب تصب في غياب سياسة حكومية في مجال التربية، والتعليم والبحث العلمي، بفعل هيمنة النزعة الحربية للحكام العثمانيين التي فرضها عليهم العصر المعاش، وانشغالهم بقضايا التجارة الدولية، والمال، وأيضا لعبت مظالم الحكام الأتراك العثمانيين بمدينة الجزائر دورا في هذا الضعف الثقافي، فكانت سياستهم المحلية تتجه إلى استحباب مصادرة أملاك إطارات الدولة، لدعم أرصدة الخزينة المالية العامة قصد تغطية نفقات الجيش بشكل أساسي، وتفضيل التركي العثماني على العربي، والبربري، واستحباب بقاء الانكشاري على عزوبيته، مما يعكس رفضهم المبدئي للاندماج مع الجزائريين لأغراض سياسية، واقتصادية بعيدة المدى.

وفي هذا الجو الثقافي كان من المنطقي أن تتنامى مظاهر الشعوذة، والأفكار السلبية التي لا تخدم تقدم، وازدهار المدينة، وهو ما أسميناه بثقافة الشعوذة التي حظيت بأتباع كثيرين، القاسم المشترك بينهم هو الجهل بأصالة إسلامهم، وضعف وعيهم، وهو ما نبينه كالآتي:

3–ثقافة الشعوذة بمدينة الجزائر:

*** الشعوذة العيساوية:**

تحدث هاينريش عن أعمال الشعوذة بمدينة الجزائر من خلال حديثه عن فرقة العيساوة الذي قال عنها إنها حظيت بأتباع كثيرين داخل المدينة المذكورة، ويدعي أفراد هذه الفرقة القدرة على أكل النار والزجاج المكسور والعقارب وابتلاع المسامير، واللعب بالحيوانات السامة مثل الأفاعي والثعابين دون أن يمسهم أذى، وغرز الخناجر والسيوف في أجسادهم، ويتم استعراض ذلك في مناسبات احتفائية، وبعد الانتهاء من الاستعراض يقدم لأعضاء الفرقة، الكسكسي، وتبدأ عمليات الانضمام، وتقبل فرقة العيساوة كل الأصناف الاجتماعية حتى المسيحيين، وكشرط للانضمام إليها يتوجب على المنخرط الجديد أن يسمح لمقدم الفرقة أن يبصق في فمه.(137)

لقد ادعى العيساويون كمتصوفة مشعوذين أنهم استمدوا من رئيسهم، ومؤسس طريقتهم سيدي عيسى، موهبة التمتع بالسم دون أن يلحقهم منه سوء، وإذا كانت تجد لدى الجاهلين بدينهم الإسلام، آذانا صاغية فإن المسلم الجزائري الذي يفقه دينه تجده يسخر من عيساوة وغيرها من الطرق الصوفية الجوفاء، وينفي أن تكون هذه على صلة بتعاليم الإسلام.(138)

*** شعوذة الزنوج:**

تحدث هاينريش عن حفلات النذور، أو الدردبة باللهجة العامية، والتي نعتقد أنها ذات أصول وثنية حيث كان ينشطها زنوج وزنجيات المدينة ويلتف حولهم عدد من المسلمين الجاهلين الذين يؤمنون بالخرافات والأوهام.

يدعي هؤلاء الزنوج المشعوذون أن لهم علاقة بالجن ويعتبرونهم أسيادا لهم، وأنه بواسطة الأضاحي يتم التقرب إلى الجن، ودعوتهم بأن يشفوا المرضى شريطة أن يشارك هؤلاء المرضى بأموالهم من أجل تقديم هذه الأضاحي، التي يجب أن تكون باثنتي عشرة نعجة، وأربعة عجول، وثورين كبيرين.

تتم الحفلة بتأدية مجموعة من الزنجيات نغمات موسيقية على الطبل، مع رقصة بطيئة حول كرسي تجلس فوقه رئيستهن، التي تحظى بقبلات على يدها. وبعد الرقص تبدأ الرئيسة الزنجية بقراءة أدعية على الأضحيات، ثم تدخل في فم أحد الحيوانات، السابقة الذكر، ملعقة أرز مطبوخ، وبعدها يتم ذبح الحيوانات، والزنوج يصيحون إلى أن تجف الدماء من عروق الأضحيات كلها، فيعود الرقص من جديد وتدق القراقب، وتولول الزنجيات. ولا ينتهي حفل الدردبة إلا بتقديم الطعام للحضور، وأكل الأضاحي.[139]

وكتب الرحالة أن عددا كبيرا من حضر مدينة الجزائر، وخاصة الحضريات، يؤمنون بأن هذه الشعائر الزنجية تشفي من الأمراض، لكنه أضاف أنه يوجد بفحص مدينة الجزائر عين مائية، يمضي إليها كل صباح، من يوم الأربعاء، شيخ زنجي لتقديم الضحية، فيذبح دجاجة أو حمامة استرضاءً للجن، وإشفاءً للمريض الذي دفع ثمن الأضحية، ويتبعه عدد كبير من النساء العربيات، بل حتى اليهوديات.[140]

*** شيوع فكرة الاحتماء الروحي بالزوايا والمرابطين:**

من الممارسات والاعتقادات السائدة في مجتمع المدينة، احتماء الفئات الاجتماعية بأولياء الله الصالحين، من العين المؤذية، والغارات، والنكبات الطبيعية، والأخطار الخارجية، فمدينة تلمسان كانت تحتمي بسيدي أبي مدين، ومدينة الجزائر بسيدي عبد الرحمن الثعالبي.

و لم تكن كل مدينة تحتمي بولي صالح فحسب، بل كانت كل فئة اجتماعية داخل المدينة الواحدة، تحتمي بوليها الصالح إن صح التعبير، فحضر مدينة الجزائر يحتمون بعبد الرحمن الثعالبي، وجماعة الميزابيين كانت تحتمي بسيدي بنور، وجماعة القبايل بسيدي عبد الرحمن بوقبرين.

ويمكن تسجيل فكرة الاحتماء الروحي هذا، بين صفوف رياس البحر، إذ يزورون ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ويتبركون به، وتنتصب سفنهم في اتجاهه، ولا تنطلق إلا بعد تحية ضريح الولي الصالح "سيدي بتقة" بل إن رياس البحر كانوا يصطحبون معهم رايات بعض الأولياء الصالحين، وينصبونها فوق سفنهم كلما شعروا بالخطر.(141)

وفي السياق نفسه ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله مقطعا عن ارتباط البحارة بأولياء الله الصالحين، قائلا إنهم يدخلون قبل بدء الغزوة في زاوية والي دادة أو ضريح سيدي بتقة وغيرهما من القباب والمساجد، سواء في العاصمة أو في الثغور، طالبين من الأولياء البركة والنصر.

ويُذكر أن البحارة الأتراك كانوا إذا حل بهم مكروه يوقدون الشموع باسم أحد المرابطين أو يذبحون شاة أو أكثر، ويرمون بنصفها في البحر، على جانب السفينة الأيمن، والنصف الآخر على الجانب الأيسر. وبالتالي نلاحظ مظهرا من مظاهر خرافية العقلية التركية.(142)

ويبدو أن ممارسة الشعوذة في القبب، وأضرحة أولياء الله الصالحين، كانت شائعة بين نساء المدينة فقد كتب سبنسر أن العديد من النسوة الجزائريات كن يزرن دوريا قبب، وأضرحة المرابطين، وكن يقدمن القرابين ويوقدن المصابيح الزيتية، ويضعن الزهور داعيات المرابطين الذين يقبعون في قبورهم، إلى التدخل لإبعاد الأرواح الشريرة، والمصاعب الاجتماعية، والعائلية عنهن وعن أفراد أسرهن.(143)

وفي ختام هذا الفصل ، نود أن نشير إلى أن مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، أدت وظائفها كعاصمة للبلاد الجزائرية برمتها، فقد بينا سابقا كيف تم تخطيط جهازها الإداري، بين إدارة سياسية، مثلتها مناصب سامية، توزعت على ثلاثة أنواع من السلطات: سلطات تنفيذية، وسلطات تشريعية، وسلطات قضائية، جمع بينهم التعاون، والتشاور مع احترام الصلاحيات، وإدارة مدنية، يشرف عليها شيخ المدينة.

وبالتالي وجد مجتمع مدينة الجزائر العثمانية نفسه أمام دواليب إدارية تسير مصالحه وتحكم منازعاته، وتمكنه من أداء وظائفه الحياتية، فتقاسم العمل الحرفي، وانتظم في شكل جماعات مهنية حرفية، ذات ضوابط قانونية، وتداول النشاط التجاري، والخدماتي، عبر الأسواق، والسويقات، والفنادق، والدكاكين.

وإلى جانب ذلك حاولت مدينة الجزائر القيام بوظيفتها الثقافية في إطار إسلامي، فتحملت الجماعات الشعبية، والمبادرات الفردية سواء كانت حكومية أو غير حكومية،

لمسؤولياتها، وراحت تشيد الجوامع، والمساجد، والمدارس الصغيرة الملحقة بالجوامع، أو الزوايا، وهي بالعشرات، داخل الأسوار، وكان كل ذلك من أجل أن تشيع تعليم الشريعة الإسلامية، واللغة العربية بين أبناء المدينة وأبناء الريف الطموحين لارتقاء أعلى الدرجات في تحصيل العلم.

ورغم هذا المجهود المحترم لم تبرز مدينة الجزائر العثمانية، كمدينة أو عاصمة عالمية باقتصادها، وعلومها، لأن سياسة الحكام العثمانيين الداخلية والخارجية جعلتها تكتفي باقتصاد الكفاف والثقافة الدينية، والصوفية، وتكرار ما قاله الأسلاف، وكلاهما (الاقتصاد والثقافة) لم يخترقا مجال الاختراع، والابتكار، والإبداع، ولم تساير مدينة الجزائر التطورات التي عرفتها العواصم الأوربية القريبة منها مسافة، في مجال الفكر السياسي، والاقتصادي، والعلوم والآداب والترجمة، في نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

الهوامش

(1) -ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**، ص 48.

(2) شالر، وليام. **المصدر السابق**.ص ص.42-45.

(3) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق** .ص 83

(4) ذكر شالر أن الداي كان يصدر أحكامه في جرائم القتل والجنح مثل السرقة وقطع الطريق والإحراق العمدي والخيانة والزنا. شالر،وليام. **المصدر السابق**. ص 46.

(5) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة... المرجع السابق**، ص 83

(6) Bontems, Claude. **Les Institutions Algérienne sous la domination Turque**. Travail Dactylographié.pp.15-16.

(7) **Ibid** .p 18.

(8) **Idem**.

(9) سعيدوني، ناصر الدين، **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص 222.

(10) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 42

(11) يلاحظ أنه كان للمفتي مكانة خاصة في هذا الديوان حيث لا يصير الحكم الصادر من هذا الديوان ساري المفعول إلا إذا أعطى المفتي رأيه الفقهي وأمضاه

(12) **ابن حموش، مصطفى**. المدينة والسلطة في الاسلام... المرجع السابق، **ص 84**.

(13) **أبو العيد، دودو. "الجزائر من خلال تاريخ بيردان"** مجلة كلية الآداب، **جامعة الجزائر، العدد الثاني، 1970. ص 63**.

(14) Gaid, Mouloud.**Op, Cit**. P.193.

(15) Bontems, Claude. **Op, Cit** . p 11.

(16) ما يميز الحنفية عن المالكية أن الأولى تميل الى تغليب المصالح وتتبنى الافتراض في المسائل قبل وقوعها، أما الثانية فتميل الى الواقعية أي احكامها تصدر بعد وقوع الحادث.عن ابن حموش، مصطفى. **المدينة...المرجع السابق**، ص 86.

(17) ابن حموش، مصطفى . **المدينة والسلطة في الاسلام...المرجع السابق**، ص 92-93.

(18) **المرجع نفسه**، ص 90-91

(19) الروقي، عايض." وظيفة الإفتاء في مكة المكرمة خلال القرن العاشر الهجري، وأهميتها لدى سلاطين الدولة العثمانية." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 33، سبتمبر 2006. ص.85.

(20) يحتل المفتي بالسلطنة العثمانية المرتبة الثالثة بعد السلطان والصدر الأعظم في جهاز الدولة.

(21) L'abbé Edmond lambert. **Op, Cit**., p.230.

(22) سبنسر،وليام. **المرجع السابق**، ص 107. يوجد في جهاز الدولة العثمانية قاضي العسكر لكن لا ندري إن كان هذا المنصب موجودا في الجزائر العثمانية.

(23) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**. ص 76

(24) سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص 108.

(25) **المرجع نفسه**. ص 108.

(26) أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات...المرجع السابق**. ص 108

(27) **المرجع نفسه**. ص ص .109-110.

(28) ابن حموش، مصطفى. **فقه العمران الإسلامي...المرجع السابق**. ص 26.

(29) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة ...المرجع السابق**. ص 272.

(30) Dentu, A.G.**Op, Cit**. p.11.

(31) سبنسر ، وليام. **المرجع السابق**، ص 109.

(32) **المرجع نفسه**، ص 109.

(33) **المرجع نفسه**، ص 109.

(34) Dentu, A.G.**Op, Cit**. p.11.

(35) سبنسر ، وليام. **المرجع السابق**، ص 108.

(36) Gaid Mouloud, **Op, Cit**. P 203. و شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 46.

(37) De Tassy Laugier, **Op, Cit**. P 55.

(38) Dentu, A.G.**Op, Cit**.. P.06.

(39) سبنسر، وليام. **المرجع السابق**، ص 109.

(40) أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات...المرجع السابق**، ص ص .109-110.

(41) سبنسر، وليام. **المرجع السابق**، ص 108.

(42) **المرجع نفسه**، ص 108.

(43) أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات...المرجع السابق**، ص ص .109-110.

(44) Dentu, A.G. **Op, Cit**,p.10.

(45) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 77.

(46) Ben Hamouche, Mustapha. « La gestion municipale de la ville d'Alger à l'époque ottomane. » **In Revue d'Histoire Maghrebine**, N°87-88, 1997, p.285.

(47) غطاس،عائشة. **الحرف... المرجع السابق**، ص ص 96-98.

(48) **المرجع نفسه**، ص 99.

(49) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية... المرجع السابق**، ص 276.

(50) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**، ص 125.وأيضا l'Abbé Edmond Lambert.**Op, Cit.**P.225.

(51) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**، ص 126.

(52) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص 238.

(53) **المرجع نفسه**، ص 244.

(54)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**. ص 112.

(55) Gaid, Mouloud, **Op, Cit**. P 203.

(56)شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص ص 77-78.

(57) غطاس، عائشة. **الحرف... المرجع السابق**. ص 112.

(58) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**، ص 103.

(59) شالر، وليام. **المرجع السابق**، ص 98.

(60) سبنسر، وليام. **المرجع السابق**. ص 112.

(61) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص 240.

(62) غطاس، عائشة. الحرف...**المرجع السابق**، ص ص 105-106.

(63) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص 240.

(64)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص 100.

(65) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**. ص 239.

(66) حليمي، علي عبد القادر. **المرجع السابق**، ص.266.

(67) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**. ص 240.

(68) ذكر بربروجرBerbrugger أنه إذا صادف أتباع المحتسب خبازا يغش في الميزان فإن المحتسب يأمر بمصادرة خبزه كله ويوزعه على الفقراء ثم يسلط على الخباز عقوبة الضرب.

(69) لمزيد من المعلومات حول صلاحيات واختصاصات المحتسب بالمدينة الإسلامية، طالع:

بكريم، حسن. **الحسبة، تطورها قديما وحديثا**. مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب الأقصى، الطبعة الأولى، 1990.

(70) غطاس، عائشة. **الحرف... المرجع السابق**،ص ص 107-109.

(71) ابن حموش، مصطفى. **المدينة... المرجع السابق**، ص 151.

(72) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص 239.

(73) Edmond Pauty. **Villes spontanées et villes crées en Islam**. Extrait des annales de l'institut d'études orientales. Tome IX, Année 1951. p.71.

(74)-ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة... المرجع السابق**، ص 32، 143، 145.

(75)**ابن حموش، مصطفى. المدينة والسلطة في الإسلام...المرجع السابق، ص 75**

(76)مزيان، عبد المجيد. "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار" **مجلة التاريخ**، العدد 22، الجزائر، 1986،ص 12

(77)سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية (الفترة الحديثة)**. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2001. ص ص.211-213.

(78) يستثنى من هذه القاعدة أمين بني ميزاب المكلف بالحمامات والقصابات، الذي مقره مدينة الجزائر، إذ إليه تعود سلطة تعيين رؤساء الحرفة في مختلف المدن.

(79) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**، ص 167.

(80) Berbrugger. « Les Anciens Etablissements religieux de Constantine. » **in R.A., 1868** pp.273-274.

(81) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**، ص 168

(82) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص ص . 232-233.

(83) **المرجع نفسه**، ص 234.

(84) سعيدوني، ناصر الدين . **ورقات جزائرية...المرجع السابق**، ص 414.

(85) **المرجع نفسه**، ص.232.

(86) Noushi, André.**Op,Cit**. p 51 .

(87) غطاس، عائشة. **الحرف والحرفيون...المرجع السابق**، ص 145.

(88) **المرجع نفسه**، ص ص .157-159.

(89) **المرجع نفسه**، ص ص .164.

(90) **المرجع نفسه**، ص ص 168-169.

(91) الطاهر، عمري. " بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي." **ملتقى دولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية**، جامعة منتوري بقسنطينة، 2001. ص ص 222-223.

(92) غطاس، عائشة .**الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر... المرجع السابق**، ص ص.175-176.

(93) Gaid, Mouloud. **Op, Cit**. P.191.

(94) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي..المرجع السابق**، ص ص 189-194.

(95) ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة...المرجع السابق**،ص 170.

(96) **المرجع نفسه**، ص 198.

(97) Gaid, Mouloud. **Op, Cit**.. P. 189.

(98) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 30.

(99) Féraud Charles. « Exploitation des forets de la Karasta dans la kabylie orientale sous la domination turque. » **In Revue Africaine**, N°12,1867, p.379.

(100) شالر ، وليام. **المصدر السابق**، ص 93.

(101) **المصدر نفسه**، ص94.

(102) ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **المرجع السابق**، ص 26.

(103) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 94.

(104) Gaid, Mouloud. **Op, Cit**. P.190

(105)سبنسر، وليم. **المرجع السابق**، ص ص 91-92. ويرى سبنسر أن الطرز الجزائري تأثر بالطرز الأناضولي التركي.

(106)ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **المرجع السابق**، ص 26.

(107) **المرجع نفسه**، ص 25.

(108)غطاس، عائشة. " الوافدون..." **المرجع السابق**، ص ص175-176. أنظر الملحق الخامس حول قائمة حرف مدينة الجزائر الإنتاجية والخدماتية.

(109) Dentu, A.G.**Op, Cit**. p.09.

(110)سبق وأن تطرقنا إلى فنادق مدينة الجزائر، في الفصل الأول: خطط مدينة الجزائر...

(111) L'Abbé Edmond Lambert. **A Travers L'Algérie, Histoire, Mœurs et légendes des Arabes**. René Haton, Librairie Editeur, Paris, 1884.P.257.

(112)الواليش، فتيحة. **المرجع السابق**، ص 153.

(113)أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان... المرجع السابق**، ص .111.

(114)سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق**، ص 104

(115)حول أسواق وسويقات مدينة الجزائر، طالع الفصل الأول: خطط مدينة الجزائر...

(116)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1**، ص ص13-14.

(117)هلال، عمار." المسجد والزاوية، قطبان دارت حولهما حياة المدينة الجزائرية خلال العهد العثماني (1514-1830) ". **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 9-10، 1994، ص 410.

(118)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1**، ص 14.

(119) **المصدر نفسه**، ص 15.

(120) **المصدر نفسه** ص ص. 15-16.

(121)شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 82.

(122)هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1** . ص 15.

(123) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 82

(124) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق، ج1** ص 22 .

(125) مزيان، عبد المجيد. **المقال السابق**، ص 13.

(126) **المرجع نفسه**، ص ص 11-12.

(127) **المرجع نفسه**، ص ص 7-9.

(128)شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 82.

(129) ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **المرجع السابق**، ص 27.

(130) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص 89.

(131)سبنسر، وليام. **المرجع السابق**، ص 101.

---

[132] **المرجع نفسه**. ص 102.

[133] **المرجع نفسه**، ص ص 102-103.

[134]أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان... المرجع السابق**، ص.117.

[135]سبنسر ، وليم. **المرجع السابق**، ص ص 103-104.

[136] **المرجع نفسه**، ص 103.

[137] هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**، **ج3**.ص 45.

[138] **المصدر نفسه**، **ج1**.ص 117.

[139] **المصدر نفسه**، **ج3**.ص ص 48-50.

[140] **المصدر نفسه**.**ج1**.ص 80.

[141] غطاس، عائشة. **الحرف والحرفيون.... المرجع السابق**، ص 174-175، 177.

[142] أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي... المرجع السابق**،**ج1**، ص ص 185-186.

[143]سبنسر ، وليم. **المرجع السابق**، ص 105.

الباب الثاني

الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني.

الفصل الأول

خطط الريف بالجزائر
في أواخر العهد العثماني

-فحص مدينة الجزائر نموذجا-

أولا-معطيات أولية حول الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني.

يمثل الريف، الواقع المهيمن في الجزائر العثمانية، إذ لم يكن سكان المدن باختلاف أحجامها يمثلون سوى خمسة إلى عشرة في المائة من مجموع السكان، وأمام هذا المعطى، حاول المنظرون الاستعماريون الفرنسيون تبرير احتلالهم للجزائر، بإضفاء البعد الحضاري لحملتهم العسكرية، ويمكن الاستدلال على ذلك بما كتبه الضابط الفرنسي استرهازي Esterhazy أن الجزائر بلد بحاجة إلى الحضارة، فتجمعاته البشرية متحركة لا بد من تثبيتها، وأن القبائل الجزائرية لم تجد القوة العسكرية التي تحميها.

وقد نتساءل هل كان تسعون في المائة من السكان الجزائريين رحل والبقية مستقرون خلال العهد العثماني؟ وللإجابة على ذلك تطلب منا البحث عن صورة الريف في الجزائر قبل حلول الاستدمار الفرنسي في المصادر والمراجع العربية والأجنبية، وتوصلنا إلى تحصيل معلومات وأفكار تدحض مزاعم المدرسة الاستعمارية الفرنسية وتبطل سمومها التي تسربت إلى تاريخنا وأجيال الجزائر المتعاقبة، وبيان ذلك كالآتي:

1-الفرق بين البادية والريف في الجزائر العثمانية.

أ-المقصود بالبادية.

حدد الدكتور محمد السويدي نقلا عن الدكتور محي الدين صابر، المفهوم العام للبداوة الرعوية بأنها:" نمط الحياة القائم على التنقل الدائم للإنسان في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها، من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة في استغلالها من ناحية ثانية، وعلى مدى الأمن الاجتماعي والطبيعي الذي يمكن أن يتوافر فيها من ناحية ثالثة."[1]

وقد ربط كثير من الباحثين بين البداوة كظاهرة رعوية وبين الصحراء أو البيداء، أي أن البادية هي الصحراء، ومن ينسب إليها فهو بدوي، ومن أقام فيها فهو مبتدي، والإطار العام الذي يشمل الإقامة في الصحراء والتعود على العيش فيها هو البداوة. فالبدو هم أصحاب النجعة وارتياد الكلأ لماشيتهم وإبلهم وتتبع مصادر المياه.

إن الذي يحدد التنقلات السنوية والموسمية للبدو هو حاجات قطعانهم للغذاء، حيث يرحلون داخل الصحراء أثناء فصل الشتاء الممطر، ويستقرون قريبا من مصادر المياه، وعند أطراف الصحاري، خلال شهور الصيف الجافة. ويمكن تصنيف البدو الرعاة إلى:

-**بدو الإبل**، ويمثلون البداوة الخالصة التي تسود في قلب الصحاري، ودليلها هو الجمل، هؤلاء يسمون في الجزائر بالتوارق الذين يرتحلون في فترة الجفاف نحو المراعي الخصبة في مالي والنيجر تاركين وراءهم الخيام وقطعان الماعز في الهقار.

-**بدو الشاة أو الضأن والبقر**، ويمثلها الشاوية الذين لا يتوغلون داخل الصحراء لعدم قدرة الشاة والبقر على التوغل وعدم احتمالهم للجفاف الشديد، وبذلك يكتفون بأطراف الصحراء، وبداوقم عندئذ جزئية. هؤلاء يسمون بدو شمال الصحراء الجزائرية وتحركهم وتنقلهم جماعيا أي شاملا للبشر والحيوان والخيام، دون ترك أي شيء وراءهم.

ومن خصائص الحياة البدوية الرعوية:

-البساطة في المسكن والملبس والمعدات، لأن الترحال ومواجهة الظروف الصعبة والمتغيرة، يفرض خفة الحركة التي لا تتأتى إلا بالبساطة.

-عدم الاستقرار في مكان واحد لفترة طويلة .

-التجمع القبيلي أي أن الظروف المعيشية الصعبة تفرض على البدو الرعاة التوحد في شكل تجمع قبيلي قد يكبر بتحالفاته مع قبائل أخرى.

والبداوة الرعوية أو الترحال ليست هجرة لأن البدو لا يحتكون ثقافيا بتجمعات أخرى ويقع الأخذ والعطاء، ما دامت القبيلة البدوية ترتحل ببشرها وبنظمها وبأعرافها.(2)

وقد يسكن بعضهم الخيام ويبني بعضهم الآخر بيوتا من الطين والحجارة (القرابي). وقال هاينريش أن كلمة البدو عبارة شرقية تخلعها على نفسها القبائل الصحراوية في شبه الجزيرة العربية ومصر، والجزائري لا يقبل كلمة بدوي ولا يريد أن ينعت بالبدوي ويعتبرها شتيمة حسب الكاتب.(3)

لذا نلاحظ أن المؤرخين الجزائريين قد ضبطوا لفظة البدو ورأوا أنها تنطبق على سكان العمق الصحراوي وتحديدا التوارق. وبشأنهم ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله نقلا عن رحلة الأغوطي (4) مقطعا فقال: " والطوارق أناس أشداء...وهم يستعملون الإبل للركوب، وطعامهم من اللحم والحليب فقط، وليس لهم حبوب إطلاقا، وهم يرتدون الساي القطني الأسود وسراويلهم تشبه سراويل المسيحيين. والطوارق يصلون واقفين، وهم يتلثمون بلثام من القطن، ولا يأكلون أو يشربون بحضور الناس. ويقومون بغزوات أو جولات في السودان ويعودون بعدها بالعبيد وغيرهم من البضائع. وهذا بيان كامل ومفصل عن الطوارق."(5)

ب–المقصود بالريف:

وزع المؤرخون المناطق الريفية إلى فحوص المدن وقرى الأوطان[6] جبلية كانت أو سهلية، تلية أوسهبية، وإذا كانت الفحوص هي الضواحي فإن الأوطان هي المناطق الريفية الواقعة ما بعد الفحوص، وقد وردت كلمة الأوطان في مخطوط عربي، جاء فيه: " ...يرسل الشواش والاصبايحية (الصبايحية) لكل الأوطان سواء كان جبالا أو وطى (وطاء)..." [7]

وهكذا يغطي الريف المناطق التلية والسهبية للبلاد الجزائرية، فالريف التلي وهو الغالب، يمارس أهله بعض الحرف المترلية الاستهلاكية وفلاحة الأرض وتربية الماشية، ويسكنون القرابي أو الأكواخ في المناطق الجبلية، والقرى الطينية والخيام في السهول. أما الريف شبه الصحراوي فيقتصر على تربية المواشي فقط، ويسكن أهله وهم قلة، القرابي والقرى الطينية أو القصور. وعليه، سكان الريف الجزائري في العهد العثماني، صنفان:

–صنف مستقر لمدة معينة. وبالتالي يجمع هذا الصنف بين الاستقرار والترحال، وعادة هم سكان الخيام.

–وصنف مستقر على الدوام. وعادة هم سكان الأكواخ والقرى الطينية.

وهكذا يظهر لنا جليا الفرق بين البدو والريف، وإذا كان البدو هم رحل، سمتهم عدم الاستقرار، فإن سكان الريف الذين يتجمعون في شكل قرى قبيلية في الشمال والجنوب الجزائري هم حضر يشتركون مع سكان المدن في الاستقرار ويختلفون عنهم في النمط المعيشي والتنظيم والتخطيط العمراني، وبالتالي يمكن اعتبار هذه التجمعات الريفية التي انتشرت عبر ربوع الجزائر العثمانية مراكز حضرية تعيش مرحلة انتقالية لبلوغ مرحلة التمدن، وعندها نلاحظ أن مزاعم الاستعماريين الفرنسيين التي أضفت البداوة والترحال على أغلب جهات الجزائر، لا أساس لها من الصحة.

2–الأشكال العمرانية بريف الجزائر العثمانية:

انتشرت بالجزائر العثمانية تجمعات ريفية قروية بالمناطق الجبلية التلية والهضابية مثل قرى بلاد القبايل والأوراس، وبالمناطق الصحراوية، وتتسم هندسة هذه القرى بمنازلها المبنية بالحجر والطوب المطلاة بالطين، وهي متماسكة مع بعضها البعض ومتراصة، بدون طوابق، ولعل أجمل بناية بالقرية هي المسجد، وقد لا نؤيد الكتاب الفرنسيين الذين يطرحون فكرة أن القرى الريفية هي عادة قرى البربر بل قد نجد القرى على ما أعتقد في كامل القطر الجزائري، يسكنها البربري والعربي على السواء، وهو ما سنوضحه كالآتي:.

أ-1-القرى التلية:

تنتشر القرى الريفية بالمرتفعات الجبلية، وركزت الكتابات التاريخية على قرى اقليم سيباو الحصين، و ذكرت الغرض من بناء هذه القرى فوق قمم الجبال ومفاده أن السكان الأمازيغ في الجزائر منذ العصور القديمة كانوا عرضة لغارات العدو و لم يجدوا بدا سوى اتخاذ الجبال مسكنا لهم للتمكن من التصدي للهجمات،(8) لذلك لقي الأتراك صعوبة كبيرة في إحكام سيطرقم على اقليم سيباو، حتى أنه عينت به قيادة خاصة به، و لم يحل السلام بهذا الاقليم إلا بعد عقد الاتفاقيات بين أعيان الاقليم والسلطة التركية العثمانية، وما يدعم هذا الطرح ما كتبه شلوصر: " فالجبال ليست تابعة للبايليك...ويخشى الباي الاصطدام بالقبائل ولا يحارب العرب إلا إذا تأكد من حيادهم." (9).

وذكر شلوصر أن الأسوار تحيط بقرى سيباو، وهي محصنة جدا، ولا يستطيع العدو مهاجمتها بدون مدفعية، هواؤها نقي، مبنية من الحجارة على الطريقة الأوربية، وتحيط بها الحدائق والبساتين، وغابات الزيتون، وبيوقم مؤثثة بصورة مريحة، ولها حوش مخصص للماشية، لديهم كتاتيب سماها شلوصر " المدارس"، يتلقى فيها الأطفال القراءة والكتابة وقواعد الدين الاسلامي، ويحرص سكان سيباو على تعليم أولادهم الحرف اليدوية، ويشجعونهم على تلقي العلوم الشرعية بقسنطينة وتونس.

وبغية تأكيد الطابع القروي لاقليم سيباو، نلاحظ أن كاتب كعبة الطائفين محمد بن سليمان الجزولي قد وصف بلاد زواوة أنها قرى كثيرة في جبل شرقي الجزائر.(10)

وذكر الرحالة الألماني هاينريش أن سكان منطقة القبـــائل الكبرى يسكنـــون بيوتا مبنية بالحجارة. (11). أما شالر فكتب أن القبايل يسكنون الجبال دائما ويفضلون قممها حيث يقطنون في قرى يسمونها "دشرة" تتكون من أكواخ مبنية بالطين والوتل، وإذا نزلوا إلى السهل، فلكي يواجهوا عدوا أو يقوموا بمغامرة."(12)

وتحدث لامبير عن قرى سيباو ذاكرا أنها محاطة بالاخضرار وأشجار الزيتون، إلا أن وضعيتها متدهورة بحيث أن أوسع المنازل مساحة هي ما كانت تتجاوز ثلاثة أمتار عرضا على أربعة أمتار طولا وهذه المساحة الضيقة تجمع الرجال والنساء والأطفال للعائلة الواحدة وكذا ماشيتهم من أغنام وماعز ودجاج وليس لهذه المنازل طوابق، وتسمح لقامة الرجل أن يلامس سقف البيت الذي تشده أعمدة خشبية، وباب المترل عريض وليس بالطويل لكنه غير محكم، مفتوح على ساحة داخلية ضيقة ومغطاة. والقبايل لا يعرفون المدخنة والنوافذ فالضوء لا يدخل

إلا من الباب الذي يبقى مفتوحا طول النهار ومنه يخرج الدخان، مما يعرض أفراد الأسرة إلى أمراض، خاصة أمراض العيون.

ويتوسط المترل المطبخ الذي يجتمع فيه أفراد الأسرة لتناول الغذاء وهم جلوس على الأرض، ويتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم. ويخزن القبايل في قاعة خاصة، مواد غذائية سنوية مثل الشعير والتين والزيت في قلل أو جراع فخارية تصل حمولتها إلى عدة هيكتولترات. وتقع خلف هذه القاعة، قاعة أخرى، مخصصة لمبيت أبقار الحرث، أي غير الحلوب، والبغال والماعز والدواجن، أما الأغنام فتبيت مع الأسرة، والتي يتحدد عددها من طرف مجلس الجماعة فكان كل مترل قروي بجرجرة عليه أن لا تتعدى ملكيته للأغنام أربعة رؤوس نظرا لضيق المساحة الرعوية في المناطق الجبلية.(13)

أ-2-القرى الصحراوية :

ورد في الكتابات التاريخية أن قرى الصحراء الجزائرية كلها مبنية بالطوب، ومنازلها ذات طابق أرضي ولا تعلو عليها سوى المنارة والقلعة، وكل قرية تسمى واحة تعج بتمرها وآبارها المائية، وبدكاكينها المصطفة، وكثير من الكتابات تنعتها بالمدن الصغيرة، لكن ما يجعلها تختلف عن المدينة هو:

-ليس للقرية الصحراوية فحص ريفي.

-القرية الصحراوية ثابتة في بنيتها العمرانية عكس المدينة.

-يسير القرية الصحراوية الجماعة أو القبيلة القوية، عكس المدينة التي يسيرها موظف حكومي.

-تختلف القرية الصحراوية عن المدينة من حيث الوزن البشري.

-لا تؤثر القرية الصحراوية في فضائها الخارجي عكس المدينة.(14)

وعليه، تنتسب القرى الصحراوية إلى قبائل، وقد تجمع بين الاستقرار والترحال خلال السنة، فقد كتب لامبير أن قبائل الواحات الصحراوية تتجه في السداسي الأول للسنة بماشيتها نحو السهوب، وفي السداسي الثاني -فترة الجفاف- تتجه نحو التل بحثا عن الكلأ والقمح والمروج.(15) وقد كتب الأغواطي عن واحات الصحراء الجزائرية وقراها وسكانها وثرواتها، فذكر:

***واحة توات، وتضم القرى التالية:**

-**تميمون**: وقال عنها الأغواطي أنها بلدة كبيرة، ليس لها أسوار تحميها لأن منازلها جميعا متراصة، وهي مبنية بالطين أو الطوب، ولها أربعة مساجد. وسكانها ينطقون العربية، بعضهم ذو بشرة بيضاء، والبعض الآخر بشرتهم حمراء، وآخرون سود، يلبسون الثياب الصوفية والقطنية مع ساي أسود اللون، وقال عنهم الرحالة أنهم مسلمون صادقون.

وتكمن ثروتها في التمر وثمار أخرى، والمياه الغزيرة التي تصل إلى القرية بواسطة الأنابيب، والشب الأحمر، والأغنام تشبه أغنام السودان من حيث الشعر الأسود والذنب الطويل، والخيول الكثيرة، وتراب الذهب الذي يباع في سوقها الكبير بوزن المثقال بالأوقية، وأخيرا العبيد حيث يوجد سوق خاص لبيع العبيد.(16)

-**أولف**:وكتب عنها الأغواطي في رحلته أنها بلدة محاطة بأسوار مبنية بالطين، وسلطانها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول، وله سلطة توقيع العقوبة والسجن، وهو يمتلك الخيول والرجال، ولكن ليس له خزانة دراهم ويفرض سلطته على القرى المجاورة مثل قرية "طيت" وقرية "وات الحناء". وتزخر بلدة أولف بالماء الوافر والتمر، أما سكانها فيظهر أنهم يتكلمون البربرية، ولهم عدد كبير من العبيد.(17)

-**قرية توات الحناء**: تقع غرب أولف، منازلها مبنية بالطين، تتوفر على عدد من المساجد، وسميت بتوات الحناء لأنها تنتج الحناء، أضف إلى ذلك إنتاجها للتمر بكميات وفيرة، وسكانها يتكلمون البربرية.(18)

-**قرية أوالن**: قال عنها الأغواطي ما يأتي: " وفي أوالن، آبار وكذلك التمر، وتقع هذه القرية في الصحراء وهي مبنية بالطين، والسكان هنا يتكلمون العربية."(19)

-**واحة القورارة**: كتب الأغواطي عن واحة القورارة فقال: " ...وتضم حوالي عشرين قرية، جميعها تسقى بالماء، عن طريق القنوات، ويلبس السكان ثيابا من الساي الأسود ومن الصوف، ولغتهم هي البربرية ولونهم يميل إلى السواد. والعملة المتداولة هي عملة فاس، وفي الغرب من القورارة وعلى مسافة عشرين يوما تقع بلاد شنقيط."(20)

-**واحة وادي سوف**: تتوفر واحة وادي سوف على عدد كبير من المداشر التي يمكن أن توفر حسب الأغواطي، عشرين ألف رجل وحصان، ويعيش سكانها على التمر وحليب الابل وتجارتهم مع غدامس حيث يبيعون العبيد بعد جلبهم رفقة تجار غدامس من السودان.

وتمتع سكان واحة وادي سوف ومداشرها بالاستقلال الكامل إذ لم يخضعوا و لم يطيعوا أي سلطان لذا هم دائما ينظمون الفرق ويسلبون العرب من أملاكهم، ويصلون بغزواتهم إلى أراضي الطوارق، وهم يتكلمون العربية.(21)

–قرى وادي ريغ: ذكر الرحالة هاينريش أن واحات وادي ريغ كثيرة تبعد عن بسكرة جنوبا بمسافة 222 كلم، تتكون من مجموعها وحدة قبائل وادي ريغ، وقد عدد واحات وادي ريغ كالآتي:

–واحة تقرت وهي أكبر واحة في المنطقة، بيوتها طينية مثل جميع القرى الصحراوية. وبشأنها ذكر الأغواطي سنة 1829 أنها تبسط نفوذها على أربع وعشرين قرية مجاورة لها.(22)

–واحة تمرنة، واحة سيدي راشد، واحة غمرة، واحة سيدي عقبة، واحة سيدي خليل، واحة تنديلة، واحة تماسين، واحة النزلة، واحة تيبسبست، واحة المقارين، واحة المغير.

–قرى الأغواط، وتشتمل على القرى التالية:

–قرية تاجموت: تقع قرية تاجموت أو تاج الموت أو تجمعوت، في شمال الأغواط، بيوتها مبنية بالحجر والطين، وسكانها لا يخضعون لحاكم، وهم منقسمون إلى فريقين متخاصمين مثلهم مثل سكان الأغواط.(23)

–قرية عين ماضي: تقع غربي تاجموت، محاطة بأسوار ولها بابان، يحكمها مقدم الزاوية التيجانية، الذي قال عنه الأغواطي أنه يملك حوالي مائة عبد وخزانة مالية غنية، ومكتبة كبيرة وحمام في وسط البلدة، وشهد لها التاريخ بكونها كانت مصدر الثورة على بايات الغرب الجزائري من العثمانيين في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر.(24)

–جبل عمور: ذكر الأغواطي أن هذا الجبل المرتفع فيه مائة عين جارية، وينبع منه واد الخير، وأرضه صالحة للزراعة، وفيه كل أنواع الخشب. وسكان هذا الجبل يربون الابل، والماعز والغنم، ولغتهم العربية، ولا يحكمهم أي سلطان، وعدد المسلحين بجبل عمور حوالي ستة آلاف مسلح.(25)

–قرية متليلي: هي قرية هضابية صخرية غير محاطة بأسوار، يستخرج الماء من الطواحين المائية، وينمو بها النخيل. سكانها يتكلمون العربية والبربرية، يركبون الجمال وهم مسلحون بالبنادق والسيوف.(26)

-قرية المنيعة: وهي في الأصل القليعة، تقع وسط الرمال، غير محاطة بسور، وليس لها ماء باستثناء ما يجلب من الآبار، وسكانها الذين يسمون بالشعابنة يتكلمون العربية، ويركبون الجمال، وليس لهم خيول، وتنتج المنيعة التمر والحلفاء.(27)

-قرى وادي ميزاب: ميزاب اقليم يجمع بين الهضاب الصخرية والوادي الذي يشتمل على ستة قرى هي : غرداية(أكبر قرى ميزاب)، بني يزقن، بونورة، العطف، مليكة، وسيدي سعيد.(28)

وكتب شالر وليم عن الميزابيين قائلا: " وبنو ميزاب، أو الميزابيون يعيشون في منطقة تقع في الصحراء... ويشربون من مياه الينابيع، ويزرعون قليلا من الشعير، ولكن التمر هو أهم إنتاج منطقة ميزاب، وهم قوم هادئون نشيطون في التجارة ومشهورون بالأمانة والنزاهة في الأعمال، يتحدثون باللغة الأمازيغية، والشعب الميزابي شعب أصيل لم يعتد أحد قط على أراضيه بالسطو والغزو. والميزابيون يتاجرون في العبيد والتبر وريش النعام والجمال والتمر، والبضائع المصنوعة وبلدهم يتمتع باستقلال تام عن حكومة الجزائر، والامتيازات التي يتمتعون بها وتجارتهم تضمنها معاهدة مكتوبة وقعتها حكومة الايالة ". واعتمادا على أحد الطلبة الميزابيين بمدينة الجزائر، أن كل قبيلة بوادي ميزاب، يحكمها مجلس يتكون من اثني عشر عضوا من الأعيان (مجلس العزاب) الذين ينتخبهم الشعب، ورغم النزاعات بين القبائل الميزابية لم تقع حرب بينهم.(29)

هذه، نماذج لعدد من القرى الصحراوية التي كانت موجودة خلال العهد العثماني، وهدفنا هو إبراز الطابع القروي الذي يوحي باستقرار المجموعات البشرية الجزائرية وحتى وإن ارتحلت فهي ترتحل بمواشيها موسميا ومؤقتا، فهي في هذه الحالة مجموعات نصف راحلة.

أ-3-دواوير الخيام والأكواخ:

ذكر لامبير أن القبيلة العربية تتكون من عدة دواوير أو تجمع خيام تربط بينهم علاقات تحالف أو مصالح مشتركة تخضع لرئيس يحكمها ويسير شؤونها.(30) والدوار بمثابة قرية ريفية مركبة من خيام تشبه المخيم، وكل خيمة تستخدم في الاسكان العائلي وعادة مانجد عدة دواوير يؤلفون قبيلة واحدة، ويحكم الدوار شيخ يدعى "شيخ الدوار" الذي تتوسط خيمته، الدوار، وهي منصوبة بشكل يجعلها ترتفع عن الخيام الأخرى، قصد تمييزها.(31)

ومن خلال الكتابات التاريخية تم استخلاص أنه إذا كان سكان الجبال والصحراء يسكنون القرى التي تعكس استقرارهم فإن سكان السهول من القبائل كانوا يسكنون الخيام والأكواخ التي تنصب على شكل دائرة فسميت كل دائرة من الخيام دوارا.

والدواوير حسب لامبير هو معيار عائلي داخل القبيلة، ومعنى الدوار أن كل رب عائلة، ومالك لأراضي زراعية، يحيط حوله، أولاده وأقاربه وحلفاءه وعماله المزارعون، كما أنه يمكن للدوار أن يتشكل حول الزاوية –مقر المرابط– وهي التي تدعى بالدواوير المرابطية.[32]

وبناء على ما تقدم نلاحظ أن موضوع الريف بالجزائر العثمانية يحتاج إلى مجهود مخابر وفرق بحث، لأن مادته التاريخية غزيرة ومتنوعة، وهو إن صح التعبير موضوع لا ينتهي مثله مثل موضوع المدينة في الجزائر العثمانية، ولهذا ارتأينا أن نتحكم في موضوعنا باختيار أحد المراكز الحضرية الريفية بدار السلطان المسمى بفحص مدينة الجزائر التي درسناها هي الأخرى كنموذج للمدينة الجزائرية في أواخر الفترة العثمانية.

ثانيا–الطابع الحضري للريف بالجزائر أواخر العهد العثماني–فحص مدينة الجزائر نموذجا–

الفحص هو ضاحية المدينة وبتعبير آخر المساحة التي تقع خارج الأسوار، وتشير الكتابات المهتمة بالمدينة إلى أن المجموعة الحضرية تتكون من جزءين رئيسيين هما : المدينة والفحص.[33] والملاحظة نفسها ذكرها هاينريش حيث كتب أن المناطق المدنية لا تشمل إلا المدن ونواحيها أي فحوصها.[34]

و يختلف الفحص عن الأوطان، فمثلا فحص مدينة الجزائر كعاصمة سياسية واقتصادية للدولة الجزائرية الحديثة، لم يكن مركبا من قبائل أو مجموعات بشرية عرقية عربية وبربرية، بل كان يضم مجموعات سكانية موزعة إداريا إلى أحياء ، يسيرها قايد الفحص من خلال وكلاء الأحياء. وكل حي مركب من عدد معين من الأحواش، وهي ملكيات زراعية، تشتمل على منازل راقية، يسكنها أثرياء المدينة، وقرابي أو مداشر يسكنها فقراء الناس، كما تنتشر به عقارات زراعية ريفية.[35]

1–الوسط الطبيعي لفحص مدينة الجزائر:

يشكل فحص مدينة الجزائر حزاما تضاريسيا دائريا حول المدينة يصل قطره إلى اثني عشر كيلومترا، تحده مجموعة من الأوطان، نذكرها كالآتي:

–وطن بني خليل في الجنوب والجنوب الشرقي للمدينة.

–وطن الخشنة في الشرق.

–وطن بني مسوس في الغرب.

والفحص محدود بوديان: الحراش، الكرمة، بابا حسن، سطاوالي، والطارفة. وحدوده غير ثابتة، فهي تتوسع في فترة التوسع الديموغرافي، وتتراجع في فترة الأوبئة والأزمات، ففي حالة التوسع الديموغرافي، تصل حدود الفحص إلى أراضي دالي ابراهيم، والعشور، وصاولة، ودرارية، وخريصة، وزمام بني ربيعة بوطن بني موسى. وفي الحالة الثانية، لا تتعدى حدود الفحص دالي ابراهيم وبئر خادم في الجنوب الغربي، والقبة وحسين داي في الجنوب.

وتقسم وثائق المحكمة الشرعية فحص مدينة الجزائر إلى ثلاثة أقسام، يحمل كل قسم اسم باب خارجي رئيسي للمدينة، هذا الباب الذي يربط المدينة بطريق فحصي. ويقع القسم الأول للفحص في الشمال، ويعرف باسم فحص باب الواد، الذي يتكون من أراضي، بومعزة، زغارة، بوسكور، واد قريش، عبد النور، السد، أغنان، المنيعة، بوزريعة، عيون السخاخنة، مرسى الذبان، سيدي يعقوب، الصنانجة، الحمام المالح، الناضور، وبئر السمان.

أما فحص باب الجديد فيقع في الشرق، ويتكون من أراضي، حيدرة، عين طاية، عين الرمانة، وادي الرمان، واد الكلي، الخندق العميق، بوغرة، برج مولاي حسن، برج مولاي محمد، رحى الريح، تلاوملي، مجبر القديم، بني مسوس، بير الدروج، بير طرارية، الآبار، عين الزبوجة، العوشيبية، وبني ربيعة.

وأخيرا فحص باب عزون، الواقع في الجهة الجنوبية، والمتكون من أراضي، الحامة، العناصر، خنيس، القبة، بير مراد رايس، بير خادم، عين النعجة، عين السلطان، عين الربط، الحراش، تقصراين، سيدي صاحب الطريق، القادوس، يحي الطيار، بن طاية، أم العجايز، غيران الذيبة، تاغرارت، عين الأزرق، تافورة، تيفلولت، وكهف النسور.(36)

ويتميز فحص مدينة الجزائر بتنوع تضاريسه، فنجد جبل بوزريعة الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بـــ407 متر، ويحده واد بني مسوس، وهضبة الأبيار، وسهل عيون السخاخنة وواد قريش. أما سهوله فترتفع عن سطح البحر بين مائة ومائتي متر، وتنخفض تدريجيا باتجاه غرب المدينة، وهذا الانخفاض السهلي يسلك مجراه من مرتفع أولاد فايت إلى غاية شبه جزيرة سيدي فرج التي تتوغل في البحر بطول قدره ثمانمائة متر وبمساحة قدرها ثمانية هكتارات. وفيما يتعلق بالوديان، فهي تغطي أكثر من 540 متر مربع ذات اتجاهات متعددة، بروافد عديدة، وأهم هذه الوديان، هي:

-واد خنيس، الذي ينبع من منحدر الأبيار وينزل إلى بير مراد رايس والعناصر والسهل الساحلي للحامة ليصب في البحر على بعد خمسة كيلومترات من مدينة الجزائر.

-واد الطارفة، الذي ينبع من سيدي يوسف، ولا يتجاوز طوله اثني عشر كلم.
-واد بني ميزاب، الذي ينبع من مرتفع مصطفى باشا، ويصب في مكان يدعى "عين الربط"
-واد الكرمة، الذي ينبع من الأبيار، على بعد كيلومترين من دالي ابراهيم، وينزل إلى منحدرات الساحل ويصب في واد الحراش.
-واد المغاسل، الذي ينبع من عيون السخاخنة والسد وينزل عبر جبل بوزريعة، ويصب في البحر.

ويسود فحص مدينة الجزائر مناخ البحر الأبيض المتوسط الرطب والمعتدل حرارة، ويمكن تمييز فترتين رطبتين خلال السنة الواحدة بالفحص، تفصل بينهما فترة حارة، مما يوفر إمكانية للعمل الزراعي، خصوصا إذا علمنا أن تربة فحص الجزائر هي تربة طينية، تساعد على نمو النباتات الطبيعية وإنشاء البساتين. ويستفيد الفحص من تساقط للأمطار سنويا بمعدل يتراوح بين 672 و772 ملم / السنة، ولاحظ الباحثون الفرنسيون أن الفصل الرطب بفحص الجزائر، يقدر عدد أيامه بــ187 يوما، والفصل الحار بــ178 يوما، واليوم الذي يشهد أكبر تساقطا للأمطار هو 08 ديسمبر وأدنى كمية مطر تحصل في 02 أوت.

ويتعرض فحص مدينة الجزائر للرياح الغربية في الشتاء، من شهر أكتوبر إلى غاية شهر أبريل، وهي رياح دافئة، محملة بالرطوبة في فصل الصيف. أما الرياح الشرقية والشمالية البحرية فقد تصبح رياح حارة بفعل التقائها برياح السيروكو التي تؤدي إلى ارتفاع درجة الرطوبة بالفحص، وتلحق أضرارا بالمحاصيل الزراعية.(37)

وبالتالي نلاحظ أن المعطيات الطبيعية –التضاريسية والمناخية- مكنت فحص مدينة الجزائر من أن يكون مركزا حضريا ريفيا، تستقر به مجموعات سكانية ، بكثافة فاقت كثافة السكان بأوطان دار السلطان، هذه التجمعات السكانية، تركزت في الأماكن التالية:
-حارة الجنان أو سيدي يعقوب، خارج باب الواد.
-بني مسوس دون جبل بوزريعة.
-زواوة، دون بني مسوس.
-عين الزبوجة.
-بوزريعة.
-الأبيار.
-دالي ابراهيم.

-عين الربط.

-مرسى الذبان.

-بير خادم.

-بير مراد رايس.

-الحامة.

-تلاواملي. (38)

ولما كان فحص مدينة الجزائر بهذه الأهمية الطبيعية والبشرية ومجاورته لعاصمة البلاد فقد عمد الحكام العثمانيون إلى تخطيطه وتهيئته عمرانيا بشكل يخدم المدينة ويكون واسطة بينها وبين الأوطان الريفية.

2-خطط فحص مدينة الجزائر:

أ-الأبراج والبطاريات:

توزعت بفحص مدينة الجزائر، بجهاته الثلاث - باب عزون، باب الواد، و الباب الجديد- حصون وأبراج مزودة ببطاريات مدفعية، الغرض منها تحسين النظام الدفاعي الحربي للمدينة، وبنيت هذه التحصينات على مراحل، ويمكن تفصيل ذلك كالآتي:

أ-1- أبراج وبطاريات الفحص الغربي (باب الواد).

*** الأبراج:**

-برج سيدي فرج:

لا ندري تاريخ بناء برج سيدي فرج وكل ما في الأمر أنه برج قديم البناء أعاد بناءه يحي آغا سنة 1825م، ووضع به اثني عشر مدفعا صغيرا غير أنه أهمل في السنوات الأخيرة من حكم الدايات لذا وجده الفرنسيون مجرد قلعة مخربة يحتاج إصلاحها إلى شهور.

-برج مرسى الذبان القديم:

يرجع تاريخ بنائه حسب ألبير ديفولكس إلى فترة خير الدين بربروس، بينما تؤرخه لجنة الجزائر القديمة بسنة 1671، وهو ذو طابقين أرضي وعلوي، به اثني عشر مدفعا، وست فوهات نارية: اثنتان نحو الشمال، واثنتان نحو الغرب، واثنتان نحو الشرق، وبه غرفة في الزاوية الشمالية الغربية، ومخزن لحفظ البارود.

-برج مرسى الذبان الجديد (**برج حسين باشا**):

يقــع خلــف البرج القــديم بحوالي خمــسين متــرا أنشأه الداي حسين سنــة 1239هــ/1823-1824م، يتكون من أربع فتحات شرقا، وأربع فتحات غربا، وعشرة فتحات شمالا باتجاه البحر، وخمسة عشر فتحة جنوبا، وفوق الباب اثنتان، وخمسة عشر مدفعا، ولا حظ ديفولكس أن موقعه رديء لأن مجال طلقاته النارية معوق بالحصن القديم وحصن مرسى الذبان كما أنه ينخفض عنهما.

-برج قامة الفول (**رأس النادر، برج الحاج علي، برج الانجليز**):

يقع بالقرب من باب الواد، بمحاذاة البحر، ورغم موقعه المهم فإن هذا البرج صغير وقديم جدا، يظهر أن باني هذا البرج هو الآغا الحاج علي زمن اسماعيل باشا سنة 1080هــ/ 1669م، ويتكون من طابقين: السفلي خال من فتحات المدفعية والعلوي يشتمل على اثنين وعشرين فتحة نارية، بها عشرون مدفعا، كما يحيط به خندقا، ويدخل إليه بواسطة جسر خشبي في جهته الشمالية الغربية. وقد رام الداي مصطفى باشا إعادة بناء هذا البرج بصورة أكثر فعالية ومتانة، فأحضر مواد البناء إلى الموقع، وأنشأ عين ماء هناك، سنة 1219هــ/1804-1805م.

-برج باب الواد (**برج محمد باشا، برج 24 ساعة، برج ستي تاكليت، وبرج العلج علي**).[39]

شيده محمد باشا سنة 976هــ/1568-1569م، ويتكون من طابقين، السفلي منه خال من الفتحات النارية، أما العلوي فيشتمل على أربع وثلاثين فتحة بها سبع وعشرون مدفعا، وهو محصن من جهة البحر.

-البرج الجديد (**برج الزوبية**):[40]

على أنقاض برج صغير شيده رمضان باشا سنة 1576م، بنى الداي مصطفى باشا البرج الجديد سنة 1217هــ/ 1803م، من أجل تقوية الخط الدفاعي الموجود بغرب الميناء، وتعضيد برج الأربع والعشرين ساعة، ويتكون من طابقين، سفلي وعلوي، وقدر ديفولكس عدد مدافعه بثلاثة وعشرين مدفعا. وكان يقع على حافة منحدرة نحو الشاطئ، ويتضمن هذا البرج من الناحية الشمالية الشرقية أربع عشرة فتحة نارية في الطابق العلوي وتسعا في الأسفل، كما كان له فتحتان ناريتان عاليتان متوجهتان نحو الريف أو الفحص، واثنتان نحو الجنوب الغربي أي نحو المدينة.[41]

* **البطاريات:**

-بطارية مرسى الذبان:

تقع هذه البطارية قرب واد فراح المنحدر من جبل بوزريعة، بها اثني عشر مدفعا، ألقي بها في البحر أثناء الاحتلال الفرنسي للمدينة سنة 1830.

-بطارية رأس النادر العليا (قامة الفول):

كانت مزودة بثمانية مدافع وكان يحرسها حوالي خمسة وخمسون مدفعيا، كلهم من حي بني مسوس.

-بطارية رأس النادر السفلى:

كانت مسلحة بأربعة مدافع، ويقوم بحراستها حوالي خمسة وثلاثون مدفعيا، كلهم من المتطوعين للدفاع عن المدينة، لأن المدفعيين النظاميين كانوا يتمركزون بأبراج وحصون المدينة داخل أسوارها ويحرسون بطارياتها، والمدفعي النظامي الوحيد الذي نجده في بطارية الفحص هو "الباش طبجي".

-بطارية عيون بني مناد:

تقع بالقرب من باب الواد بمحاذاة البحر، زودت بأحد عشر مدفعا كلها متجهة نحو البحر، ويشير ديفولكس أن بهذا المكان كان الزنوج يذبحون الدجاج كل أربعاء.

-بطارية الطابية:

تقع شمال البرج الجديد (الزوبية) بمسافة تقدر بمائة وخمس وعشرين مترا، بها إحدى عشرة فتحة نارية وتتمثل مهمتها في تعزيز القوة النارية للبرج الجديد.

-بطارية الحمراء:

وتبعد عن سابقتها بحوالي ثلاثين مترا، بها ثمانية مدافع، وثماني عشرة فتحة.

-بطارية الكتاني:

نسبت إلى ضريح ولي، يقع بالقرب منها، تبعد بمائتي متر عن البطارية الحمراء، وكانت مزودة بأربعة عشر مدفعا.

-بطاريتين متجاورتين (مجهولتي التسمية):

ويظهر أنهما ضعيفتي التسليح لأن إحداهن تشتمل على ثلاثة مدافع فقط.[42]

أ-2-أبراج وبطاريات الفحص الشرقي(باب عزون):

*** الأبراج:**

-برج تامنفوست (**برج رأس ماتيفو**):[43]

يقع هذا البرج على رأس تامنفوست بالناحية الشرقية لخليج الجزائر، وورد أنه بني أو رمم سنة 1661 في عهد الباشا اسماعيل من طرف الآغا رمضان، وأعيد تحصينه سنة 1685 من قبل ميزومورتو، بعد أن صد الهجوم الفرنسي سنة 1685م.

وكانت بالبرج سفرة تتكون من خمسة عشر مدفعي يرأسهم باش طبجي، وبه عشرون مدفعا، وأربعة وعشرون فوهة نارية مدفعية وثمانية وعشرون فتحة نارية خاصة بالبنادق. وشكل البرج عبارة شكل مثمن الأضلاع وبنيت جدرانه من الحجارة المنحوتة العائدة إلى العهد الروماني، ويبلغ ارتفاع البرج حوالي تسعة أمتار ويحيط به خندق يتراوح عمقه بين مترين وأربعة أمتار وعرضه حوالي سبعة أمتار، يدخله الداخلون بواسطة جسر خشبي.

-برج الكيفان:

يقع على بعد مدينة الجزائر بحوالي تسعة عشر كيلومترا في خليجها الشرقي، حيث بني على رأس صغير داخل البحر من طرف محمد باشا سنة 1135هـ/ 1722-1723 م، والبرج مربع الشكل، وكان في سنة 1808م يتوفر على فتحة واحدة باتجاه اليابسة وأربع فتحات باتجاه البحر، وأما عن الجانبين فنجد به ثماني فتحات: أربع منها في كل جانب متجهة نحو الشاطئ.

-برج الحراش (**القنطرة، برج الآغا**):

بناه الأتراك العثمانيون سنة 1697، في عهد الداي الحاج أحمد، ويقع بفحص الحراش، قدرت مساحته بتسع وستين آر وخمس وخمسين سنتيار. وتشير الدراسات أنه رمم لأول مرة من طرف الداي ابراهيم سنة 1737م، وقد أعاد بناءه الآغا يحي بين 1822 -1824، وأرض البرج كانت ملكا للمرابط والي دادة، اشترتها السلطة العثمانية بمائة بوجو، وكان البرج ملجأ للحاميات الانكشارية المكلفة بغزو القبائل العاصية، مثل قبائل موزاية وقبائل بجاية، وبالموازاة كان البرج مستودعا عسكريا للبنادق، والمسدسات، والسيوف، والذخيرة، والخيم، وبه أربع أو خمسة مدافع وبين مائتين وثلاثمائة حصان، وكان في الحقيقة فندقا عسكريا حيث يقصده بايات الشرق للاستراحة قبيل دخولهم إلى مدينة الجزائر بمناسبة التدنيش الأكبر الحاصل كل ثلاث سنوات.[44]

-برج باب عزون القديم (برج تافورة، برج سفيد):بني بين 1581و 1584 به أحد عشر مدفعا.

-برج باب عزون الجديد:

هو أهم بناية دفاعية في الجهة الجنوبية الشرقية، بناه الداي مصطفى باشا سنة 1219هـ/1804-1805م على أنقاض البرج القديم، وكانت الواجهة الشرقية التي تقابل البحر تضم سبعة عشر فوهة نارية في الطابق السفلي والعدد نفسه في الطابق العلوي، ويتوسط هذه الفوهات موضع مراقبة مبني بالحجارة. أما الواجهة الجنوبية، فقد كانت تضم خمس فوهات في الطابق السفلي وستا في الطابق العلوي، أما الواجهة الغربية فقد كانت تضم نتوءا فيها أربع فوهات وفي الأعلى عشرة فوهات من كل جانب، يتوسطها مكان مراقبة، وإلى جانب مدافعه الواحد والتسعين يوجد بالبرج خزان ماء يسع لكمية 435 متر مكعب. وورد أنه شيد على قاعدة صخرية بمتانة، واسمه الحقيقي عند العثمانيين هو البرج الأبيض، وتتجلى أهميته في حماية باب عزون وحراسة الشاطئ الشرقي.(45)

* **بطاريات الفحص الشرقي -باب عزون-**

-بطارية وادي الخميس: الواقع غرب تامنفوست.

-بطارية حلق الوادي: بنيت بعد الهجوم الاسباني سنة 1775م لمنع أي إنزال في المستقبل.

-بطارية المجاهدين: بنيت بعد هجوم 1775م وتبعد عن مصب وادي خميس بألف وخمسمائة متر.

-بطارية جنان الباشا (حسن باشا): اندثرت في عهد ديفولكس.

-بطارية العين البيضاء (حجرة العرض، سيدي بلال): تسع لتسع عشرة فوهة نارية، عشر منها باتجاه البحر في الجهة الشمالية الشرقية، وفوهة واحدة في الزاوية الشرقية، وأربع فوهات بالاتجاه الجنوبي الشرقي، وقد ورثتها الإدارة الفرنسية في حالة متقدمة من الخراب، ويعود تاريخ بنائها إلى القرن السادس عشر ورممها اسماعيل باشا سنة 1670م وكان فيها مخزن للبارود.(46)

أ-3-أبراج وبطاريات الفحص الجنوبي (باب الجديد والمرتفعات):

* **الأبراج:**

-برج الثغريين (برج النجمة، برج محمد باشا):

يقع على مرتفع جنوب حصن الإمبراطور بحوالي ثلاثمائة وثلاثون مترا، وجنوب حصن القصبة بمسافة مائة وخمسون مترا ، بناه محمد باشا سنة 976هـ/1568-1569م، ومهندسه

مصطفى الصقلي، وشكله ذو سبع نتوءات أي على شكل نجمة، وفي وسطه ساحة كبيرة بها خزان ماء، وحول هذه الساحة ثماني غرف لإيواء العساكر، ويتوفر على ثمانية مدافع من العيار الصغير، ومن مساوئه أنه كان محاطا بربوات يمكن للعدو أن يسيطر منها عليه، ويمنع عنه أي مدد من القصبة. وورد أن أمة أشعلت النار بمخزن البارود انتقاما من سيدها الذي نعتقد أنه يكون باش طبجي بهذا البرج وذلك بتاريخ 1163هـ/1750م. وعلى أية حال كان البرج مندثرا أيام بوتان سنة 1808م.(47)

-برج مولاي حسن (برج الامبراطور، برج بوليلة، برج الطاووس، السلطان قلعسي):(48)

يقع بكدية الصابون، على بعد ثمانمائة متر من القصبة العليا المواجهة للبر، صممه وبناه مولاي حسن باشا اليوناني الأصل سنة 952هـ/1545-1546م الذي صد هجوم شارلكان سنة 1541م. ويأخذ البرج شكلا مستطيلا طوله مائة وخمسون مترا وعرضة مائة متر وارتفاعه حوالي عشرة أمتار. وكان يحتوي سنة 1808 على سبعة وسبعين فتحة تضم خمسة وثلاثين مدفعا، ويظهر أن أسلحته قد تزايدت لتبلغ سنة 1830 واحد وتسعين قطعة، من أجل مقاومة العدو الفرنسي الذي حاصر المدينة منذ 1827م.

وفي مركز البرج يوجد مخزن الأسلحة، وقد رمم عدة مرات اثر انفجار مخزن البارود. ويروي ديفولكس قصة سقوط الحصن أول أيام الغزو الفرنسي، إذ نزلت الجيوش في سيدي فرج وسارت مرورا بالأبيار باتجاه المدينة، وقد كان هدفهم تجنب الجانب البحري الحصين، والقضاء على هذا البرج المنيع.

وهكذا وجهت القوات الفرنسية كل مدافعها نحو هذا البرج، وبعد توالي عمليات القصف ووقوع العديد من القتلى في صفوف حامية البرج أمر "الباش طبجي" بتدمير الحصن من الداخل لئلا لا يقع في يد الفرنسيين.(49)

*** البطاريات:**

-بطارية الخميسية:

تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة، وتضم خمس فوهات نارية، ثلاث منها على البحر، واثنتان باتجاه المدينة، وكان بها سنة 1829 أربعة مدافع من عيار 24.

-بطارية الصنانجية:

بناها يحي آغا سنة 1239هـ/1824م وتبعد عن بطارية الخميسية بمائة وتسعين مترا، لها أربع فوهات تتجه نحو البحر، وتضم ستة مدافع وقاذفتين للقنابل. وقد بنيت على أرض كانت موقعا لصنع الآجر وكان بالقرب منها فرن لطبخ الجير.

-بطارية سيدي مبارك:

نسبت إلى زاوية بها ضريح مرابط يجاورها، وكانت لهذه البطارية سبع فوهات نارية وهي قريبة من حصن باب عزون.

-بطارية الخمسة مدافع: وكانت سابقا دارا للبارود.

ب-الجنائن:

الجنائن هي مساكن الفئة الثرية المترفة الواقعة داخل بساتين وتتوفر على حدائق، وقد انتشرت في الفحص كريف مجاور لمدينة الجزائر، ووصف أحد ضباط الجيش الفرنسي الديار الفحصية بقوله:" إن هذه الأراضي...هي في الواقع مغطاة بأجمل الديار التي تحيط بها البساتين الخضراء، وقد بناها أصحابها في أعالي الربى المتموجة فكانت بذلك أجمل من مساكننا نحن المبنية كلها في الوهاد الواطئة."(50)

يوحي التصميم الهندسي للمنازل الفحصية الريفية بكون أن صاحب الجنان كان يبحث عن عناصر معمارية، تيسر للنفس الطمانينة والهدوء، بدل حياة الاضطراب والقلق التي يقضيها في منزله بداخل المدينة. فبخلاف المنزل في المدينة، لا وجود لبنايات معمارية تقابل وتواجه المنزل، والنوافذ تفتح كثيرا وتجعل الدار أكثر ترحابا، وبالنوافذ شباك يحميها من السطو الليلي، ومدخل المنزل به بوابة ثقيلة ومدرعة بزخارف من حديد، وتعلو المدخل كنة من قرميد أخضر اللون، تقي من يريد الولوج إلى البيت من لفحات الشمس أو من المطر. وفي جانبي السقيفة مصطبة مكسوة بالزليج، يجلس عليها الداخل، ثم يصادف المرء فناء كبيرا يؤدي إلى حديقة مسورة، بها أزهار وحوض ماء مثمن الأضلاع يقع في وسطها، وتقطع الحديقة ممرات مرصوفة ببلاط من الرخام الأبيض والأسود. كما توجد أيضا سقيفة برانية مظلمة بها بوابة نثرت عليها مسامير غليظة.

وللسقيفة بوابتين، فإذا اجتزنا البوابة الثانية نجد رواقا طويلا مجرد من أي زخرفة، وهناك غرف تنفتح على كل جانب من جوانب هذا البهو الذي يأتيه النور من شبابيك حجرية صغيرة، وضعت في أعلى الجدران المقابل للمدخل. وفي هذا القسم المخصص للخدمات المنزلية العادية

تقع حجرات الخدم والمطابخ ومخازن المؤونة، كما يوجد قبو أو دهليز، فتحت فيه نوافذ على جوانبه.

أما الطابق العلوي للمترل، فيؤدي إليه سلم في الرواق الأرضي، وهو سلم متعرج، درجاته مكسوة ببلاط من رخام أبيض، وقواعد الجدران وجوانب الدرجات مزخرفة بزليج جميل، وبمائدة الطابق بابان، ومن أحدهما ننفذ إلى وسط الدار، يحف به رواق أنيق ذو أعمدة من رخام فاتح اللون. كما يوجد أعمدة تترل إليها أقواس منكسرة ، ذات زخرفة جميلة، تزيد من بهاء وسط الدار، وغرف الطابق العلوي تشرف كلها على وسط الدار بكل غرفة نافذة وباب، وهي طويلة وضيقة مثل غرف منازل المدينة. والرواق مزين بالزخارف من الجص المنقوش، وبيت الحمام عبارة عن قاعة مربعة تعلوها قبة ذات ثمانية أوجه، والأرض مفروشة ببلاط الرخام الأبيض، وغرفة الضيوف بها عدة نوافذ للتهوية والإضاءة.

وهكذا يبدو أن الحديقة هي الفكرة الرئيسية التي يرتكز عليها تصميم المترل الريفي، ففيها يحس المرء بمباهج الحياة الخاصة، حيث يتواجد بها أحواض من الزهور، وفي وسط هذه الأزهار الكثيرة تظهر عين جارية بالماء العذب، أنشأت في إحدى جوانب الحديقة. وفي طرف هذه الأخيرة رواق ذي قويسات تشدها أعمدة، كانت تقام به حلقات الطرب بمناسبة الأفراح العائلية.(51)

وقدم لنا ناصر الدين سعيدوني قائمة بأسماء الجنائن التي انتشرت بفحص مدينة الجزائر وسنكتفي في هذا المقام بالتعريف بأبرز الجنائن كالآتي:

***جنان البابا حسن (1791-1798):**

آلت هذه الدار إلى ورثة الداي حسن باشا، بعد وفاته سنة 1798م، ثم صادرها الداي أحمد وأدرجها ضمن أملاك البايليك، وقد زاد في البناء بجنان الداي حسن الباشا حسين سنة 1820م، كما شيد آخر خزناجي المسمى "براهام" اصطبلات بالجنان وحفر الآبار المائية، وكان الجنان يوفر الفواكه والخضر والورود للبايليك والداي، وخضعت إدارة الجنان بين 1820 و 1830 لخوجة الخيل، حيث كانت تربى فيه الأغنام التي قدر عددها بخمسمائة رأس قبل 1816م.(52)

***جنان آغا العرب:**

تقع هذه الدار بين رأس تافورة أو حصن باب عزون وعين الربط، وتطل على البحر المتوسط، وكانت إقامة لآغا العرب الذي كان يمارس سلطته القضائية على الأوطان بدار

السلطان، وتعاقب على هذا الجنان عدة أغوات قدر عددهم بخمسة عشر، ويعتبر الآغا علي بن سليمان هو باني الدار المذكورة حيث اشترى الأرض سنة 1203هـ/1789م.

وتشغل البنايات في جنان الآغا مساحة تقدر بـ2.665متر مربع، تتضمن قسمين هما:

-اصطبلات لإيواء مائتين وخمسون خيلا، موزعة على مائتين وخمسين مقطعا لكل مقطع مقاس ثلاثة أمتار.

-منزل الآغا وحديقته، وعيونه المائية من الرخام وكذا محلات.

وزيادة على ذلك يتوفر بجنان الآغا مائة وخمسون شجرة زيتون، وألف رأس غنم. وبعد مقتل الآغا علي بن سليمان صادرت السلطة الجنان وأدرجته ضمن أملاك البايليك، وسخرته ليكون إقامة وظيفية للأغوات المتعاقبين، مع دفع كراء سنوي يقدر بخمسين سلطانيا، وهو ما رفضه بعض الأغوات.

وورد أن الأغوات الذين تعاقبوا على سكنى هذا الجنان، أضافوا بنايات مختلفة، بمال الدولة الذي كان تحت تصرفهم، ومن هذه البنايات الجديدة، نذكر: الإسطبلات، الآبار، المحلات، الشرفة، المنزل الكبير، ساحة ونافورة ماء.

ووجد بساحة الدار أو الجنان حوض مائي، تستجمم به النساء، وعلى زواياه أدراج، ويحيط بالساحة رواق، مشدود بأعمدة رخامية، وللدار طابقين، أرضي وعلوي، ناهيك عن زخرفتها التي تلاحظ في كامل أنحاء المنزل. كما نجد إلى جانب الساحة، حديقة صغيرة جدا لكنها رائعة المنظر بها أشجار ليمون وموز وبرتقال وتين وعنب، وبالدار غرف خاصة بالانكشاريين وكذا اصطبلاتهم.

وكان جنان الآغا يمون الخزناجي، الآغا، بيت المالجي، وكيل الحرج، وشاوش الآغا بالخضر يوميا، أما الورود المنتشرة بالجنان، فتوجه إلى الداي. ولما تصل سفينة أجنبية إلى ميناء الجزائر، يقدم إلى قبطانها، خضر وفواكه وأغنام، جلبت من جنان الآغا، كما يوفر الجنان يوميا، كبشين للداي وكبشين آخرين للآغا. (53)

***جنان بن سيام:**

تقع هذه الدار بمدخل بير خادم، وكانت في سنة 1830 ملكا لعائلة بن سيام، وقدرت مساحة هذا الجنان بست هكتارات وخمسة وسبعين آر. وبه مبنين يحيط بهما سور، وبين المبنيين، حديقة.

***جنان مصطفى الخياط:**

كانت هذه الدار ملكا لخديجة العمياء بنت حسن باشا (1791-1798) وشقيقة فاطمة زوجة الباشا حسين، وقد أوقفت خديجة العمياء هذا الجنان سنة 1814، ومردود الحبس يعود جزء منه للسيدة أنيسة بنت عبد الله، أمة جيورجية، وجزء آخر للأميرة نفيسة، البنت الصغرى لحسن باشا وكذلك لبنت حسين باشا. هؤلاء الملاك غادروا الجزائر سنة 1830 واستقروا بالاسكندرية، ليستحوذ عليها الفرنسيون ثم تباع إلى يوسف (قائد الصبايحية في أوائل الاحتلال، وقدرت مساحتها بهكتارين وثمانية عشر آر وتسع وسبعين سنتيار.)

***جنان عبد اللطيف:**

تقع هذه الدار بالحامة، ويظهر أنها بنيت خلال القرن الثامن عشر، امتلكها الآغا علي الذي باعها بثلاثمائة وخمس وعشرون ريالا فضية، وتوالى ملاك هذا الجنان بعد علي آغا لتنتهي إلى عبد اللطيف الذي اشترى الجنان بألفي دينار ذهبية.(54)

وهكذا نلاحظ أن أغلب منازل سكان الفحص عبارة عن جنائن، أو قصور للطبقة الغنية التي أحاطت بها حدائق وبساتين ذات أشجار مثمرة، وكانت تحوي جدرانها، رخام وفسيفساء ايطاليا، و بها أفرشة في وسط غرفها من حرائر ليون وجنوة، وبداخلها مرايا معلقة قادمة من البندقية وزجاج من بوهيميا وساعات من بريطانيا، كما نقش على جدرانها صور للقنص ومظاهر طبيعية متنوعة وخلابة. وقدر هايدو Heido عدد الحدائق في ضاحية المدينة بحوالي عشرة آلاف حديقة والأب دان سنة 1634 قدرها بنحو ثمانية عشرة ألف حديقة، وبايسونال Peysonelles سنة 1724 قدرها بألفي حديقة ثم فونتور دي بارادي سنة 1789 قدرها بنحو ستة عشرة ألف حديقة.(55)

ت-المساجد والزوايا :

ت-1-المساجد:

*** مسجد محمد باشا:**

يقع هذا المسجد على ساحل البحر، بفحص باب الواد، وهو مسجد صغير، بناه محمد بن عثمان باشا (1766-1791)، وتم وقف لصالح المسجد بئر مائية.(56)

*** مسجد المصلى:**

روى ديفولكس أن الحاج محمد بن محمود الدولاتلي، اشترى أرضا كانت تستغل كمصلى مكشوف بفحص باب الواد، وبنى عليها مسجدا سمي بمسجد المصلى، سنة

1086هـ/1675م، وقد ألحق بالمسجد عدد من الدكاكين حبسها لصالح المسجد لتكون مصدر دخل له، ثم مراحيض.(57)

* **مسجد بئر مراد رايس،** الذي بناه الداي عبدي باشا، حسب وثيقة شرعية مؤرخة سنة 1137هـ/1724م، وينسب هذا المسجد إلى بئر بناها البحارة العلج، مراد رايس، الذي اشتهر في بداية القرن السابع عشر، حيث وصلت المراكب التي كان يقودها إلى سواحل ايسلندا سنة 1616م.(58)

* **مسجد بئر خادم،** الذي ورد في وثيقة شرعية مؤرخة في سنة 1124هـ/1711م، وينسب هذا المسجد إلى بئر، يقع بجوار واد تيكلوت، معروف بالخادم أي العبد إلا أن ديفولكس يذكر أمة زنجية بمعنى بئر الخادمة، رغم أن المشهور عنه هو بئر الخادم بصيغة المذكر وليس الخادمة بصيغة المؤنث.(59)

* **مسجد سيدي محمد بن عبد الرحمن، الملقب بسيدي بوقبرين،** بفحص الحامة، وقد بني هذا المسجد في عهد حسن باشا سنة 1206هـ/1792م. وكتب ديفولكس أن لقب بوقبرين نابع من الرواية الجزائرية القائلة أن سيدي محمد بن عبد الرحمن، سكن بفحص مدينة الجزائر في عهد الداي بابا محمد باشا، وتوفي ودفن بأرض قبيلة بني اسماعيل ببلاد القبايل، إلا أن أتباعه بالحامة نقلوا رفاته إلى الحامة مما أثار حفيظة القبايل.

* **مسجد وقبة سيدي سعدي بفحص باب الواد:**

هو مسجد صغير بدون مئذنة، يجاوره منزل وقبة بها ضريح المرابط سيدي سعدي، وكان هذا المرابط حيا سنة 1119هـ/1707-1708م ويبقى اسم بانيه وتاريخ تشييده مجهولا، وتشتمل أوقافه على مزرعة، ثلاثة منازل، ودكانين.

* **مسجد ومدرسة الحامة.**

* **مسجد تقصراين.**

* **مسجد القادوس** على الضفة اليمنى لواد الكرمة.

* **مسجد الزحاولة** الذي بناه البلوكباشي يوسف سنة 1799.

ت-2-الزوايا:

* **زاوية وقبة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي (توفي سنة 873هـ/1468-1469م):**

يعتبر عبد الرحمن الثعالبي المرابط الرمز لمدينة الجزائر قبل وأثناء العهد العثماني، وهو ابن محمد بن مخلوف بن طلحة بن عمر بن نوفل بن عمار بن منصور بن محمد بن سبع بن مخلي بن

طالب بن موسى بن سعيد بن الفاضل بن عبد البار بن كايس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن أبي طالب.وينتسب عبد الرحمن الثعالبي لقبيلة الثعالبة التي كانت تهيمن على المتيجة إلى غاية نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومنذ هذا التاريخ اندثرت القبيلة وتفرق رجالها تحت ضربات أبي حمو الزياني.

درس عبد الرحمن الثعالبي العلوم الشرعية بمدينة بجاية حيث التقى بطلاب الشيخ عبد الرحمن الوغليسي، ثم سافر إلى تونس وجالس الشيخ عيسى الغبريني والشيخ العقبي البرزولي وشيوخ آخرون، وبعدها واصل طريقه إلى القاهرة وتلقى دروسا على يد الشيخ والي الدين العراقي، وإثر حصوله على الإجازة من القاهرة، قصد مكة لأداء فريضة الحج، ثم رجع إلى تونس، ودرس على يد محمد بن مرزوق، الذي منحه إجازة الأستاذ لتدريس العلوم.

وقد بنيت زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي سنة 1108هـ/1696م في عهد الحاج أحمد العلج، وتبلغ مساحة الزاوية ألف وأربعمائة متر مربع وتتكون من :

-مسجد صغير بمئذنة صغيرة مربعة الشكل وقبة مزخرفة من الداخل، وذات حجم كبير، تضم عدة أضرحة، والضريح الذي يرفعه تابوت خشبي هو ضريح عبد الرحمن الثعالبي.

-دكاكين وبنايات سكنية وخدماتية يستعملها الوكيل ومساعديه.

-قاعة للفارين واللاجئين.

-مقبرة خاصة.

-مراحيض عامة وعيون مائية.

كما تتوفر الزاوية على أوقاف عقارية تستغل مداخيلها فيما يخدم الزاوية وزوارها خاصة الغرباء عن المنطقة.(60)

*** زاوية المرابط سيدي عمار التنسي:**

تقع في أعلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، قبالة باب الواد، و لم تتوفر الزاوية على غرف لمبيت الطلبة ولا على مدرسة، وكل ما فيها هو مسجد بدون مئذنة، وقبة بها ضريح المرابط. وللزاوية أوقاف ممثلة في : مزرعة، بستانين، تسعة منازل، أربعة عشرة دكانا، مخزن واحد، ثلاثة أفران، وإسطبل. يسيرها وكيل الزاوية الذي يجمع بين وظائف الإمام والمقدم.

ث-المقابر العمومية وأضرحة المرابطين:

ث-1-المقابر العمومية:

كان هناك بفحص مدينة الجزائر سنة 1830 أكثر من ثلاثين هكتارا من المقابر، ولوحظ أن القبور المتأخرة موضوعة على القبور القديمة، ويمكن توزيعها إلى خمسة مقابر:

-مقبرة الأتراك الواقعة بمنحدر باب عزون، وهي مقبرة خاصة بالموتى الانكشاريين وبها قبور الباشوات. ولوحظ أنه هناك خمسة قبور للباشوات الدايات، وشكلها مثمن الأضلاع، ومزخرفة بالخزف، وتظهر القبور على شكل دائرة، ويروى أن هؤلاء الموتى الخمس قد ذبحوا في اليوم الذي تم فيه تعيينهم. وبجوارهم يوجد قبر الداي علي خوجة الذي لم يمت مقتولا، لذا يزوره المسلمون دوريا. وإلى جانب قبور الدايات الباشوات، يوجد قبور الشخصيات الرسمية السامية في هرم الدولة.

-مقبرة العرب بمرتفعات باب عزون وبعض القبور بالحامة وسط أشجار الزيتون غير المثمرة.

-مقبرة بني ميزاب والقبايل بمنحدر تلاوملي(61) في أسفل بوزريعة.

-مقبرة اليهود بطريق باب الواد:

وهي في الحقيقة حسب لجنة الجزائر القديمة برئاسة هنري كلاين، ثلاثة مقابر عائلية، كلها تقع خارج باب الواد وهي:

***مقبرة ريباش Ribach**:

ريباش هو اختصار لاسم "ربي اسحاق بارشيشات Rabbi Isaac Bar Chechet " وهو شخصية دينية يهودية مات بالمكان سنة 1409م، ويهود هذه المقبرة الواقعة بين واد المغاسل وواد قريش، هم في الغالب من المهاجرين من اسبانيا، في القرون الماضية، مع وجود يهود محليون، ويروى أن ملك تلمسان هو الذي منح أرض المقبرة لليهود سنة 1287م، وتضم المقبرة ست عائلات من أصل اسباني :

-عائلة ستورا.Stora

-عائلة دوران.Duran

-عائلة سرور.Seror

-عائلة بن حاييم. Benhaim

-عائلة واليد.Oualid

-عائلة عياش.Ayache

مقبرة ميرداشMidrasch :*

كانت أرض هذه المقبرة ضمن ملكيات الجامع الأعظم، تنازل عنها لليهود سنة 1461م، مقابل دار الفأر، بداخل المدينة.

مقبرة باكريBacri :*

كانت أرض هذه المقبرة ملكا لعرب مسلمين، تنازلوا عنها لصالح بن زخوط باكري ويهودي آخر، مقابل أرض بخندق الخميس خارج باب الجديد.

-مقبرة الشهداء التي تضم مائتي قبر من الذين استشهدوا في معركة أوريلي o'reilly البحرية سنة 1775م، وبوسطها نخلة عالية.(62)

وبخصوص وضعية هذه المقابر بفحص مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، يمكن الاستناد إلى انطباعات الكتاب الأجانب، فقد تحدث وليام شالر باختصار عن مقابر المسلمين بمدينة الجزائر قائلا: "فإن هذه المقابر لا يحيط بها أي سياج، وبالتالي، فهي مرتع للحيوانات، وابن آوى الذي يتجول بحرية في أرجائها باحثا عن ما يشبع نهمه في جثث الأشخاص الحديثي الدفن...والعرب يحبون بناء قبور فخمة لتخليد ذكرى أقاربهم..."(63)

أما لامبير فسجل أن مقبرة باب عزون العمومية المسماة بمقبرة عبد القادر الكيلاني هي ساحة لتجوال الدواب والحيوانات، لكونها مكسوة بالاخضرار النباتي والأزهار، ثم أضاف أن قبور العرب المسلمين بسيطة ينقش عليها أسماء الميت وآيات قرآنية معروفة .(64)

وأفادنا وليم سبنسر في حديثه عن مراسيم الدفن الاسلامي، أنه من عادة المسلمين في الجزائر العثمانية أنهم يضعون حجرا عند رأس الميت وهو في قبره، وحجرا آخر عند قدمه، سواء كان ذكرا أو أنثى، وكل منهما تكون منقوشة بآيات قرآنية، كما يتم تمييز قبور الرجال بخرقة توضع على الحجر، وبباقات زهور على حجر قبور النساء.(65)

ث-2-قباب أضرحة المرابطين:

وبشأن قباب وأضرحة المرابطين بفحص الجزائر، فقد ذكر ديفولكس بفحص باب الواد بالجهة الشمالية الغربية عددا من القباب والأضرحة المنسوبة لمرابطي مدينة الجزائر قبل وأثناء العهد العثماني، نعددها كالآتي:

-قبة ضريح أبو النور (بنور بالعامية الجزائرية) قرب جبل بوزريعة بفحص باب الواد.

-قبة ضريح سيدي نعمان، وألحقت به مقبرة صغيرة، ببوزريعة.

-قبة ضريح سيدي محمد بن مجدوبة، وألحقت به مقبرة صغيرة ببوزريعة.

-ضريح ومقبرة سيدي يوسف ببوزريعة.

-ضريح ومقبرة سيدي عبد الله الحمزي ببوزريعة.

-قبة ضريح ومقبرة سيدي مجبار ببوزريعة.

-قبة ضريح ومقبرة سيدي محمد، بسطاوالي.

-قبة ضريح سيدي فرج، وقد ذكر ديفولكس قصة سيدي فرج مع قائد السفينة الاسباني روشRoche، الذي قيده محاولا نقله إلى اسبانيا لبيعه في سوق النخاسة، لكن تروي الأسطورة أن السفينة استحال إقلاعها، و لم تقلع إلا بعد تحرير المرابط سيدي فرج، ومنذ ذلك الوقت علا صيت سيدي فرج بين سكان مدينة الجزائر وضواحيها، وأصبح الرجلان صديقان، ودفنا في مكان واحد.

أما في الجهة الغربية لفحص باب الواد فقد ذكر ديفولكس الأضرحة التالية:

-ضريح المغزي، ولا ندري اسم هذا الرجل الملقب بالمغزي، الذي قاوم حملة شارلكان الاسبانية سنة 1541.

-ضريح ومقبرة سيدي الأكحل، قرب بئر مراد رايس.

-قبة ضريح ومقبرة سيدي يحي الطيار، بفحص حيدرة.

-ضريح ومقبرة سيدي عيسى، بين حيدرة ووادي القلعي.

-ضريح ومقبرة سيدي مرزوق، بين الأبيار وحيدرة.

-ضريح ومقبرة سيدي مسعود، بحيدرة.

-قبة ضريح ومقبرة الحوض، بتقصرايين.

-ضريح ومقبرة سيدي الأكحل، بتقصرايين.

-ضريح ومقبرة سيدي مبارك، بواد الرمان بحي القادوس.

-ضريح ومقبرة سيدي أحمد بوكفيفة، ببني ربيعة بحي القادوس.

-ضريح ومقبرة سيدي أحمد الزواوي، الملقب بالغريب، بأولاد شاوش بحي القادوس.

-قبة بناها الحاج باشا سنة 1545م، بفحص القبة.[66]

-ضريح المرابط سيدي محمد بن خليفة.

-ضريح الطبيب: وبناه أحد الدايات لطبيبه.

-ضريح سيدي بودومة.

-أضرحة رجال المغارة: وهم شهداء سقطوا أمواتا دفاعا عن مدينة الجزائر أمام حملة صليبية.[67]

-قبة ضريح سيدي الشامي: تقع قبة وضريح سيدي الشامي بفحص باب الواد. -والقبة عادة ما تكون للشخصيات التاريخية البارزة- وتتضمن قبة سيدي الشامي، ما يلي:

-مسجد بدون مئذنة.

-محل ذو سقف مقبب به ضريح المرابط.

-مراحيض وعيون مائية.

-مقبرة خاصة بالقبة.

-ملحقات القبة وتشتمل على سبعة عشر دكانا وخمس ديار وغرفة واحدة وطاحونة وأرض زراعية، وكل هذه الملحقات تشكل مصدر دخل للقبة يسيرها وكيل القبة الذي يحل محل المقدم والإمام.

-قبة ضريح سيدي سالم: لم يعثر ديفولكس في الوثائق على معلومات تتعلق بهذا المرابط، وتقع هذه القبة قرب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

-ضريح بنت جعفر الكتانية، وتم حبس دكان لصالح الضريح.

-ضريح محمد النشا: ويقع في أسفل ضريح سيدي عبد القادر الثعالبي، وحبست لصالحه دكانين ومزرعة (حوش).

-ضريح الحاج باشا: وحبست لفائدة الضريح ثلاثة دكاكين.

-ضريح وقبة حسن باشا: يجاور ضريح الشيخ الزراد، وتم حبس دار لفائدته.

-ضريح الشيخ الزراد.

-ضريح سيدي الياقوت.

-ضريح وقبة سيدي الكتاني.(68)

-قبة وضريح سيدي يعقوب: ويلحق بها مقبرة خاصة، وتقع بشمال غرب المدينة قبالة جبل بوزريعة. ويجاور القبة بستان وزاوية الشيخ بني سيدي يعقوب، وستة حوانيت.

-قبة وضريح سيدي مسعود: تجاورها أفران الجبس على مسافة خمسمائة متر من باب الواد وتحيط بالقبة مقبرة خاصة بعمال أفران الجبس والآجر.(69)

-قبة ضريح سيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين: بنيت قبة المرابط بوقبرين في عهد الداي حسن باشا سنة 1791، وكانت هذه القبة أصلا عبارة عن مسجد، يتوفر على مئذنة رائعة المنظر، ويزور القبة والضريح الذي بداخلها العديد من المسلمين الذين يخيمون حول القبة. وبالقبة دفن

الابن الصغير لآخر بايات وهران المسمى سيدي عبد اللطيف، ودفن أيضا المرابط مصطفى بلكحل وزوجة بن سيام. (70)

ج- الشبكة المائية:

استغلت السلطات العثمانية والسكان، الماء، بفحص مدينة الجزائر، منذ القرن السادس عشر، واستحدثوا شبكة مائية تتكون من الآبار، العيون، الأحواض، السواقي والقنوات –التي يفترض أنها تتبعت خطى السواقي الرومانية بمدينة الجزائر- بغرض سقي البساتين وتزويد سكان مدينة الجزائر وفحصها بالمياه. وأولت السلطة التركية العثمانية عناية خاصة بالشبكة المائية بالفحص حيث خصصت لها جهاز إداري يشرف عليه شيخ البلد ويسيره خوجة سمي بخوجة العيون، وأحاط البايليك الشبكة المائية بقانون صارم يقضي بقطع يد كل من أثبتت إدانته بتخريب قناة مائية.(71)

وكتب الدكتور سعيدوني ناصر الدين عن الشبكة المائية بمدينة الجزائر وفحصها فذكر أن القنوات الأربع المتمثلة في قناة التلاواملي، الحامة، طرارية، وعين الزبوجة، تمد مدينة الجزائر بكمية من المياه تتراوح حسب الفصول من 592.000إلى 720.000لتر يوميا، مما يسمح بتغطية حاجات المدينة بنسبة مرتفعة بحيث يتوفر كل فرد من سكان مدينة الجزائر على كمية من المياه تتراوح بين عشرة إلى ثلاثين لترا في اليوم، وهذه النسبة مرتفعة بالنسبة لحاجات السكان في تلك الفترة مقارنة مع المدن الجزائرية الأخرى.(72)

أعتقد أن تنظيم الاستغلال المائي بفحص مدينة الجزائر خلال العصر العثماني، جعله جزءا حضريا، لا ينفصم عن المدينة إذ تزودها بالماء الصالح للشرب يوميا، ناهيك عن قدرة مياه الفحص من سقي وري البساتين التي انتشرت في كافة أنحاء المساحة الريفية المدروسة.

ويرتكز الماء بفحص مدينة الجزائر على ضرورة الاستغلال العقلاني لخمسة وديان (وادي المغاسل، وادي الطارفة، وادي الخميس، وادي بني ميزاب، وادي الكرمة)، وسبعة عيون وينابيع طبيعية (عيون وينابيع السخاخنة، الحامة، عين الدجاج، عين سليمان، عيون القناصل، عين مصطفى باشا، عين الأزرق). وتتجلى مظاهر استغلال هذه المصادر المائية في المنشآت التي تواجدت في جهات فحص الجزائر، نذكرها كالآتي:

***الآبار المائية:**

وهي كثيرة العدد ومنتشرة في جميع جهات فحص مدينة الجزائر، ناهز عددها الألف بئر، وقد نجدها في الحدائق والبساتين وفي المنازل الريفية، ويقدر عمق البئر عادة بين خمس

وعشرين وثلاثين مترا، وأشهر الآبار بفحص الجزائر نذكر: الأبيار، بئر مراد رايس، بئر خادم، وبئر طرارية.

***العيون والأحواض:**

شيدت على الينابيع الكثيرة، وأغلب هذه العيون كانت تحت تصرف الدايات، وكبار الموظفين والسكان الموسرين. وأشهر العيون المائية المتواجدة بفحص الجزائر هي:

-عين السخاخنة:

بناها الداي حسين باشا سنة 1239هـ/1823-1824م لجمع عيون السخاخنة وواد السد، ويفوق معدل مائها اليومي ألفين وخمسمائة وعشرون متر مكعب، وكان موجه لتزويد أحواض ومغاسل السكان المجاورين.

-عين سبع عيون:

تقع خارج باب الواد، بناها الداي حسين باشا بين 1823-1824م قرب قبة سيدي يعقوب، وسميت لاحقا بعيون الجن، وجرى العرف المحلي أن أصبحت محل زيارة عدد من السكان لها وكان قربانهم، هو ذبح الدجاج.

-عين الحامة:

بناها أحد الصناع الأندلسيين المهاجرين سنة 1610-1611ورممت عدة مرات آخرها في عهد الداي علي باشا بوصبع سنة 1171هـ/1757-1758م، ثم جدد مرافقها، الداي محمد بن عثمان باشا سنة 1203هـ/1788م من أجل المحافظة على مياهها من التسرب.

-عين الأزرق:

أنشأها الداي علي بابا بوصبع سنة 1179هـ/1765-1766م، تقع بمرتفعات مصطفى.

-عين مراد رايس:

تبعد عن مدينة الجزائر بسبعة كيلومترات، بناها الرايس مراد في القرن الثامن عشر، جددها الداي حسن باشا سنة 1208هـ/1793-1794م وزخرفها بنمط موريسكي ورخامي واعتبرت من أجمل عيون فحص الجزائر، ويجاورها مقهيين جميلين مسقفين بقباب ويحيط بهما أشجار التين والنخيل.

-عين بئر خادم:

بناها الداي حسن باشا سنة 1211هـ/1796- 1797م، تبعد عن مدينة الجزائر بعشرة كيلومترات، وصممت هذه العين بشكل رائع، وهي مزخرفة بالرخام الأبيض، وتصب في حوضين لمشرب الدواب كما يقصدها المسافرون الذين يسلكون طريق الجزائر-البليدة.

-عين تقصراين:

أنشأها الداي حسن باشا سنة 1212هـ/1797- 1798، لتلبية حاجيات سكان تقصراين الفحصية.

-عين مصطفى باشا:

نسبة إلى بانيها الداي مصطفى باشا سنة 1219هـ/1804-1805م تقع بطريق مرسى الذبان، على بعد ثلاثة كيلومترات من باب الواد، وكانت تتغذى من ينبوع مائي يقع بجنة (بستان) الصنانجي، وكانت العين محبسة من طرف بانيها لصالح برج قامة الفول (برج الانجليز).

-عين سبع عيون وهي قريبة من واد قريش أو المغاسل، والتي أنشأها الداي حسين سنة 1823.

-عيون عين الربط:

وهي ثلاثة عيون تصب في حوضين كبيرين، تقع على الطريق السلطاني الذي يربط باب عزون بقنطرة الحراش، بالموضع المعروف بمنزلة المحلة حيث كانت تضرب الخيام للحاميات الانكشارية عند قدومها من الأقاليم أو البايليكات إلى مدينة الجزائر.

-عين محمد:

تقع بين الأبيار وواد قليع بطريق الجزائر-البليدة، وألحق بها صهريجين لمشرب المواشي.

-عين سليمان:

تجمع مياه واد المغاسل، وهي موجهة لتلبية حاجيات المنزل الريفي للداي.(73)

وهكذا نلاحظ أن العيون المائية المذكورة قد جهزت بحوض مائي من طين أو حوضين، استعملت لشرب الحيوانات من خيل وماشية، وليستغلها السكان المحليون أو المسافرون في قضاء حوائجهم.

***القنوات والسواقي:**

ارتكز نظام السقي بفحص مدينة الجزائر على أربعة سواقي وقنوات باطنية أو ظاهرة على التربة، غير مغطاة، مبنية بمادة الصلصال، تتركز ثلاثة منها في جنوب المدينة وواحدة في

شمالها، والغرض منها جمع المياه من الأودية والينابيع الطبيعية المذكورة حتى يتسنى تزويد المدينة وجهات الفحص بما تحتاجه من ماء، وهي:

-السواقي الجنوبية:

-ساقية التلاواملي (تيلملي):

وهي ساقية قديمة يعود تاريخ بنائها إلى سنة 1550م، يبلغ طولها 4880م حسب ناصر الدين سعيدوني، و3800م حسب أندري ريمون وكيلومترين حسب لجنة الجزائر القديمة برئاسة هنري كلاين، وتضاف لها سواقي ثانوية طولها 908م، وتنتهي الساقية الرئيسية عند الباب الجديد لتصب في خزان مقام على ارتفاع 85م بالقرب من تحصينات القصبة، وتزود حوالي تسعة وعشرون عينا بداخل المدينة.

-ساقية الحامة:

بناها المهندس الأندلسي "أوسطه موسى" سنة 1610-1611م، يبلغ طولها خمسة كيلومترات حسب لجنة الجزائر القديمة، و4300 م حسب ريمون، وتحاذي ساحل البحر وتزود تسعة وعشرون عينا مائية بداخل المدينة وكذا عيون شارع باب عزون، كما تزود في طريقها جنان الآغا. وتدخل الساقية المدينة عبر باب عزون، وقد رممت مرات عديدة.

-ساقية عين الزبوجة:(74)

أنشأها الداي حسين باشا، ويبلغ طولها 9000م أما روافدها فيبلغ طولها 2540م وقد تنتهي عند قصبة الجزائر على ارتفاع 131.06 م عن مستوى سطح البحر، لتزود أربعة عشر عينا.

-الساقية الشمالية:

-ساقية بيرطرارية:

بنيت سنة 1573م على يد الباشا عراب أحمد (1572-1574) يبلغ طولها 1700م وتنتهي عند باب الوادي، وأصاب مجراها في الفترة الأخيرة من العهد العثماني تلفا بسبب الإهمال.(75)

وهكذا لاحظت الدراسات التاريخية أن الشبكة المائية التي استحدثها العثمانيون، تستجيب لمتطلبات وحاجيات السكان المائية وحتى الكولون الأوربيون إلى غاية 1880، ويقدر الكتاب أن القنوات الثلاث القديمة (تيلملي، الحامة، وبير طرارية) كانت تزود المدينة في القرن

السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بمليون وخمسمائة ألف لتر في اليوم، لتلبية حاجيات ثلاثون ألف ساكن، ولكل ساكن خمسون لترا/ اليوم.(76)

ح–الصنائع والورشات الحرفية:

*** المطاحن:**

فرضت عملية طحن الحبوب وجود نوعين من المطاحن بفحص الجزائر، مطاحن مائية ومطاحن هوائية، نعددها كالآتي:

–المطاحن المائية:

*طاحونتين بوادي المغاسل.

*طاحونة واحدة ببوزريعة.

*طاحونتين بواد خميس.

*طاحونتين بالقبة.

*طاحونة واحدة بسيدي فرج.

*طاحونتين ببئر خادم وصاولة.

–المطاحن الهوائية:

*طاحونتين بواد القناصل.

*طاحونتين ببئر مراد رايس.

*طاحونة واحدة بدالي ابراهيم.

*طاحونتين بالأبيار.

*طاحونة واحدة بباب الواد.

*طاحونة واحدة بمرسى الذبان.

*طاحونتين ببئر خادم بواد الكرمة.

*طاحونة واحدة بالفندق.

*طاحونة واحدة بالفوقة.(77)

*** أفران مواد البناء:**

يمكن تعداد ثلاث مجموعات من أفران مواد البناء بفحص مدينة الجزائر، قرب محاجر باب الواد، وتافورة، والقادوس، فالمجموعة الأولى تضم أفران الكلس، قرب واد المغاسل، والمجموعة الثانية عبارة عن بنايات دائرية الشكل، تقع قرب برج تافورة، وتتمثل وظيفتها في

تجفيف الآجر أو القرميد، وكذا الأواني الفخارية، وأخيرا المجموعة الثالثة الواقعة قرب القادوس، والتي تختص بإعداد الأنابيب الفخارية المستعملة كقنوات للسقي وتوصيل الماء إلى المدينة.(78)

*** ورشات الفخار:**

انتشرت خارج أسوار مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني ورشات لصناعة الفخار المتمثلة في أواني الماء، والحليب، والزيت، وقدور للطبخ، وصحون للكسكسي، وجراع لحفظ المؤونة، ويعزى سبب انتقالها إلى الفحص، توفر الفضاء الخارجي المفتوح الذي يسمح بتعريض الأدوات الفخارية للشمس قصد تجفيفها بخلاف المدينة داخل أسوارها.

*** ورشات الجلود والدباغة:**

اشتهر فحص مدينة الجزائر بورشاته في مجال معالجة الجلد ودباغته، فقد كانت جلود الحيوانات تعالج وتصبغ في أحواض مائية مما تطلب فضاء خارجيا مفتوحا لأن الدباغة قد تلحق ضررا بيئيا بالسكان إذا ما مورست بداخل المدينة.

*** دار النحاس:**

تقع دار النحاس ذات الأغراض العسكرية قرب باب الواد خارج الأسوار، وتتربع على مساحة قدرها 653.89 متر مربع، وذكر ديفولكس أن مهندس فرنسي كان يشرف على دار النحاس سنة 1775 اسمه " فرانسوا ديبون François Dupont " وقد وجد اسمه مطبوعا على طول مدفع استولت عليه القوات الفرنسية سنة 1830.(79)

*** المحاجر:**

وجدت بفحص باب الواد بمدينة الجزائر، محاجر لاستخراج الأحجار بغرض بناء المساكن والحصون والقلاع بالمدينة.(80)

خ–الممرات الرئيسية ومحطات المسافرين وملاجئ الفقراء والهاربين:

ذكرت اللجنة الفرنسية للجزائر القديمة برئاسة هنري كلاين، ثلاثة ممرات رئيسية بفحص مدينة الجزائر هي:

–طريق مصطفى باشا: يربط مدينة الجزائر بضواحيها، وهو طريق تقليدي غير معبد، يسلكه كثيرا التجار العرب الساكنين بالسهل، وكذا فرقة الانكشارية التي تتوجه نحو حصن الحراش أو تعود إلى المدينة.

–الطريق السلطاني: ونادرا ما نجد على طوله، منازل أو جنائن.

–طريق الحمامة: يخترق عين الربط ويوجد بها بطارية مدفعية.(81)

أما محطات المسافرين، فقد ورد أنها توجد بالطرق المؤدية إلى المدينة محطات خاصة بالمسافرين وهي غالبا ما توضع تحت رعاية أحد الأولياء الصالحين، وبكل محطة توجد أشكال معمارية عبارة عن قبة، عين مائية، حوض مائي، ومقهى.[82]

وفيما يتعلق بملاجئ الفقراء والهاربين فقد ذكر ديفولكس ملجأ بوطويل، وهو عبارة عن حجرة طويلة وضيقة، يأوي إليها فقراء المنطقة وكذا الهاربين، ويتكرم المحسنون بإطعامهم. وفي النهار، كان يستخدم الملجأ كمقر للأشخاص الذين يحفرون القبور بمقبرة باب الواد.[83]

وفي الختام، نلاحظ أن الاستقرار البشري بأرياف الجزائر خلال العهد العثماني كان هو المهيمن مقارنة بالترحال الدائم، الذي حاول المنظرون الفرنسيون الاستعماريون تبريره في الجزائر تحت كنف الحكم العثماني. ونحن لا ننكر ظاهرة الترحال وإنما كان ترحالا نصفيا، أي مؤقتا وموسميا، بمعنى أن القبائل الجزائرية المستقرة بالهضاب العليا في العهد العثماني جمعت بعضها، بين الاستقرار والترحال مثل قبائل الشاوية. أما الترحال الدائم فهو محصور في قبائل التوارق في أعماق الصحراء.

وبالتالي حاولنا، أن يحقق هذا الفصل معناه وأهدافه العلمية، من خلال رسم صورة عامة للريف بالجزائر العثمانية واستخلاص الكم المعتبر للقرى الجزائرية سواء بالجبال أو السهول التلية أو بالصحراء، هذه القرى التي كانت تقوم بوظائفها كمراكز حضرية ريفية، في مجال التسيير الإداري والاقتصاد والثقافة، وتتكامل مع المدينة.

ولما كان موضوع الريف بالجزائر العثمانية موضوعا واسعا ومتشعبا، فقد لا حظنا أن العديد من الدراسات التاريخية المتخصصة قد تناولت الموضوع حسب منهج دراسة الحالة، لذلك ارتأينا أن نركز في هذا الفصل على فحص مدينة الجزائر باعتباره مركزا ريفيا حضريا وطيد الصلة بالمدينة التي درسناها في الباب الأول، وحاولنا إبراز المجهود التخطيطي العمراني للعثمانيين كحكام للبلاد في الفترة الحديثة، فوجدنا أن فحص الجزائر كان فعلا بؤرة حضرية متأثرة بالثقافة الحضرية لمدينة الجزائر، فأبراجه وبطارياته موزعة بطريقة محكمة، هدفها حماية المدينة من الاعتداءات مهما كانت وجهتها، وشبكته المائية مصممة بما يخدم سكان الفحص وسكان المدينة على السواء، ومساجده وزواياه موزعة حسب توزع الثقل البشري للفحص، كما كان الفحص فضاء، لما لا يمكن، للمدينة تحمله وهي مسورة من جميع الجوانب، كالمقابر العمومية والمزبلة والورشات الحرفية والصنائع التي تنعكس سلبا على المجال البيئي الحضري. وحينها خلصنا إلى

نتيجة مفادها أن لا مدينة بدون فحص، والفحص الريفي لا يمكن له أن يكون حضريا إلا إذا تشبع بثقافة حضرية مدينية، وأن الفحص ما هو إلا امتداد للمدينة، بينهما علاقة تأثير وتأثر.

الهوامش:

(1) السويدي، محمــد. **بدو الطــوارق بين الثبات والتغير " دراسة سوسيو انثربولوجية في التغير الاجتماعي"** .المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986. ص 32.

(2) **المرجع نفسه**. ص ص 33-35.

(3) هاينريش، فون مالتسان. **المرجع السابق، ج1**.ص 69.

(4) رحلة الحاج بن الدين الأغواطي ترجمها عن العربية إلى الانجليزية هودسون ويليام HOUDSON WILLIAMقنصل الولايات المتحدة الامريكية بالجزائر، والمراسل الأجنبي للجمعية الأسيوية بلندن ليقوم الدكتور سعد الله أبو القاسم، بترجمة النص الانجليزي للرحلة إلى اللغة العربية، ويعد بذلك نصها العربي الأصلي مفقودا.

(5) أبو القاسم، سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990. ج2. ص 262.

(6) تتكرر لفظة "الأوطان الريفية" بالجزائر العثمانية ومفاد ذلك أن الإدارة العثمانية جعلت كل وطن ريفي يشتمل على مجموعة من القبائل المتحدة فيما بينها يشرف عليها إداريا وسياسيا موظف يدعى "القايد" يعينه الداي بدار السلطان أو الباي بالبايليكات الأخرى، وكل قبيلة من هذه المجموعة المتحدة تتفرع إلى دواوير وكل دوار يحكمه شيخ الدوار، ويتوسط بين شيوخ الدواوير والقايد شيخ الشيوخ أي شيح الاتحاد القبلي.
L’abbé Edmond Lambert **OP.CIT**.Paris, pp.225, 333.

(7) مؤلف مجهول. **رسالة في أخبار قسنطينة وحكامها**. مخطوط مودع بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 2717، ورقة 01 (أ).

(8) أرجع الكاتب الفرنسي لامبير سكنى البربر للجبال بدءا من الفتح الإسلامي الذي ينعته غزوا

(9) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 99

(10) أبوالقاسم، سعد الله. "كعبة الطائفين، مخطوط جزائري من القرن السابع عشر". المجلة التاريخية المغربية، **العددان 7-8، 1977، ص 64**.

(11) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**. ج2، ص. 102.

(12)شالر، وليام. المصدر السابق. **ص 114**.

(13) L’Abbé Edmond Lambert.**Op.Cit**.pp.327-329.

(14)حملاوي، علي. **نماذج من قصور منطقة الأغواط –دراسة تاريخية وأثرية–** المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006. ص.32.

(15) L’Abbé Edmond Lambert. **Op.cit**. p.43.

(16) أبو القاسم، سعد الله. أبحاث وآراء ...**المرجع السابق** .ص.257.

(17) **المرجع نفسه**.ص 257.

(18)**المرجع نفسه**.ص 258

(19) **المرجع نفسه**. ص 256

(20) **المرجع نفسه**. ص 258 .

(21) **المرجع نفسه**. ص 260.

(22) **المرجع نفسه**. ص 264

(23) **المرجع نفسه**. ص 252.

(24) **المرجع نفسه**. ص 252.

(25) **المرجع نفسه. ص 253.**

(26) **المرجع نفسه**. ص 254.

(27) **المرجع نفسه**. ص 255.

(28) **المرجع نفسه**. ص254.

(29) شالر، وليام. **المصدر السابق**، ص ص. 110-112.

(30) L'Abbé Edmond Lambert.**op.cit.** p.333.

(31) Laugier de tassy. **op.cit.**p.45.

(32) L'Abbé Edmond Lambert. **op.cit**.p.41

(33) شوقي، عبد المنعم. **مجتمع المدينة –الاجتماع الحضري**- دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة السابعة، 1981. ص 27.

(34) هاينريش، فون مالتسان .**المصدر السابق** .**ج1**.ص 169.

(35) Rinn Louis. **Le Royaume D'Alger sous le dernier dey**. Présentation de Abderahmane Rebah. Editions Grand D'Alger livres, 2005. p.32.

(36) Saidouni, Nacereddine. **L'Algérois Rural à la fin de l'époque ottomane (1791-1830).** Dar Al –Gharb Al-Islami, Beyrouth, 2001. pp.17-18.

(37) Saidouni, Nacereddine**. Op, cit**., pp.18-23.

(38) **Ibid**., P.59

(39) ستي تاكليت: نسبة إلى ولية أو مرابطة أمازيغية، سمراء اللون.

أربع وعشرين ساعة : تسمية أطلقها بوتان ولا ندري سبب التسمية.

العلج علي : تسمية أطلقها عليه هايدو.

باب الوادي: تسمية أطلقها عليه سكان المدينة لأنه قريب من باب الواد بمسافة مائتين وخمسين مترا.

(40) الزوبية :كلمة محلية تعني المزبلة العمومية بفحص مدينة الجزائر.

(41) ديفولكس، ألبير. **خطط**...**المصدر السابق**، ص ص. 102-115.

وأيضا: درياس، لخضر. **المدفعية**...**المرجع السابق**، ص ص.90-98.

(42) درياس، لخضر. **المدفعية**...**المرجع السابق**، ص ص.100-103.

(43) تامنفوست ورأس تافورة: تسميتين بربريتين تعني الأولى، الساحل الشرقي، والثانية رأس الخروج.

(44) Comité du vieil Alger **.op cit, Tome II**.pp.88-91.

(45) ديفولكس، ألبير.**خطط**...**المصدر السابق**، ص.121.

وكتب دلفان Delphin مقالا حول هذا البرج انظر:

Delphin (G). « Le Fort Bab Azoun. » **In R.A**, 1904.

(46) ديفولكس، ألبير. **خطط**...**المصدر السابق**، ص ص.124-125.

(47) ديفولكس، ألبير .**خطط**...**المصدر السابق**، ص ص.118-119.

(48) مولاي حسن هو الباشا الذي بنى البرج بعد نجاحه في مقاومة حملة شارلكان، والإمبراطور نسبة إلى الامبراطور شارلكان Charles quint الاسباني الذي أقام حصنه بالمكان أي كدية الصابون، والسلطان قلعسي لفظة تركية تعني قلعة السلطان.

(49) ديفولكس، ألبير. **خطط**...**المصدر السابق**، ص ص. 116-117.

وأيضا: درياس، لخضر. **المدفعية**...**المرجع السابق**، ص ص.104-112.

(50) ورد هذا الوصف في : شريط عبد الله، الميلي محمد مبارك. **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985. ص.183.

(51) علي خوجة، علي. " فحص الجزائر وجنائنه". **دراسة منشور ضمن كتاب: القصبة، الهندسة المعمارية وتعمير المدن**، ديوان رياض الفتح، الجزائر، الطبعة الأولى، 1984. ص ص.41-46.

(52) Comité du vieil Alger. **Op. Cit. Tome II**.p.75.

(53) **Ibid**. pp.82-86.

(54) **Ibid**..pp 95-96.

(55) أنظر الملحق السابع الخاص بجنائن فحص مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

(56) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger. » **In Revue Africaine,** 1863, p.113.

(57) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger. » **In Revue Africaine,** 1863, p.189 .

(58) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger.-Appendice- » **In Revue Africaine,** 1870, p.287.

(59) **Ibid.**, p.288.

(60) Devoulx, Albert «Les édifices religieux de l'Ancien Alger. » **In Revue Africaine,** 1863,pp.177-178.

(61) تلاوملي أو تيلملي : تسمية بربرية تعني العين البيضاء.

(62) Comité du vieil Alger. **Op. Cit. Tome II**..pp 31-35.

(63) شالر، وليام، **المصدر السابق**، ص. 105.

(64) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op. Cit.** p.244.

(65) سبنسر، وليم. **المرجع السابق** . ص ص 105-106.

(66) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger.-Appendice- » **In Revue Africaine**, 1870, pp.285-289.

(67) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger. » **In Revue Africaine,** 1863,pp.164-176.

(68) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger. » **In Revue Africaine**, 1863, pp.105-110.

(69) **Ibid**, pp.111-113.

(70) Comité du vieil Alger. . **Op. Cit.Tome II**.p.37.

(71) Halet Katia, Née Khaled Khodja. **La Villa Rais Hamidou –Un élément de permanence à sauvegarder-** Mémoire de Magister, E.P.A.U., Alger. P.91.

(72) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية** ...**المرجع السابق**، ص.414.

(73) Saidouni, Nacereddine. **Op. Cit**. pp.67-69.

(74) الزبوجة هي شجرة زيتون بدون تطعيم.

(75) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية** ...**المرجع السابق**، ص ص.405-413

(76) Halet Katia, Née Khaled Khodja. **Op. Cit** . P.91.

(77) Saidouni, Nacereddine. **Op. Cit** .p.224.

(78) **Ibid**, pp.219-220.

(79) ديفولكس، ألبير . **خطط مدينة الجزائر**...**المصدر السابق**، ص.269.

(80) Gaid, Mouloud. **Op. Cit**. P. 190.

(81) Comité du vieil Alger. **Op. Cit. Tome II**.p.37.

(82) مسلم، ليليان. **المرجع السابق**. ص.28.

(83) Devoulx, Albert. «Les édifices religieux de l'Ancien Alger. » **In Revue Africaine,** 1863,p.191.

الفصل الثاني

مجتمع الريف بالجزائر

في أواخر العهد العثماني

من مصاعب دراسة المجتمع الريفي بالجزائر العثمانية، غياب الإحصاءات حول سكان الأرياف الجزائرية، وندرة المعلومات حول الحياة الاجتماعية الريفية، كما لاحظنا أن جل الدراسات التاريخية التي طرقت موضوع الريف الجزائري في العهد العثماني، قد تناولته، بالتركيز على العموميات، وتجنبت دراسة حالات من التجمعات الريفية.

وهكذا وجدنا أنفسنا أمام مجتمع ريفي عبارة عن زخم من القبائل، وشعوب وافرة منها البربرية ومنها العربية، تصاهرت فيما بينها واختلطت مع بعضها البعض في السكن، ويعسر على المرء أن يميز بينها. كما اختلفت في حياتها المعيشية ونشاطاتها عن مجتمعات المدن، فشكلت عندئذ نمطا حضاريا خاصا بها، يحمل خمسة مظاهر تميزه عن مجتمع المدينة، نذكرها كالآتي:

-استمرار السلوك الاجتماعي وتناقله من جيل إلى آخر.

-تحكم الأعراف في السلوك الاجتماعي.

-بساطة النسق الاجتماعي الذي يؤثر بالتدرج الثابت في العلاقات الاجتماعية الأساسية.

-عادة ما يكون وضع الفرد في المجتمع الريفي التقليدي موروثا أكثر منه مكتسبا، وبالتالي فهو يرفض كل ما هو جديد ويتمسك بالنماذج الموروثة.

-انخفاض الإنتاجية الاقتصادية مقارنة بمجتمع المدينة .(1)

وعلى هذا الأساس نحاول في هذه الدراسة تقديم صورة مبسطة عن المجتمع بأرياف الجزائر في أواخر العهد العثماني، بهدف فهم بنيته وحركيته واستنتاج ما يجعله مختلفا عن مجتمع المدينة الجزائرية، وفي الوقت ذاته ما يجعله مفيدا لها والعكس صحيح.

أولا-الإطار القبيلي للمجتمع الريفي بالجزائر العثمانية:

1-القبيلة الجزائرية: مفهومها وبنيتها.

عرف المؤرخون القبيلة أنها اتحاد فيدرالي لمجموعة من الفرق، يدعي أفرادها أنهم ينحدرون من جد واحد مشترك، ينسجون حول شخصيته الأساطير، لكن الواقع يبدو أكثر تعقيدا من هذه الصورة المبسطة، إذ يجب أن نترك جانبا أمر القرابة الدموية، لأن القبيلة هي في حقيقتها تجمع سكاني متعدد الأصول، أما شجرة النسب داخل القبيلة فهي محاولة بناء نظري بحت.

ويبدو من المفيد أن نطرح جانبا أمر القرابة الدموية في تعريف القبيلة الجزائرية، ذلك أن في المناطق السهبية والصحراوية مثلا نجد العائلات التي تكون القبيلة ترجع إلى أصول مختلفة،

ويكون الاسم الذي يطلق على القبيلة، غالبا، هو نفسه اسم الفرقة المكونة لها والذي فرضته على العائلات والفرق الأخرى.

وهذا النوع من القبائل نادرا ما يقع في منطقة التل فلا يظهر إلا عندما تتحد بعض العائلات لتحقيق أغراض معينة كالاحتفالات والحروب.

والقبيلة خاضعة للتطور، فهي تكبر بالتحالف مع قبائل أخرى أو بغير ذلك، حتى تغطي منطقة بكاملها، وتصبح قوة سياسية وعسكرية يحسب لها، لأن أفراد القبيلة كانوا كلهم محاربين، وهؤلاء الفتيان المحاربون في القرى، هم بمثابة الأسوار في المدن.

وعليه فالقبيلة بهذا المفهوم، تتشكل من عائلة موسعة، انضمت إليها عائلات أخرى من أجل الدفاع عن مصالح مشتركة، وكلما كانت المجموعة على جانب من القوة، كلما زاد عدد العائلات التي تدخل تحت لوائها، وتتعزز الروابط داخل هذه المجموعة بفعل المصاهرة.(2)

وتعتبر الأسرة الخلية الأولى للقبيلة، وانطلاقا من الأسرة يتم تمجيد سلطة الأب المسلم، ثم يليها العائلة التي يقف أفرادها أمام سلطة أحدهم، وهذا الاجتماع حول سلطة شخص معين، ينمو ليؤلف مجتمع القبيلة، ويمكن للقبيلة الواحدة أن تتوسع وتتقوى إذا استمالت عائلات أخرى لا تمت لها بقرابة دموية أو حتى أجنبية عنها، فيقع عندئذ التحالف والالتفاف حول العائلة الرئيسية.

وتعيش القبيلة كالدولة، بتاريخ وطني تعبر عنه بعاداتها، وبتحالفات مستقرة وثابتة، وبخط سياسي واضح ومضبوط، وبراغماتية نفعية وإدراك للمصالح العامة.(3)

وما يميز القبيلة من الداخل هو روح التضامن ضد القبائل المجاورة في حالة قيام منازعات، وتلعب النبالة دورا في ذلك، حيث تعتبر كل العائلات النبيلة داخل القبيلة عائلات متحدة فيما بينها، وما يوحدها أكثر هو الروابط الدموية.

وصنفت الدراسات التاريخية القبائل الجزائرية في العهد العثماني إلى :

-قبائل حافظت على قوتها، عددا وعدة.

-قبائل ذائبة في قبائل أخرى أي أنها لا تزال قائمة لكنها فقدت استقلالها بفعل تضاؤل عددها وعدتها، فهي قبائل مستضعفة ومغلوبة على أمرها.

-قبائل مندثرة.(4)

وذكر لوجي دي تاسي أن القبائل مركبة من زخم من العائلات الريفية، نميز بينها بأسماء المناطق والجهات التي تسكنها، وأحيانا بأسماء أجدادهم الذين ينحدرون منهم.(5)

وتنقسم القبيلة إلى عدة بطون حسب أهميتها، وقد تعددت تسميات البطون عند العرب فنجد القسمة، الفرقة أو الرباعة، الفخذ أو الخمس، وتدار القبيلة من طرف أفراد ينتسبون إليها وتبسط سيادتها على الأرض التي تستقر عليها.[6]

أما عند القبايل فتذكر المصادر الفرنسية القبيلة أو العرش، وكل عرش أو قبيلة يتفرع إلى الفرقة والخروبة، أو الفخذ أو العرق، وتنقسم هذه الفرقة بدورها إلى الدشرة، أو القرية.

ويأتي هرم القبيلة في اللهجة البربرية كالآتي:

-العرش أو القبيلة يمثل جسم الإنسان.

-الفخذ أو العرق يمثل أعضاء أو عروق الجسم.

-الدشرة تمثل أصابع اليدين والقدمين.

2-قبائل وأعراش الجزائر العثمانية وعلاقتها بالسلطة التركية العثمانية:

أنجز لوي رين Louis Rinn جدولا مفصلا، وزع فيه القبائل الجزائرية في عهد الداي حسين، آخر دايات الجزائر العثمانية، على حسب علاقاتها بالحكم العثماني، وبالتالي فالتقسيم كان على أساس سياسي، فحدد لنا قبائل مخزنية وقبائل رعية وقبائل وقبائل حليفة وقبائل مستقلة، كلها تمثل وحدات اجتماعية شكلت بنية المجتمع الريفي في الجزائر في أواخر العهد العثماني، وبيان ذلك كالآتي:

أ-قبائل وأعراش المخزن:

تعتبر قبائل وأعراش المخزن طائفة اجتماعية تشد الحاكم إلى المحكوم، وتخدم مصالح الطبقة الحاكمة على حساب سكان الريف، وهي بمثابة الطبقة الوسطى في الريف، تماثلها فئة الكراغلة بالمدينة، وقد تحولت تدريجيا من حياة الترحال الموسمي إلى حياة الاستقرار الدائم، متجمعة في شكل دواوير من الخيام والقرابي في السهول والمراعي.

لقد اكتسبت قبائل المخزن كيانا مستقلا، بفعل امتيازاتها[7] مقابل مشاركتها في صد الهجمات الأجنبية على سواحل الجزائر، وكذا المحلات العسكرية لاستخلاص الضرائب أو لقمع القبائل العاصية.

وقد توزعت القبائل المخزنية في نقاط استراتيجية تمكنها من مراقبة تحركات القبائل الأخرى الغير مخزنية، فمثلا نجدها حول الأبراج والحصون الريفية، وعند مخارج المدن، والممرات الصعبة والجسور والقناطر الرئيسية، وبجوار الأسواق الأسبوعية الرئيسية، وعلى مقربة من الطرق

السلطانية، وفي المواضع التي تمر بها المحلات العسكرية، وفي الأماكن الثائرة والمواقع المهددة بالغزو الأجنبي، وهذا على امتداد مقاطعات البلاد الجزائرية.(8)

وفيما يلي رصد لأسماء القبائل والأعراش المخزنية بمختلف المقاطعات الجزائرية في أواخر العهد العثماني، اعتمادا على لوي رين.

أ-1-القبائل والأعراش المخزنية بدار السلطان:

-القبائل المخزنية المحاربة:

*مخزن سهل حجوط: يسكنه خليط من الأجواد والمزارعين وكبار موظفي قصر الداي، وهو تحت سلطة خوجة الخيل، قدرته العسكرية تصل إلى ألف فارس مخزني.(9)

*مخزن سوماتة: سوماتة منطقة جبلية وغابية، اشتهرت قبيلتها القوية العدد والعدة بتمردها ضد الحكم العثماني، ومنذ أن قمعها الباي محمد الكبير سنة 1792 بأمر من الباشا حسن، صارت قبيلة مخزنية.

*مخزن بوحلوان بحمام ريغا.

*مخزن موزاية بالشفة.

*مخزن الزواتنة.

*زمالة بن هارون وحرشاوة.

*زمالة عبيد أقبو وزمول يسر.

*زمالة شعبة العمر.

*مخزن سيباو أو العمراوة.

*زمالة عين الزاوية أو زمالة بوغني أو زمالة القشتولات.

*زمالة ايترليون.

*مخزن عريب الكبير.

*مخزن بني جعاد.

*مخزن بني سليمان.

-عائلات المزارعين والأجراء المخازنية.

*يمثلون عائلات معزولة ويمتلكون إقطاعيات من الأراضي الزراعية ويكثر عددهم بسهل متيجة.(10)

أ-2-القبائل والأعراش المخزنية بايليك التيتري:

-الأعراش المخزنية المحاربة:

*مخزن البرواقية: ويضم، مجموعة الزنبطوط، التي انخرط فيها كراغلة غير متزوجين، للمشاركة في محلات جمع الضرائب، ومخزن الدواير المتكون من أربعة أعراش،[11]

*مخزن صبايحية التيتري:

ويضم عرشي أولاد دباب وأولاد عثمان المستقرين ببوغار واللذان يحظيان بالنبالة العسكرية.

*عرشي المعاقيف وأولاد سيدي عامر، اللذان يزودان الداي بمدينة الجزائر بالحراس المسلحين،ويبعثان بالمقاتلين إلى برج حمزة (البويرة حاليا).

*عرش أولاد بوعيش، بقصر البخاري حاليا، والذي تحول إلى صبايحية سنة 1825، بأربعمائة فارس.

*مخزن أولاد شعيب وهم من الأجواد، وقد تحالفوا سنة 1825 مع عرش أولاد الشيخ وهم من الأشراف، وعرش مقان.[12]

-الأعراش المخزنية الزراعية:

*مخزن غريب وبني راشد.

*مخزن مامورة.

*مخزن الزناخرة.

*مخزن سلامات.

وجميع هذه الأعراش المخزنية الزراعية بالتيتري خاضعة مباشرة لسلطة خوجة الخيل لأنها مكلفة بحراسة مزروعات ومواشي الداي، لكن ننبه أن مخزن سلامات أصبح سنة 1830 عزل مرتبط بمدينة الجزائر.[13]

أ-3-القبائل والأعراش المخزنية بايليك الشرق :

-المخزن المحارب:

*دايرة خليفة الباي.

*مخزن الحراكتة: يخضع لسلطة قائد العواسي، وهو يضم أربعة مجموعات، مجموع قبائلها اثنين وثلاثين قبيلة صغيرة، وأغلبهم يشكلون القوة العسكرية لقائد العواسي الذي كان مقربا ومستشارا لباي قسنطينة، الذي كان تحت تصرفه ثلاثمائة فارس احتياطي، ويمكن لمخزن الحراكتة أن يمده في أي وقت من الأوقات بأربعمائة فارس قومية.

*دواير الآغا: وتتوفر على ألف فارس تحت إمرة ثلاثون شاوشا. و تضم أربع دواير .

* الزمول: يتوفر على خمسمائة فارس متمرس ، تحت إمرأة قائد تركي بعين مليلة.

* أولاد عبد النور : قبيلة صبايحية كبيرة، قوامها ألف فارس ، تحت إمرأة قائد تركي .

*التلاغمة : قبيلة صبايحية ، قوامها مائة فارس .

* دمبر و عرب شتايعة : مكلفة بضمان البريد بين الصحراء و قسنطينة، و تمارس دور الشرطة بين القبائل البدوية .

* عالمة مسلة : تتوفر على خمسين من المخازنية ، تابعين للكاتب الرئيسي .

* ساحل ستورة أو بني مهنّة : تتوفر على خمسين فا رسا.

* ساحل سكيكدة : ماوية و أولاد عطية : مائتين فارس لحراسة الطريق .

* مخزن القرفة : مائتين فارس تحت إمرة قايد القرفة .

* دايرة العزل لأولاد دحاب : خمسة و عشرون فارسا .

* زمالة العصامنية : وهم من الكراغلة، و هي من مدينة سطيف و ضواحيها في العهد الفرنسي .

* غرازلة الغرابة: خمسة و عشرون فارسا.

* مخزن أولاد فاضل : تابع لقايد الأوراس، مئتين فارس .

*مخزن قرية مسيلة: وبها عدد كبير من الكراغلة، ولا توجد بها نوبة عسكرية.

* صحاري شيخ العرب : قوامها حوالي ثمانمائة فارس. { بعين توتة }. و بضم ستة قبائل.

* مخزن أولاد يليل، بالبويرة حاليا.(14)

-مخزن المزارعين والموظفين:

*عزل عامر الشراقة: يتمركز هذا المخزن الزراعي بفحص مدينة قسنطينة، وهو تابع لقصر الباي.

*عزل أولاد كباب.

*عزل ميلة.

*موية بالميلية.

*قرمودة وزواغة القبلية.

*أولاد بن قرات.

*أولاد القطن.

*واجل.

*شطابة.

*عزل بني هارون.

*واد رومل.

*أولاد بلكحل البرانية.

*بني حمدان وتكوك وحويمر.

*أولاد ابراهيم.

*عزل سمندو، مسونا، مشمس، وسوحالي.

*عزل القرفة.

*سدراتة، بني سالم، وأولاد دراج.

*مخالفة.

*واد بسباس.

*تريت.

*عامر الغرابة، بفحص سطيف المدينة التي بناها الفرنسيون.(15)

أ-4-القبائل والأعراش المخزنية بيايليك الغرب:

-القبائل والأعراش المخزنية المحاربة:

*مخزن آغا الدواير: ويشتمل على أربع مجموعات هي: الدواير، قمرة، أولاد بوعامر، أولاد سيدي مسعود، أولاد عامر، وأولاد عبد الله.

*مخزن آغا الزمالة: ويضم الزمالة، حميان المالح، الونازرة، القدارة، مخاليف، ووردية.

*مخزن الغرابة، أو عبيد الغرابة: بتليلات.

*مخزن الدرادب.

*مخزن حشم دروغ.

*برجية السيراط أو مستغانم، ويضم أربع قبائل.

*برجية الجبايلية.

*سجرارة.(16)

*عكرمة الغرابة.

*مخزن المكاحلية، ويضم خمسة قبائل.

*أولاد أحمد.

*السحاري بوادي مينا.

*المحال.

*أولاد سلامة.

*دواير فليتة.

*فليتة بوعلي.

*الحشم، يتكون هذا المخزن من: حشم الشراقة، الذي يضم خمس مجموعات محاربة، وحشم الغرابة الذي يشتمل على أربع مجموعات.

*أولاد رياح.(17)

-مخزن القطاع الشرقي لبايليك الغرب:

*مخزن بني فاطم بجندل، وهم صبايحية آغا العرب ومجموعاته هي : أولاد عفيف، بني فاطم، وأولاد سيدة.

*دوي حسني.

*أولاد خلوف.

*بني يحي أو الزمول أو عطاف الواد.

*أوزغرة أو زمالة واد وقناي.

*عبيد عين الدفلى، والمكاحلية، وعبيد سدرة.

*دايرة السحاري.

*زمالة واد الفضة.

*صبايحية أو حشم الشلف.

*حشم واد دردور..(18)

-القبائل والأعراش المخزنية الزراعية:

*أولاد خالفة، وهم مكلفون بحراسة قطيع الماشية التابع للبايليك ومخزن الدواير.

*أولاد زاير.

*بطيوة وأرزيو.

*أولاد صابر، وهم مكلفون بتربية خيول البايليك لفائدة المخزن.

*دوادجية وعتبة الجمالة، قبيلة صحراوية مكلفة بالعناية بمربي الجمال التابعة للبايليك.

*فراقة، قبيلة مخزنية مكلفة بتجهيز عتاد الرحلات الرسمية للباي وخليفته وكذا أغواته.

*الزهالدية، وهم مزارعون تابعون لآغا الزمالة.

*عتبة الجلابة وأهل الهبرة، وشارب الريح، وبطن الواد، كلهم مزارعون ورعاة تابعون للبايليك.

*بني شغران، وهم خاضعون لآغا الزمالة، كلفوا بحراسة أمتعة المحلات العسكرية، عندما تجوب أرياف بايليك الغرب، كما تقوم بالبريد وتوزع المؤونة وتسخر البغال وتصلح البنادق وغيرها من الخدمات لفائدة السلطة التركية العثمانية ومخزنه المحارب.

*مخزن قرية بني مسطور، وهي قرية بفحص مدينة تلمسان، سكنها الخماسون والمزارعون التابعون للأتراك والكراغلة بتلمسان.(19)

ب-قبائل وأعراش الرعية:

عاشت قبائل الرعية حياة التعاسة والشقاء في ظل سياسة عثمانية مستبدة ، فهم مرتبطون بالأرض وتربية الماشية فقط، في سهول مقفرة ومناطق جبلية وواحات نائية، بعد أن حرموا أو هجروا من المناطق الزراعية الخصبة، وما يلاحظ على قبائل الرعية أنها اتخذت موقفا سلبيا تجاه الأتراك والمخزن وأضحت لا تستجيب لأي عمل جماعي أو أمر حكومي، همها الوحيد انتظار وتوقع الحملات الانتقامية للمخزن وما تتسبب فيه من نهب للثروات ومصادرة الأراضي.(20)

وذكر أبو القاسم سعد الله أن قبائل الرعية كانت محل استغلال سلطتين أرست قواعدهما الحكومة العثمانية:

-السلطة الروحية المتمثلة في المرابطين وأهل الطرقية والصوفية حيث كانت الرعية تتزلف إليهم، وتحتمي بهم وتطلب بركاتهم وعونهم.

-السلطة الدنيوية ويمثلها شيوخ القبائل وقواد العشائر وخلفاء البايات وجنود المحلات وغيرهم من أصحاب الحكم والنفوذ، وكان الجميع متعاونين على استغلال قبائل الرعية المستضعفة إلى أقصى حدود الاستغلال.(21)

وقدم لنا استرهازي قائمة بأبرز ما يقدم في شكل لزمة عينية للمخزن وسلطة البايليك الغربي من قبل قبائل الرعية بالجنوب الغربي للجزائر العثمانية، فعدد ما يلي:

*العبيد ذكورا وإناثا.

*الجلود والأصواف والزرابي وأغطية للأحصنة.

*الأغنام والجمال.

وإلى جانب هذه اللزمة العينية هناك لزمة نقدية من قطع فضية، ناهيك عن الضرائب الدينية التي أمر بها الشرع الإسلامي المتمثلة في الزكاة والعشر.(22)

ب-1-قبائل وأعراش الرعية بدار السلطان:

*وطن الفحص: وتضم سبعة أحواش زراعية، هي حوش زواوة، بوزريعة، بني مسوس، عين زبوجة، بئر خادم، القبة، والحامة.

*وطن بني خليل: ويشتمل على أربعة عشر بين قرى وأحواش زراعية.

*وطن وادي السبت: ويضم خمسة تجمعات قبيلية أو أحواش زراعية.

*وطن بني مسوس: ويضم أربعة عشر تجمعا ريفيا .

*وطن الخشنة: يضم ستة عشر تجمعا ريفيا.

*سهل خشنة: ويضم اثني عشر تجمعا ريفيا.

*جبل خشنة: ويضم خمسة تجمعات ريفية.

*وطن يسر

*وطن آيت تور أو بني تور.

*قبيلة بني سليم بتادلس.

*قبيلة بني صالح بضواحي البليدة، التي تتجمع حول زاويتين هما زاوية سيدي الكبير وسيدي الفضيل.(23)

ب-2-قبائل وأعراش الرعية بابايليك التيتري:

*عرشي أوزرة وبني عيش.

*قبائل هوارة.

*قبائل ريغة بالمدية.

*قبائل الحنانشة وأوعامري بجندل.

قبائل البرواقية وتضم قرية مدالة، وبني يعقوب، وأولاد سيدي ناجي، وأولاد دايد، وأولاد حديم، وبني حسن، وربايعية، وقبيلة حسين بن علي.

*قبائل قصر البخاري: وتضم أولاد معارف، مفتاح، دايمة السواري، وأولاد علان.

* أولاد فرحة، أولاد ايخلف، أولاد بركة، أولاد بواريف، أولاد مريم، مخزن الجواب، ومخزن قصر الشلالة.(24)

ب-3-قبائل وأعراش الرعية بابايليك الشرق :

*عامر الشراقة بعين مليلة وتضم العديد من العزل.

*ساقنية.

*دريد.
*ساحل سكيكدة وهناك ستة قبائل رعية، وقبيلتين من المخزن.
*كرارب سلاوة.
*قيادة القرفة.
*ساحل عنابة وايدوغ.
*سكان قرية تبسة وضواحيها.
*قيادة عامر الغرابة.
*أولاد دحاب.
*علمة البزور.
*أولاد دراج الغرابة.
*كسنة.
*نايت حمزة بعين بسام.(25)

ب-4-قبائل الرعية ببايليك الغرب :

-رعية آغاليك الدواير والزمالة.

*قبيلة تحلايت المرابطية البربرية.
*قبيلة مجاهر: كانت في السابق قبيلة مخزنية ثم تحولت إلى قبيلة رعية سنة 1808، بعد قيامها بانتفاضة ضد سلطة الباي، وتشتمل هذه القبيلة على سبعة نجوع.
*اتحاد قبائل فليتة، بزمورة، ويتكون من أربعة قبائل هي: فليتة المحال بأحد عشر نجعا، وفليتة الشرفة نسبة إلى سيدي بن يحي الشريف، بستة نجوع، وقبيلة العناترة، وقبيلة الحرارتة.
*بني زدمة بفرندة، ويضم أربعة نجوع.
*قبيلة خلافة الشراقة والغرابة بفرندة.
*قبيلة بني جندل بفرندة.
*قبيلة هوارة بثلاثة نجوع بفرندة.
*دوي نجاد أو كسانة بفرندة التابعة لآغا الدواير، وهي قبيلة منتسبة إلى المرابط سيدي عبد القادر أبو اليل، وإليها ينتمي الدرقاوي الثائر عبد القادر بن الشريف، ضد باي وهران بين 1800-1813.
*اتحاد قبائل الصحاري أولاد خليف بتيارت حاليا، ويضم هذا الاتحاد ثلاثة قبائل.

*قنادجة أو أهل قوجيلة.

*اتحاد قبائل أولاد شريف بتيارت، ويضم ثلاثة قبائل.

*قبيلة عويسات بتيارت.

*قبيلة أولاد بوغدو بتيارت.

*أولاد مسعود بتيارت .

*أولاد فارس بتيهرت .

*عكرمة القبلية وأولاد بن عفان وبني مدين بتيهرت.

*قبيلة أولاد عوف بكاشرو.

*قبائل، بني منيارين، أولاد خالد، ذوي ثابت، بمنطقة سعيدة حاليا.

*قبيلة كرايمية.

*قبيلة شرفة القتارنية.

*اتحاد قبائل بني عامر، ويضم حوالي ستة عشر قبيلة.

*قبيلة أولاد سيدي خليفة.

*قبيلة ذوي ثابت بسعيدة.

*وطن سهل تلمسان.

*اتحاد قبائل ذوي يحي، ويضم خمسة قبائل.

*اتحاد قبائل ترارة الخاضع لآغا الدواير، ويضم تسعة قبائل بين منطقتي الرمشي وندرومة بضواحي تلمسان.

*اتحاد قبائل ولهاصة، بالرمشي وهو اتحاد قبيلتين، تخضعان لقائد البلد بتلمسان.

*اتحاد قبائل غسيل، ويتكون من أحد عشر قبيلة.

*وطن الجبل بتلمسان، ويضم ثمانية قبائل.

*رعية فحص مدينة ندرومة.

*قبيلة أولاد أورياش طافراوة بسبدو حاليا.

*قبيلة بني هديل بسبدو حاليا.[26]

-رعية خليفة باي وهران على القطاع الشرقي:

*قبيلة سهل الهراوات بثنية الحد.

*اتحاد قبائل بني زوقزوق، ويضم ثمانية قبائل متحدة.

*قبيلة بني شعيب.

*قبيلة بني مايدة.

*قبيلة بني بوحطاب.

*قبيلة خبازة الطايبين.

*اتحاد قبائل العطاف، ويضم ستة قبائل متحدة.

*اتحاد قبائل براز، ويجمع اثني عشر قبيلة ويسير شؤون الاتحاد القبلي ثلاث عائلات تنتمي إلى العائلات النبيلة، وهي: عائلة أولاد عبد السلام، عائلة أولاد التومي، وعائلة أولاد الحاج رابح.

*قبيلة اولاد فارس بالشلف.

*قبيلة حميس بتنس.

*أولاد كسير.

*بني راشد.

*شوشاوة.

*اتحاد قبائل صبيح، ويضم تسع قبائل متحدة.

*عكرمة الشراقة.

*أولاد خويدم.

*أولاد العباس، ويضم خمسة نجوع.

*اتحاد قبائل بني زروال بالظهرة الغربية، ويضم خمسة قبائل متحدة، وأصبحت رعية منذ 1815.

*اتحاد قبائل مغراوة، ويضم خمسة قبائل.[27]

ت–قبائل وأعراش الأحلاف:

وسميت بالأحلاف لأنها ترتبط بحلف عسكري أو اقتصادي مع السلطة التركية العثمانية أو المخزن، ولا يعدو أن يكون هذا الحلف سوى دعم بالفرسان أو بمواد أولية مثل الفحم، الخشب، الزيت وغير ذلك، مقابل عدم تدخل قوات المخزن والأتراك في شؤونها الداخلية، وعادة ما تكون قبائل الأحلاف عبارة عن قبائل مرابطية، أو تنحدر من سلالة الأشراف، أو هي قبائل قوية وعريقة تدعى بالأجواد، وقد تمارس العديد منها نفوذها على قبائل مجاورة لها.

ت–1–قبائل وأعراش الأحلاف بدار السلطان:

*أولاد سيدي علي مبارك: تستقر هذه القبيلة بضواحي مدينة القليعة، وهي قبيلة مرابطية تمارس تأثيرها على قبائل وطن الفحص، ووطن وادي السبت، ووطن بني خليل.

*قبيلة بني مناد بالمتيجة، وتمد مخزن حجوط المحارب بالفرسان، ويخضعون لمرابطي القليعة.

*قبيلة براكنة المرابطية بضواحي شرشال، وتنتسب إلى اتحاد قبائل بني مناصر البربرية.

*زاوية سيدي سالم: وقد تزعمت اتحاد قبائل بني جعاد المخزني، وهي تمد الأتراك العثمانيين بالمخازنية.

*أعراش أولاد سيدي سالم، وهي قبائل مرابطية، وهم من الأشراف.

*أعراش أولاد ابراهيم، وهم من النبلاء المحاربون.

*أعراش القليعة الشرفاء.

*إتحاد أعراش فليسة: تتزعمه قبيلة بني زموم منذ 1769، ويتكون من أربعة عشر عرشا.

*قبايل بني هني.

*آيت خلفون.

*آيت عزيز.

*اتحاد أعراش آيت واقنوني، ويضم تسعة أعراش متحدة.

*اتحاد أعراش افليسن البحار: ويضم أربعة اعراش.

* عرش آيت غبري بأعالي سيباو: يضم خمسة عشر دشرة.

*اتحاد أعراش المعاتقة.

*عرش ايترونن: ويتكون من ثلاث مداشر.

*عرش آيت خليفة: يشتمل على أربعة مداشر.

*اتحاد أعراش آيت عيسى: وهو اتحاد خمسة أعراش، مجموع مداشرها اثنين وعشرين دشرة.

*عرش زاوية بوهينون وآيت زمترور: يتكون من ثمانية مداشر.

*زاوية آيت اسماعيل وبها ضريح سيدي عبد الرحمن بوقبرين.

*اتحاد أعراش قشتولة: وعددها تسعة أعراش، مجموع مداشرها، سبعة وثلاثون دشرة.

*اتحاد أعراش آيت صدقة: وعددها ثلاثة عشر عرشا، مجموع مداشرها، ثمانية وعشرون دشرة.(28)

ت-2-قبائل الأحلاف ببايليك التيتري:

*أولاد زاوية سيدي أحمد بن يوسف وأولاد سيدي لخضر: وهي متحالفة بالداي مباشرة وشيخ هذه القبيلة يسمى الأمير عند الأتراك.

*قبائل قصر وزاوية سيدي البخاري.

*مشيخة أولاد سيدي عبد الله: وهم أجواد ينحدرون من عائلة المقراني بمجانة.

*قبيلة أولاد سيدي عيسى.

*قبيلة أولاد علي بن داود: وهم من النبلاء العسكريون.

*قبيلة سور الجواب المرابطية

*قبيلة أولاد سي عامر المرابطية.

*قبيلة أولاد سلامات وهي قبيلة في خدمة مشيخة أولاد سيدي عبد الله، وقبيلة أولاد سيدي عيسى.

*مشيخة أولاد مختار. وبها صفين أولاد عدة وأولاد مختار الغرابة.

*قبيلة أولاد سيدي أحمد الرشايقة أو أولاد أحمد بن عيسى.(29)

ت-3-قبائل وأعراش الأحلاف بايليك الشرق:

*قبائل مجانة تحت سيادة عائلة أولاد مقران.

*قبائل آيت شارفة أو أولاد سي عامر بواد الساحل.

*قبيلة ايمشدالن.

*آيت عيسى.

*قبيلة مرخالة.

*قبيلة بني مدور.

*زاوية شلاطة التي ينتسب إليها الشريف بن سيدي، وكان يمثلها سنة 1830 سي محمد سعيد بن علي الشريف الذي كان له نفوذا على قبائل مستقلة بمنطقة أقبو.

*زاوية الشريف المولى بأقبو.

*زاوية سيدي مبارك بن سماتي.

*قبائل ساحل البابور القبلي.

*زاوية رمضان التي ترتبط بالمقرانيين بمجانة.

*ايرخفاون الحليفة لسيدي محمد أمقران.

*مشيخة قصر التير بريغة وهي تحت سيادة عائلة أولاد وافضل.

*مشيخة فرجيوة.

*قبيلة بن عاشور.

*مشيخة زواغة وهي تحت سيادة عائلة بن عز الدين.

*بني فوغال الجيجلية التي مثلتها سنة 1830 عائلة بن حبيلس، وهي تمد المؤسسة العسكرية البحرية بالخشب.

*قبيلة بني قايد جيجل أو دار البطاح، وهي تمون الحامية التركية العثمانية وسكان مدينة جيجل بالفحم والزيت.

*زاوية مولاي الشقفة.

*قبيلة أولاد قاضي.

*مشيخة بلزمة وهي تحت سيادة أجواد أولاد بوعون.

*عرب الغرابة لبيت بن قانة، وهي قبيلة صحراوية متحالفة مع شيخ العرب الرسمي بن قانة- رئيس مخزن الصحاري-

*قبيلة أولاد الحاج مدوكال الصحراوية وهي تحت إمرة سي مقران الحاج سنة 1830.

*قبيلة زاوية الطولقا ببسكرة، الواقعة تحت إدارة سي علي بن عمور، مقدم الرحمانية سنة 1830.

*مشيخة الحنانشة.

*مشيخة المزولة بالقالة، وهي تحت قيادة أولاد دياب، تدفع ضريبة سنوية لشيخ الحنانشة إلى غاية 1826.[(30)]

ت-4-قبائل الأحلاف بايليك الغرب:

-الأحلاف في منطقة حكم مخزن الدواير والزمالة.

*قبيلة أولاد سيدي عبد الله المغوفل، وهي قبيلة مرابطية لها تأثيرها في المنطقة الممتدة بين مستغانم والشلف وبين مينا والظهرة.

*اتحاد قبائل بني مسلم، وتتحد فيه ثلاثة قبائل، تخضع لتأثير زاوية سيدي الشاذلي: قبيلة أولاد بورياح بنجوعها الست بما فيها الزاوية المذكورة، وقبيلة أولاد يعيش بنجوعها السبع، وقبيلة شكالة بنجوعها الخمس.

*قبيلة زاوية سيدي محمد بن عودة.

*قبيلة زاوية أولاد سيدي دحو.

*قبيلة زاوية أولاد سيدي عمار بن دوبة.

*اتحاد قبائل الأحرار، ويضم أحد عشر قبيلة متحدة.

*قبيلة أولاد ميمون بجبل عمور، وتضم خمسة أعراش.

*قبيلة أولاد سيدي الناصر.

*قبيلة أولاد سيدي الشيخ، نسبة إلى المرابط سيدي الشيخ بالبيوض، ولها زاويتان، إحداهما تميل إلى التحالف مع السلطة التركية العثمانية، والأخرى مع المغرب الأقصى. وتتلقى قبيلة أولاد سيدي الشيخ ضريبة الغفارة من القبائل الصحراوية بجنوب ورقلة ومتليلي وجبل عمور والشط الشرقي والغربي وفجيج وواد الساورة وتوات وقورارة وتيدكلت.

وتقيم مجموعتين من القبائل تحالفا مع قبيلة أولاد سيدي الشيخ المرابطية في السلم والحرب هي :

–المجموعة الأولى وتمثلها كل من : قبيلة البيوض سيدي الشيخ، أهل ستيتن، أولاد سيدي الشيخ الشراقة الأجواد، أولاد سيدي الحاج بوحفص، أولاد سيدي الحاج بن عامر، مشرية الكسل، أولاد سيدي سليمان، أولاد سيدي تيفور، غسول، أولاد عيسى، أولاد سيدي أحمد المجدوب، وقبيلة عربوات.

–المجموعة الثانية: وتتمثل في قبيلة أولاد سيدي التاج.

*اتحاد قبائل حميان الشراقة: وهم حلفاء لأولاد سيدي الشيخ، والأتراك العثمانيون، كما يعتبرون متن مريدي الطريقة التيجانية والطيبية والقادرية، بهدف تسهيل تجارتهم عبر القوافل، ويضم هذا الاتحاد أربعة قبائل.

*اتحاد قبائل الأغواط: وهم حلفاء لأولاد سيدي الشيخ والأتراك العثمانيون في أواخر عهد الدايات، كما أنهم من مريدي الطريقة التيجانية، ويتكون هذا الاتحاد الأغواطي من ستة قبائل وقصور.

*قبيلة أولاد سيدي مجاهد: ينتمون إلى مرابطي أولاد رياح بتلمسان، ويشكلون جهاز استعلامات المغرب الأقصى في الغرب الجزائري بلالا مغنية.

*اتحاد قبائل ترارة: تدفع الضريبة بنفسها للمخزن شريطة أن لا تطأ أقدامهم أرض ترارة، وهو عبارة عن اتحاد قبيلتين بندرومة وهما بني مسهل وبني منير.

*وطن ندرومة: ويضم ثمانية قبائل .

*أولاد عبد الله بن موسى بن سيدي تالة وأولاد منصور بن سيدي تالة.

*قبيلة زاوية سيدي أحمد بسبدو.

*بني سنوس.

*قبيلة أولاد النهار بالعريشة.

-أحلاف مقاطعة خليفة باي وهران في شرق البايليك:

*اتحاد قبائل عياد أو نهار واسل: يضم هذا الاتحاد ثلاثة قبائل وهم حلفاء لقبيلة عياد المحال الأجواد بثنية الحد.

*بني لانت بثنية الحد.

*اتحاد قبائل بلايل بثنية الحد ويضم ستة قبائل.

*اتحاد قبائل أولاد بسام، وهو اتحاد قبيلتين، أولاد بن دحمان، واولاد علي بن القعفول.

*أولاد عمار.

*مشيخة جندل: وتقودها قبيلة أولاد بن شريفة الأجواد، المتحالفة مع مرابطي أولاد لخضر، والملتزمة بالتحالف مع الأتراك العثمانيين، وتضم مشيخة جندل أربعة قبائل.

*قبيلة بني فراح : وهي قبيلة مرابطية ينتسب إليها الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وتتكون من ستة نجوع وترأسها عائلة أولاد خلادي ثم عائلة مرزوقة.

*قبيلة بني غمريان.

*قبيلة مجاجة : وهي قبيلة مرابطية تضم ثلاثة نجوع.(31)

ث-القبائل والأعراش المستقلة:

وتنتشر في المناطق الجبلية والأراضي الصحراوية وعادة ما يسميها المؤرخون بالقبائل الممتنعة أي التي عصت الحكم العثماني ورفضت دفع اللزمة السنوية، وقد تتمتع هذه القبائل المستقلة باستقلال داخلي وتخضع لقانون خاص بها يجمع بين العرف المستمد من طبيعة الحياة في المنطقة والشريعة الإسلامية، كما يمكن لها أن تتفق أو تختلف مع القبائل المجاورة لها، وقد تتحد عند الضرورة مع بعض القبائل.(32)

ث-1-القبائل والأعراش المستقلة بدار السلطان:

*عرش بني مسرة.

*اتحاد أعراش عين جناد، ودخا في سلم وتعاون تجاري مع السلطة التركية العثمانية سنة 1826.

*عرش ايزرفاون.أزفون حاليا.

*عرش ايزوزن، ويضم ستة مداشر.

* عرش آيت تيقرين، من ثلاثة مداشر.

*عرش ايدجرمن.

*عرش آيت حسن، من ستة مداشر.

*عرش ايغيل نزيكري، من ثلاثة مداشر.

*عرش آيت فليك، من عشرة مداشر.

*عرش آيت بوشايب، من خمسة مداشر.

*عرش آيت خليلي، من أحد عشرة دشرة.

*عرش آيت فراوسن، من خمسة عشرة دشرة.

*اتحاد أعراش آيت ايراثن، وعدد الأعراش المتحدة، خمسة أعراش، مجموع مداشرها، ثمانية وثلاثون دشرة.

*اتحاد أعراش ايقاواون أو آيت بترونن، وهو اتحاد أربعة أعراش، مجموع مداشرها، ثلاثة وعشرون دشرة.

*اتحاد أعراش ايقاواون آيت مقلات، يجمع أربعة أعراش، مجموع مداشرها، تسعة عشرة دشرة.

*عرش ايليلتن، من عشرة مداشر.

*عرش ايتورار امسوهال، من ثمانية مداشر.

*عرش آيت يحي، من تسعة مداشر.

*عرش الولن أومالو، من أحد عشرة دشرة.

*عرش آيت زيكي، من ستة مداشر.

*اتحاد اعراش آيت ادجر، تتحد فيه أربعة أعراش، مجموع مداشرها، تسعة عشرة دشرة.

*اتحاد زتيما: ويضم عشرة أعراش.(33)

ث-2-القبائل المستقلة بايليك التيتري:

*أولاد ديرة ادريس، وهي في خدمة مشيخة أولاد سيدي عبد الله.

*ديرة أداورة ببوسعادة حاليا.

*أولاد سيدي عيسى الأدحب بقصر البخاري.

*قبيلة عزيز بقصر البخاري.

*سحاري العطايعية بالجلفة حاليا، وهي اتحاد سبعة قبائل.

*قبيلة أولاد نايل، بالجلفة وبوسعادة حاليا، وهي اتحاد أربعة أعراش.

*قبيلة بني الأغوط، تتحد فيها ثلاثة أعراش (الأحلاف، سرغين، والمخاليف).

*اتحاد قبائل الأربعاء.

*اتحاد قبائل ميزاب: وهي اتحاد سبعة قرى عربية، (غرداية كعاصمة لمنطقة ميزاب، بني يزقن، مليكة، بونورة، العطاف، بريان، وقورارة).

*اتحاد قبائل الشعانبة بمتليلي وورقلة والقليعة.

*قبيلة سعيد مخدمة بورقلة وتضم سبعة نجوع.

*قبيلة نفوسة أو سعيد عتبة بورقلة، وهي اتحاد عرشين الأول نقوسة ويضم أربعة نجوع مستقرة، والثاني سعيد عتبة ويضم ثلاثة نجوع رحل وهم من النبلاء المحاربون.(34)

ث-3-القبائل المستقلة ببايليك الشرق الجزائري:

*قبائل لالا خديجة الأمازيغية ببلاد القبايل، وهي مجموع خمسة أعراش متحدة.

*قبائل بجاية الأمازيغية في الضفة اليسرى لواد الساحل (الصومام) وتضم حوالي سبعة عشر عرشا.

*قبائل بوسلام الامازيغية وهي اتحاد مجموعة من الاتحادات القبلية، مثل اتحاد قبائل بني يدل، واتحاد قبائل بني يالة الغبولة، واتحاد قبائل بني ورثيلان، واتحاد قبائل العرش، واتحاد قبائل زاوية أولاد سيدي الجودي، وقبائل أولاد نابت، واتحاد قبائل ساحل البابور القبلي، واتحاد قبائل أولاد عبد الجبار، واتحاد بني أوغلي، وايمسيسن، آيت ملول، آيت بوعيسى، آيت ورتزأوعلي، بني أحمد، بني حسن، اتحاد آيت اسماعيل، اتحاد بني سليمان، وبني تيزي.

*قبائل البابور وتابابور، وتضم ثمانية عشر قبيلة.

*قبائل ساحل جيجل ومنطقة القبائل الصغرى، وتتكون من أربع وأربعين قبيلة أهمها اتحاد قبائل أولاد عيدون.

*قبائل ايدوغ: وتضم ثلاث وأربعين تجمعا قبليا بين قبائل صغيرة، ومشيخات قبيلة، واتحادات قبلية، أبرزها:

-مشيخة الحنانشة التي تتركب من خمسة عشر أو ستة عشر اتحادا قبليا، تحت إمرة الأحرار، ومنذ 1826 دبت الفوضى في المشيخة بسبب نزاعها ضد الباي أحمد.

-بيت بوعكاز: وهم أجواد الذواودة وأولاد ساولة، ويقود هذا الاتحاد عائلة بوعكاز بن علي، الذي حمل لقب شيخ العرب، ويشكل بيت بوعكاز إحدى الاتحادات الرئيسية المستقلة ببايليك الشرق، حيث يمتد نفوذها في الصحراء بين خنقة سيدي ناجي ودوسان، وخاصة إلى قبائل الزيبان (الزيبان الشرقي، الزيبان البسكري، الزيبان الظهري، الزيبان القبلي، أولاد جلال، شمال واد ريغ، وجنوب غرب الأوراس).

-اتحاد بني جلاب: تحت إمرة قرى وادي ريغ، وهم متحالفون مع عرب الغرابة، ويتكون الاتحاد من خمس قيادات إدارية:

القيادة الأولى، وتضم قرى اقليم توقرت وهي : توقرت، نزلة، تبسبست، زاوية سيدي عبد القادر.

القيادة الثانية، وتضم قرى اقليم الموقار، وهي:موقار، مقارين، الحريحيرة، القصور، سيدي سليمان، غمرة.

القيادة الثالثة، وقراها هي: سيدي عمران، سيدي يحي، تيكدين، جامة، أورلانة، مازر، زاوية رياح، تيندلة البرد.

القيادة الرابعة، وقراها هي: تامرنة القديمة، تامرنة الجديدة، سيدي راشد، وبرام.

القيادة الخامسة، وتشتمل على: مراير، أورير، سيدي خليل.[35]

ث-4-القبائل المستقلة ببايليك الغرب الجزائري:

*اتحاد قبائل بني أوراغ: ويضم مجموعتين قبليتين كبيرتين هما :

-مجموعة بني أوراغ ايران: وتشتمل على اثنين وعشرين قبيلة.

-مجموعة بني أوراغ أولاد محمد: وتتكون من تسعة عشر قبيلة صغيرة.

*اتحاد قبائل مكناسة: ويضم أربع قرى.

*اتحاد قبائل مطماطة: ويضم ستة قبائل.

*اتحاد قبائل بني تيغرين: ويضم قبيلتين، مجموع نجوعهما أحد عشر نجعا.

*اتحاد قبائل كرايش: ويضم أربعة قبائل.

*اتحاد قبائل حلوية: ويضم أحد عشر قبيلة صغيرة.

*اتحاد قبائل معاصم: ويضم خمسة قبائل.

*اتحاد قبائل أولاد يعقوب زرارة .

*اتحاد قبائل الحساسنة: ويضم ثلاثة قبائل باليعقوبية وسعيدة .

*اتحاد قبائل أنجاد.

*اتحاد قبائل حميان الغرابة: ويضم ثلاثة عشر قبيلة وخمسة قصور بمشرية وعين الصفراء.

*اتحاد قبائل العمور: ويضم ثلاثة قبائل وهم قبائل راحلة بين عسلة وفجيج.

*قبيلة أولاد مولاي عبد المالك الشرفاء بعين الصفراء.

*قبيلة زاوية عين ماضي: ويقصد بهذه الزاوية، الزاوية التيجانية التي أسسها بعين ماضي الشيخ سيد أحمد التيجاني، الذي اشتهر بعداوته للأتراك العثمانيين، في أواخر العهد العثماني، كما كان منافسا لأولاد سيدي الشيخ، وكانت التيجانية سنة 1830، ذت مركز ونفوذ في فاس وتلمسان وتونس، وكان لها مريدون في كل منطقة صحراوية : في واد سوف، تيماسين، الأغواط، وحتى في بلاد السودان.

وامتد نفوذ التيجانية إلى خمسة قصور هي: قصر عين ماضي، تاجموت، شلالة الظهرانية، شلالة القبلية، وبوسمغون. وكان جيش التيجانية يتكون من قبائل حميان والحلاف.

*قبائل بني زناسنن بني منقوش، عطية: وهي في الأصل قبائل مغربية هاجرت إلى أرض مسيردة بالغرب الجزائري.

*اتحاد بني سنوس.

*اتحاد بني بوسعيد: ويضم أربعة قبائل.

*اتحاد مغراوة الظهرة بتنس: ويضم خمسة قبائل.

*اتحاد بني منة أو الظهرة الشرقية: ويضم خمسة قبائل.

*اتحاد بني حيجة بتنس: ويضم عشرة قبائل.

*قبيلة بني درجين بتنس.

*قبيلة عريب زكار.

*اتحاد مطماطة بجندل وثنية الحد ويضم ثلاثة قبائل.

*قبيلة أولاد عنتر ببوغار.

*قبيلة أولاد هلال ببوغار وتضم ثمانية نجوع.

وعلى ضوء هذا العرض لتوزع القبائل الجزائرية بمختلف مستوياتها وعلاقاتها بالحكم العثماني، يمكن لنا استنتاج الصورة الطوبوغرافية للأرياف الجزائرية علما أن هذه القبائل والأعراش المذكورة تسكن إما قرى أو مداشر أو دواوير أو قرابي، وكلها تشترك في عنصر الاستقرار، حتى ولو كان الترحال الموسمي، هو أحد السمات المميزة لهذه القبائل والأعراش.

ثانيا–أجناس المجتمع الريفي بالجزائر العثمانية:

1–العرب:

يسكن عرب الريف التلي، الخيام، والقرابي، والقرى، والأحواش (المزارع)، وينتشرون في المنطقة السهلية الخصبة المحصورة بين ساحل البحر الأبيض المتوسط وسلسلة الأطلس التلي، حيث يهتمون بزراعة الحبوب بشكل أساسي، ويحيون حياة مستقرة على الدوام، وفي الهضاب العليا القليلة الخصوبة، والتي تفرض على سكانها العرب حياة الترحال الموسمي، أي المزاوجة بين الاستقرار والتنقل بحثا عن الكلأ لماشيتهم. وبالتالي نلاحظ أن الترحال الموسمي في الهضاب العليا قد فرضته طبيعة الأرض والتربة.

لقد سمى لوجي دي تاسي العرب بالمور شأنه شأن الكتاب الغربيين الآخرين الذين كتبوا عن الجزائر الحديثة، ووصف هؤلاء العرب الريفيون أنهم يرتحلون بشكل عائلي وهم فقراء جدا، حتى أنهم ينامون على الأرض ولا يفترشون سوى أوراق النخيل التي تسمى حصيرا. كما لا يملكون أي ملك عقاري، وعدد أفراد هذه العائلات العربية الريفية كثير بفعل التناسل غير المنظم.(36) ففي الخيمة الواحدة يوجد في بعض المرات، أسرتان أو ثلاثة: بالأب والأم والأطفال الذين هم دائما كثر، وعلى الأب أن يحصل على خيمة لإسكان أسرته، و لم أثاثه المنزلي.

وذكر دي تاسي أيضا أنه يوجد في الخيمة الأحصنة والحمير والبقر والماعز والدجاج والكلاب والقطط، وتحظى هذه الحيوانات الأليفة بعناية سكان الريف لأنها تعينهم على مصاعب الحياة فمثلا الكلاب تحرس الخيمة ونباحها إعلان عن قدوم الأسود إلى الدوار، كما تطارد الذئاب. أما القطط فتصطاد الجرذان والأفاعي التي تكثر في العديد من الأماكن الريفية.

تشد الخيمة بعمودين كبيرين، ويتشكل بابها من أغصان الأشجار، وتمتد الخيمة طولا، وتوجد بها سقيفة مربعة الشكل في الوسط تفصل بين بيت الأسرة والمكان المخصص للحيوانات المذكورة.(37)

وأشار دانتي سنة 1838 أن خيام القبائل العربية بالجزائر العثمانية متدهورة، تعكس فقر أصحابها الذين لا يعتنون بذواتهم لكنهم أصحاء، غذاؤهم هو الخبز والفواكه وشرابهم هو الماء، وشغلهم الأساسي حراثة الأرض وتربية النحل ودودة القز، ولهم استعداد لأن يكونوا مقاتلين ماهرين، فهم فرسان ممتازون ويقدمون غالبا خدمات جليلة للحكام. وبين هذه القبائل العربية الكثير من اللصوص ويتوجب السفر برفقة مرابط الذي يحظى بالاحترام من قبل اللصوص.(38)

وتكلم لوجي دي تاسي عن نشاط الدواوير العربية وحصره في فلاحة الأرض وبيع الحبوب وما ينتجونه من مواد، في أسواق المدن، زيادة على إنتاجهم وبيعهم للعسل الذي يجنون من ورائه ربحا أكبر.

أما عن نشاط نساء الدواوير العربية فقال الكاتب أنهم يعتنون بزريبة الحيوانات، وبخيمة الأسرة، وتحضير غذاء العائلة، أضف إلى ذلك قطع الخشب وحرقه، وجلب الماء، وتضطر العديد من النساء الريفيات إلى القيام بأشغالهن المذكورة وهن يحملن أطفالهن الصغار على ظهورهن. (39)

ويفيدنا الدكتور أبو القاسم سعد الله بمقطع عن نشاط المرأة الريفية في تاريخه الثقافي حيث كتب أن معظم الأعمال التي تقوم بها المرأة في الريف الجزائري هي في الغالب من اختصاص الرجل، من ذلك قيامها بالحرث والسقي وعلف الحيوانات ونحوها، زيادة على ذلك تقوم بتربية أطفالها وتتحمل أعباء خيمتها أو مترلها، كما كانت تنتج ملابس لأفراد أسرتها من برانيس وقنادير ومناديل، ناهيك عن نسجها للزرابي والحياك وغيرها من وسائل التجارة.(40)

ويتميز عرب الريف بما يلي:

-التأثر بالرابطة الدموية.

-الهيكل الأرستقراطي للحكم.

-الارتباط بالأرض الخصبة.(41)

ولاحظت الدراسات التاريخية أن لعرب الريف في الجزائر العثمانية ثلاثة أنواع من النبالة الأرستقراطية، نبالة بالأصل، ونبالة عسكرية، ونبالة دينية، ويمكن توضيح ذلك كالآتي:

-النبالة بالأصل:

وينطبق على هذا الصنف من النبلاء الريفيين، ما يسمى بالأشراف أو الشرفاء، والشريف هو كل من ثبت نسبه لفاطمة الزهراء، بنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب، والعرب يمنحون مكانة محترمة للأشراف ويخاطبونهم ويتحدثون عنهم بـــ"سيدي"، وعددهم في الجزائر معتبر يصل إلى عدد الفخذ أو الفرقة داخل القبيلة. وهم محترمون وإليهم يعهد القضاء والإفتاء، ولهم تأثير معنوي أكثر منه مادي.(42).

وكتب هاينريش أن زواج رئيس قبيلة من شريفة يكفي ليحمل الأبناء والأحفاد لقب شريف بدون استثناء، وبالتالي فإن تزايد سلالة النبي واضح في نهاية الأمر. وقد بدا لهاينريش أن عدد الشرفاء كبير جدا في الجزائر.(43)

-النبالة العسكرية:

يسمون عند العرب " الأجواد"، ويمثلون الأداة العسكرية في المجتمع العربي الريفي، وهم الذين ينحدرون من عائلات عريقة ومشهورة في البلاد، أو قادة قبائل قوية مثل قبيلة الذواودة وبن قانة وبوعكاز والمحال... وقد عاني سكان الريف من قمع هؤلاء النبلاء العسكريون الذين حاولوا فرض حمايتهم على القبائل.(44)

-النبالة الدينية:

يسمون عند العرب بالمرابطين، وتأثيرهم قوي على سكان الريف لأنهم يعتبرون في نظرهم حراس العقيدة الإسلامية، وكلامهم محفوظ ونصائحهم معمول بها، ولهذا استطاع المرابطون في كثير من المواقف منع إراقة دماء المسلمين وإحلال الوئام بين القبائل، ولما تعزم القبائل محاربة الأعداء نراها تحمل المصاحف القرآنية في اليد، وصحيح البخاري في اليد الأخرى، وكل ذلك بايعاز من المرابطين، مما يعكس علاقة الصداقة والود القائمة بين المسلمين والمرابطين.

والنبالة الدينية متوارثة شأنها شأن نبالة الأصل و النبالة العسكرية، وقد اشتهر المرابطون الأوائل بكراماتهم مثل الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ الحسناوي، والشيخ محمد بن عيسى، والشيخ مولاي الطيب وغيرهم. وما انتشار العدد الكبير من القبب والزوايا إلا دليلا على ذلك.

ويستقر النبلاء الدينيون أو المرابطون في زواياهم، بحيث يحيط بكل زاوية ريفية، دوار، يحمل اسم الزاوية الذي تسبقه كلمة " سيدي". وتمتلك الزاوية أراضي عبارة عن هبات، تستغل من طرف رجال الزاوية، إلى جانب الهدايا التي تهدى إلى المرابط من طرف من يجاورونه، والعشر والزكاة التي تدفع له سنويا. ولذلك نلاحظ أن المسافرين والمسلمين الأجانب عن دوار الزاوية، والمجرمين، قد يقصدون الزاوية ومرابطها طامعين في ضيافته، واللجوء إليه عند الضرورة، فنجد المرابط أو الزاوية، تكرمهم وتأويهم أياما معدودات، و يعد ذلك من أولى واجباتها، ناهيك عن تعليم الأطفال والشباب، الذين ينتسبون إلى القبائل المجاورة، القرآن والسنة النبوية.(45)

أما الكادحون من العرب، فهم الغالبية ويمثلها، الملاك للعقار، والمزارعون الخماسون، ويتمركزون بقوة في المناطق السهلية الخصبة، ونعتقد أن العناصر العربية الأندلسية لا تنفصم عن المجتمع العربي الريفي بالجزائر العثمانية، فلوجي دي تاسي أشار أن الأندلسيين قد غرسوا الكروم وعملوا على تخصيب وفلاحة مساحات من الأراضي الزراعية التي امتلكوها بفضل مجهودهم وأعمالهم، كما تعاطوا كثيرا تجارة العبيد.(46)

وكتب شالر عن الكادحين العرب في الريف، قائلا: " ويسكنون في الخيم وهم دائما يغيرون محل إقامتهم تبعا للفصول ولتوفر الكلأ لحيواناهم...وهم يتحدثون اللغة العربية ويعتنقون الإسلام."(47) وعن موقفهم من السلطة التركية قال: " والعرب تابعون للحكومة الجزائرية، ولكنه فيما عدا دفعهم الضرائب لهذه الحكومة، هم في حالة شبه مستقلين ويخضعون لسلطان شيوخهم ولقوانينهم الخاصة. ومتى وجد العرب أن استبداد الباي وطغيانه لا يطاق، يجلون إلى منطقة إدارية أخرى أو إلى الصحراء، حيث لا تصل إليهم يد السلطة."(48)

تنتظم هذه الدواوير العربية في ما يسمى بالقبيلة، وهذا من أجل تنظيم حياهم وحل مشاكلهم، فردية كانت أم جماعية، تتعلق بالإنتاج، أو بالعلاقات التي تربطهم بالقبائل المجاورة، وإذا كان بعض الكتاب يطرحون صنفين من القبائل، المستقرة والراحلة، إلا أنهم أغفلوا صنفا ثالثا وهو القبائل التي تجمع بين الاستقرار والترحال، وهذا ما ينطبق على قبائل السهول بالجزائر المنتشرة في شكل دواوير.

وذكر هاينريش أن الدوار هو اجتماع ما بين عشرين إلى ثلاثين خيمة، كل خيمة مصنوعة من جلد البقر، وهي لا تقفل ومعرضة للريح والمطر وكل مجموعة من الخيم محاطة بسياج من الأعواد والأشواك، توضع فيها الماشية في الليل، وقد تكمن حول هذه الخيم كلاب لحراسة الماشية من الحيوانات المفترسة.(49) أما شلوصر فقد عدد مجموع خيم الدوار الواحد بـــخمسين إلى مائة خيمة، ينظم شؤونهم شيخ الدوار، فهم خاضعون له عن طيبة خاطر، ويكون عددا من الدواوير، بلادا يحكمها قائد.(50)

يمارس سكان الدواوير حراثة الأرض ورعي الماشية ويرتادون الاسواق للبيع والشراء، وقد يجمعون في نمط معيشتهم بين الاستقرار والتنقل كما أسلفنا.

وذكر لامبير أن العدد القليل من العرب يسكنون القرى والمدن، فسكناهم المفضل هو الخيام والأكواخ، فهذا الشعب العربي ريفي في أساسه، يمارس الزراعة ويربي المواشي من الأغنام والماعز التي يرعاها في الغالب الأطفال، والعربي لا يغرس الأشجار، ويخشى التعب.(51)

ب–البربر:

كتب لامبير أن البربر أو الأمازيغ أو القبايل أو الشلحة، مجتمع متميز عن العرب، ينطقون الشلحة التي يعتقد بعض المستشرقين أنها ذات أصول بونيقية، وقد ضاع أصلهم في ظل التمازج والانصهار الحاصل خلال الفترات المظلمة، فهم نوميديون عند البعض وقرطاجيون عند البعض الآخر وشلحة. ولاحظ الكاتب أن لهجتهم متعددة وحرفهم راقية وزراعتهم جيدة

ويشتهرون بصناعة الأسلحة والبارود. وهم يتميزون عن العرب بلباسهم البسيط وعاداتهم، ولون بشرتهم بيضاء عند البعض وأسمر عند البعض الآخر، وهم في هيئة غير ثخينة، وعصبيين وأشداء.(52)

وتتجه الدراسات التاريخية إلى دراسة المجتمع البربري بالجزائر العثمانية بالتركيز على التجمعات المستقرة بالمرتفعات الجبلية الساحلية التي عادة ما تسمى بالجبايلية أو كما هو متداول في الجزائر باسم القبايل، وقد عرف وليم شالر، القبايل كما يلي:" وتسمية القبايل مشتقة من الكلمة العربية قبيلة...وهذه التسمية تنطبق على وضع القبائل السياسي، فهم جميعا يعيشون في الجبال، في الأطلس الكبير وفي مختلف السلاسل التي تتفرع عنه...مثل بني سنوس، وبني زروال وبني زواوة وبني عباس...وسكان كل منطقة من هذه المناطق الجبلية يشكلون دولة أو جمهورية، مستقلة عن غيرها من المناطق."(53)

وحسب بعض المصادر التاريخية الفرنسية، كانت أوطان القبايل تضم قبائل مستقلة عن بعضها البعض، تحكم نفسها مثل الكانتونات الأوربية، ولا تتحد هذه القبائل إلا إذا جمعتها المصالح السياسية حيث أسست ما يسمى بالصف. فالصف يعبر عن مصالح مشتركة وتحالف قديم أو جديد وعلاقات جوار ومبادلات تجارية. ويفرض الانضمام إلى الصف، تحمل كل قبيلة النتائج مهما كانت طبيعتها، وللصف شيخ منتخب، ومجلس عام يحضره زعماء القبائل، وفيه تدبر العمليات العسكرية، وعدد المسلحين. ولما تطرح القبيلة قضية عقاب على مجلس الصف، يسمح لها هذا الأخير باختيار قائد العملية العقابية.

ويمكن للقبيلة أن تنتقل من صف إلى آخر تبعا لتغير المصالح والأهداف، وهو ما يفقدها مكانة لدى عموم سكان القبايل، وعادة يجر ذلك إلى نزاع مسلح بين الصفوف. وهناك صفوف مؤسسة بفعل حوادث، وصفوف قديمة وثابتة في أهدافها ومواقفها وإذا وقع خطر يهدد كل الصفوف، تتحد في صف واحد لصد الخطر، تزكيه دعوة المرابطين.

وقد يرأس الصفوف البربرية أشخاص ينحدرون من عائلات دينية وعسكرية، تهيمن على القبائل البربرية ويكونون واسطة بين البربر والسلطة العثمانية.(54)

وعن وضعهم السياسي قال شالر أن القبايل ينقسمون إلى عدد كبير من الجمهوريات التي تنهشها حروب مستمرة. والحكومة التركية العثمانية تعمل على إذكاء نيران هذه الحروب وتستغل ميل القبايل إلى الشقاق لتزيدهم انقساما وتفريقا حتى تضمن لنفسها السيطرة عليهم.(55) ثم قال: " ولكن القبايل يحملون في قلوبهم شعورا قويا إلى الاستقلال لا يمكن

قهره...وتاريخ الجزائر لا يشير إلى أن الحكومة المركزية قد تمكنت من إخضاع قبيلة واحدة إخضاعا تاما بقوة السلاح. فإن القبيلة لتقاوم مقاومة لا هوادة فيها، ومتى أصبحت المقاومة مستحيلة تماما، انسحبت من المعركة لتدخل في حضن قبيلة أخرى..."(56)

" والاستقلال هو الأمر الوحيد الذي يشغل أذهانهم وهو غاية وجودهم ومتى نالوا الاستقلال يعيشون بكل فرح وسرور مع الفقر في مناخ شديد القسوة."(57)

وعن نشاطهم الاقتصادي كتب شالر: " وهم يجنون من زراعة أرضهم وتربية مواشيهم كل ما يحتاجون إليه لمعيشتهم".(58) وقد يجدون في قمم جبالهم المراتع الوافية لرعي قطعانهم والأرض الزراعية المحدودة التي تفي بحاجاتهم.(59)

وبخصوص حرفهم وصنائعهم ذكر شالر أنهم ينسجون عدة أنواع من الأقمشة الصوفية لاستعمالهم الخاص، والفضل يرجع في كل ما يستهلكه البلد من زيت الزيتون، وهم يستغلون مناجم الحديد التي توجد في جبالهم ويقومون بصهر ما يستخرجونه من الحديد الخام، ليصنعوا منه عددا كبيرا من الأواني البسيطة والآلات الزراعية، بل إن القبايل يعرفون صناعة الصلب الذي يستخدمونه لصنع عدة أنواع من الأسلحة وسكاكين المائدة، كما يحسنون أيضا صنع بارود المدافع.(60)

وعن لغتهم كتب شالر : " إن لغة الشاوية هي لغة جميع القبايل التي تسكن جبال الأطلس ومختلف سلاسله التي تمتد في الجزائر وتونس، وهي أيضا لغة سكان الصحراء...وهذه اللغة يتحدثها الناس باختلاف يسير."(61)

وعن مدى تمسكهم بالشريعة الإسلامية وعملهم بها، ذكر أوجين دوماس Daumas أن البربر لا يعرفون من الإسلام سوى الشهادتين، ولا تتبع التعاليم الإسلامية إلا من طرف رؤساء القبائل والصفوف والمرابطون وطلبة زوايا القرآن.(62)وأعشارهم وزكواتهم تقدم لمساجدهم القروية، وكتاتيبهم وزواياهم وفقراءهم والمسافرين الذين يقصدون قبيلتهم ومنطقتهم، عكس العرب الذين يقدمونها للسلطة التركية.(63)

3-الزنوج :

ينتشر الزنوج في بايليكات الجزائر العثمانية وأقاليمها، في المدن والأرياف، ووضعيتهم في العهد العثماني بالجزائر تحتاج إلى مجهود مضني، وكل ما يقال أنهم كانوا يجلبون كعبيد من الجنوب الصحراوي من أسواق النخاسة ببسكرة وبوسعادة والمسيلة، في إطار قوافل تجارية، إلا

أن عددا كبيرا منهم أصبح حرا بعد الإعلان عن إسلامهم، والقلة منهم بقي على عبوديته. وتمكن "بربروجر" من إفادتنا بمعلومات عن السود في الأقاليم التالية:

الزنوج في الغرب الجزائري:

كثر عدد العبيد السود في بايليك الغرب الجزائري، وخاصة بضواحي مليانة، ووظفتهم السلطة التركية العثمانية في سياستها إذ سخرهم لدعم العربي المخزني ضد البربري المناوئ، وكمثال على ذلك، نذكر أن قائد برج بوغني، جمع عددا من السود ومنحهم الخيل والسلاح والأرض، وكانوا من أهم معاونيه في أصعب المهام القيادية، حتى صاروا يؤلفون قبيلة مخزنية مغامرة قائمة بذاتها تسمى " زمول أو زمالة العبيد". وللإشارة وجد ببايليك الغرب تجمعات بشرية زراعية لعبيد هاربين من أسيادهم، وقد استقروا بقبيلة "بني مناصر".. (64)

السود في بلاد جرجرة –سيباو–

احتضنت قبائل زواوة –القبايل– عائلات زراعية زنجية، تركزت بمجانة، إلا أن عدد الزنوج قليل مقارنة بعدد البربر بجرجرة، ويرجع ذلك إلى الطبيعة الجبلية لجرجرة، وغلاء سعر العبد الأسود في المدن القريبة من جرجرة بحيث يتراوح بين مائتي وثلاثمائة دورو، ويظهر أن جلب العبيد إلى جرجرة قل في أواخر العهد العثماني، لأن الدايات قد انشغلوا بمراقبة الأسواق وتقييد تحركات القبائل البربرية المناوئة للحكم العثماني.

وعلى أية حال كان سكان الريف بجرجرة يعانون الفقر وهم بأنفسهم بحاجة إلى عمل في أرجاء البلاد ولا حاجة لهم بالعبيد، باستثناء الأعيان المالكين للعقارات بجرجرة.

ولما أدرك الباي محمد الذباح أهمية زمالة العبيد، نقل عددا من العبيد السود إلى برج سيباو أو واد سيباو بجرجرة، الذي تسيطر عليه قبيلة عمراوة، لتتكون هناك زمالة أو زمول الشملال، ويروى أن قائد السود المهاجرين لسيباو، تزوج من عربية من قبيلة بني جعاد، (65) وأخذت زمول شملال بسيباو تجند العبيد الهاربين الباحثين عن حريتهم وأرض يزرعونها، وبعد مدة تكونت "زمالة تالة عثمان" ما وراء واد عمراوة بسيباو. (66)

الزنوج في الشرق الجزائري:

اشتهرت بسكرة وبوسعادة والمسيلة بسوق النخاسة، التي يجلب منها العثمانيون العبيد السود إلى التل، وذكرت الدراسات التاريخية الفرنسية أنه وجد عدد كبير من السود بين القبائل ولدى أعيانها. (67)

4-اليهود:

حسب "دوماس اوجين" يوجد عدد كبير من اليهود في بلاد القبايل وتحديدا جرجرة وجبال بجاية حيث يهتمون بزراعة العنب.[68]

وذكر لوجي دي تاسي أن يهود الجزائر ويهود ليفورن قد تعاونوا لشراء مزارع زيت الزيتون، والشمع، ومزارع أخرى ذات محاصيل تجارية، التي تدر أرباحا معتبرة.[69]

ثالثا-عادات وتقاليد المجتمع الريفي بالجزائر في أواخر العهد العثماني:

1-اللباس:

أ-لباس سكان السهول:

ذكر "لوجي دي تاسي" لباس العربي الريفي الساكن في الدواوير المنتشرة عبر المساحات السهلية الساحلية والداخلية، فقال أنه يلبس الحايك الذي يغطي الجسد كله، وهو من الصوف البيضاء، ويتميز شيخ القبيلة بلباسه عن العامة حيث يرتدي برنوسا من صوف بيضاء أو لون آخر، وله قلمونة.[70]

ونفس الوصف تقريبا ذكره وليم سبنسر حيث كتب أن الرجل العربي الريفي يلبس لباسا عادة من الصوف البيضاء، يغطي جسمه ويحيط به، يسمى القندورة أو الحايك، ويتحزم بحبل، ويغطيه البرنوس، ويختص زعماء القبائل العربية في السهول وكذا العلماء والرسميون المعينون من طرف الأتراك العثمانيون، بلبس عمامة صغيرة كعلامة مميزة لهم وهي قطعة شاش من الصوف تزينها الصور والرموز.[71] وبالتالي نستنتج دور اللباس في تحديد الفوارق الاجتماعية بين سكان الريف الجزائري خلال العهد العثماني.

وبشأن لباس المرأة الريفية، الفلاحة، في الأراضي السهلية، فقد ذكر سبنسر أنها تلبس حايكا وتحته قميصا وسراويل، ويتخذ الجزء الأعلى من الحايك شكل الكيس بقصد حمل الولد الصغير. وتغطي رأسها بقطعة قماش قد تخللتها خيوط ذهبية وفضية، وتلبس معها قطعة مثلثة من القماش قد زركشت ولونت بتفنن كبير وتدلت على الظهر.[72] أما لوجي دي تاسي فكتب أن نساء المور الريفيات يلبسن عباءة صوفية من أسفل الكتفين إلى الركبتين، ويضفرن شعرهن، ويتزين بحلي من المرجان، وأسورة تسور المعصمين، والكعبين.[73]

ب–لباس سكان المناطق الجبلية:

ذكر شلوصر لباس القروي الساكن باقليم سيباو(جرجرة) قائلا: "يرتدي قندورة صوفية، وبرنوس أبيض...وحذاؤه، خف من الجلد الخام، ويلف ساقيه حتى الركبة بخرق، ويربط بها خفه، ويضع فوق رأسه قلنسوة حمراء... وتحتها قلنسوة بيضاء ..." (74) ثم يستطرد : " وعلى الرغم من أن هذا القبائلي ليس نظيف الثياب، ولا هو من هواة الثياب الفاخرة، فإن الأولاد وأولاد أولادهم يحتفظون بالثوب الذي حمله أبوهما، يناهز مائة سنة، ويرقعونه رقعة إلى أن يتساقط عن الجسم، ولا يطرح حتى في هذه الحالة لعدم صلاحيته بل يباع في سوق من الأسواق."(75) وفي السياق نفسه أشار هاينريش إلى أن لباس الريفي الجزائري هو عادة برنوس مهترئ يلبسونه ليلا ونهارا ولا يغيرونه إلى أن يبلغ أقصى حد من الرثاثة والقدم والاهتراء.(76)

ويتضح لنا أن شلوصر وهاينريش أرادا أن يبرزا لنا درجة الفقر الذي كان يعاني منه الريفي الجزائري، وهو تحت حكم الأتراك العثمانيين. ونتساءل لماذا لم يهتم الرجل القروي بهندامه مثلما تفعل المرأة القروية أو زوجته؟ فربما يرجع هذا إلى تذمر نفسي من قلة دخل الفلاح القروي، والجو السياسي المكهرب باقليم سيباو وغيره من الأقاليم الجزائرية.

أما نساء الجبال فقد كتب لامبير أن المرأة القبايلية تظهر أمام الرجال في الاحتفالات وتشاركهم الغناء والرقص مستعينة بالمكحلة (البندقية) أو السيف. واللباس العادي للنساء هو الحايك الذي يربط بحزام من الصوف، ويصل الحايك إلى أسفل الركبتين وتلبس المرأة القبايلية أقراط كبيرة الحجم من الفضة وغالبا نحاسية وحديدية وأسوار تسور المعصمين والقدمين، وسلاسل من المرجان توضع على الصدر.(77)

تهتم المرأة القروية الريفية باقليم سيباو على سبيل المثال، بهندامها، فهي ترتدي حائكا وقندورة صوفية وقميصا، وتضع في معصميها ورجليها أساور وخلاخيل كبيرة، وتزين رأسها بظفيرتين مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء، تتدليان من الجانبين، وتثبت بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين فوق الأذنين، ولما تخرج من البيت فإنها لا تحجب وجهها.(78) ويظهر أن هاينريش قد بالغ عندما وصف النساء بجرجرة أنهن سافرات على غرار جميع الجزائريات اللواتي يسكن الأرياف.(79)

ث-لباس سكان الصحراء:

يلبس سكان الجنوب الجزائري من الرجال، أقمصة وسراويل قصيرة ومعاطف، ويرتدون فوقها البرنوس ذي لون أحمر أو أزرق بضفائر من حرير.(80)

أما المرأة الريفية الصحراوية فقد ذكر "دي تاسي" أنها ترتدي، أقمصة من نوع جيد، وسراويل قصيرة مبتورة، مثل الرجال، ومعطف حريري، وفوق ذلك عباءة إلى منتصف الساق، بذراعين طويلتين.

وفي المناسبات الاحتفالية تلبس معطفا أحمرا أو أزرقا في العادة، وتربطه بكتفيها بواسطة إبزيمات من الفضة. كما تضع هذه الإبزيمات أيضا في أذنيها للتزين، مع خواتم فضية وأسورة في المعصمين والكعبين. ولا يختلف لباس المرأة النبيلة عن لباس المرأة العادية إلا من حيث أن لباس الأولى، مصنوع من الحرير ولباس الثانية من الصوف.

وأضاف "دي تاسي" أن شعر المرأة الريفية عادة ما يكون مضفرا، ويتدلى المرجان على رقبتها إلى أن يصل صدرها، ولما تخرج من بيتها، ترتدي قناعا على وجهها حياء من الرجال. كما تتصنع الفتيات الريفيات بالجنوب الجزائري في العهد العثماني بألوان مختلفة يضعنها على الوجه، وأسفل الأصابع وعلى الثديين.(81)

2-الحياة اليومية لسكان الريف:

يستيقظ الريفي الجزائري باكرا لأداء صلاة الصبح جماعة، في الهواء الطلق، إذا كان يسكن الدوار، وهو تحت أصداء صياح الديكة ونباح الكلاب الكثيرة العدد وصهيل الحمير والبغال، ثم يعود للنوم من جديد إلى شروق الشمس، فيتناول فطور الصباح من كسرة وزبدة أو كسرة وزيت زيتون ولبن وتمر وتين جاف. بعد ذلك يباشر أعماله اليومية أو يجلس مع الجماعة ومحور حديثهم، تربية الماشية، وشؤون السلطة التركية .

ويلتزم الريفي الجزائري بالقيلولة خاصة في الصيف بين صلاتي الظهر والعصر. وبعدها يسوق خيله وبغاله للشرب ويعلق لها فوق رأسها كيسا صغيرا فيه الشعير وهي طريقة للعلف بعد شرب الحيوانات للماء حتى لا تصاب بأذى التخمة، وبعد ذلك يقدم لها الحشيش.

يتناول الريفي الجزائري عشاءه الذي يكون في الغالب من الكسكسي، وهو جالس على الحصيرة، ثم يتوجه لأداء صلاة المغرب، ثم تجتمع العائلة في خيمتها وتشعل النار في وسط الخيمة إذا كان الفصل شتاء، وتنقي القمل الذي تعاني منه بسبب ملابسها الصوفية، فتمسك ملابسها

فوق النار، قطعة، قطعة، وتنفضها بالعصي. [82] وعلى هذا الأساس قال هاينريش أن سكان الريف في الجزائر لا يعرفون الهدوء الليلي المنتظم، ولا يستطيعون تقدير قيمته الصحية. [83]

أما بالنسبة للمرأة الريفية البدوية، فقد يفرض الريف عليها أن تهتم بعملها المترلي وبماشيتها، وهما من أولويات الحياة عندها، ويمكن أن نسوق الخطوط العامة لنشاطها اليومي:

- تحلب المرأة الريفية الأبقار والأغنام عند صلاة الفجر، ثم تمخض الحليب وتهيئ الزبدة.
- بعد تنظيم الخيمة تسوق الماشية رفقة أطفالها إلى المرعى.
- تنسج ألبسة لزوجها وأبنائها، وقماشا للخيمة.
- تهيئ الفطور للأسرة كلها.
- تجلب الحطب الذي قلما يعثر عليه لذا يتم الاكتفاء بفضلات الأغنام وتعريضها للشمس لتصبح قابلة للاستعمال.
- تقييد الماشية وربطها.[84]
- غربلة طحين القمح والشعير.
- تشارك الحمير والبغال والأحصنة في ممارسة الأشغال الشاقة.

وأشار "لوجي دي تاسي" أن المرأة الريفية عربية أو أمازيغية مقيدة بهذه الأشغال والمسؤوليات، ولا يسمح لها أن تتدخل في شؤون القبيلة السياسية والاقتصادية فقد عودها رجل قبيلتها، على عدم طرح التساؤلات في هذا الشأن، بل حتى الزوج لا يتحدث لزوجته في قضايا القبيلة.[85] إلا أن ما ينغص عيشها هو تعدد زوجات الرجل، فالغيرة التي قد تكون بين الزوجات، تؤدي بهن إلى التخاصم، ولجوء بعضهن إلى ممارسة الشعوذة وتعاطي السحر.[86] أضف إلى ذلك أنها تفتقر حسب هاينريش لاحترام الرجل لها، إذ لا يتعدى مهرها ثمن بغل جيد، لكن يبدو جليا أن هاينريش لم يفقه معنى المهر في الإسلام، فهو ليس ثمن شراء المرأة، ولا يمكن اعتبار المهر مقياسا للاحترام، لذا نلاحظ الكاتب الرحالة يلتبس عليه الأمر ويقول:" ومع هذا فإن المرأة كما يقال، قد تخضع الرجل لإرادتها ! "[87]

أما عن الحياة اليومية للمرأة بقرى الصحراء الجزائرية فقد كتب عنها الأغواطي سطورا مركزا على فكرة واحدة وهي خروج بعضهن إلى الشوارع والسوق والبساتين، وسقي الماء من الآبار وحمله على ظهورهن في القرب والتزام بعضهن الآخر البيت، وقد نعت هذا الصنف الأخير، بالمحترمات.

3–احتفالات سكان الريف

*** ألعاب الفروسية:**

اهتمت القبائل الجزائرية بمختلف أصنافها، بالفروسية، فنظمت لها الألعاب المتمثلة في التنافس والتسابق بين الفرسان، وعندها يتم اختبار الفرس الأصيل ومهارة فارسه، وقد علق هاينريش عن ألعاب الفروسية قائلا: " فالفرسان يطلقون النار أثناء انطلاقهم السريع، بدون نظام، وهم يصرخون بشكل مرعب، ثم يحشون بنادقهم من جديد، ويصرخون مرة أخرى، ويطلقون النار مرة ثانية وهكذا إلى أن ينال العياء من الفارس وجواده."[(88)]

*** الاحتفال بالختان:**

كتب هاينريش عن طريقة احتفال سكان الريف الجزائري في أواخر الفترة العثمانية بختان الأطفال، وتحديدا ببلاد جرجرة وتلمسان، نلخصها على الشكل الآتي:

–يركب الطفل، الذي سيختتن، دابة، في موكب يجوب شوارع القرية، يحفه المحتفلون بالطبل والناي وهم يرددون مقاطع غنائية.

–بعد حضور المدعوين إلى بيت الختان، يبدأ الحفل بالرقص.

–تجمع النقود من طرف شخص، يكلف بذلك، الذي يدعو الحاضرين إلى المزيد من الكرم، ويضع ما يجمعه تحت رداء يتوسط قاعة الختان، بعد الجهر بها والتعريف بصاحبها.

–تزغرد النساء تحية لكل رجل أكرم الصبي المختون، وفي هذا الإطار يتنافس ذوي المال والجاه، على دفع الهدايا ويحاول كل واحدمنهم أن يتحدى نظيره.

–بعد الغناء والرقص وجمع الهدايا، تبدأ عملية الختان الرسمية.[(89)]

وأشار فاغنر إلى حفلة ختان الطفل الريفي في سياق حديثه عن ختان الطفل الحضري فقال أن ختان أبناء الريف يتم على يد المرابط، والختان بالنسبة لسكان الريف حفلة دينية أكثر منها دنيوية، عكس الحضر الذين يعتبرون حفلة الختان حفلة دنيوية لا تختلف عن حفلة العرس.[(90)]

*** الاحتفال بالزواج :**

كتب "لوجي دي تاسي" عن عادة الاحتفال بالزواج بالمناطق الريفية دون أن يحدد الجهة المقصودة، فذكر أنه لما يقبل والد العروس، طلب العريس، يشترط عليه مهرا، ثم عددا من العجول والأبقار وماشية أخرى، ولما يتم الاتفاق النهائي بين المتصاهرين، تساق المواشي المطلوبة إلى خيمة والد العروس، وعندها يعلن زواج ابنته، وتستعد العروس لاستقبال زوجها، ويحضر

الأقارب والأصدقاء حفل الزواج في الخيمة، ويقدمون التهاني للزوجان، اللذان يمكثان بداخل الخيمة، إلى أن تصل كل فتيات ونساء الدوار، فتمتطي الزوجة ظهر جواد زوجها، وصديقاتها وقريباتها يرافقنها وهن ينشدن ويزغردن، متجهين إلى خيمة الزوج، فيستقبلون من طرف أهل العريس وفي مقدمتهم والديه، ويقدم للزوجة حليبا وعسلا، إشارة إلى خير الأسرة الناشئة وحلاوة وطيب المعاشرة الزوجية، ولما تشرب منهما تتعالى الزغاريد والأناشيد، ويدعون بالبركة والخير للزوجين، وأن يرزقهما الله بالذرية والمال.

لما ينتهي حفل الموكب، تنزل الزوجة على الأرض، عند باب خيمة زوجها، ويقدم لها هراوة تغرسها في التراب، إيحاء إلى أنها لا تغادر خيمة زوجها إذا لم يطردها، مثل الهراوة المغروسة التي لا تغادر الخيمة إلا إذا اقتلعت، وبعد ذلك يعرض عليها الماشية التي يملكها الزوج حتى تقوم بخدمتها، وتستمر الزوجة وصديقاتها وقريباتها في الإنشاد والرقص إلى المساء، لينفض بعد ذلك الجمع، وتأوي الزوجة إلى زوجها.(91)

وذكر المؤرخ الفرنسي "لامبير" معلومات جديدة عن حفل زواج بالريف الجزائري في أواخر العهد العثماني مفادها أن الزواج الريفي كان يوثق عند القاضي ونعتقد أنه شيخ القبيلة، وينظم والد الزوجة حفلا على شرف القاضي والحضور الذين يرافقون ابنته إلى بيت زوجها، حيث تستقبل بالترحاب وطلقات البنادق. وتقام حفلة الزواج لمدة أربعة وعشرون ساعة تتخللها ألعاب فروسية ثم تقع الدخلة.

وفي الغد يغادر الزوج زوجته لمدة سبعة أيام ولا يدخل خيمته إلا في وقت متأخر يرافقه زملاؤه إلى خيمته، وفي غضون السبعة أيام يأخذ غذاءه إلى زملائه، وإذا أراد أن يطلق زوجته فإنه يغيب عنها سبعة أيام أخرى ويطلب من والديه اصطحاب زوجته إلى بيت والدها، الذي يستقبل ابنته ويرجع المال للزوج ويعوضه عن مصاريف حفلة زواجه إذا أمر القاضي بذلك.(92)

رابعا–النزوح الريفي إلى المدن.

إن ما يميز مجتمع الريف عن مجتمع المدينة، أن الأول يهاجر إلى الثاني، وهو ما نسميه حاليا بالنزوح الريفي، الذي جعل السلطة التركية العثمانية تراقبه، وتسعى إلى التحكم فيه حيث أمر السلطان الباشا سنة 985هـ/1577 بإخراج كل شخص لا تتعدى إقامته عشر سنوات في المدينة وإرجاعه إلى منطقته الأصلية. لذا يمكن الاستنتاج أن ظاهرة الإقامة غير المشروعة في المدينة كانت من فترة لفترة تفلت من عين السلطة أو أن هذه الأخيرة كانت تتجاوزها أحيانا لفترات

تدوم عشر سنوات.[93] ولعل مشاكل سكان الريف الآتي ذكرها كانت وراء الهجرة الريفية نحو المدينة الجزائرية.

-الخوف من غارات العدو المفاجئة، فقد كتب شلوصر ما يلي: " ...ويضم الباقي إلى ما سبق له أن ادخره في قدر ويدفنه في مكان سري...وهكذا يبقى له ماله إن أغار عليه عدوه وسلبه أدواته المترلية وزوجته وأطفاله."

-المشاجرات والمنازعات التجارية بين سكان الدواوير المختلفة في الأسواق لأسباب تافهة، وبالإمكان أن تتحول إلى حرب رسمية، وهنا وجب على السلطة التركية العثمانية أن توفر عددا من القواد، ومرابط.

-خطر الفيضانات، حيث لاحظ هانريش عند مروره بسهل سيق أن واد جبلي يشق مجراه عبر السهل ويفيض في مواسم الأمطار حتى أنه يغرق المنطقة كلها ويتلف المزروعات.[94] أما شالر فقد أشار إلى فيضان واد الشلف في موسم الأمطار ليغرق مساحات معتبرة من الأراضي المجاورة ويعيق المواصلات بين الجزائر ووهران.[95] و لم يكن خطر الفيضانات مقتصرا على الأراضي الزراعية، بل كذلك على المساكن الريفية خصوصا إذا كانت عبارة عن خيام فقد كان يضطر الفلاح أو الريفي إلى حفر خندق قبل موسم المطر حول خيمته، مع إقامة حواجز طينية وحجرية لحماية خيمته من الفيضان.[96]

-أعمال السلب والنهب من قبل قطاع الطرق والسراق حيث كتب شلوصر أن الفلاح يدخل ماشيته إلى خيمته، ويقيد بغاله وخيله إلى أعمدة بالحبال والسلاسل في أرجلها، ورغم هذا الاحتراز إلا أن عصابة السراق تتسلل ليلا إلى الدوار، وتفك القيود عن الحيوانات دون أن ينتبه إليهم أحد، ولا يسمع نباح الكلاب، فيمتطون الخيل والبغال ويفرون بها، وبالتالي يتمتعون بمهارة في السرقة. أضف إلى ذلك أنه لديهم مهارة في العثور على مطامير الحبوب. وعادة ما يتعرض الفلاح لأعمال السلب والقتل في الطرق المنعزلة.[97]

-الأوبئة والأمراض حيث ذكر المؤرخون أن وباء 1817 لم يقتصر على المدن بل فتك بسكان المناطق الجبلية مثل منطقة جرجرة، التي انتقلت إليها العدوى عن طريق جماعة من الفارين إلى المنطقة، و لم تخف وطأة هذا الوباء إلا بحلول 1822.[98] وبقرى الصحراء ذكر هاينريش مرض الحمى الذي يعاني منه سكان قرية توقرت على فصول السنة باستثناء فصل الشتاء، وهذه الحمى ناتجة عن الماء الفائض من الآبار الأرتوازية الذي يشكل مستنقعات وبرك تتولد عنها جراثيم

خطيرة. ويبتغى الشفاء من الحمى، بضرب السقيم، لخيمته في الصحراء الخالية من الواحات مدة طويلة نظرا لصحة جوها.[99]

-الصراعات المسلحة بين القبائل العنيدة والسلطة التركية العثمانية حيث **كانت** الاضطرابات الخطيرة التي عرفتها البلاد الجزائرية في أواخر العهد العثماني انعكاسات سلبية على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ولا ريب أنها كانت وراء النزوح الريفي الكثيف نحو المدن .[100]

-ثقل الضرائب الريفية، فقد ذكر "وليام شالر" بشأن ذلك ما يلي: " والبايات وحكام الأقاليم هم المسؤولون عن جمع الضرائب، وبواسطة أعوانهم من العساكر والشرطة، يستحوذون على كل ما يقع تحت أنظارهم من أموال الشعب وهذا الظلم الذي لا يطاق جعل الناس **يهجرون** البلد ويتركون السهول الخصبة..."[101]

-أزمة الشغل، حيث كتب شالر عرضا عن هجرة القبايل، ما يلي:" وبعد عقد اتفاقيات الصلح بين هذه القبائل (أي القبايل الذين يشرفون على البحر ببايليك الشرق) والحكومة التركية أصبح كثير من أبنائها **يقصدون** إلى الجزائر وضواحيها للبحث عن العمل، وهم يشتغلون رعاة ومزارعين وخدما في المنازل، وفي الحالة الأخيرة يبدون كثيرا من الذكاء والنشاط والأمانة."[102]
ويورد حمدان بن عثمان خوجة مقطعا عن الجبايلية (القبايل) المهاجرون إلى مدينة الجزائر بحثا عن الشغل فيقول:" ثم تمكنوا (يقصد الأترك بمدينة الجزائر) من تمدين القبائل (يقصد الجبايلية) بواسطة إشراكهم في النشاط البحري حيث كانوا يحاربون بشجاعة وإقدام...وعندما يتخلون عن المهنة **يأتون** إلى مدينة الجزائر حيث يغيرون أوضاعهم وأنماط حياتهم وينتقلون من البساطة إلى البذخ، وعندئذ **يتركون** جبالهم إلى الأبد ليستقروا في المدينة. وسرعان ما يتبنون عادات المدنيين وطبائعهم..."[103]

أما هاينريش كرحالة ألماني فقد أشار عرضا إلى الهجرة الريفية والبدوية إلى مدينة بسكرة وقال أنه كان يرتادها الجبايلية والميزابيون وبدو أولاد نايل والتوقرتيين والأغواطيين وجميع مناطق الجنوب الشرقي ومن جميع الواحات الصحراوية.[104]

أما لامبير فقد كتب أنه ما دامت المناطق الجبلية فقيرة لا توفر العيش لسكانها أصبحت الهجرة ضرورية، ففي كل سنة بل في كل شهر نلاحظ شباب قبايلي يترل الجبال حاملا معه هراوة، تغمره الإرادة في العمل بالمدينة، وهو متجها إلى المدن مثل الجزائر وقسنطينة وإلى كل النقاط الحيوية باحثا عن العمل. وبعد بضع سنوات يجمع هذا الشاب المهاجر مالا ويعود إلى مسقط رأسه، فيشتري كوخا وأرضا زراعية.[105]

-الجفاء الثقافي بالريف حيث هاجر العديد من العلماء الفقهاء مواطنهم الريفية واتجهوا نحو المدن المشهورة بالعطاء العلمي والثقافي، فقد كتب أبو القاسم سعد الله أن علماء بلاد زواوة كانوا يقصدون المدن المجاورة كمدينة الجزائر وقسنطينة وبجاية.[106]

وفي ختام هذا الفصل نود الإشارة إلى أن موضوع المجتمع الريفي موضوع معقد، يحتاج إلى مجهود مضني لفرق مخابر بحثية، وبالتالي حاولنا في هذا المقام رسم صورة مبسطة عن واقع المجتمع الريفي بالجزائر في أواخر الفترة العثمانية، الذي اختلفت تركيبته عن تركيبة مجتمع المدينة، حيث نجد العربي والبربري والزنجي، كلهم يعيشون معا تحت مظلة الإسلام، ليصبح عندئذ مجتمعا واحدا مع أقلية يهودية، ولا حظنا أن عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ولباسهم ونشاطاتهم اليومية متشابهة و متقاربة، إلا أن السياسة التركية العثمانية فرقت بينهم سياسيا، فجعلت من هذا مخزنيا محظوظا، ومن ذاك حليفا محترما، و من الآخر مستقلا حذرا، وخاضعا مضطهدا، ولعل ذلك يندرج في ما يسمى بسياسة فرق تسود، التي جعلت الأتراك العثمانيون، سادة البلاد لما يزيد عن ثلاثة قرون بلا منازع رغم أنهم شكلوا دوما أقلية في المجتمع الجزائري.

الهوامش:

(1) السويدي، محمد. **المرجع السابق** . ص ص 30-31.

(2) الطاهر، عمري." بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي." **ملتقى دولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية**، جامعة منتوري بقسنطينة، 2001، ص ص. 214-215.

(3) Daumas Eugène. **Mœurs et coutumes de l'Algérie.** Introduction Djeghloul. Sindbad, paris,1988.p31.

(4) Daumas Eugène. **Op. Cit**, P. 32

(5) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. pp. 44-45.

(6) Daumas, Eugène. **Op. Cit**, p33.

(7) يمكن إيجاز هذه الامتيازات في الإعفاء من الضرائب، والاستفادة من منح كالفرس والسلاح وأدوات العمل الفلاحية، والاستفادة من أجور مؤقتة للمحاربين، والانتفاع من الغنائم أثناء المشاركة في المحلات العسكرية، إلى جانب العيش في كنف الأمن والحماية والحياة الكريمة.

(8) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**، ص ص 269-270.

(9) Rinn, Louis. **Op. Cit**. p.43.

(10) **Ibid**. pp.44-48.

(11) وزمول عبيد، الشراقة والغرابة، وكلاهما يتوفران على ثلاثمائة فارس في خدمة السلطة التركية العثمانية.

(12) Rinn, Louis. **Op. Cit**. pp. 71-73.

(13) **Ibid**.., pp.74-75.

(14) **Ibid**., pp 138-144

(15) **Ibid**., pp. 145-148.

(16) عبيد الشراقة، ويضم قبيلتين، القدادرة والشوايعية بستيديا نواحي مستغانم.

(17) Rinn, Louis. **Op. Cit**. pp.86-94.

(18) **Ibid**., pp.94-96

(19) **Ibid**., pp.96-99.

(20) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**، ص 554.

(21) أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي... المرجع السابق ج 1**، ص ص. 151-152.

(22) Esterhazy, Walsin **.De la domination turque dans l´Ancienne Regence d´Alger.** Librairie de charles Gosselin.Paris.1840.p269.

(23) Rinn, Louis. **Op. Cit**. pp. 49-56.

(24) **Ibid**., pp.75-78.

(25) **Ibid**., pp.149-154.

(26) **Ibid**.,pp.99-112.

(27) **Ibid**., pp.112-118.

(28) **Ibid**., pp 56-64.

(29) **Ibid**., pp. 78-81.

(30) **Ibid**., pp.154-166.

(31) **Ibid**., pp.127-129.

(32) سي يوسف، محمد." القانون في بلاد القبائل خلال العهد العثماني." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان 27-28 /سبتمبر 1998، تونس، ص. 274.

(33) Rinn, Louis. **Op. Cit**. pp 64-70.

(34) **Ibid**., pp. 81-85.

(35) **Ibid**., pp.167-208

(36) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. pp. 44-45.

(37) **Ibid**., pp45-46.

(38) A.G. **Op. Cit**.p.04. Dentu,

(39) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. p46.

(40) أبو القاسم، سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي...المرجع السابق .ج1**، ص 157.

(41) Daumas, Eugène. **Op. Cit** . p30

(42) **Ibid**., p.37.

(43) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق.ج1**.ص 244.

(44) **Ibid**., p38.

(45) **Ibid**., p39.

(46) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. p. 49.

(47) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص.108.

(48) **المصدر نفسه**. ص ص. 108-109.

(49) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق.ج1**.ص ص. **177**، **187**.

(50) شلوصر، فندلين. **قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837**. ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص. 89.

(51) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op. Cit**. P.54.

(52) **Ibid**. p.324.

(53) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص .113.

(54) Daumas, Eugène. **Op. Cit** . pp154-155.

(55) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص .115.

(56) **المصدر نفسه**.ص. 116.

(57) **المصدر نفسه**. ص 122 .

(58) **المصدر نفسه**. ص 115.

(59) **المصدر نفسه**. ص 28.

(60) **المصدر نفسه**. ص 115 .

(61) **المصدر نفسه**. ص 122

(62) Daumas, Eugène. **Op. Cit.**p162.

(63) **Ibid**.p161.

(64) Berbrugger, A. « Chronique-Les colonies noires en Kabilie- ».**in R.A,** N°04, 1859. p.74

(65) ورد أن السود الأحرار لا يتزاوجون إلا فيما بينهم في الغالب.

(66) Berbrugger, A. « Chronique-Les colonies noires en Kabilie- ».**In R.A,** n°04, 1859. pp73-75.

(67) **Ibid**.p76.

(68) Daumas, Eugène. **Op. Cit**.p.161.

(69) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. P.56.

(70) **Ibid** P.46.

(71) سبنسر، وليم. **المرجع السابق** . ص 88.

(72) **المرجع نفسه**. ص 89.

(73) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. P 46.

(74) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 96.

(75) **المصدر السابق** . ص 99.

(76) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج1**. ص 187.

(77) De Tassy Laugier. **Op. Cit**. p.339.

(78) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص. 100.

(79) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج2**.ص 148.

(80) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. p.53

(81) **Ibid**.pp 53-54.

(82) شلوصر فندلين .**المصدر السابق** .ص ص 91-92.

(83) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**.ج1.ص 190

(84) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 93.

(85) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. p.48

(86) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 94.

(87) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج2**.ص 151.

(88) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج1**.ص 206.

(89) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج2**.ص ص 155، 157-158

(90) أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات...المرجع السابق**. ص.122.

(91) De Tassy, Laugier. **Op. Cit**. pp.47-48. وأفادنا الكاتب بالزواج المبكر لسكان الريف والبادية في صف الذكور والإناث، فالذكور عادة ما يتزوجون في سن 14 و15، والإناث في سن 08 إلى 10 ويمكن لهن أن يلدن في سن 10 و 11.

(92) L'Abbé Edmond Lambert. **Op. Cit**.,pp.237-238.

(93) ابن حموش، مصطفى.**المدينة والسلطة...المرجع السابق**. ص.246.

(94) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**. **ج 2** ص.76.

(95) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 31.

(96) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 90.

(97) **المصدر نفسه**. ص 91.

(98) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق**. ص 55.

(99) هاينريش، فون مالتسان.**المصدر السابق**. **ج3**.ص 154.

(100) غطاس، عائشة." **الوافدون...**" **مقال سابق**، ص 173.

(101) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص.59.

(102) **المصدر نفسه** .ص 116 .

(103) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**. ص 115.

(104) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**.**ج3**.ص 112.

(105) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op. Cit** .p.338.

(106) أبو القاسم، سعد الله. " كعبة الطائفين..."مقال سابق، **ص 65**.

الفصل الثالث

وظائف الريف بالجزائر

في أواخر العهد العثماني

سبق وأن أشرنا أن الريف الجزائري في أواخر العهد العثماني، فضاء واسع، كانت تسكنه تجمعات بشرية عربية وبربرية وزنجية، مستقرة، بعضها على الدوام، والبعض الآخر يجمع بين الاستقرار لفترة والترحال لفترة أخرى، بحثا عن الكلأ للمواشي، وأشكاله العمرانية تختلف من السهول إلى الجبال إلى السهوب ومشارف الصحراء الجنوبية، فنجد القرى والمداشر بالمرتفعات، والدواوير في المناطق السهلية، والقصور بالمناطق الشبه صحراوية، ومن غير المستبعد أن هذه الأشكال العمرانية هي مراكز حضرية ريفية، لا ترقى إلى مستوى المدينة، من حيث الكم البشري والتخطيط المعماري العمراني، والثقل الاقتصادي، والحيوية الثقافية.

ورغم ذلك فقد احتل عالم الريف مكانة هامة في سياسة الحكام الأتراك العثمانيين طيلة تواجدهم بالجزائر لما يزيد عن ثلاثة قرون، حتى صار مرآة مستقبلهم، ومؤشرا على علو مكانتهم كحكام، أو تراجعها. لهذا خطط الأتراك العثمانيون لأن تكون للريف الجزائري منظومة وظائف، مضبوطة ومصممة، بشكل تحافظ لهم على مصالحهم وتخدم تواجدهم بالبلاد، من خلال استخدام العنصر المحلي، بطريقة تجعله يشعر بحريته وكرامته.

أولا-الوظيفة الإدارية لريف الجزائر في أواخر العهد العثماني:

لاحظ الكتاب أن عادات وأعراف وأعراق القبائل الجزائرية مختلفة نسبيا، وتسيير شؤونهم اليومية والحياتية يتطلب التكيف مع خصوصيات كل منطقة ريفية، وبالتالي يتطلب ذلك جيش من الأعوان الإداريين، وهو ما لم تسعه الحكومة التركية العثمانية. وتساءلنا عن السلطات سواء المركزية أو المحلية التي وقفت وراء تسيير شؤون الريف الجزائري بمختلف مراكزه.

1-السلطات السياسية المركزية ودورها في إدارة أرياف دار السلطان:

آغا العرب:

يعتبر آغا العرب في الأصل قائد الفرسان العرب المخازنية، بعد أن ظهرت أهمية الجيش الاحتياطي غير النظامي، وتراجع أهمية الجيش الانكشاري العسكرية. ومع بداية القرن الثامن عشر، توسعت صلاحياته لتجمع بين الأمور التي تتصل بالأمن وتتعلق بشؤون الجيش وبين النظر والتصرف في شؤون أوطان دار السلطان، باعتباره المرجع الأول لكل الموظفين المتولين لشؤون سكان الريف بدار السلطان، والمتصرف الفعلي في شؤون السكان بهذه المقاطعة، فهو ينظر في كل القضايا المهمة عن طريق القياد وشيوخ القبائل من مقره بحوش الآغا خارج باب عزون.

وأبرز الأغوات في مطلع القرن التاسع عشر: الآغا مصطفى 1809-1814. والآغا يحي 1818-1827.[1]

خوجة الخيل:

هو المسؤول على أرياف دار السلطان، من عزل أو حقول وأحواش أو مزارع مستعينا بمجموعة من الشواش (الحرس الخاص به). وأصبح له مع نهاية القرن الثامن عشر الحق في كراء ومبادلة واستخلاص ما توفره هذه الأملاك من محاصيل وحيوانات وغيرها، كما أوكل له أحيانا قيادة فرق المشاة أو الفرسان التي تتألف منها المحلة لإخضاع القبائل المتمردة، على أن أبرز مهامه ظلت دائما تتصل بالإشراف على مزارع الدولة بمتيجة، وفي هذا المجال تركز حرصه خاصة على توفير الخيول وحيوانات النقل لفرسان الدولة "الصبايحية والمخزن"، ولهذا الغرض خصصت بعض المزارع (الأحواش) لتربية الخيول، وأصبح من صلاحياته مراقبة بعض القبائل المكلفة بتربية الحيوانات التابعة للدولة مقابل تخفيض الضرائب ونيل بعض الامتيازات، فهو يشرف على توزيعها على تلك القبائل واسترجاعها وقت الحاجة.

2-السلطات السياسية الإقليمية ودورها في إدارة أرياف البايليكات:

*** الباي:**

يعين الداي على كل من بايليك التيتري، بايليك الشرق، وبايليك الغرب، بايا، يختار عادة على أساس كفاءته ومقدرته السياسية والعسكرية، ومعرفته بعادات وتقاليد وأعراف سكان البايليك مدنا وأريافا، وعلى أساس صلته بالحكام العثمانيين أو القبائل المخزنية. ومدة التعيين ثلاث سنوات قابلة للتجديد، بعد أداء الدنوش الكبرى إلى مدينة الجزائر، ويمارس سلطاته في حدود بايليكه بصورة مطلقة، بتفويض من الداي.

ويختص الباي بمهام إدارية تمس مدن وريف بايليكه على السواء، نجملها فيما يلي:

-تنظيم المحلات العسكرية الفصلية الربيعية والخريفية لاستخلاص الضرائب من قبائل وأعراش البايليك، لتجديد أرصدة خزينة البايليك من جهة والقيام بالتدنيش الأصغر إلى مدينة الجزائر على يد خليفته، من جهة أخرى.

-تأمين الطرقات والمسالك على امتداد بايليكه، حتى تتمكن القوافل التجارية من أداء مهامها الاقتصادية.

-مراقبة النشاط السياسي للقبائل والأعراش، والحيلولة دون وقوع انتفاضات شعبية ريفية.

-الاهتمام بالحاميات الانكشارية المتمركزة بنواحي البايليك.

-الاهتمام بالمرافق العمرانية الواقعة في حدود بايليكه.(2)

* **خليفة الباي:**

يعتبر الخليفة موظفا حكوميا مهما في حكومة الباي، إذ يشرف على قطاع إداري واسع داخل البايليك، ويخضع له قياد هذا القطاع ومخزنه وقبائل رعيته، كما يمثل الخليفة في حضرة الداي أو الباشا كل موسم خريف وربيع عند حلول موعد الدنوش الأصغر، إلى أن تتم ثلاثة سنوات من عهدة الباي الحكومية.

وينصب الخليفة أو يعزل بقرار من الباي، وعادة ما يختار من بين القياد، والقياد المرشحون لمنصب الخليفة ببايليك الغرب مثلا، نجد قايد فليتة بزمورة، أو قايد مدينة تلمسان، وتولي منصب الخليفة أو القيادتين المذكورتين يتطلب حضور الكفاءة والشجاعة في شخصية الموظف الحكومي المرشح لذلك.

وذكر "استرهازي" قبائل الرعية التي تخضع لخليفة باي الغرب والتي تلتزم بدفع لزمة نقدية وعينية للخليفة كل سنة وهي:

عياشة، بني زروال، أولاد بورحمة، أولاد خلوف، زريفة، عشاشة، أولاد يونس أو شرفة الجبل، بني زنطيسن، بني مديونة، بني مدون، صبيح، حمس، وأولاد فارس، أضف إلى ذلك رعية قايد المكاحلية.(3) أما القبائل المخزنية المعفاة من الضرائب، والتي تخضع لسلطة الخليفة بالغرب الجزائري فقد عددها "استرهازي" كالآتي: مخزن المكاحلية، مخزن أولاد احمد، اولاد بوقرارة، حكرمة، أولاد سلامة، أولاد العباس، وأولاد خويدم.(4)

* **الأغوات المخازنية:**

أفادنا "استرهازي" أن لباي وهران أربع أغوات، إثنان من الدواير، وإثنان من الزمالة، وهو يختلف مع المزاري صاحب طلوع سعد السعود الذي أشار إلى أغوات الباي حسن –آخر بايات وهران قائلا: " وكان آغته من الدوائر بالنوبة الصناديد الثلاثة...ومن الزمالة ثلاثة أيضا بلا زايد [بدون زيادة] بقوا على ذلك إلى انقطاع الترك...".(5)

وعلى كل يشير المزاري إلى مبدأ التداول على السلطة بين الأغوات الثلاثة للقبيلة المخزنية الواحدة سواء كانت الدواير أو الزمالة، لكنه لم يحدد مدة حكم كل آغا مخزني، فقد اكتفى بلفظتين هما: " بالنوبة، والتداول" ويبقى مبدأ الاشتراك بين الدواير والزمالة في الآغوية واضحا.

وعن التزامات الأغوات المخازنية –بايليك الغرب نموذجا– ذكر استرهازي أن أغوات الدواير يدفعون للباي أربعون ألف ريال بوجو مقابل حصولهم على القندورة أو البرنوس الـــذي يرمز إلى الشرف، أما أغوات الزمالة فيدفعون عشرون ألف ريال بوجو. وفي كل ســـتة أشـــهر يدفع الأغوات المخازنية الأربع أو الست للباي، ضريبة المنصب، وهم الذين لهم صلاحية تعـــيين القياد في مخزنهم ويتسلمون حق أو ضريبة البرنوس.

ويشرف أغوات الدواير على إدارة القبائل الآتية: مخزن الدواير، مخزن البرجية، وقبائـــل الحشـــم الغرابة والشراقة وحشم أولاد عيسى ابو العباس. أما أغوات الزمالة فيديرون شـــؤون القبائـــل الآتية: مخزن الزمالة، مخزن شرب الريح، سجرارة، بني شغران، عبيد الشراقة والغرابة.(6)

ونتساءل لماذا عين الباي أربع أغوات مخازنية في حكومته من قبيلتي الدواير والزمالة دون القبائل المخزنية الأخرى؟ والجواب على ذلك يكمن في أن قبائل الدواير وقبائل الزمالة هي أقوى القبائل المخزنية بالغرب الجزائري عددا وعدة، فقد حدد لوي رين عدد فرسان الـــدواير بـــألف وخمسمائة فارس، وعدد فرسان الزمالة بتسعمائة فارس ليصل مجموعهما إلى ألفـــين وأربعمائـــة فارس من أصل ستة آلاف ومائة فارس مخزني. (7)

*** قياد الأوطان:**

يجمع القياد بين الإدارة والقضايا السياسية حيث يتولون إدارة الأوطان ويمثلون البايليك لدى السكان بالريف، يأتمرون بأوامر آغا العرب بدار السلطان، والباي بالبايليكات الأخـــرى ويعملون بالاعتماد على الشيوخ وزعماء القبائل في إقرار الأمن وجمع الضرائب، كما تتوســـع صلاحياتهم لتشمل مراقبة الأسواق الريفية والحد من المنازعات بين أفراد القبائل، ويسيرون رفقة فرسان الوطن الريفي، عند الخروج باتجاه القبائل العاصية .(8)

وقد جرت العادة أن يختار القياد من الأتراك أو الكراغلة أو من العائلات ذات النفوذ أو الكلمة المسموعة لدى السكان (الحضر). إذن، القياد في الريف يمارسون سلطتهم الإدارية على قبائل الرعية والقبائل المخزنية، فهم عيون البايات والداي في المناطق الريفية.

وتتجلى مهام قياد الأرياف الأساسية في :

–تقييم المحاصيل الزراعية ومراقبة مواشي الدولة وتحديد مقدار الضرائب التي تتقاضاها خزينة كل بايليك عن تلك المحاصيل والمواشي. وقد امتاز بايليك قسنطينة بتنظيم خاص لهؤلاء القياد بحيث أصبح هذا التنظيم يتصف بالفاعلية والدقة والكفاءة، فهو يعتمد أساسا على قائدين للعشـــور: أحدهما لشرق البايلك والآخر لغربه، يراقبان الإنتاج ويقيمان الضرائب، يعينهما في ذلك قائـــد

جبري لكل من شرق وغرب البايلك، ويقدمان عن ذلك حسابا دقيقا لشيخ البلد قبل أن تودع المداخيل في مخازن البايلك.(9)

-مراقبة عملية استخلاص الضرائب من القبائل والعشائر والأعراش بواسطة رؤسائها أو شيوخها.

-إقرار الأمن وتنفيذ الأحكام، ويقوم بهذه المهام بعض القياد مثل قايد فحص مدينة الجزائر الذي كان ينظم الاحتفالات في المواسم والأعياد وينفذ أحكام الشنق عندما يتلقى الأوامر من آغا العرب.(10)

ولقد تمكن قياد الأرياف بفضل مهامهم الأمنية والاقتصادية من أن ينعموا بالمرتبات المعتبرة والدخل الوفير الذي يستخلصونه من الضرائب العينية التي يشرفون على جمعها، فضلا عن الهدايا والرشاوي التي كانوا يحصلون عليها في مناسبات عديدة، وبذلك أصبحوا مجموعة إدارية متنفذة بالأرياف تعرف بلباسها الذي يميزه البرنوس ذي اللون الأحمر.(11)

* **شيخ العرب:**

تداولت هذا المنصب، والمصطلح في الوقت ذاته، القبائل الصحراوية، ببايليك الشرق الجزائري، وتمنحه السلطة التركية العثمانية المتوغلة في الصحراء لرئيس أقوى القبائل الصحراوية، فمثلا لما سيطر الأتراك العثمانيون على منطقة الزيبان واستولوا على عاصمتها بسكرة، انتصبت حامية عسكرية بقيادة حسن آغا سنة 1742 ثم بعده صالح رايس سنة 1752، ولكن السلطة الفعلية كانت بيد رئيس عائلة بوعكاز من قبيلة الذواودة بصفته شيخا للعرب، لكن ابتداء من النصف الثاني من القرن 17 انتقل المنصب إلى عائلة ابن قانة.(12)

وتتمثل مهام شيخ العرب في مرافقة المحلات العسكرية المكلفة بجمع الضرائب من الأوطان الريفية في كل صيف وشتاء من كل سنة، ليكون واسطة بين الترك والقبائل العاصية، في جمع الغرامات واللزمة. وما ورد في مخطوط حول قسنطينة وحكامها يؤكد هذه الفكرة المتعلقة بمهام شيخ العرب، نقتبسها كالآتي: " غير أن أرض السحرا [الصحراء] كان يرسل إليها عشرة أخبية في كل خباء عشرون رجلا من عسكر الترك وزواوة ومعهم شيخ العرب فلما يصلوا إلى السحرا [الصحراء] يقصدون بلد بسكرة لأنها هي الكبيرة في قراء [قرى] السحرا [الصحراء]...ويترل ذالك [ذلك] العسكر بالبلد المذكور...وشيخ العرب يرسل خدامه لكافة أهل السحرى [الصحراء] بالمكاتب لاستخلاص ما عليهم من الغرامات وغرامتهم الدراهم وحلي الفضة والذهب والجمال والعسل والكسوة ويقيم بها ستة أشهر..." (13)

3-السلطات الإدارية المحلية ودورها في إدارة أرياف الجزائر العثمانية:

*** شيخ القبيلة:**

يتولى الإشراف على شؤون القبيلة، ويعود تنصيبه في مهامهم إلى القايد، وغالبا ما يتم اختيار الشيخ من أعيان القبيلة، ويقع إثباته في مهامه نزولا عند رغبة هؤلاء الأعيان الذين يرشحون لمنصب الشيخ من كان متميزا برجاحة عقله وحسن أخلاقه ورفعة مكانته وانتسابه إلى العائلات ذات النفوذ.

وقد أصبح هذا الإجراء المتبع في تنصيب الشيخ عادة متبعة من النادر أن يخالفها القياد عند تعيينهم للشيوخ على رأس القبائل أو الجماعات بأوطان البايليك، وتشير إحدى وثائق سجلات البايلك أن الداي بالجزائر العاصمة كان يصادق على تثبيت وترسيم شيوخ القبائل بعد اقتراحهم ممن يعرفونهم فقد ورد في مستهل الوثيقة ما يأتي : " بيان عدد المشايخ الذين لبسهم سيدنا علي باشا على يده أواخر شهر ربيع الثاني سنة 1233." ويظهر أن عدد المشايخ على الأوطان والعروش والقبائل بلغ في الوثيقة خمسة عشر شيخا، وأعتقد أن ذلك يتعلق بقبائل دار السلطان الخاضعة مباشرة للداي، أما البايليكات الأخرى فيبدو أن تثبيت شيوخ القبائل هو من اختصاص البايات.(14)

ونظرا لطبيعة اختيار الشيخ، فإن سلطته الإدارية كانت تعتمد على رضى أفراد القبيلة وتنفيذ ما اتفق عليه أكابرها في الشؤون الهامة، وهذا ما أكسب الشيخ في الغالب سلطة أبوية غير محدودة وقدرة على تنفيذ القرارات الصادرة من القايد، ولو بالاعتماد على إحدى فروع القبيلة التي ينتسب إليها أو التي ارتبطت معه بالولاء أو التبعية، والتي أصبح بعض أفرادها يشكلون مجموعة من الفرسان أو الأعوان المسلحين الذين قد يستخدمون في الحد من تحرشات المتنافسين على المشيخة والوقوف بجانب الشيخ في كل صراع قبلي، قد يكون مضرا بنفوذه أو سلطته الأبوية.

تتنوع مهام الشيخ حسب حاجات القبيلة التي يشرف عليها، فهو مكلف بمراقبة مواسم الحرث والحصاد وتقسيم الأراضي بين العائلات، إذا كانت الأرض مشاعة وينظر في قضايا توزيع مياه الري وتخصيص المراعي واختيار مكان استقرار الدوار إذا كانت القبيلة تمارس حياة الترحال الموسمي. كما يحق للشيخ في الجهات البعيدة عن نظر القائد، مراقبة الأسواق الريفية وفرض الغرامات وإلزام السكان بدفع المطالب المخزنية حسب قدرتهم مما يجعل منه المرجع الأول لأفراد القبيلة في حالة وقوع المخالفات وتقدير الضرائب المتوجب بعثها إلى القائد.

بهذه المهام تأكدت مكانة الشيخ وأصبح نفوذه مرتبطا بمدى مقدرته على تلبية مطالب البايليك ومدى قدرته على حفظ الأمن في مواطن قبيلته، وحرصه على توجيه ما يتحصل عليه من مطالب وجبايات لمخازن البايليك.(15)

ونشير إلى أن الشيخ في القبائل الخاضعة (الرعية) يميل أكثر إلى تلبية طلبات القياد، أما في القبائل الممتنعة (المتحالفة) فيميل إلى تلبية طلبات الجماعة.(16)

وذكر لوجي دي تاسي أن شيخ القبيلة يجمع يوميا، وفي كل مساء، رؤساء الخيام في مكان بعيد عن الدوار، مشكلين وهم على ظهور خيولهم، دائرة ويتوسطهم الشيخ، يتداولون القضايا والأعمال التي تهم القبيلة أو الدوار.(17)

*** مجلس الجماعة (القبيلة):**

يساعد شيخ القبيلة في أداء مهامه مجلس القبيلة أو الجماعة، وبالتالي التسير جماعي لا فردي، ومن مظاهر التسيير الجماعي لشؤون القبيلة:

-تعيين شيخ الجماعة أو القبيلة.

-تحديد أوقات انطلاق قطيع الماشية للمراعي.

-توزيع الماء وأعمال السقي.

-النظر في التراعات التي تحدث بين الأفراد.

-الدفاع عن حدود القبيلة.

-تنظيم الأسواق.

-حماية الأجانب عن المنطقة وضيافتهم.

-تنظيم أعمال التويزة.

-مراقبة الطرق التجارية.(18)

-النظر في إقرار السلام وقبول الأمان من الحكام.

-تقدير الضرائب.

-اتخاذ موقف موحد إزاء القبائل الأخرى فيما يتعلق بالأحلاف والصفوف والمشاجرات والدية وحماية الأفراد المنتسبين إليها أو إعلان التخلي عنهم.(19)

-اتخاذ الإجراءات المناسبة لإدارة القبيلة.

-تعيين قضاة القبيلة.

-مناقشة مداخيل ومصادر رزق القبيلة ومصاريفها.

-تحديد الأسعار.

-تحديد الأشغال الشاقة في حدود القبيلة.

-جمع أفراد القبيلة في مدخل الدشرة أو القرية لمناقشة إدارة الدشرة أو القبيلة أو البلاد الجزائرية برمتها، ولكل حاضر في هذا التجمع السياسي الاعتبار وحرية المناقشة.[20]

*** شيخ الدوار:**

لكل دوار من الخيام شيخ يمثله لدى مجلس الجماعة أو القبيلة، وسلطة شيخ الدوار حسب لامبير مستقلة عن كل تمثيلية خارج الدوار سواء من قبل السلطة التركية العثمانية أو القبيلة التي ينتسب إليها.[21]

*** الوكلاء المخازنية:**

يتنقل الوكلاء المخازنية كل سنة عبر الأوطان الريفية قبل حلول موعد الحصاد والجني، لضبط الملكيات المزروعة فعلا، وتقدير محصولها، وتهيئة العمل الجبائي لقياد العشر الذين يجبون هذه الضريبة بقبض عشر المحصول من كل ملكية مزروعة بمساعدة مجموعة من الحرس المخازنية.[22]

وأفادنا الدكتور بوضرياسة أن هناك وكيلان، أحدهما بالمقاطعة الشرقية للبايليك والآخر بالمقاطعة الغربية، لكن يظهر أن الباحث قد أدرج الوكلاء المخازنية ضمن قياد العشر، و لم يفصل بين صلاحيات كل موظف بدقة.[23]

*** قياد الجباية الريفية:**

-قائد العشور:

العشر ضريبة دينية أقرها الإسلام، كانت تدفع عينا ونقدا، وقدرها أحد الكتاب الفرنسيين بضواحي مدينة الجزائر في أواخر الفترة العثمانية، بستة صاعات من القمح وستة صاعات من الشعير وبوجو واحد للزويجة، وعادة ما يكون دفع العشر نقدا عندما يتعذر على السلطة الضريبية العثمانية نقل المحاصيل الزراعية –العشر العيني- إلى المخازن.[24]

وتتجلى مهمة قائد العشور في استخلاص ضريبة العشور بمساعدة المخزن، وقد تزايدت أهميته في أواخر العهد العثماني عندما تحولت سياسة الدولة من الاعتماد على مداخيل البحر من غنائم وأتاوات الدول الأجنبية وهدايا القناصل الأوربيين إلى الاعتماد على منتوجات الأرياف، وقد أصبح قائد العشور في أي وطن من الأوطان الريفية من الموظفين ذوي النفوذ القوي والمكانة المسموعة لدى السلطات التركية العثمانية.

-قائد مخزن الزرع:

يقدر مساحة الأراضي المزروعة وما يمكن أن يؤخذ منها من عشور بالرجوع إلى قائد العشور، كما يشرف على مخازن الحبوب العائدة للدولة.

-قائد التوت:

يستخلص الضريبة السنوية المفروضة على شجر التوت المنتشرة بفحص الجزائر وأحواش سهل متيجة، والتي تضاءلت أهميتها في أواخر العهد العثماني نتيجة التحول عن تربية دودة القز، وهذا ما أثر على مكانة هذا القائد في السلك الإداري.(25)

*** المرابط:**

ذكرت المصادر الفرنسية أن المرابط بصفته شخصية دينية إسلامية، كان له دورا إداريا وقضائيا، فهو يتدخل في التراعات القبيلية لإحلال الوئام أو عقد اتفاق طويل المدى، وهو الذي يقترح على القبيلة من ينتخبونه لرئاسة حسب معيار الكفاءة والشرف، وهو الذي يقرأ الفاتحة على المنتخبين.

ويظهر دور المرابط جليا في إدارة القضايا الخطيرة التي تواجهها القبيلة ببطونها ومداشرها، فتجده يتوسط التجمع القبيلي -الذي عادة ما يحدد في سوق القبيلة بتاريخ معلوم- شارحا لهم الهدف من وراء هذا التجمع، ثم يفتح المجال للنقاش، بحيث من حق كل فرد في القبيلة مهما كانت مكانته، أن يقدم رأيه ويناقش ما استفهم واستعصى.

وبعد حوصلة الآراء والأفكار، المختلفة، يجتمع المرابط بأعيان القبيلة، ويتفقون على مجموعة قرارات، يبلغها البراح للقبيلة، وإذا لم يطعن في قرارات اجتماع المرابط وأعيان القبيلة، يستدعى مجلس الجماعة الشرعي لتزكية القرارات المتخذة. وإلى جانب ذلك نرى المرابط البربري يتدخل في أسواق القبيلة ليحل عندئذ محل أمين الدشرة.(26)

يمثل المرابط القائد الروحي للقبيلة بدواويرها، ويستمد سلطته من نفوذ زاويته وارتباط السكان بها، وهذا ما جعل شخصيته رئيسية في التنظيم الإداري والقضائي، ونظرا لنفوذه الروحي وكلمته المسموعة لدى الجماعة فإن القياد والبايات وآغا العرب وبعض شيوخ القبائل كانوا يحرصون على ربط علاقات تعاون معه، وذلك بإقرار امتيازاته وتأكيد مكانته وإبداء مظاهر الاحترام لشخصه والامتناع عن أي عمل قد يمس بمكانة الزاوية أو يحط منها في عيون السكان، فالأضرحة والمزارات والزوايا أماكن مقدسة وملاجئ لا يمكن انتهاك حرمتها.(27)

وقد حاول صاحب المرآة إبراز دور المرابط في أمن الطرقات كشكل من أشكال التسيير الاداري للريف بالشرق الجزائري إذ كتب عن جهات بجاية مبينا أن القافلة التجارية كانت تتخذ أحد المرابطين منقذا وحام لتجارتها من قطاع الطرق، وحتى الحاميات التركية العثمانية المتوجهة إلى حصن بجاية سنويا مضطرة الى اصطحاب مرابط وإلا تأخذ طريق البحر وهذا رغم مسؤولية بعض القبائل في تحمل أعباء تأمين الطرقات.(28)

وفي سبيل توضيح الدور الإداري للمرابط، ذكرت الدراسات التاريخية أن للمرابط حق عقد الزواج، وإعلان الطلاق وغير ذلك، في إطار القبيلة.(29)

وذكر لامبير عن قبائل جرجرة أنهم شديدو التمسك بمرابطيهم الذين يحلون محل الوزراء والعلماء بالمدينة، إذ يتدخلون لإصلاح ذات البين ويستشارون في التراعات بين القبائل، ويشفون المرضى ويرشدون الحيارى، ويعيش ألمع المرابطين بين أضرحة أجداده ويجتمع حوله الشباب بصفة طلبة.(30)

*** الشرطة:**

ذكر قايد مولود وجود جهاز الشرطة في الريف من قرى ودواوير، وكانت منظمة مثلها مثل شرطة المدينة، استطاعت أن تحافظ على الأمن العام داخل هذه التجمعات الريفية من خلال " المزوار". (31)

وذكر ماسكاراي Maqueray أن بقرية بني فراح الأوراسية فرقة تؤدي دور الشرطة تطوعا أي بدون راتب، تمثل القوة الشعبية، عدد أفرادها عشرة رجال، مهمتهم، القبض على المتهمين بالخروج عن القانون العرفي، كما يجبرون كل الرجال القادرين على حمل السلاح إلى الاستعداد للمشاركة في الحرب.(32)

*** قضاة الأوطان:**

ذكر لامبير – عند حديثه عن القضاة بالمدن الجزائرية في أواخر العهد العثماني– قضاة الأوطان الريفية، وقال عنهم أنهم يقاضون في المنازعات التي فصل فيها شيخ القبيلة ووقع عليها الطعن من قبل أحد المتنازعين فيرفع التراع الى قاضي الوطن، ويبدو أنه يقاضي في المنازعات المدنية اليومية العادية وفي الجرائم اعتمادا على القرآن الكريم والأعراف المحلية والمواثيق القبلية التي تجذرت مع مرور السنين حتى أضحت قوانين. وقال الكاتب الفرنسي أن قضاة الأوطان يحتلون الدرجة الأخيرة من حيث المستوى المعيشي الاجتماعي، حيث يرتبون كالآتي:

*قضاة مدينة الجزائر.

*قضاة المدن الرئيسية الأخرى كقسنطينة ووهران والمدية وتلمسان.

*قضاة المدن الصغيرة العادية.

*قضاة الأوطان الريفية.[33]

ثانيا–الوظيفة الاقتصادية لريف الجزائر في أواخر العهد العثماني:

1–الوظيفة الزراعية:

حاول المنظرون الاستعماريون تغييب أهم وظيفة اقتصادية للريف الجزائري في العهد العثماني، وهي الوظيفة الزراعية، فإدعوا في كتاباتهم أن أرض الجزائر عبارة عن قفار بدون سكان، وهي بحاجة إلى من يبعث فيها روح الحضارة، وبالتالي يريد هؤلاء تبرير حملتهم الاستعمارية ضد الجزائر سنة 1830، ونعتها بالحملة الحضارية، وقد اعتادوا على ذلك عند غزوهم لمصر سنة 1798. وفي هذا السياق، نحاول تسليط الضوء على هذا القطاع الزراعي بالجزائر العثمانية، مبرزين خصوصياته وتنوع منتوجاته والتقنيات المستعملة ساعين إلى دحض مزاعم الاستعماريين وتمييع أهدافهم.

أ–نظام الملكية العقارية:

ظل نظام الملكية العقارية يكتنفه الغموض وتـــثار حوله التساؤلات والاستفسارات، حتى وصل بأحد مؤرخي المدرسة الاستعمارية الفرنسية "استرهازي " إلى القول أن الجزائر بحاجة إلى الحضارة لأن أراضيها موزعة بين عدة أنماط ويتوجب إخضاعها للدولة والاعتراف بالملكيات الخاصة.[34]

وتتجلى أهمية دراسة نظام الملكية العقارية في كونه يحدد لنا الطابع العام للحياة الريفية في الفترة العثمانية ويرسم الإطار الخاص بها، ويساعدنا على فهم نظام الضرائب الريفية وعلاقة الحكام بالقبائل، كما يمثل الدعامة التي كانت تقوم عليها الصفة الاقطاعية للمخزن مثلا.[35]

*** أراضي الدولة أو البايليك:**

وهي الأراضي التي استحوذ عليها الحكام العثمانيون عن طريق المصادرة[36] والشراء ووضع اليد في حالة الشغور وانتفاء الورثة أو عند ترحيل السكان المقيمين عليها عند امتناعهم عن دفع الضرائب المتوجبة عليهم، وعصيانهم لأوامر موظفي السلطة التركية العثمانية، أو تحالفهم مع الاسبان مثل ما وقع لبني عامر وفليتة بالغرب الجزائري أو عند إعلانهم التمرد ضد الحكم العثماني مثل ما جرى لقبيلة الأمحال بسهول الشلف. والواقع أن هذه المصادرات هي التي جعلت أراضي العزل تختلف من بايليك إلى آخر، فأراضي عزل بايليك التيطري ووهران أو قطاع دار

السلطان كانت عبارة عن قطع متناثرة وسط أراضي العرش(الأراضي المشاعة) والملكيات الخاصة، وتقدر مساحتها ببعض مئات من الهكتارات.

أما أراضي عزل بايليك الشرق، فقد كانت ضمن دائرة مركزها، مدينة قسنطينة، لا تكاد تفصلها إلا بعض الملكيات الخاصة التي لا تتجاوز مساحتها عشرة آلاف هكتار، على امتداد أودية الرمال وبومرزوق ووادي الزناتي والوادي الكبير، وبعض القطع المنعزلة بضواحي عنابة أو على سفوح الجبال. وهذا ما جعل أراضي العزل ببايليك الشرق تكسب أهمية خاصة ترتكز على جودة الأراضي وسعة المساحة الإجمالية التي يقدرها السيد " كاريت وارنيي Carette warnier" في تقريره سنة 1841 بـــ112.351 هكتار. ولعل تقديرات 1867 أقرب إلى الحقيقة، لدقتها وعدم حدوث أي تغيير جذري في هذا النوع من الملكيات العقارية أثناء الفترة الأولى للاحتلال، ومفاد هذه التقديرات أن أراضي عزل البايليك تبلغ مساحتها 146.693 هكتارا.[37]

وتنتشر أغلب الأراضي التابعة للبايليك في السهول الخصبة الملائمة لإنتاج الحبوب أو في الجهات التي يسهل السيطرة عليها لقربها من طرق المواصلات الرئيسية والقلاع العسكرية الحصينة، مثل سهول عنابة وقسنطينة وسطيف وسيباو ومتيجة والشلف ووهران وغريس.[38]

ويرتبط قسم كبير من السكان الريفيين سواء منهم القار أو المتنقل،[39] في معيشتهم بهذا القطاع عن طريق كراء الأرض[40] وتستغل أراضي الدولة بطريقتين: طريقة الاستغلال المباشر، وطريقة الاستغلال غير المباشر[41] ، وبيان ذلك كالآتي:

-طريقة الاستغلال المباشر:

-نظام الخماسة: وهو نظام يمكن الفلاح من العمل في الأرض لفائدة الدولة مقابل خمس الإنتاج، بعد أن توفر له الأرض والمحراث والحيوانات والبذور، وقد وفر الخماس من العمل في أرض البايليك مدخولا ماليا محترما يقدر بـــ 343 فرنكا لليوم حسب إحصائيات أجريت في أوائل الاحتلال الفرنسي. هذا الدخل المحترم راجع أساسا إلى اشتغال الفلاح بمهن أخرى مدة ثلاثة أرباع السنة أو لخصوبة الأراضي ووفرة الإنتاج.[42]

-نظام السخرة أو التويزة: غالبا ما لجأت الدولة إلى تسخير فلاحي قبائل الرعية الخاضعة والمستضعفة في أعمال تطوعية، بدافع الإرغام، أثناء عمليتي البذر والحصاد، بعدة جابدات.[43]

-الاستغلال غير المباشر:

حكور المكافآت والترضيات:

عندما يتعذر الاستغلال المباشر تسلم أراضي الدولة لضباط الجيش ولكبار الموظفين وذوي النفوذ والمكانة الاجتماعية المرموقة، أو شيوخ الزوايا أو رؤساء العشائر الكبرى والقبائل القوية المتعاملة مع السلطة التركية العثمانية أو قبائل المخزن مقابل الاستفادة من خدماتهم العسكرية والإدارية واكتسابا لتأييدهم، ومكافأة لهم، مع أخذ الخراج عن غلتها، والمحدد بصاع قمح وصاع شعير للجابدة أي ما قيمته عشرة ريالات قوية، مع دفع رسوم سنوية زهيدة لا تتجاوز في غالب الأحيان أربعة ريالات عن كل جابدة، وفي كثير من الأحيان تعتبر هذه الرسوم فريضة عشر أو كراء منخفض وأحيانا تكلف بعض القبائل بتغذية وتربية قطعان الماشية التابعة للبايليك.(44)

إن استحداث حكور المكافآت والترضيات كان استجابة لظروف محلية وأوضاع تاريخية كان يعيشها قطاع كبير من بايليك الشرق وأراضي الجنوب وقيادة سيباو، والبايليك لا تتضرر سلطته بهذا الإجراء بل يوطد به نفوذه ويدعم هيمنته ويحافظ على مصالحه المادية والمعنوية.

كراء الأراضي الزراعية أو الحكور:

عندما لا ترى الدولة فائدة في إقطاع مساحات من أراضي البايليك للمتعاملين معها، تلجأ إلى أسلوب الكراء لفائدة سكان القرى والدواوير والمداشر، وقد لعبت فئة الحضر بالمدن لاسيما الفئة الموسرة منهم، دورا في إنجاح عملية الكراء حيث كانت تتوسط بين الفلاحين العاملين وحكام الدولة،(45) ويعرف هذا الكراء في الشرق الجزائري بالحكور، وتسمى الأرض التي يؤخذ منها مستحقات الكراء "بعزل جبري"وهي في أغلبها تتركز حول مدينة قسنطينة، وتنتشر على مساحة واسعة قدرتها الإحصائيات الفرنسية بـــستين ألف هكتار، يستغل منها حوالي ثماني وأربعين ألف هكتار في زراعة الحبوب والباقي يخصص لإنتاج الخضر والفواكه المختلفة، وكانت الدولة تأخذ اثني عشر صاعا من القمح و اثني عشر صاعا من الشعير على الجابدة أي بنسبة أقل من خمسين بالمائة، مما زرعه الفلاح، إذا أخذنا بعين الاعتبار تقديرات كاريت وارنيي لسنة 1841، أي ما يساوي بأسعار فترة أوائل الاحتلال حوالي خمسة وعشرون فرنكا للجابدة.(46)

وحسب فونتور دي بارادي تأخذ الدولة عن كل جابدة (عشرة هكتارات) ثلاثة على خمسة بدقات شيك حسب جودة الأرض. وعلى كل تأخذ الدولة مستحقات الكراء دون اعتبار للخسائر والجوائح التي تتعرض لها المزروعات بحيث تكون هذه الخسائر على حساب الفلاح.

*** الأراضي الخاصة:**

يستغلها أصحابها مـــباشرة، ولهم حق التصرف فيها حسبما يشاؤون، ببيعها أو إهدائها أو توريثها، ويمكن تمييز صنفين من الملكيات الخاصة:

-الملكيات الخاصة الواقعة بجوار المدن أو الفحوص: وتسودها بساتين للخضر والفواكه مع بعض المزارع المنتجة للحبوب، يمتلكها موظفو الدولة وأعيان المدينة وبعض الموسرين من مختلف الطوائف المقيمة داخل أسوار المدن كالتجار والقناصل والصناع وغيرهم، وتتصف هذه الملكيات بعدم الاستقرار، لتعرضها للمصادرة والحيازة من طرف الحكام، مما استدعى من مالكي الأراضي الخاصة إلى تحويلها إلى أراضي وقفية في كثير من الأحيان.

-الملكيات الخاصة البعيدة عن المدن بالمناطق الجبلية والمناطق السهلية الداخلية والواحات الصحراوية، ويرتكز فيها مبدأ حيازة الأرض على التنظيم القبلي ويستند إلى العادات المتوارثة في تلك الجهات مثل الونشريس، الظهرة، التيطري، جرجرة، الأوراس، الشمال القسنطيني، سهول معسكر، والواحات الصحراوية.[47] .

*** الأراضي المشاعة (الخراجية)**[48]

تستغل جماعيا في إطار القبيلة أو الدوار أو العرش ، بحيث لكل أسرة نصيب منها حسب إمكانياتها، مع ترك جزء من الأرض بورا قصد تجديد خصوبته أو استغلاله في الرعي. وجرى العرف القبلي أن الأرض تسلم لمن يخدمها، وعادة ما تكون هذه الأراضي تحت مراقبة السلطة التركية من خلال قيادها في الأرياف وكذا شيوخ القبائل.

ويوجد أغلب أراضي هذا النوع من الملكيات المشاعة، بالمناطق الممتنعة عن السلطة المباشرة للحكام والتي تتميز بحصانتها الطبيعية، وقلة خصوبتها مثل مناطق وهران الداخلية وجهات التيطري الجنوبية وأطراف بايليك الشرق حيث تستقر قبائل النمامشة والحنانشة والحراكتة وأولاد قاسم وأولاد عاشور وأولاد مقران.[49]

* **أراضي الوقف**: وهي نوعان:

-أراضي الوقف الخيري: أو الحبس العام، يعود مردودها على المصلحة العامة التي حبست من أجلها عملا بأحكام المذهب المالكي السائد ببلاد المغرب العربي.

-**أراضي الوقف الأهلي**: أو العائلي أو الخاص، وهي التي يحتفظ فيها المحبس أو عقبه بحق الانتفاع بها، بحيث لا تصرف على الغرض الذي حبست من أجله أساسا إلا بعد انقراض العقب أو انقطاع نسل صاحب الأرض المحبسة حسبما هو منصوص عليه في وثيقة الحبس، وذلك عملا بأحكام المذهب الحنفي.

ومن العوامل التي شجعت الوقف الخاص :

-الإفتاء بجواز الوقف الأهلي العائلي.

-رغبة المحبس في توفير مصدر رزق دائم لنفسه ولأفراد أسرته وحفظ حقوق عقبه وسعيه للحيلولة دون مصادرة أرضه والاستيلاء عليها من طرف الحكام، باعتبار أن الشريعة الاسلامية لا تبيح بيع وشراء أو الاستحواذ أو مصادرة الأملاك الموقوفة.

وقد نسجل الانتشار الواسع للأراضي الموقوفة بفحوص المدن، وانحسارها بالأقاليم الريفية، ولعل ذلك راجع إلى قرب الأولى وبعد الثانية عن يد الحكام، وإذا كان الوقف الخاص هو الطاغي بالفحوص فإن العكس نلاحظه في الريف البعيد عن المدينة. وإذا كان الوقف الزراعي وسيلة تأمين اجتماعي فإنه لم يسمح بتطور النشاط الزراعي وزيادة الانتاج الفلاحي.[(50)]

*** أراضي الموات:**

يعرف الفقهاء أن الموات هو لا مالك له ولا ينتفع به من الأراضي لانقطاع الماء عنها أو لغلبته عليها أو لغيرهما من الأسباب مما يمنع الانتفاع بها. وفي تعريف آخر هي ليست ملكا لأحد ولا هي مرعى ولا محتطب لقرية وهي بعيدة عن التجمعات العمرانية، وهناك فرق بين الأراضي الموات والأراضي المتروكة التي يقصد بها الأراضي المتروكة لسكان الريف في رعيهم ومحتصدهم ومحتطبهم.[(51)]

ويكون إحياء أراضي الموات بالزراعة والبناء وجلب الماء وغير ذلك من الأنشطة العمرانية، وقد اختلف الفقهاء في شروط صحة الإحياء، فيرى المالكية جواز الإحياء دون إذن الحاكم، للأرض البعيدة عن العمران بينما يرى الأحناف أن إذن الحاكم ضروري لأن هذه الأراضي كانت في أيدي الكفار فصارت في أيدي المسلمين فكانت فيئا ولا يختص أحد بالفيء بدون إذن الحاكم المسلم.[(52)]

وما يلاحظ أن سكان الريف بالجزائر العثمانية لم يقبلوا على استثمارها، لا سيما أثناء فترة الاضطراب والفوضى التي ساعدت على تحويل مساحات شاسعة من الملكيات الخاصة والمشاعة إلى أراضي الموات، انعدمت فيها الزراعة وأصبحت مراعي طبيعية.

وتقع أغلب أراضي الموات في المنطقة شبه الجافة المعرضة للجفاف والآفات الطبيعية كالجراد، ولوحظ أن اتساع أراضي الموات ظل طيلة العهد العثماني يتناسب طرديا مع قلة السكان وحلول القحط وانعدام الأمن وضعف السلطة المركزية، التي أصبحت الظاهرة المميزة مع مطلع القرن التاسع عشر الذي عرفت فيها أراضي الموات أقصى اتساع لها، ففي السنوات الأخيرة من الوجود العثماني قدر الفرنسيون مساحة الأرض الصالحة للزراعة في منطقة التل الخصبة بحوالي تسعة ملايين هكتار، لم يكن مستغلا أو منتجا منها سوى خمسة ملايين هكتار.(53)

ب-أساليب الاستغلال الزراعي:

يرى المؤرخون المهتمون بالدراسات العثمانية أن استغلال خصوبة السهول الجزائرية، كان محدودا في عهد العثمانيين، فأغلب جهاتها تغطيها الحشائش البرية والأشجار غير المثمرة، ويحملون السياسة العثمانية في ذلك، لأنها هي التي أقرت القبائل المخزنية ذات المهام العسكرية والإدارية على هذه المساحات الخصبة، فمثلا كانت 78% من السهول الوهرانية بحوزة عشائر المخزن، التي تربي الماشية من أغنام وماعز وأبقار وتمارس زراعة بسيطة متنقلة لا تتعدى انتاج كمية قليلة من القمح والشعير. (54)

وتفيد إحدى رسائل الداي حسن باشا سنة 1207هـ/1792-1793م إلى السلطان العثماني، محدودية أو ضعف الاستغلال الزراعي بالجزائر العثمانية إذ نقرأ ما يأتي: " ...إن هذه الأوجاق...لهي في مملكة ذات براري واسعة وشاسعة إلا أن سكانها لكونهم يتشكلون من القبائل والعربان، لا يقومون بإحيائها وفلاحتها كما يلزم، ولذا فإن الأعشار التي تأخذها منهم مما استخدمــوا وزرعوا منها بصعوبة فائقة ومشقة كبيرة لا تفي بالحاجة المعاشية المطلوبة..." (55)

وفي السياق نفسه كتب شالر أن سكان الريف بالجزائر العثمانية غير مجتهدون ولا يحيطون بالمعارف الزراعية مما جعل مثلا زراعة الخضر في حاجة إلى تنويع وتوفير.(56)

ولاحظ هاينريش أن الفلاح الجزائري في تعامله مع الأرض الزراعية، يكتفي بإبعاد الأعشاب الضارة فقط لأن الأرض التي يزرعها قليلة القيمة نسبيا، فهي لا تستحق أن يعتني بها أكثر من ذلك، ما دام القمح يباع بثمن زهيد.(57) ولا يعود إليها إلا مع نهاية شهر ماي وبداية جوان، ليحصد القمح والشعير بالمناجل، وذكر شلوصر أنه كان يضرب عمودا في الأرض، ويوضع حوله سنابل القمح أو الشعير، ثم تدوسها خمسة أو ستة بغال بأقدامها. وبعدئذ تصفى الحبوب بالمذراة، ويحــفظها في مطــامير خارج الدوار في انتظــار طحــنها بواسطة طاحــونات مائية

أو طاحونات حجرية يدوية تكلف ساعات في اليوم الواحد من أجل إعداد الدقيق للاستهلاك اليومي.(58)

وبعد جمع الغلة، يضع الفلاح الجزائري قسما من غلته في كيسين، ليبيعها في السوق، ويدفع من المال الذي أخذه ضريبة للسلطة العثمانية، ويدخر الباقي ليقيه نوائب الزمان.(59)

وبعد مقابلة النصوص التاريخية حول الاستغلال الزراعي بأرياف الجزائر العثمانية نلاحظ أن هذه الصورة القاتمة التي قدمتها بعض الدراسات لا يمكن تعميمها على كافة أنحاء المجال الريفي الجزائري، فمثلا يلخص لنا "لامبير" روح العمل والاستغلال للأرض التي يتحلى بها الفلاح الجزائري في المناطق الجبلية من خلال النموذج البربري قائلا أن العمل عند القبايل يحتل المرتبة الأولى في أذواقهم فهم يستغلون المصادر الطبيعية للأرض، فتراه يحرث الأرض السهلية ويمارس البستنة في الجبال.(60)

كما يظهر الاستغلال العقلاني للقدرات الزراعية المتناسب مع تطورات العصر الحديث عند دراستنا للعمل الزراعي بفحص مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني وقدرته على أداء وظيفته الزراعية وحضوره الأساسي في حياة مدينة الجزائر، وقد يتسنى لنا، تبيان ذلك، كالآتي:

*** نظام الري بالفحص:**

اشتهر فحص مدينة الجزائر بزراعة الخضر والأشجار المثمرة والحبوب، الأمر الذي تطلب نظام ري أو سقي يعتمد نجاحه، على مهارة عمال الأرض "البحارين" ويظهر أن العناصر الأندلسية أثبتت قدرتها التقنية في هذا المجال، فقد نجحت في إنشاء الآبار ذات العجلة (النوريات) والعيون والصهاريج وصرف مياهها عبر السواقي والقنوات إلى المزارع والبساتين المنتشرة في كل جهات الفحص.(61)

وكانت بساتين وجنائن طريق الحراش بفحص باب عزون، تسقى بمياه المرتفعات المجاورة، أما البساتين الواقعة بالجهات الواطئة والتي تتوفر على الفواكه والمزروعات البقولية فقد كانت تسقى بمياه العيون التي لا تبعد كثيرا عن باب عزون كما كانت غراسة سهل الحامة تسقى بأربعة عشر نورية، وكان جنان الداي نموذجا رائعا على استغلال المياه في سقي المزروعات، فكانت قنواته تستمد المياه من عيون بوزريعة: عين البنيان، عين عبد الرحمن، وعين السخاخنة.(62)

*** العمل الزراعي من الحرث إلى الحصاد:**

يقوم المزارع بحرث أرضـــه بشكل بطيئ في فصل الخريف مستعملا محراثا تجره دابتين، أو زوج من الثيران في غالب الأحيان، ويستعمل أثناء ذلك براز الحيوانات المحروق بالحطب، ويلي الحرث، البذر الذي يكون بين نوفمبر وجانفي، وفي شهر ماي وجوان وأوائل جويلية يحل موسم الحصاد، ثم الدرس بواسطة البغال والثيران، ثم تصفية ما تم درسه بالاستعانة بالرياح في اتجاهها المعاكس، حيث تسقط حبات القمح على الأرض بحكم ثقل وزنها مقارنة بقشورها وغبارها التي تتطاير في الهواء لتسقط في مكان بعيد عن مكان التصفية الذي يشترط أن يكون مفتوحا ومعرضا للرياح.

وبعد الحصاد يجمع التبن في أكواخ دائرية الشكل، مغطاة بالديس، حتى يتم تقديمه علفا للحيوانات والماشية في فصل الشتاء. أما الحبوب فتخزن في مطامر مخروطية الشكل، ويمكن لكل مطمورة أن تستوعب أربعمائة حمولة أو ثلاثون قنطارا من الحبوب، والمطامر عموما عميقة يتراوح ارتفاعها بين عشرة واثنتي عشر قدما، وتبقى الحبوب مخزنة في المطامر لمدة تصل إلى عشر سنوات أو أكـــثر دون أن تفـــقد نكهتها ومكوناتها، ولا يتطلب بناء المطمورة تـــكاليف ثقيلة أو تحضيرات مسبقة، فهي أداة ادخارية فعالة فردية وجماعية ومفيدة وقت المسغبة.[(63)]

*** الدورة الزراعية التقليدية:**

كان الخماسون بحقول الحبوب على حدود الفحص ينتهجون دورة زراعية تقليدية، فالبعض منهم يترك قسم من الأرض للرعي وقسم آخر يتم زراعته وذلك خلال السنة، وبالتالي يتسنى للتربة المتروكة للرعي أن تستريح وتستعيد خصوبتها ويتمكن الخماسون من استغلالها في الموسم الزراعي المقبل، ويحصلون على مردود وافر. والبعض الآخر، لا يترك قسم من الأرض يستريح لسنة زراعية كاملة، بل يناوب بين مزروعات معينة في أرض واحدة فمثلا يزرع في العام الأول قمحا، والعام الثاني شعيرا، والعام الثالث خضرا، وهكذا دواليك.[(64)]

*** استعمال الأسمدة التقليدية:**

استعمل الخماسون أثناء حرث المراعي في فصل الخريف، أسمدة تقليدية تتمثل في حرق براز الثيران والأغنام والماعز والحطب، بغية تجديد خصوبتها.

*** الأدوات الزراعية المستعملة:**

استعمل عمال الأرض خلال العهد العثماني الأدوات الزراعية التالية:

-المحراث الحديدي ذو المقبض الخشبي.

-العربة.

-الفأس.

-المنجل.

-المعزقة لقلب التربة بعد نكشها.

-المذراة ذات الثلاث أو الأربع أصابع.

-مشط التربة.

-المعول.

-المجرفة.

ت-أهم المحاصيل الزراعية :

*** زراعة الحبوب:**

أشار بوتان في تقريره سنة 1808 إلى أن مردود الأرض الزراعية من الحبوب التي هي عماد الزراعة في الجزائر العثمانية، يتراوح بين ثمانية وستة عشر قنطارا في الهكتار الواحد.(65) ويظهر أن ملاحظات بوتان كانت ملاحظات عامة ونسبية ولكل منطقة خصوصياتها الزراعية فمثلا أشارت الدراسات التاريخية المعاصرة التي تناولت فحص مدينة الجزائر أن الحبوب تنتج على حدوده، وأن زراعة الشعير هي المهيمنة على زراعة القمح، نظرا للاعتبارات التالية:

-لا يحتاج الشعير إلى تربة جيدة الخصوبة.

-يعتبر غذاء للانسان والماشية.

-مردوده أفضل من مردود القمح.

وعموما تمد حقول الحبوب خاصة بفحص مدينة الجزائر التي يعتني بها فلاحوها بالري والعمل، مردودا معتبرا ويصل معدل المردود السنوي للقمح بين ثمانية واثنتي عشر قنطارا في الهكتار الواحد، ويمكن أن يصل في الحقول الجيدة إلى خمسة عشر قنطارا في الهكتار الواحد، أما الشعير فيصل إلى تسعة عشر قنطارا وفي الحالات الاستثنائية يصل إلى أربعين قنطارا في الهكتار الواحد. وأشارت الدراسات أن بعض الحقول تستطيع أن تلبي الحاجيات الغذائية لعدد كبير من السكان، والبعض الآخر يمكنها تصدير حبوبها إلى الأسواق الأوربية.

***الزيتون:**

يعتبر الزيتون مادة غذائية وتجارية، ومارس سكان الجزائر زراعته منذ العصور القديمة وازدهرت خلال الاحتلال الروماني، أما عن واقعها في العهد العثماني فقد نقرأ في مذكرات الرحالة الألماني شلوصر، وحديثه عن اقليم سيباو ما يلي: " وتتمثل أعظم ثرواته في غابات الزيتون، التي تمتلئ بها الهضاب..." (66)

أما بفحص الجزائر فقد كان يغرس في المنحدرات وبجوار الوديان وعند أقدام الجبال، ويتطلب جني الزيتون الكثير من العناية والحذر، حيث كان يستغرق الجني شهرين ونصف. وكانت غراسة الزيتون بفحص الجزائر على سبيل المثال، جد منظمة، ويصل عدد الأشجار إلى ثماني وعشرين ألف شجرة زيتون، ويصل مردودها إلى اثنين وأربعين لترا في كل قدم، علما أن الهكتار الواحد به مائتين وعشرة إلى مائتين وثلاثين قدما، كما يمكن إنتاج خمسة عشر لترا في القنطار الواحد من الزيتون.

***التين:**

يغرس التين في جميع أنواع الترب، وفي المناطق الرطبة والجافة، كما يمكن غراسته في المنحدرات، إلا أنه يدر مردودا وفيرا بفحص مدينة الجزائر الخصب، فنجد في الهكتار الواحد مائة شجرة تين لا يتعدى عمرها خمس سنوات، تدر أربعة قناطر ومائتي كيلوغرام، وبعد سبع سنوات يرتفع المردود إلى عشرين قنطارا في الهكتار الواحد دائما.(67)

*** أشجار مثمرة أخرى:**

–زراعة الفواكه:

ذكر شالر أن المنطقة المعتدلة بشمال البلاد ينتج بها جميع الفواكه وبوفرة، إلا أن هناك فواكه أساسية، هي كالآتي: التين، الرمان، والعنب.(68) لكن أفادنا بوتان في تقريره لنابليون بونابرت سنة 1808، ومحمد بن الأمير عبد القادر في تحفته، بقائمة من الفواكه التي تدل على تنوع الأشجار المثمرة بالجزائر في أواخر العهد العثماني، واهتمام سكان الريف بهذا التنوع الزراعي، نوردها كالآتي:(69)

البرتقال	زهرة اللوطس	اللوز	الجوز	الاجاص
الليمون	التين	التفاح	الرمان	الموز
التمور	المشمش	العنب	الخوخ	الزيتون
التوت	الكرز (حب الملوك)	قصب السكر	البلوط الحلو	

-الخضر والبقول:

تنتشر الخضر والبقول بفحوص المدن، حيث تكثر البساتين،[70] وهي متنوعة نعددها كالآتي: البصل، الفول، الجزر، الفلفل الأحمر، الفاصولياء، الطماطم، البطيخ الأخضر والأصفر، البطاطس، اللفت، والتوابل، العدس، الأرز، الذرى، الخيار، القرعة...[71]

وقد علق شالر عن زراعة الخضر بالجزائر العثمانية ما يلي: "وسهول هذا البلد وهضابه الكثيرة، خليقة بأن تنتج أرفع أنواع الخضروات لو يتاح لها سكان مجتهدون ويعرفون الزراعة."[72]

-المحاصيل الصناعية:

ويتعلق الأمر بالتبغ، القطن، الكتان، الأرز، الورود، القنب،[73] التوت،[74] والكروم. وما يلاحظ أن زراعة الكروم كانت تهيمن على باقي الزراعات الصناعية المذكورة في أواخر العهد العثماني، حيث كان يتم تحويل قسم كبير من العنب إلى الخل، والقسم الآخر المتبقي ذي النوعية الجيدة يروج كعنب للمائدة، وحسب الملاحظين كانت زراعة الكروم الموجهة لإنتاج الخل، تأتي في شكل شجيرات صغيرة.[75]

-تربية النحل:

أشار شلوصر إلى تربية النحل باقليم سيباو قائلا: " يهتم القبائلي كثيرا بتربية النحل...وإذا شاهد القبائلي تجمع قدر كاف من النحل، فإنه يكسر البيت، ويأخذ العسل والشمع ويبيعها في المدينة، وطعم العسل جد لذيذ ويوجد بكثرة."[76]

-زراعة النخيل:

تسود هذه الزراعة في الصحراء بحكم ارتفاع درجة حرارتها، وذكر شلوصر أن ثروة سكان الصحراء تتمثل في الجمال والأغنام وغابات النخيل، مما يدل على توسع زراعة غرس النخيل في الواحات الجزائرية خلال الفترة العثمانية، ثم عرج إلى ثمار النخيل وهي التمور قائلا: " وتوضع التمور، بمجـــرد أن تنضج وتجمع، في الشمس لتجفف وتزول عنـــها رخاوتها ودهانها، أو يدك أيضا في جلود الماعز، وتوضع فوقها حجارة ثقيلة، ثم تباع."[77]

وقد يتفق مع إشارات شالر الذي كتب أن نخيل الجزائر العثمانية كثيرة وتمورها لذيذة خاصة في الواحات الصحراوية العميقة.[78]

-الأخشاب:

أشار شالر إلى انتشار الغابات بالمناطق الجبلية بضواحي بجاية وباقليم سيباو، وقال أنها ليست من النوع الجيد وقلما تستعمل لبناء السفن.(79) لكن ذكر بوتان سنة 1808 جودة خشب نواحي بجاية ووهران وتلمسان.(80)

أما لامبير فقال أن الفلاح القبايلي يستغل غاباته بمرتفعاته قصد إنتاج الأدوات المترلية مثل الصحون الخشبية (القصعات) التي يقدم فيها الكسكسي .(81)

ث-تربية المواشي:

يهتم سكان الريف بين التل والصحراء بتربية المواشي من أغنام وماعز وأبقار وثيران وكذا الدواجن التي توجد بكثرة حسب شالر، أضف إلى ذلك حيوانات النقل والعمل الشاق مثل الجمال والحمير والبغال والخيول، ويستدعي ذلك تتبع مناطق توفر العشب لتغذيتها، ويصبح الترحال الموسمي ضروريا.(82)

لذلك ذكر الرحالة الألماني شلوصر أنه بعد الفراغ من حراثة الأرض في فصل الخريف يحمل الفلاح الجزائري الذي ينعته " بالعربي البدوي" خيامه وأدواته فوق البغال، ويرحل بقطعانه، التي تسوقها النساء والأطفال، وحين يجد الماء والكلأ في مكان قريب، يتوقف ويضرب خيامه وكثيرا ما تقع الخصومات بين الدواوير عندما تجتمع على أرض واحدة مما يضطر ببعض الدواوير المغلوبة إلى الرحيل.(83)

أما عن تربية الماشية بالصحراء فأشار شلوصر إل أن ثروة سكان الصحراء الجزائرية خلال الفترة العثمانية تمثلت في قطعان الجمال التي تقوم لديهم مقام الأبقار، فيشربون حليبها ويأكلون لحومها ويستعملونها لحمل الأثقال. أضف إلى ذلك الأغنام والماعز التي تستغل في جلودها وصوفها، وأخيرا النخيل وتمورها. كما لم يغفل شلوصر إبراز اهتمام السكان، بالنعامة التي كثيرا ما حملوها هدية للباي.(84)

وإذا كان يقر بوتان سنة 1808 الوفرة العددية للجمال، الجاموس، الثيران، الأغنام، الماعز وغير ذلك من المواشي فإنه يشير إلى تراجع تربية الخيول في البلاد الجزائرية في عهده – مطلع القرن التاسع عشر- فالخيول العربية الأصيلة تكاد تكون نادرة، والخيول العادية المهجنة عددها قليل وهو في تراجع.(85)

أما عن البربر بقرى جرجرة فقد كتب لا مبير مقطعا عن تربية الماشية وأفادنا أن البربري لا يمكنه أن يملك أكثر من أربعة رؤوس من الغنم التي تبيت معه في القاعة نفسها التي تنام فيها الأسرة، عكس الماعز والأبقار وغيرها من المواشي ثم قال أن هذه الأغنام ترافق العمال إلى

حقولهم وتعود معهم إلى منازلهم وتتبعهم كما يتبع الكلب صاحبه، ولما تكبر الخرفان تقبع بالمترل ويقدم لها العلف لتسمينها حتى يتسنى لمالكها ذبحها في مناسبة معينة، ويقتطع جزء من لحمها ويملح ويعرض لحرارة الشمس حتى يجفف وبالتالي يحفظ لمدة زمنية أخرى ومناسبات أخرى خاصة بالعائلة.(86)

2-الوظيفة الحرفية والصناعية:

ذكرت بعض الدراسات الغربية أن ما يفقده المجتمع الريفي في الجزائر العثمانية هو عمال المعامل والمصانع والتجار، أي أن الصناعة منعدمة تقريبا عند القبائل الريفية، في صف الرجال، أما النساء فلا يتعدى دورهن الصناعي والحرفي صناعة ما تحتاجه العائلة من لباس ضروري. وبالتالي يعد غياب صناعة حرفية لدى القبائل عامل مساعد على اهتمام المدن بحرفها والاتجار بها والدخول في تبادلات تجارية مع سكان الريف الذي بدوره يمد المدينة بالمنتوج الزراعي.(87)

وذكر قايد مولود أن الإنتاج الحرفي بالريف الجزائري أواخر الفترة العثمانية، يركز على المنتجات ذات الاستهلاك الواسع التي سنذكرها لاحقا، وهي منتجات عادية وبسيطة، أما المنتجات الفاخرة التي لا يطلبها سوى ذوي الجاه والمال، مثل البرنوس والزرابي، فإنها تصنع بناء على الطلب أو تنتج من غير طلب لكن بكميات قليلة.

ولاحظ الكاتب احتكار العائلات الريفية للتقنية الحرفية البسيطة حيث أشار إلى التخصص الحرفي بفعل ذلك في جهات عبر بايليكات الجزائر العثمانية، فمثلا ذكر أن قبائل بني ورثيلان تختص بصناعة البرانيس، وقبائل قرقور تختص بصناعة الزرابي، وقبائل سيباو أو جرجرة وعنابة وبجاية تختص بالأسلحة وأدوات أخرى.(88)

وفيما يلي أهم الحرف والصنائع المنتشرة بالريف الجزائري في أواخر العهد العثماني:

أ-أهم الحرف والصنائع بالريف الجزائري:

*** حرفة الغزل والنسيج:**

-غزل ونسج قماش الخيام:

مورست حرفة الغزل والنسيج في خيام الدواوير من قبل النساء الريفيات فقد ذكر الرحالة الألماني فندلين شلوصر في زمن الباي أحمد مايلي: " ...وبعد ذلك تجلس امرأتان خلف المنسج، لتنسجا ألبسة للرجل ولأنفسهما وللأطفال...وفي الوقت نفسه تجلس امرأة ثالثة خارج الخيمة، وتشد خيوط صوفية بين أربعة أعمدة، وتنسج القماش الذي تصنع منه الخيمة..."

ثم قال: " ...بينما تغزل أخرى الصوف مستعملة مغزلا ذا قرص خشبي يدار بواسطته وتمسك تحت ذراعها عصا، لفت حولها الصوف، وتسحب منها خيطا...وبعد العشاء تعود النسوة إلى عملهن السابق، ينسجن ويغزلن حتى ساعة متأخرة من الليل."(89)

-نسج الصوف:

ذكر شالر أن نسج الصوف لصناعة البرانس والشالات والسجاد... منتشر في القرى الكبيرة التي هي قرى ريفية، ناهيك عن ممارستها في البيوت.(90) أما لامبير فيرى أن نسج الصوف ببلاد القبايل عبر قراها حرفة خاصة بالنساء، وتشتهر قبيلتي بني عباس وبني ورثيلان بهذه الحرفة.(91)

-صناعة البرانس:

البرنوس نوع من المعطف له شكل دائري، به قلمون، ويمكن للرجل أن يتركه معلقا بدون استعمال أو يغطي به العمامة، وهو وسيلة للوقاية من المطر. ويصنع البرنوس قطعة واحدة بدون تخييط، ويتطلب لنسجه صوف ناعمة بيضاء تمزج أحيانا بالحرير، وزخارفه وحواشيه من الحرير في بعض الأحيان.(92)

وذكر الألماني هاينريش أن قبائل بني عباس الثمانية، والساكنة بأربعين قرية ببلاد جرجرة، تشتهر بصناعة البرانس، التي تستعملها الجزائر كلها إلى حد ما، وقال أنه لبني عباس دكاكين برانس في مدينة الجزائر.(93)

*** عصر الزيتون:**

يهتم الفلاح الجزائري خلال العهد العثماني بزراعة الزيتون واستخلاص زيته، ويعتبر سكان اقليم سيباو، أحرص الناس على ذلك، فقد كتب شلوصر بشأن ذلك ما يلي: " ...وبمجرد أن يسود الزيتون، ينفض من الأشجار، ويلتقط من طرف سكان القرى المختلفة، وتوجد أمام كل قرية، فوق ميدان واسع معصرتان أو ثلاث معاصر، ويعمل فيها كل العزاب من الذكور والإناث، وهي تمثل أعيادا بالنسبة لهم، تختم بالرقص والموسيقى في بهجة كبيرة."

ويصف شلوصر جودة زيت الزيتون باقليم سيباو وقال عنه أن له طعم لذيذ، ويستعمل في جميع الأطعمة، ويحفظ في جلود الماعز، ويقوم الفلاح بتسويقه إلى أبعد القرى -في حدود على ما أعتقد، اقليم سيباو- (94)

*** صناعة البارود والبنادق:**

نقرأ في كتابات المؤرخين، أن اقليم سيباو، قد اشتهر خلال الفترة التركيـــة العثمانيـــة بصناعة البارود والبنادق، فقد سبق للباي محمد الكبير سنة 1790 عند محاصرته للاسبان المحتلين لوهران أن جلب البارود من اقليم سيباو،[95] وكتب شلوصر بهذا الشأن ما يلي: " ويصـــنعون البارود بأنفسهم...وهو سميك وليس له حبيبات متساوية، لأنهم يجهلون طريقة تنقية ملح البارود من أجزائه الترابية، ولذلك فهو قليل القوة".

أما عن البنادق، فقد أورد الكاتب نفسه مقطعا يصف فيه البندقية الجزائريـــة وينعتـــها بالجيدة، وثقل الوزن، حتى أن الجزائري يفضلها على البندقية الأوربية. ويمكن أن نتأمل الجانب الفني في بندقية اقليم سيباو من ما كتبه شلوصر: " ويمتاز القبائل بصناعة البنادق الجيدة، ويبلـــغ طولها ستة أو سبعة أقدام، ولها ماسورة مثمنة...ومقبضها يمتد إلى وسط الماسورة، وقاعدتها ذات زوايا، وهي مـــزينة عادة بحـــجارة أو جواهر صغيرة ذات ألوان متعددة وأسفلها مغطى بنحاس أو خشب جميل، والماسورة موصولة بالمقبض بواسطة ثمان أو عشر حلقات فضـــية...ومـــبرودة طولا، لتطلق النار بصورة أجود..."[96]

ويظهر أن أسعار البارود والبنادق كانت مرتفعة حيث ذكر شلوصر أن جيش البـــاي أحمد كان لا يتلقى البارود إلا قبل الهجوم بفترة قصيرة، ولا يعطى للمقاتل سوى عشر خراطيش فقط نظرا لغلائه، ولما تنفذ العشر خراطيش يحارب بالسيف.[97]

وأشار الحاج ابن الدين الأغواطي في رحلته إلى صناعة البارود، بالمناطق الصـــحراوية، حيث كتب مايأتي: " وجميع سكان هذه الصحاري يعرفون فن صناعة البارود. وطريقتهم فيـــه هي هذه: يجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدمة. وهذا التراب الذي كـــان في الأصل من مادة مالحة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء، بنفس الطريقة التي يعالج بها الرماد عند صناعة الصابون، ثم يغلى الماء إلى أن يصبح خاثرا، ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى. وهذه العناصر المختلفة تخلـــط جميعا في غضون أربع ساعات، فتصير بارودا."[98]

*** حرف أخرى:**

–صناعة السلل: قال شالر: " تصنع السلل في الريـــف ومن مختلـــف الأنـــواع للأغـــراض المـــترلية ."[99]

– **صناعة الصابون من خلال معالجة الرماد:** أشار إليها الأغواطي عند حديثه عن سكان الصحراء، مما يوحي لنا أنها كانت صناعة منتشرة بقرى الصحراء الجزائرية.(100)

–**صناعة الأسلحة،** مثل مقابض المسدسات والبندقيات، والسكاكين الحادة الناتئة التي يسميها القبايل بالخدامة، والسيوف، والبارود.

–**صناعة الأدوات المترلية مثل:**

–الأواني الخزفية والقلل والأباريق والقفف.

–الألواح الخشبية.

–الملاعق الصغيرة والكبيرة.

–الصحون الخشبية أو القصعات المخصصة لتقديم الكسكسي.

-**صناعة الأدوات الزراعية:**

–العربات التقليدية.

–سكة الحراث.

–أدوات البستنة.

–**الشاشيات القطنية.**

–**الأغطية .**

–**الحبال المصنوعة بوبر الماعز.**(101)

ب– استخراج المعادن وصهرها:

*** الفضة:**

وهي أكثر المعادن الثمينة طلبا، وحسب الكتابات التاريخية المهتمة بالفترة العثمانية بالجزائر هناك منجمين تم استغلالهما، أحدهما باقليم سيباو حيث تزخر جباله بالمعادن، فقد رأى شلوصر عند أحد الوجهاء بالاقليم عددا من السبائك الفضية، طولها ما بين خمسة عشر و ستة عشر بوصة، ولاحظ أن وفرة الفضة أدت بعدد من مزيفي النقود، يدسون قطع نقدية مطابقة للعملة الاسبانية والعملة الفرنسية بين سكان الريف في السهول والهضاب العليا وسكان الصحراء.(102) والآخر ببلاد الحراكتة بايليك الشرق، وقد حاول أحمد باي آخر بايات قسنطينة استغلال هذا المنجم رغم رداءة نوعه وقلة مردوده، ليغطي نقص العملة في اقليم قسنطينة أثناء حكمه.(103)

* **الملح:**

يتواجد الملح في سبخات أرزيو ووهران بايليك الغرب، والبليدة بدار السلطان، وفي بايليك قسنطينة، إلا أن أهم هذه السبخات هي سبخة أرزيو التي أشار إليها الجاسوس بوتان سنة 1808 في تقريره، دون أن يبدي أية ملاحظة عنها. (104)وورد أن سبخات أرزيو ووهران الغنية بالملح بإمكانها تغطية حاجيات كامل الجزائر العثمانية إذ يشتري البايليك أو باي وهران كميات من الملح، باثنين وعشرين صولدي لنصف القنطار ثم يبيعها بـــخمسة وأربعين صولدي.(105)

وذكر شلوصر إلى وجود مناجم الملح في الجنوب الصحراوي لبايليك الشرق، حيث يستغل سكان المنطقة هذا الملح في الطبخ، وأشار كذلك إلى تجارة الملح النشيطة بين المناطق الصحراوية ومدينة قسنطينة.(106) أما شالر فقد أشار إلى وجود معادن الملح الرفيع بكثرة في بعض الجبال دون أن يسميها.(107)

* **الفحم والرصاص والحديد والنحاس:**

إذا استقرأنا ما كتبه الأغواطي في رحلته، نلاحظ أن سكان الصحراء يستخرجون الفحم من شجرة الدفلى، والرصاص من منجم بالأطلس الصحراوي حيث ذكر الرحالة: " وفي الصحراء منجم عظيم من الرصاص، والعرب يأتون منه بكميات لبيعها، ولا يقع هذا المنجم تحت سلطة أية قبيلة، وهو يقع شرق أولاد نائل، وهو يسمى جبل الرصاص."(108) أما شالر فقد ركز على استغلال منجم للحديد والرصاص بجبال جرجرة.(109) وبشأن النحاس فقد اكتفى بوتان بالإشارة إلى أن مناجم النحاس هي بالقرب من تلمسان ومعسكر، ولاحظ أن الحكومة العثمانية لا تهتم باستغلال المعادن المذكورة. (110)

***استخراج الأحجار:**

وجدت بفحوص بعض المدن الجزائرية مثل فحص باب الواد بمدينة الجزائر وفحص بجاية وسكيكدة، محاجر لاستخراج الأحجار بغرض بناء المساكن والحصون والقلاع بالمدن.(111)

وذكر استرهازي أن فحص مدينة مستغانم الذي تستقر به قبيلة "حشم بدوغ" والذي يعتقد أنها تنحدر من سلالة يهودية، يمد مدينة مستغانم بالحجر الكلسي لأجل البناءات والترميمات العمرانية داخل المدينة.(112)

3-الوظيفة التجارية:

أ-قنوات النشاط التجاري بالريف الجزائري

*** الأسواق الأسبوعية:**

انتشرت الأسواق الأسبوعية في فحوص المدن وفي القرى، في كل منطقة من مناطق البلاد الجزائرية، وتنظم السوق الأسبوعية في يوم محدد من أيام الأسبوع لا يكون فيه سوق في حاضرة ريفية في بقية المنطقة، حتى يتمكن كل سكان المنطقة من الاستفادة من جميع الأسواق.

لقد كان سكان الريف ينقلون منتوجاتهم إلى السوق من الفواكه والخضر والحبوب والحيوانات والزيتون والعسل والجلود والأصواف...ويشترون من سكان المدن المواد المصنعة مثل الأقمشة والأواني والحلي وأدوات الزراعة...وكذا المواد الغذائية المستوردة من الخارج مثل القهوة والسكر.(113)

وكانت المقايضة هي الوسيلة الأكثر شيوعا في الريف والبادية، إذ يتبادل الفلاحون ومربو الماشية، الحبوب والماشية والصوف مقابل أدوات وأشياء حرفية قادمة من المدينة.

ونقل الكاتب مولود قايد مقطعا عن مارمول قائلا:" بنواحي معسكر، يقصد العرب والبربر كل يوم خميس، سوقا كبيرة، عارضين الماشية والقمح والشعير والعنب المجفف والعسل والشمع والزيت وسلع أخرى. ويجلب التجار من تلمسان الأغطية والسروج والأقمشة وبضائع أخرى..."(114)

وتمتد مراقبة القياد وأعوانهم إلى الأسواق الريفية التي تنتصب في كل أسبوع، لكن القبائل الجبلية عادة ما تحاول أن تتملص من هذه المراقبة حيث تصلها البضائع من مسالك مجهولة لدى الحكام العثمانيين الأمر الذي جعل السلطة العثمانية تحاصر المراكز التجارية الرئيسية التي ينطلق منها أو يقصدها المهربون، كما تحاصر المناطق الريفية المستعصية الرافضة لدفع الضريبة بمنع دخول أو خروج أية بضاعة. (115)

*** القوافل التجارية الشهرية:**

كانت القوافل التجارية تجوب البلاد الجزائرية خلال العهد العثماني، ولعل المسالك الرئيسية والفرعية(116) الواصلة بين شرق وغرب البلاد وكذا بين شمالها وجنوبها، مرآة تعكس حركة القوافل التجارية الشهرية، التي كانت تغذي الأرياف والمدن بمختلف المنتوجات الزراعية والحرفية والعبيد والدواب. ويلاحظ أن ممارسة التجارة في إطار قوافل، دلالة واضحة على غياب الأمن عبر الطرقات في أرجاء الريف الجزائري، فقد تفيدنا الدراسات التاريخية أن التاجر الجزائري

كان يمكث بأحد الدواوير أو القبائل التي تستقر بجوار طريق القافلة التجارية منتظرا إياها، حتى يتمكن من الانضمام إليها، شريطة أن يصطحب معه فراشه وطعامه وشرابه. وتنطوي القافلة التجارية على تنظيم محكم، حيث يشرف عليها قائد، يسمى قائد القافلة، ويحدد مسارها ومحطاتها ومكان وتاريخ انطلاقها ووصولها، وإلى جانب التجار يمكن كذلك أن ينضم إليها المسافر الذي يخشى لصوص الطرق، الذين تزايد عددهم في الفترة الأخيرة من العهد العثماني.

*** تجارة قافلة الحج:**

في 02 رجب من كل سنة هجرية يركب الحجاج في الجزائر العثمانية قافلة الحج، يقودها شيخ الركب وهو من الأشراف في الغالب، وفي الأغواط يختلط الحجاج المراكشيون بالحجاج الجزائريون ليصل العدد إلى ثمانية آلاف حاج، وتسير القافلة وفق مخطط جغرافي وزمني حيث يتم فيه تحديد محطات العبور والاستراحة ومدة السير، حتى تتمكن القافلة من الوصول إلى مكة في الموعد حيث تلتقي بقافلتي الشام والعراق.

ويمارس الحجاج أثناء سيرهم، مبادلات تجارية، عندما تحط القافلة رحالها، بمحطة من المحطات، فيقصدها تجار الريف ويحطون خيامهم ويستقدمون بضائعهم على جمالهم، من المواد الغذائية وأدوات الطهارة للحجاج. كما يقصدها أيضا المتنازعون سواء من سكان المدن أو الريف الذين يفضلون التقاضي بين حضرة قاضي قافلة الحج. ولما تحط القافلة في مكان بعيد عن العمران الريفي، يمارس الحجاج المبادلات السلعية فيما بينهم مثل سكان المدن، ولهذا عادة ما تسمى القافلة بالمدينة المتحركة.[(117)]

*** الباعة المتجولون:**

يطرق الباعة المتجولون أبواب منازل القرى والمداشر، والخيام، عبر أنحاء الريف الجزائري، وأعتقد أن هؤلاء الباعة المتجولون يجوبون المناطق التي لا تصلها القوافل التجارية الشهرية، أو البعيدة عن الأسواق الأسبوعية، وبمعنى آخر الأماكن المعزولة، كما أن الباعة المتجولون يختصون بمواد معينة للبيع، فهناك باعة الملابس، وباعة المنتوجات الحرفية، وغيرها من المواد التي يمكن أن يحملها البائع المتجول على ظهر دابته. ويمارس البائع المتجول عبر الأقاليم، نشاطه التجاري بترخيص من قايد المنطقة المقصودة، بعد دفع رسم مالي.[(118)]

ب-المراكز التجارية الكبرى بالريف الجزائري:

*** اقليم سيباو:**

من خلال استقراء ما كتبه شلوصر عن اقليم سيباو خلال الفترة العثمانية نلاحظ أن ريف هذا الاقليم قد اشتهر بإنتاج زيت الزيتون والعسل و صناعة البارود والبنادق، وكان منتجو هذه المواد، حريصون على تسويقها إلى القرى والمدن التابعة إداريا لبايليك الشرق، فقد ذكر الكاتب الرحالة الألماني ما يلي: " وينقل (زيت الزيتون) فوق البغال إلى أبعد القرى ويباع فيها" ثم يكتب: " ويأخذ العسل والشمع ويبيعهما في المدينة".[119] أما البارود والبنادق فلا يذكر شلوصر أي إشارة على تسويقها، لكن نعتقد أن كل ما يصنع في الريف يسوق إلى المدينة خاصة إذا كانت المادة المصنوعة محدودة الانتشار. وذكر مولود قايد أن بلاد القبايل تمول الايالة بالأسلحة وأدوات أخرى مثل : العربات، سكة المحراث، الألواح الخشبية، مقابض الأدوات الزراعية، المعاول، الحبال، الصابون الأسود، الجص، الأواني الخزفية، الأغطية، الشاشيات القطنية والحلي الفضية.[120]

***واحات بايليك الشرق:**

-ورقلة: تعد ورقلة سوقا رئيسية لمنتجات السودان، وعن طريقها يتم تبادل منتوجات السودان بمصنوعات ومحاصيل الشمال.

-تقرت: كانت معبرا لتجارة وادي سوف ووادي ريغ، من التمر والتبغ والصوف والزرابي والملح والوبر والملابس الصوفية مقابل منتوجات اقليم التل من الحبوب والمصنوعات.

-قرى وادي ميزاب: كانت أسواقها معبرا للبضائع والسلع، ومحطة استراحة لتجار القوافل، ومخازن مؤقتة للمنتوج الحرفي والزراعي الذي كان التجار الميزابيون يحصلون عليه من واحات الصحراء أو يستوردونه من أسواق مدينة الجزائر وقسنطينة ومدينة تونس.[121]

وقد تطرق فندلين شلوصر إلى هذا المركز التجاري الصحراوي ببايليك الشرق وأفادنا بالمواد التي تسوق من صحراء بايليك الشرق إلى مدنه خاصة قسنطينة فذكر التمور والصوف وملح الطعام والجمال وخشب البناء المستخلص من أشجار العرعار التي يتراوح طولها حسب شلوصر ما بين ثمانية عشر و أربعة وعشرون قدما، ويجوز لنا أن نشير إلى ما لم يشر إليه الكاتب هو ريش النعام والقنب الذي اشتهرت به المناطق الصحراوية.[122]

-واحات بايليك الغرب:

كتب الأغواطي بشكل موجز عن المركز التجاري بجنوب بايليك الغرب وذكر : " أن البضائع المستوردة من السودان هي العبيد وتراب الذهب، وفي مقابل ذلك تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثالها من السلع."[123]

ت-أسعار المواد بالأسواق الريفية:

*** المواد الزراعية:**

جاء في مخطوط بخط مغربي، لمؤلف مجهول، يعود تاريخه إلى بداية الاحتلال الفرنسي، أسعار لمواد زراعية نباتية وحيوانية ، في أسواق الريف القسنطيني، في عهد الباي صالح في نهاية القرن الثامن عشر، نوردها كالآتي:

-البقرة السمينة الغالية تساوي فرنكان.

-الثور والكبش السمين يساوي فرنكان.

-الفرس المعد للولادة تساوي ستون فرنكا.

-الخيل الجيد يساوي مائة فرنك.

-الصاع من القمح يساوي فرنكان.

-الصاع من الشعير يساوي فرنك واحد.[124]

-الرطل من السمن يساوي نصف فرنك.

-الرطل من العسل يساوي نصف فرنك.

-زيت الزيتون يساوي نصف فرنك.[125]

*** المواد الصناعية الحرفية:**

سجل مولود قايد، أسعار بعض المواد الحرفية المصنوعة بالريف وهي كالتالي:

*مقابض المسدسات والبندقيات ، وأسعارها تختلف حسب اختلاف النوعية وتباين درجة الجودة:

-فالنوع الممتاز يتراوح سعره بين 64-68 ريال.

-النوع الحسن : 32 ريال.

-النوع العادي: 30 ريال.

*البلاتين أو الذهب الأبيض العادي : 08 ريال.

*البلاتين الفضي: 24 ريال.

*الحايك الجيد: نصف سكوين.
*الأحزمة بطرز ذهبي : بين 25 و 30 سكوين للحزام الواحد.

4-الوظيفة الضرائبية:

كان النظام الضريبي في الريف الجزائري في أواخر العهد العثماني ثقيلا ومعقدا، نظرا لكثرة الضرائب وتعددها وطريقة دفعها، كما أن قسما معتبرا من هذه الضرائب لا يذهب إلى صناديق الحكومة، أضف إلى ذلك تعرض المداخيل الضريبية للتعديلات السنوية حسب ظروف البلاد كالجفاف وزحف الجراد مثلا أو عكس ذلك، وحسب خصوصيات كل بايليك.(126)

وعن دور الجيش في جلب الضرائب الريفية ذكر استرهازي مثالا عن بايليك الغرب الذي قد ينطبق على بقية البايليكات الجزائرية، مفاده أن جيش باي وهران وخليفته على القطاع الشرقي وقائد جندل وقائد فليتة، كانوا يقودون المحلة العسكرية المكلفة بجمع الضرائب المفروضة على قبائل الرعية بريف الغرب الجزائري. هذه المحلة كانت تجوب القبائل المنتشرة في الأراضي التي اعترفت بسلطة الأتراك العثمانيين، لمدة أربعة أشهر، ولما تتم عملية الجمع توجه الضرائب العينية إلى مدن معينة سلفا تتوفر بها المخازن.

تلتقي جميع المحلات العسكرية وعددها ثلاث محلات (محلة الشرق-محلة الوسط-محلة الغرب) بجنوب مدينة مليانة بعد تمام جمع الضرائب، وتتوجه ثمانون خيمة عسكرية تركية إلى مدينة الجزائر، وتعود الجيوش المخزنية إلى قبائلها ويدخل الخلفاء والقياد والبايات إلى أماكن إقامتهم الرسمية.(127)

أ-أنواع الضرائب الريفية:

***عائدات العشور والزكاة:**

تؤخذ على الملكيات الخاصة، والملكيات التابعة للدولة والمستغلة استغلالا غير مباشرا، وتؤخذ العشور على المحصول والزكاة على المواشي، وحددت مبدئيا كمية العشور بعدد الزويجات أو الجابدات المحروثة إذا كانت أراضي حبوب، بغض النظر عن كمية الحصاد الحقيقية.

وقد ذكرت الدراسات التاريخية أن ما كان يؤخذ عن كل جابدة هو صاع (مائة كيلوغرام) من القمح وصاع من الشعير، إضافة لحمولتين من التين ومقدار من الزبدة وبعض الدواجن، لبعض أفراد القبائل الذين لهم ملكيات خاصة بالسهول.(128) إلا أن التقديرات النهائية والدقيقة هي من اختصاص قائد العشور أوخوجة المعونة أو كاتب مخزن الزرع، الذي عليه أن يوفر المخازن في المدن أو المراكز المؤقتة في الأرياف لايداع كمية العشور الهامة.

وما يجدر ذكره هو احتلال بايليك الشرق الصدارة في جمع العشور حيث كان يوفر لمخازن الدولة 20.762 صاعا نصفها من القمح ونصفها من الشعير، وكان قائد جبري[129] يقوم بجولتين خلال السنة في سبيل الإعداد لجمع العشور، الأولى خريفية، والثانية صيفية، بعد الحصاد، ويقدر المحصولات رفقة شيخ القبيلة أو شيخ الدوار والفلاح، الذي كان من حقه الاعتراض على النتائج المسجلة، وبعد اتخاذ الاجراءات على ضوء تقرير القائد تسلم القوائم النهائية للقياد ليتحصلوا على كميات العشور عند خروجهم مع المحلة، وكان القياد يلتجئون إلى الاستعانة بالمحلات العسكرية حتى يسهل عليهم الحصول على مداخيل العشور المطلوبة.[130]

*** ضريبة الغرامة أو حق العسة:**

فرضت على المناطق المستعصية بالصحراء والهضاب العليا والمناطق الجبلية، مثل اقليم سيباو والشمال القسنطيني، عوضا عن العشور، وهي تسدد إما نقدا أو عينا وغالبا ما تؤخذ في شكل مواشي ومواد غذائية لتوفرها لدى سكان هذه الأرياف المستعصية.

أما القبائل التي تمارس نوعا بسيطا من الزراعة في الهضاب العليا والواحات ، تفرض عليها الغرامة عن طريق الزويجة، أما العشائر التي تعتمد في حياتها على الرعي والإنتاج مثل الحنانشة والنمامشة ببايليك الشرق، وأولاد مختار بالتيطري فتفرض عليها الغرامة مرة واحدة.

وتستخلص ضريبة الغرامة باعتماد الدولة على المحلات العسكرية التي تجردها على المناطق السهلية الواقعة جنوب قسنطينة والمدية ومعسكر، أو الاكتفاء بالمراقبة المشددة على الأسواق والمناطق الحيوية التي يتردد عليها سكان المناطق الجبلية أو الصحراوية أو الهضابية لاستبدال منتوجاتهم المحلية بما يحتاجونه من بضائع ومصنوعات أو لطلب المراعي الضرورية لقطعانهم في فصل الصيف أو للحصول على حق المرور لقوافلهم لتصريف بضاعتهم بالموانئ البحرية، فعلى كل حمل يشترى من الأسواق يدفعون عنه "دورو اسبانيا واحدا"، وعلى كل قطيع يرعى في المناطق التلية يقدمون "خروفا" مقابلا له.[131]

*** ضريبة اللزمة السنوية :**

اللزمة: ضريبة سنوية، تتغير تسميتها حسب الجهات فنجد الغرامة ، المعونة، والخطية، وكانت تدفع نقدا، لكن أحيانا تستخلص من المحاصيل الزراعية، ويضاف لها بعض المبالغ من النقود إذا كانت لا تفي بمطالب الحكام، وتتراوح قيمتها حسب المناسبات. وبالتالي نلاحظ أن هذه الضريبة السنوية مفروضة على قبائل الرعية الخاضعة والمغلوبة على أمرها، المستقرة بملكيات زراعية مشاعة، وهي بمثابة الخراج الذي تنص عليه الأحكام الإسلامية، ويتقاضاها القياد، وذلك بتكليف شيوخ الدواوير في الأرياف بجمعها.[132]

وسجل لنا مولود قايد في كتابه الجزائر تحت الأتراك، أمثلة للضرائب المدفوعة في إطار اللزمة السنوية التي تدفعها بعض قبائل الرعية بجهات مختلفة من البلاد الجزائرية، نذكرها كالآتي:

-كانت قبيلة أولاد عالن بشرق البرواقية بدار السلطان تدفع لزمة سنوية تتكون من المواد الآتية:

*500 كيلوغرام من السمن.

*100 رأس غنم.

*16 خيمة.

*30 كيسا من جلد الجمال.

*12 كيسا من جلد الماعز.

*12 قطعة من براد ع للبغال.

-كانت قبيلة أولاد شعيب في جنوب شلاتة تدفع لزمة سنوية تتكون من:

*خيلين للحرب.

*1200 كيلوغرام من السمن.

*500 رأس من الأغنام.

*20 رأس من الجمال.

-قبائل اقليم سيباو تدفع لزمة تتكون من :

*500 قلة من زيت الزيتون ما يعادل 8000 لتر.

-تدفع الواحات الصحراوية لزمة سنوية تتكون من :

*عدد من العبيد السود، (واحة تقرت تدفع 45 عبدا، وواحة ورقلة تدفع 25 عبدا).(133)

*** الضرائب الفصلية:**

يطالبها الحكام من قبائل الرعية، المستغلة للأراضي المشاعة، هي:

-ضيفة الدنوش: تقدم غالبا كل ستة شهور وتستغل في شراء الباي للهدايا المخصصة للداي، فهي على ما أعتقد، معونة من طرف سكان الأرياف الخاضعة للسلطة التركية في نظر الحكام، لكنها غرامة في نظر من يدفعها.

-معونة البشارة أو الفرح: وتدفع لإحياء المناسبات السعيدة، مثل تولية الباي أو تجديد ولايته، وتكاد تكون سنوية.

-معونة خيل الرعية: وهي عبارة عن مساهمة ومعونة قبائل الرعية خاصة بالغرب الجزائري بعدد من الخيول والدواب حت تتمكن السلطة التركية من تعويض خيل فرسان المخزن عند موتها أو ايفادها في مهمات، وقد يباع قسم من هذه الخيول والدواب إذا لم تكن الحاجة ماسة إليه.

*** ضرائب أخرى:**

-معونة حق البرنوس بمناسبة تسلم الشيوخ خلعة التولية.

-معونة حق الزمام: تسلم لقائد العشور، كتعويض له على خدماته أثناء جمع العشور.

-معونة مهر باشا: وتقدم بمناسبة جمع هدايا الدنوش إلى الداي الباشا بمدينة الجزائر.

-معونة مهر الفرس: تتمثل في فرس حربي، تقدمها قبائل الرعية للسلطة التركية.(134)

-رسم الحصة: يؤخذ هذا الرسم على الحبوب التي يشتريها سكان الجنوب الصحراوي من أسواق التل في الشمال.

-المكس: وهو رسم على مبيعات الأسواق الريفية.

-الحكور: وهي ضريبة يدفعها الفلاحون لممثلي السلطة التركية العثمانية في الريف مقابل كرائهم للأراضي الزراعية إما للفلاحة أو الرعي.(135)

ب-الضرائب المشتركة بين المدينة والريف

*** الدنوش والعوائد الفصلية:**

تساهم فيها بايليكات الشرق والغرب والتيطري وقيادة سيباو ودار السلطان بكميات معتبرة من الأموال والثروات، منها ما يذهب إلى خزينة الدولة، ومنها ما يحظى به موظفو الدولة في شكل هدايا وترضيات عينية ونقدية، تسلم في مواعيد محددة وحسب طرق متعارف عليها، فإذا تكفل الباي بتقديمها شخصيا مرة كل ثلاث سنوات عرفت بالدنوش الكبرى، وإذا قام خليفة الباي بتبليغها في فصلي الربيع والخريف أطلق عليها "الدنوش الصغرى أو العوائد" أو اعتبرت زكاة وعشورا يدفعها البايات والقياد عن رعاياهم.

وما يلاحظ أن الدنوش والعوائد الفصلية تكثر أو تقل تبعا للأوضاع الاقتصادية السائدة في كل منطقة، ولهذا يأتي بايليك قسنطينة في معظم الأحيان في الطليعة من حيث كمية الدنوش التي يساهم بها، ويكاد يقاربه بايليك الغرب بينما بايليك التيطري وقيادة سيباو وأوطان دار السلطان لا تمد الدولة إلا بموارد ضئيلة من الثروة.

ومن الدلائل التاريخية التي تثبت أن الدنوش تدفعها المدينة والريف معا وفي وقت معلوم ما ورد في سجلات البايليك حول دنوش مدينة المدية وأعراش ريفها، فقد كتب في الورقة الثانية من سجل البايليك رقم 122 لسنة 1226هـــ ، ما يلي " الحمد لله، بيان ما دفع البلدية من الحايك، وذلك واحد وربعين حايك، وما دفع أهل الذمة لعنهم الله، إحدى وعشرون حايك..." أما دنوش الأعراش فقد وردت في الورقة الرابعة من السجل المذكور، أنها تدفع لباي التيطري السمن وقلل من الزيت.(136)

وذكرت الكتابات التاريخية بعض مراسيم التدنيش، نوضحها كالآتي:

-مراسيم الإعداد والانطلاق:

-استعداد الباي ورجال حاشيته لحمل الدنوش.

-استعداد ثلاثة آلاف فارس من القبائل المخزنية لمرافقة قافلة الدنوش.

-إعداد قافلة الدنوش التي تتكون من:

-ثمانون بغلا محملة بأكياس النقود وأنواع المصنوعات المحلية.

-عدد من العبيد.

-قطعان من الخيل والبغال والجمال والمواشي.

-كميات من الشمع والعسل والزبدة والأرز والحبوب والزيتون والكسكسي.

-مراسيم الوصول:

-استقبال القافلة بساحة عين الربط بمدينة الجزائر(137) من طرف آغا العرب والخزناجي وبعض الموظفين.

-مصاحبة الباي وحاشيته إلى قصر الداي الباشا.

-توزيع الباي المال على مستقبليه من موظفي القصر حسب رتبهم الاجتماعية.

هذه الهدايا والترضيات لها دور حاسم في اكتساب عطف الداي وديوانه، أو في إثارة الغضب والانتقام، ففي حالة الرضى يلبس الباي الخلعة ويكرم ويبقى في ضيافة الداي وحاشيته سبعة أو ثمانية أيام، يلحق بعدها بمركز ولايته.(138)

وعلق ديبواتانفيل في تقريره سنة 1809 على عطايا الباي، التي يستفيد منها موظفو قصر الداي، والتي تعتبر فرصتهم لجمع المال، لأن مداخيلهم لا ترتبط بالخزينة، وقال أن هذا النظام له عواقب سلبية على مستقبل البلاد. (139)

*** رسوم المكس على الأسواق في المدن والأرياف:**

نصبت السلطة التركية قائدا على كل سوق يقام بالمدينة أو بالريف، وموظفا على كل بضاعة يراقب دخولها وخروجها، وتتجلى مهمة هؤلاء في استخلاص المكوس وتنظيم جباية البضائع والسلع، ومراقبة القوافل التجارية الداخلة إلى السوق والخارجة منها، وبالتالي أشعرت هذه المكوس سكان الريف المستعصي والنائي بوجود السلطة المركزية وأنها ذات تأثير قوي في الحياة الاقتصادية. ويمكن تسجيل أمثلة لبعض المكوس على بعض السلع:

-قنطار من الكتان يؤخذ عنه رسم قدره خمسة وعشرون درهما.

-حمل من التمر يؤخذ عنه رسم مقداره خمسون درهما.

-حمل من الزيتون يؤخذ عنه رسم مقداره خمسون درهما.

-قنطار من الأرز يؤخذ عنه رسم مقداره عشرون درهما.(140)

ثالثا-الوظيفة الثقافية لريف الجزائر في أواخر العهد العثماني:

1-التعليم بالريف الجزائري.

أ-المراكز التعليمية بالريف الجزائري:

*** الزوايا:**

كتب الدكتور أبو القاسم سعد الله أن الزاوية أو الخلوة حلت محل الرباط، بعد تأمين الثغور الإسلامية، وعقد معاهدات السلام بين الدولة الجزائرية والدول الأوربية، لكن انتشرت بتصاعد التصوف وانتشاره، حيث كان كل شيخ طرقي صوفي يؤسس لطريقته زوايا في أنحاء متفرقة من البلاد،(141) لذلك الزوايا قبل كل شيء هي مؤسسات مبنية على نشر الدعوة الطرقية، فهي صوفية قبل كل شيء ولكنها تجمع في تعليمها بين تحفيظ القرآن والفقه والعقيدة والتربية الروحية والتهيؤ للجهاد.

والثابت أن الفقه والعقيدة السنية كانت أساس كل التعاليم وقد انصهرت فيها مختلف الطرق الصوفية سواء كانت محلية أو ذات امتداد خارجي. ولهذا حصل التعايش والتساند بين الزوايا خلال العهد العثماني.

وتعتبر الزوايا والطرق الصوفية بسبب متانة العقيدة وبسبب الحيوية الشعبية التي تحملها، إشعاعا منقطع النظير، فهي التي نقلت تعاليمها إلى أنحاء إفريقيا الغربية، وهي التي كانت وراء الانتفاضات الريفية ضد الحكم العثماني.(142)

وحتى يتبين لنا الدور التعليمي للزوايا يمكن انتقاء نموذج زاوية القيطنة الواقعة بجوار معسكر والتابعة للطريقة القادرية، فالطالب العادي يحفظ فيها القرآن ويتعلم العربية والفقه وعلم التوحيد والحديث ويلم بعض الإلمام بالتاريخ. وتربط هذه المعارف بالتربية الروحية التي تكسب الأخلاق الإنسانية الرفيعة من صبر وقهر للغرائز وترفع عن الماديات واحترام للناس وتضحيات في سبيل الأمة والجماعة وشعور بالانتماء التاريخي والحضاري مما يجعل هذا الطالب في مقتبل عمره مثالا للفتوة العربية الإسلامية.(143)

وقد نتساءل، ما مصير المتخرج من الزاوية الريفية؟ لقد أشارت بعض الدراسات التاريخية أن الطالب بعد إتمام دراسته للعلوم الشرعية بالزاوية الريفية، قد يصير قائدا للزاوية، أو مدرسا في إحدى المدن، أو مساعد قاضي، أو قاضي، وأحيانا يشتغل بالزراعة في أراضي الزاوية.(144)

وذكر لامبير أن الشاب الذي يقصد الزاوية الريفية للدراسة لا يصطحب معه إلا الأغطية والملابس لأن التدريس في الزاوية مجاني، فعلم الفقه لا يباع، ويأكل الطلبة جماعة، ومصدر غذائهم تلك المؤونة التي تصل المرابط في زاويته من القبائل المجاورة في شكل زكاة وصدقات وبهذه الطريقة تتحمل القبائل أعباء حماية الزاوية والتي عادة ما تدعى بالقبائل المرابطية.

وتفتح الزاوية لكل أبناء القبائل المجاورة لكن بعض الآباء يوجهون أبناءهم إلى زوايا بعيدة عن موطن قبائلهم، وأعتقد أنها الزوايا التي تدرس علوم مختلفة. ويتعلم الولد في الزاوية أولا الشهادتين ثم الصلاة وسور من القرآن، وبعد ست أو سبع سنوات من التعلم يرجعون إلى قبائلهم بصفة طلبة ويفتحون كتاتيب صغيرة لتعليم أطفال القبيلة.(145)

وإلى جانب الدور التعليمي التثقيفي التربوي للزاوية الريفية فإنها كذلك تمارس دور المحكمة حيث يستقر بها قاضي القبيلة المرابطية، ودور نزل المسافرين وإيواء الفقراء .(146)

*** المساجد القروية:**

ذكر لامبير أن في كل قرية أو دشرة بالمناطق الجبلية مثل جبال جرجرة هناك مسجد صغير هو من أجمل مباني القرية الطينية، وللمسجد القروي دورين، دور تعبدي ودور اجتماعي يتمثل في إيواء المسافرين، ويتكفل بهم وكيل المسجد الذي يختاره شيخ الدشرة أو القرية.(147)

*** الرباط:**

الرباط في أصله، يتكون من بيوتات الاعتكاف والعبادة وتعليم الشريعة، والشيوخ والطلبة يلتقون فيه، منقطعين لمدة يختارونها حسب طاقاتهم للتعمق في معارفهم الدينية ولممارسة تدريباتهم الروحية. وإذا كان الرباط على الثغور، فإن أهم أهداف الطلبة المرابطين هو التسلح

الروحي لمجاهدة العدو. والرباط غير خاضع لطريقة بعينها إلا أنه متفتح في كثير من الأحوال على التعاليم الصوفية.

ب–طريقة التعليم بالزوايا الريفية:

ذكر الرحالة هاينريش فون مالتسان بخصوص التعليم والتعلم بالزاوية الريفية ما يلي: " كانت أصوات التلاميذ تمزق الآذان عندما بدأوا يقرأون الفاتحة في زاوية شلاتة (ببلاد القبائل الكبرى) .وبعد ذلك بدأ المعلم (يدعى مرابطا) درسه في النحو بتصريف الأفعال، وراح يتغنى بذلك والتلاميذ يرددون ما يقوله بصورة خاطئة تقريبا، وهم يحركون رؤوسهم بإيقاع.

ويعلم النحو عند القبائل مثلما هو الأمر عند العرب، بطريقة ببغائية ويحفظ كالقرآن، ولا يتم ذلك إلا بعد أن ينتهي التلميذ من حفظ القرآن .فالذي لم يحفظ القرآن بعد ليس جديرا بتعلم النحو ولو كان ذكيا جدا. والقواعد النحوية لا تشرح...وإنما تحفظ. فعلى التلميذ أن يتوصل إلى تفسيرها، إن كان له طموح فكري...وإذا استطاع تلميذ أن يفهم في النهاية رغم هذا الدرس الآلي، فالفضل في ذلك يعود إلى موهبته وحدها، التي ساعدته نوعا ما على استيعاب ما سرد عليه."(148)

وعلى أساس هذا النمط السردي في التعليم بالزاوية فقد اتهم بعض الباحثين بأنها قد تسببت في تخلف التعليم الإسلامي. وذكر لامبير أن الكثير من الزوايا الريفية تقدم تعليما متعدد التخصصات أو متنوعا، نبينه كالآتي:

-تعليم القراءة والكتابة.

-تحفيظ القرآن الكريم عن ظهر قلب دون ارتكاب خطأ.

-تعليم البلاغة العربية.

-تعليم الفقه على شرح الشيخ خليل.

-تلقين صحيح البخاري.

-دراسة سبعة أو ثمانية تفاسير للقرآن الكريم.

-تدريس الهندسة والفلك.

-دراسة الشعر والأدب العربي.(149)

وقدم لنا الدكتور محمد سي يوسف طريقة التدريس بالزوايا ببلاد زواوة خلال العهد العثماني المتمثلة في الحلقة، إذ يتحلق الطلبة حول شيخهم أو مدرسهم الذي يأخذ مقطعا من المصنف فيقرأه ويشرحه ويحلله، وبعد إتمام ما كان مقررا في الحلقة، يتولى من عليه الدور من الطلبة لسرد الشرح ، وهذا السرد يتم بالتداول بين الطلبة، أحدهم يقرأ والآخرون يسمعون

ويتابعون من خلال شروحهم، وهنا يقع النقاش بين الشيخ والطلبة، ويختتم الشيخ الحلقة بطرح سؤال أو أكثر على الطلبة. وبالتالي يتطلب هذا النوع من الدروس وقتا يمتد إلى أربع ساعات في الصباح الباكر.[150]

*** التنظيم البيداغوجي لطلبة الزاوية:**

ينتظم الطلبة داخل الزاوية في مجموعتين، نوضحها كالآتي:

-المجموعة الأولى : وتتكون من ثلاث فئات أو مستويات:

*فئة المبتدئين وهم الطلبة الذين يختمون سورة البقرة.

*فئة المتوسطين وهم الذين ختموا سورة البقرة وشرعوا في الإعادة.

*فئة المنتهين وهم الذين ختموا القرآن كله و لم يبق لهم إلا الرواية والتجويد.

أما بالنسبة للطالب الذين أنهى المدة المقررة و لم يستوف أغراضه، فأمره في تمديد المدة موقوف على نظر مقدم الزاوية، فله أن يزيد له، ولكن بعد تلقي الموافقة من الشيخ الرئيس وبشهادة الطلبة عليه، بأنه محمود السلوك شديد الرغبة في إتمام دراسته.

-المجموعة الثانية: تتكون أيضا من ثلاث فئات:

*فئة الآجرومية وابن عاشر.

*فئة القطر والرسالة.

*فئة الألفية والرسالة القشيرية ثم الشيخ خليل.[151]

ويمارس الطالب العملية التعليمية خلال اليوم على النحو الآتي:

*في الثلث الأخير من الليل: يتم قراءة القرآن في اللوحة أو التكرار.

*القيام بصلاة الفجر جماعة.

*قراءة الحزب الراتب جماعة والمتخلف يعاقب جسديا.

*اجتماع عام لتعيين العقوبات على المذنبين المستحقين لها.

*يشتغل الطلبة بعد الاجتماع بمحو الألواح وكتابتها وتصحيحها.

*الاجتماع للأكل والشرب في مكان واحد وزمان معين.

*وبعد الفراغ من الغذاء يفترق الطلبة فأهل العلوم يذهبون إلى الشيخ المدرس فيحضرون درسه في مادة معينة نحو الساعتين.

*إقامة صلاة الظهر جماعة.

*العودة للقراءة في الألواح أمام الشيخ المقرئ والمقدم.

*إقامة صلاة العصر.

*قضاء كل طالب حوائجه الشخصية.

*إقامة صلاة المغرب.

*قراءة الحزب الراتب جماعة بالمد ورفع الأصوات.

*يتفرق الطلبة لقراءة القرآن فرادى أو مثنى أو ثلاثة أو رباعة إلا بإذن من المقدم.

*إقامة صلاة العشاء.

*تناول العشاء، ثم الافتراق للنوم.

ويدرس الطالب بالزاوية المواد التالية:

*القرآن وشروحه.

*الروايات السبع.

*الآجرومية.

*ألفية ابن مالك.

*التوحيد.

*الحساب الخاص بالإرث.

*الفلك.

*العروض.(152)

*** إدارة التعليم بالزاوية:**

-رئيس الزاوية:

يعتبر رئيس الزاوية مديرا للإدارة والبيداغوجيا التعليمية وتتمثل صلاحياته في:

*يوافق على قبول الطالب بالزاوية.

*يجمع الطلبة ويقدم لهم الطالب الجديد.

*إليه يعود الإذن بمغادرة الطالب للزاوية أو المكوث بها، بعد معرفة أسباب الطالب، وإذا لم يستأذن الطالب بشأن مغادرة الزاوية فإنه يتعرض للعقوبات.

*يوافق على تمديد مدة الدراسة أو إيقافها بالنسبة للطلبة الضعفاء بعد الإطلاع على رأي مقدم الزاوية وهادة الطلبة.

-مقدم الزاوية:

يسير الإدارة التعليمية بالزاوية، "المقدم " الذي ينتخب ليتولى مهامه لمدة شهر قمري واحد، وهو المسؤول الأول على كل ما يجري داخل الزاوية وبين الطلبة، وكلمته نافذة أثناء أدائه لعمله، سواء لدى الطلبة أو لدى رئيس الزاوية، وتتمثل صلاحياته الإدارية في :

*التحقيق في سيرة الطالب الجديد بالزاوية.

*يقدم الطالب الجديد أمام مجلس الشورى.

*يتولى ضمان إعداد المؤونة الغذائية اللازمة للطلبة.

*يشرف المقدم على قراءة قوانين النظام الداخلي للزاوية على مسامع الطلبة من حين لآخر ما دامت الزاوية تفتح أبوابها أمام الطلبة الجدد على مدار السنة، وأيضا على سبيل التذكير، وهذه القوانين مدونة في كراس عادي مودع بخزانة الطلبة الموضوعة تحت نظر مقدم الزاوية.

*يقترح تمديد مدة الدراسة أو إيقافها بالنسبة للطلبة الضعفاء.

-وكيل الزاوية:

يساعد المقدم في شؤون التمرين والتغذية ومقره، النوالة أي المطبخ، كما يساعده أيضا في المراقبة العامة للدراسة والنظافة في المؤسسة.

-المستخلف:

تتمثل مهمته في استقبال زوار الزاوية من غير الطلبة.(153)

ت-إجازات الزوايا والطرق الصوفية:

كتب لامبير أنه لما يغادر الطالب الزاوية الريفية، يجتمع معلموه، فيقرأ واحد منهم الفاتحة، فيشكره الطالب ويطلب منه العفو إن سبب له المتاعب في غضون المشوار الدراسي.(154)

وأفادنا أدريان دلباش Adrien Delpeche بمعلومات تتعلق بإجازة الحاج محمد بن عبد الرحمن الأزهري مؤسس الزاوية والطريقة الرحمانية ببلاد جرجرة، لأحد طلابه المتخرجين من زاويته ومنحه رتبة مقدم الطريقة الصوفية الرحمانية، ومن خلال ما عرضه الكاتب الفرنسي لنظام الاجازة نلاحظ ما يلي:

*افتتح عبد الرحمن الأزهري نص الإجازة أو الدبلوم بالتعبير المعاصر، بالبسملة والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله.

*بين أن هذه الإجازة في الشريعة الإسلامية والطريقة الخلوتية.

*قدم عبد الرحمن الأزهري سيرة ذاتية لمشواره العلمي والديني ذاكرا الشيوخ الفقهاء الذين تداولوا على تدريسه، والمصادر الفقهية التي درسها حتى يضفي مصداقية علمية على إجازته لطالبه.

*إقرار الإجازة بالصيغة الآتية:" أمنح للسيد عابد بن يعلى ورد الطريقة الخلوتية."

*إختتام الإجازة بدعاء لنصرة الإسلام والمسلمين ثم الدعاء بالخير لطالب الإجازة.

*عرض أسماء الفقهاء الذين درسوا طالب الإجازة إنتهاء بمانح الإجازة محمد بن عبد الرحمن.

*يمنح الشيخ الفقيه عبد الرحمن ورد الطريقة الخلوتية من خلال ترديد أذكار معينة وقراءة سورة الفاتحة ثلاث مرات.(155)

وذكر سي يوسف محمد أن الطلبة الذين يزاولون دراستهم إلى غاية نيل الإجازة قليلون لأن ذلك يتطلب مدة طويلة من الدراسة والحياة الاجتماعية وقتذاك صعبة.(156)

2-ملامح الذهنية الريفية بالجزائر العثمانية:

*** انتشار الخرافة وانحسار الثقافة الإسلامية الصحيحة:**

يعطينا هاينريش انطباعا سلبيا حول سكان الريف ومستواهم الثقافي قائلا: " فالعرب والقبائل مثل أنصاف الهمج، لا يرون من الحضارة إلا تلك الجوانب التي تثير الغرائز...أما الفنون الجميلة فليس لديهم إحساس بها على الإطلاق، والعلم أبكم بالنسبة إليهم. وليست لهم أية فكرة عن الأدب."(157)

وأشار لوجي دي تاسي إلى أن المسلمين في الريف سواء كانوا عرب أو بربر، لا يعرفون الثقافة الإسلامية بصورة جيدة وعميقة، فشعائرهم الإسلامية التعبدية يمارسونها بالوراثة، وكأنها عادات تناقلتها الأجيال، وكل ما يمكن أن يفيدهم في مجال الشرع الإسلامي هو المرابط.

ويعزى هذا الجهل بمضامين الإسلام في نظر لوجي دي تاسي إلى إنغلاق سكان الريف على أنفسهم وعدم ترددهم على المدن التي قد يتوفر فيها عنصر الإشعاع العلمي في مجال الشريعة الإسلامية. (158)

ويظهر أن هذا التدهور الثقافي الديني الإسلامي لدى سكان الريف قد ترك المجال مفتوحا لتصاعد الشعوذة والخرافة حيث نجد أن شلوصر يذكر أن الخرافات على العموم منتشرة بكثرة بين سكان الريف والبادية بالجزائر، ويسوق لنا مثالا على أرياف الشرق الجزائري فيذكرلنا بعض التصورات الباطلة نوردها كالآتي: " ...فإذا عاد الباي [يقصد الباي أحمد] مثلا إلى قسنطينة في يوم جميل مشرق، فإن ذلك يعني سنة رديئة، ويشعر الكل بالكآبة. أما إذا حدث ذلك في يوم ممطر جدا، فإن ذلك يعني سنة خصبة، ويفرح الكل بذلك."(159)

ثم يكتب: " وفي كثير من المناطق يعتقد الناس أن المصابين بالحمى قد ركبهم الشيطان ولذلك لا يصبرون على وجودهم بينهم، ولا ينامون معهم في غرفة واحدة، بل يضعونهم في مكان خاص، ويحملون إليهم الطعام، دون أن يلامسوهم، إلى أن يشفوا من مرضهم ويتخلى عنهم الشيطان."[160] وحكم شالر على الجزائريين بابتعادهم عن روح الشريعة الإسلامية الحقة حيث قال: " والجزائريون شعب يتعلق بالخرافات ويؤمن بأثر السحر، وتدخل القوى غير الطبيعية في مجرى الأحداث."[161]

*** شيوع المعتقدات الصوفية السلبية بين العوام :**

ومن خلال ما ذكر في المتون التاريخية نلاحظ أن الجماهير الريفية في معظمها تعلق فكرها بشيخ الطريقة الصوفية الذي يسميه الفقهاء بالغوث، وذكر لنا هاينريش التصورات الفكرية التي يحملها ويرددها العوام الريفيون وحتى المدينيون وتتناقلها الأجيال بشأن الغوث فقال:" الغوث شخصية تقوم بدور المنقذ الذي يتحمل بنفسه أغلب ما يترل الله كل سنة إلى العالم من شرور. فهو يأخذ ثلاثة أرباع من 385 ألف شر التي تنصب فوق الأرض في شهر صفر. أما النصف الرابع فيتحمله عشرون قطبا ورعا، والثمن الأخير يوزع على الخليقة كلها. والغوث لا يعيش بعد توليه هذه المرتبة المقدسة أكثر من أربعين يوما."[162]

وتمكن هاينريش من نقل أسطورة الشيخ عبد القادر الجيلاني كغوث صوفي والذي يتبعه معظم الجزائريين في العهد العثماني قائلا: " وسيدي عبد القادر الجيلاني... لم يمت أبدا، فقد حملته الملائكة وطارت به عن الأرض، ومنذ ذلك الحين وهو يحوم، تحيطه غلائل السحب، صاعدا هابطا في المناطق الممتدة بين السماء الثالثة والرابعة. وكثيرا ما يظهر لأتباعه الكثيرين فوق الأرض، فتبنى قبة في كل مكان يظهر فيه..."[163]

وأبرز مثال يدل على ضعف التفكير لدى العامة من سكان الريف، وإيمانهم بالشعوذة وعدم تمييزهم بين المتصوف الإيجابي والمتصوف السلبي، تلك الاستجابة الواسعة التي حظي بها ابن الأحرش الدرقاوي عندما أعلن عن ثورته ضد سلطة البايليك بالشرق الجزائري سنة 1803، بفعل شعوذته التي أظهرها لهم، وأمانيه الباطلة، فقد كتب أحمد بن المبارك بن العطار ما يلي :"وأظهر لهم أمورا يزعم أن بارودهم يتكلم [يدوي] وبارود أهل قسنطينة يرجع ماء في مكاحلهم وغرهم بمثل هذا الكلام واستمالهم."[164] كما كتب ابن العنتري: " وزعم أنه صاحب الوقت، وأن دعوته مستجابة والنصر يتبعه حيثما يتوجه، وبارود عدوه لا يضره، ولا يصيب أتباعه بل يرجع لديهم ماء إلى غير ذلك من الدعوات الكاذبة."[165]

والأمر نفسه ينطبق على الجماهير الريفية والبدوية ببايليك الغرب، فقد أوردت المصادر أن ابن الشريف الدرقاوي الثائر قد جمع حوله الأعراب في الصحراء والتل ببايليك الغرب مدعيا أمامهم أنه المهدي المنتظر الذي يخلص المسلمين من همومهم، ومظهرا لهم شعوذة اعتبرتها هذه الغوغاء الريفية والبدوية كرامات وعجائب وغرائب، ناهيك عن حيله وأخباره، مستغلا سخطها على الأتراك والمخزن بسبب الضغط الضريبي المفروض عليها.

وهكذا نلاحظ أن من الأفكار التي تعشعش في عقول الجماهير الريفية، فكرة الكرامات الإلهية، التي يستلهمها المرابطون، وفكرة المهدي المنتظر الذي يخلص المسلمين من قهر الزمان.

*** شيوع الأفكار الثورية بين مريدي الطرق الصوفية والزوايا الريفية:**

انتشرت بين الطرق الصوفية والزوايا الريفية المنتشرة عبر القبائل العربية والبربرية عدد من الزوايا التي لا تكتفي بوظائفها الاجتماعية والتربوية والتعليمية، بل تعدتها إلى تبني أفكار سياسية معادية لنظام الحكم العثماني، فأصبحت هذه الزوايا أوكارا للثورة على الأتراك العثمانيين والمخزن، تنادي بالجهاد في سبيل الله ورفع المظالم المسلطة على سكان الريف، من قبائل رعية وقبائل مستقلة، وقد ترجمت هذه الأفكار الثورية على أرض الواقع من قبل زوايا وطرق صوفية في شرق البلاد وغربها مثل الدرقاوية والتيجانية.

لقد وجدت الجماهير الريفية في الطرق الصوفية والزوايا الريفية ذات الأفكار الثورية ملاذا لها من ظلم الترك ومخزنه،(166) واقتنعت سياسيا أنها في مواجهة أجنبي محتل بغض النظر عن إسلامه، الذي يفرض عليها ضريبة لا تعدو أن تكون جزية، هي محرمة على المسلم، ويسلك ضد القبائل الممتنعة عن دفع الضريبة، أسلوب الغزو والمداهمة.(167)

هكذا وجد الحكام العثمانيون المتأخرون أنفسهم أمام تيار سياسي ثوري ينادي بعروبة الجزائر وإسقاط الحكم التركي العثماني المحتل، تقوده زوايا ريفية نشيطة سياسيا وتحتضنها جماهير الريف من القبائل الساخطة، فكانت الحرب ضد هذه الأفكار الثورية شرسة، خلفت القتلى والجرحى والأيتام والأرامل، ومات على إثرها قيادات سياسية وعسكرية محنكة سواء في صف الأتراك العثمانيين أو المخزن أو الثوار.

لقد كان بايليك الغرب أخصب البايليكات الذي ترعرعت ونمت فيه هذه الأفكار الثورية المعادية للترك العثمانيين، حيث شهد ثورتين متتاليتين في مطلع القرن التاسع عشر وهما الثورة الدرقاوية بزعامة ابن الشريف الدرقاوي والثورة التيجانية بزعامة محمد الكبير التيجاني، و لم يعتبر الأتراك العثمانيون، فشل الثورتين هو دفن لأفكار الثورة بل نلاحظ على سبيل المثال أن الباي حسن وهو آخر بايات الغرب الجزائري 1818-1831 يسلك بجدية عقب نهاية التيجانية

سنة 1826 سياسة تصفية كل شيوخ زوايا المقاطعة الغربية الذين ينشطون سياسيا ضد الحكم التركي العثماني، بتنظيم الاجتماعات الدورية ودعوة الناس لمجاهدة الأتراك العثمانيين والمخزن، ويورد لنا الآغا المزاري أمثلة على ذلك :

-قتل الشيخ الحاج محمد البوشيخي وتعليقه على خشبة بوهران بتهمة التحضير للثورة.

-وضع الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر تحت الإقامة الجبرية بوهران.

-قتل الشيخ بلقندوز القداري التجيني سنة 1245هـ/1829م بواد أرهيو خنقا .

-غزا قبائل الأحرار باليعقوبية سنة 1828/1244 (168)

ومن وجده بعد التحقيق ليست له علاقة بأفكار الثورة على النظام سرح سبيله مثلما وقع :

-لـــمحمد بن عبد الله المعروف بابن سحنون شيخ زاوية عين الحوت بضواحي تلمسان.

-والشيخ ابراهيم الخروطي .(169)

*** التحزب السياسي بين التجمعات الريفية:**

يظهر التحزب السياسي في المجتمع الريفي الجزائري في أواخر العهد العثماني بصفة خاصة في قرى جرجرة إذ يشاع هنالك ما يسمى بالصفوف أي الأحزاب السياسية، حيث ينقسم سكان القرية بمنطقة جرجرة أو اقليم سيباو إلى معسكرين متخاصمين متنافسين، وكانت خصومتهما صارمة ومتوارثة، وقد تفرق وتباعد فكرة الصفوف أو التحزب السياسي بين قبيلة وقبيلة مجاورة لها، بل وتفرق بين أسر القبيلة الواحدة حتى ولو كانت هذه الأسر تربطها القرابة الدموية أو الصداقة القديمة.(170)

وسجل لامبير مقطعا في هذا الشأن يخص منطقة جرجرة قائلا أن الاصطدام المسلح بين القبائل البربرية أكثر منه بين الأفراد، فكل قبيلة لها حلفاء وأعداء، وقد يتوج التحالف بين القبيلتين بتبادل يطغان وبندقية أو برنوس، بين شيخي القبيلتين، ويسمى هذا التحالف عند القبايل بالمزراق أي الرمي، وهو تحالف وثيق ومقدس ويمكن أن يؤدي إلى المصاهرة بين القبيلتين بحيث تصير كل قبيلة تدافع عن مصالحها ومصالح حليفتها، وتعد البندقية والسيف والبرنوس التي يقع عليها التبادل بين الشيخين جزءا من شخصية القبايلي وتقديمها لقبيلة أخرى في إطار تحالف هو تنازل عن جزء مهم في حياة القبيلة لفائدة القبيلة الأخرى الحليفة.(171)

*** ثقافة البندقية عند الريفيين:**

ذكر لامبير أن الشاب القبايلي كنموذج للشاب الريفي يسلمه والده بندقية وهو في سن السادسة عشر من عمره وتصبح منذ ذلك رفيقه في الحياة وحاميه أمام الشدائد، وتكمن ثروة

القبايلي الريفي في ثورين وحمار وبندقية، ويتسنى له بيع الثورين والحمار إلا البندقية فلن يبيعها على الإطلاق.(172) كما لاحظنا أن البندقية كانت لدى قرى القبايل وسيلة لعقد التحالف، وإذا كان البرنوس يرمز إلى التحالف بين القبيلتين في وقت السلم فإن البندقية ترمز إلى التحالف في وقت الحرب.

*** ثقافة الحرب عند الريفيين:**

تحدث لامبير عن الحرب عند القبائل البربرية فكتب أن القبايلي إذا سمع دوي البارود في الجبال فإنه يتوقف عن عمله ويهرع نحو شيخ القبيلة وحتى المرأة تتوقف عن أشغالها، وإذا سار القبايل إلى المعركة فكل مقاتل يصطحب معه ذخيرته ومؤونته الغذائية من خبز وتين مجفف، ويتبع النساء إخوتهن وأزواجهن لتشجيعهم بالزغاريد على الاستماتة في القتال كما يقدمن الإسعافات الأولية للجرحى ويساعدن على نقل الموتى وبالتالي نلاحظ أنهن يتقاسمن مع الرجال آلام الهزيمة أو أفراح النصر.

وأضاف الكاتب قائلا، أن القبايل يتوجهون إلى ساحة المعركة، جماعات، ولكل قبيلة رايتها الخاصة في الحرب، يحملها أشجع المقاتلين، ودائما يتقدم القبيلة المحاربة نفر من المقاتلين يستطلع المنطقة قبل ولوجها من قبل مقاتلي القبيلة، ولما تؤمن المنطقة يفترق المقاتلون ويأخذ كل واحد في البحث عن مخبأ له.

وإذا وجد فرسان القبيلة الفرصة سانحة للمبادرة بالهجوم فإنهم يندفعون بخيلهم والمشاة في أعقابهم قابضين بذيل الخيل، ويبقى حامل الراية مبتعدا قليلا عن ساحة القتال ولا يتحرك إلا لتعيين نقطة تجمع المقاتلين، فرسان ومشاة. والقبايل يعلنون هجومهم بطلقات نارية مكثفة تتبعها أصوات المقاتلين طيلة مدة المعركة، وإذا انهزم القبايل فإنهم ينسحبون بسرعة على الفلوات والشعاب. (173)

*** ثقافة السفر عند الريفيين:**

ورد أن المسافر الذي يجوب دواخل الريف بالجزائر العثمانية يستعين بالقبب المنتشرة التي تحمل كل واحدة منها اسم مرابط، والتي يستدل بها طريقه، والمرابط الذي يقي المسافر من شر قطاع الطرق، علما أن هؤلاء كانوا يهابون المرابط ولا يتطاولون على من يحتمي به.(174)

ويتسنى للمسافر أن يصطحب القوافل التجارية أو النجوع والقبائل الراحلة، إلا أن الأولى تختلف عن الثانية في تعاملها مع المسافر الراغب الانضمام إليها، فالقافلة التجارية تستقبل كل مسافر ولا تفرض عليه سلوكا أو سيرة معينة أثناء السفر لأن أغلب أفراد القافلة التجارية لا

يعرفون بعضهم البعض، وهم من الرجال وقليل من النساء الأرامل اللائي يزاولن تجارة أزواجهن، وسيرهم يجري في صمت.

أما النجوع أو القبائل الراحلة فإنها تشترط على المسافر الراغب مصاحبتها أن يكون معروفا لدى أفراد النجع أو القبيلة، لأنهم على عكس القافلة التجارية ليسوا أفرادا منعزلون بل عائلات أو عائلة تسير برجالها ونسائها، وحتى كلابها وقطيعها وخيمها وكل متاع الترحال.

ويطلب من المسافر الذي يلتحق بالنجع أو القبيلة الراحلة، أن يصطحب خيمة ومؤونة، أو يشترك مع صديق له من النجع في الخيمة والكسكسي طيلة أيام السفر.

وورد أن المحتاجين هم عادة الأشخاص الذين يرتبطون في أسفارهم بالقافلة التجارية أو النجع الراحل، وهم يساعدون القافلة ويقدمون خدماتهم كسياقة الجمال وشحن البضائع على ظهورها مقابل تأمين غذائهم وشرابهم .(175)

وهذا لا يعني على الإطلاق أن السفر لا يكون إلا جماعة بل هناك من المسافرين الذين يتنقلون بامكانياتهم الخاصة ولا يصطحبون في غالب الأحيان إلا شخصا يدعى المكري كدليل طريق، مهمته حماية المسافر من سطو القبائل التي يتم عبور أراضيها، فالمخاوف واردة عند النوم وعند السقي بالماء.

وأجرة المكري عبارة عن مكافأة بسيطة يقدمها له المسافر قبل الانطلاق، وقد يقاسم المكري المسافر حلو السفر ومره، وعادة ما يصطحب المكري حرسا خاصا به عند اجتيازه لمنطقة غير آمنة.

وتتشكل مؤونة المسافر من السمن والتمر والروينة –القمح المطحون الذي يعجن بالماء– وتوضع في كيس يدعى المزود، الذي قد يلبي الحاجة الغذائية لأربعة أشخاص مسافرين طيلة عشرة أيام من السفر في حالة ما إذا كان مزودا مملوءا، ويتغذى المسافر على جناح برنوسه، بالروينة أساسا ثم يشرب الماء. ويحمل المسافر عكازا لقتل الأفاعي والثعابين وحيوانات أخرى سامة، كما يستعملها لإخافة كلاب القبائل والنجوع وكذا الحيوانات غير الأليفة.(176)

*** ممارسة الصيد البري بالريف:**

كان الصيد البري من خصوصيات الحياة الريفية والبدوية في الجزائر العثمانية، وأصبح جزءا من تكوين شخصية الشباب الفرسان، إذ يستغلونه في التدرب على الفروسية وتقنيات المطاردة عندما يلاحقون حيوانا ما، في الفجوات والشعاب، والريف الجزائري وباديته كان مسرحا للصيد البري بما فيه من صنوف الصيد فقد ذكر الأمير محمد في تحفته، الغزال والأرنب والكنينة (وهو نوع أصغر من الأرنب) في القسم التلي، والنعام والحمار(الوحشي)

والبقر(الوحشي) في القسم الصحراوي، إضافة إلى الطيور والجوارح وغيرها، وقال عن سكان الصحراء ومن قاربهم، أنهم يعتنون كثيرا باقتناص الجوارح وتعليمها واستعمالها.[177]

وفي المضمار نفسه أشار لوجي دي تاسي إلى هواية الصيد البري لدى القبائل العربية بجنوب الجزائر العثمانية، فقال أنها تصطاد الخيول والأحمرة المتوحشة في الغابات بالجنوب، كما وجدت في هذه الغابات، الأسود، النمور، الأيائل، الغزال، البقر الوحشي، والقطط الوحشية، والدب ...[178]

*** تربية الخيول بالريف:**

تحتل تربية الخيول العربية الأصيلة مكانة هامة في عقلية وثقافة سكان الريف والبادية في الجزائر العثمانية، وفي تربية الخيول، بالريف الجزائري، قال الأمير محمد :" وفيها من جياد الخيل، ما يروق منظرا، ويبهر خصالا، ولكثير من أهل البادية معرفة تامة بشياتها وعيوبها وأمراضها وعلاجاتها. ويوجد عندهم من هذا العلم، ما لا يوجد عند أحذق البياطرة في الحاضرة."[179]

وذكر لوجي دي تاسي أن عرب الجنوب الجزائري يهتمون بقوة بالخيول الأصيلة التي يمتلكونها بكثرة.[180]

وفي الختام، لا يسعنا إلا أن نذكر بأن الريف الجزائري في أواخر العهد العثماني كان مجالا استراتيجيا للحكم العثماني، فوضع له جهازا إداريا محكما، تمكن من خلاله أن يبسط نفوذه على هذا الفضاء الواسع باستخدام العنصر الكرغلي والعنصر العربي وكذا البربري.

لقد تمكن الجهاز الإداري الريفي أن يسلك سياسة ضرائبية صارمة تجاه سكان الريف، ذات أعباء ثقيلة، إذا قارناها بضرائب سكان المدينة، وكان من نتائجها الإيجابية أن راح الريفيون يمارسون نشاطاتهم الزراعية وتربية المواشي، وينافسون المدينة في مجال الحرف والصنائع، ويرتادون أسواق الريف الأسبوعية، وأسواق المدينة، وينتفعون من قوافل التجارة الشهرية والحج السنوية، ووصل تجار الريف إلى المناطق المعزولة داخل الجزائر، وكل ذلك ينم عن استقرار التجمعات الريفية المنتشرة في القرى الجبلية والدواوير السهلية والقصور الصحراوية، وبالتالي لا نرى مؤشرا على تراجع حياة الاستقرار وامتداد حياة البداوة في أواخر العهد العثماني.

وما يدعم فكرة الاستقرار العمراني الريفي هو تلك المراكز التعليمية وفي مقدمتها الزوايا التي لا تكون إلا في إطار تجمع بشري، قرية أو دوار، وقد علمنا كيف أن هذه الزوايا الريفية قد خدمت المجتمع الريفي ثقافيا وتحملت مسؤولياتها الحضارية، شأنها شأن الجوامع والمدارس والزوايا بالمدينة، إلا أن الذهنيات العقيمة لدى عموم سكان الريف الجزائري، جعلت هذا الفضاء الريفي حبيس التأخر وألصق به المستشرقون تهما تصب كلها في ابتعاده عن الحضارة.

الهوامش:

(1) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**،ص 274.

(2) **المرجع نفسه**، ص. 242.

(3) Eterhazy, Walsin. **Op.Cit. P.275.**

(4) **Ibid** . p 266

(5) المزاري، آغا بن عودة. **المصدر السابق، ج1**، ص 369.

(6) Eterhazy, Walsin. **Op.Cit.** , pp.266-268.

(7) Rinn, Louis. **Op.Cit.** .p.282.

(8) L'abbé, Edmond Lambert. **Op.Cit.**, p.225.

(9) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**، ص.245.

(10) **المرجع نفسه**. ص ص. 234-235

(11) **المرجع نفسه**. ص.234.

(12) الزهراوي أبو زاهر، زهير. " خلاصة تاريخ بسكرة" **مجلة التاريخ**، العدد 19، الجزائر، 1985، ص 76.

(13) مؤلف مجهول. **المصدر السابق** .ورقة 01 (أ-ب).

(14) كان انتخاب الشيخ غير ديموقراطي بصفة مطلقة، إذ كانت بعض العائلات دون غيرها هي التي تقدم المرشحين لتقلد مسؤولية المشيخة، وقد تتحكم في ذلك الوضعية الاقتصادية للفرد ونقصد بذلك ما يملكه الريفي من أراضي وبهائم. عن: عبد الجليل،حليم. "البدو والسلطة السياسية" .**مجلة الثقافة**، العدد، 79، الجزائر، 1404هـ/1984م، ص 187.

(15) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**، ص ص.277- 278.

(16) **المرجع نفسه**، ص 283.

(17) De tassy, Laugier. **Op.Cit**,p48

(18) عبد الجليل، حليم. "البدو والسلطة السياسية" .**مجلة الثقافة**، العدد، 79، الجزائر، 1404هـ/1984م، ص 187.

(19) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**، ص 283.

(20) L'abbé, Edmond Lambert. **Op.Cit.**, p.333.

(21) **Ibid.** p.41.

(22) **Ibid** , p.230.

(23) بوضرياسة، بوعزة. " الأعمال الإدارية والسياسية للحاج أحمد باي حاكم الاقليم الشرقي للجزائر" . **مجلة الرؤية**، العدد الأول، الجزائر، 1996، ص 91.

(24) L'abbé, Edmond Lambert. **Op.Cit.**, p.229.

(25) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية ...المرجع السابق**، ص 277.

(26) Daumas, Eugène. **Op.Cit.**, pp159-160.

(27) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية** ...**المرجع السابق**، ص 283.

(28) خوجة، حمدان بن عثمان. **المصدر السابق**. ص 112 .وأيضا، Daumas, Eugène. **Op.Cit.**

(29) Daumas, Eugène. **Op.Cit.**, p 40.

(30) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op.Cit.**, p.330.

(31) Gaid, Mouloud. **Op.Cit.**, P 203.

(32) Masqueray , E. « Documents Historiques recueillis dans l"Aurès – juillet 1876. » **In Revue Africaine,** n°21, 1877, p.99.

(33) L'abbé, Edmond lambert. **Op.Cit.**, p.231.

(34) Esterhazy ,Walsin . **Op.Cit.**, p285.

(35) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية** ...**المرجع السابق**، ص 545.

(36) ولعل لفظة "العزل" الذي أطلق على أراضي هذا القطاع يدل على أصولها الأولى، فلفظ العزل معناه التنحي والتخلي حسب ابن منظور. عن ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، المجلد 11، ص 440.

(37) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي.. المرجع السابق**. ص 91.

(38) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. **المرجع السابق** .ص 47.

(39) يرتبط معاش قبائل الرحل بهذه الأراضي لأنها تستأجر مساحات من هذا القطاع لرعي مواشيها مدة معينة قد تبلغ الثلاث سنوات.

(40) **يعرف رسم كراء أراضي البايليك بحق الحكور، وهو عادة خمسة دورو للجابدة الواحدة.**

عن: سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي..المرجع السابق** ص 90.

(41) يحق للحاكم على ضوء الأحكام الإسلامية التصرف في الأراضي التابعة للدولة مما يؤكد استمرار التقاليد الإسلامية في الجزائر العثمانية.

(42) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق**. ص 92

(43) **المرجع نفسه**. ص 93.

(44) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. **المرجع السابق**. ص 50.

(45) خلقت وساطة الحضر في كراء الأراضي الزراعية التابعة للبايليك روابط ومصالح متبادلة بين المدينة والريف.

(46) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. **المرجع االسابق**. ص 49.

(47) **المرجع نفسه**. ص ص 42-43.

(48) تعرف الأراضي المشاعة بأراضي السبيقة بالغرب الجزائري أي أرض السابقة نسبة لمالكها الأول، وبأراضي العرش بالوسط والشرق الجزائريين.

(49) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. **المرجع السابق**. ص ص 44-45.

(50) **المرجع نفسه**. ص ص 51-54 .

(51) ابن حموش، مصطفى. **فقه العمران**...**المرجع السابق**. ص ص.39-40.

(52) **المرجع نفسه**. ص ص.40-41.

(53) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. **المرجع السابق**. ص ص 40-41.

(54) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية** ...**المرجع السابق**، ص 553.

(55) دفتر خط هومايون، عدد 6931، 1207هـ، تعريب فكري طونا، المركز الوطني للأرشيف.

(56) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 30.

(57) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق**.**ج1**.ص 73.

(58) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 90.

(59) **المصدر نفسه** . ص 90.

(60) L'Abbé, Edmond Lambert. **Op.Cit.**,p.337.

(61) سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية** ...**المرجع السابق**، ص 416.

(62) Saidouni, Nacereddine. **Op.Cit.**,pp.72-73.

(63) **Ibid**.pp.213-215.

(64) **Ibid.** p.212.

(65) Esquer, Gabriel. **Op.Cit.**, p75.

(66) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 96.

(67) Saidouni, Nacereddine. . **Op.Cit.**, pp.202-205.

(68) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 30.

(69) Esquer, Gabriel. . **Op.Cit.**, p75.

وأيضا: ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **المصدر السابق** .**ج01**. ص.25.

(70) بلغ عدد بساتين فحص مدينة الجزائر مثلا حوالي عشرون ألف بستان سنة 1830م، وكانت تتراوح مساحة البستان بين عشرين وأربعين هكتارا.

(71) Saidouni, Nacereddine. **Op.Cit.**, p.206.

(72) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 30.

(73) القنب عشب ذي أوراق يشبه التبغ، يخدر من يدخنه، مثل الأفيون، يسميه سكان مدينة الجزائر بالحشيش وسكان قسنطينة بالكيف. وقد كتب شلوصر في هذا الشأن ما يلي: " ويزرع سكان الصحراء نباتا، يدخنه العرب والأتراك بكثرة يدعى الكيف، ويشبه نبات القنب عندنا، وبعض أوراقه طويل وبعضها الآخر قصير وتقتلع سيقانه في الخريف وتجفف وتباع بكميات كبيرة أو صغيـــرة." شلوصر، فندلين. **المصدر الســـابق**. ص 102.

(74)ويربى على ورقها دودة القز لإنتاج الحرير، ولأهميتها وقتذاك عين لها قائد يشرف على أشجار التوت يدعى قائد التوت لكن تراجعت مكانة هذه الزراعة ومكانة القائد في السلك الإداري في أواخر العهد العثماني.

(75) Saidouni, Nacereddine.**Op Cit**.pp.208-211.

(76) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 96.

(77) **المصدر نفسه**. ص 102

(78) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 30.

(79) **المصدر نفسه**. ص 30.

(80) Esquer, Gabriel. **Op Cit** . p.75.

(81) L’Abbé Edmond, Lambert. **Op Cit** .p.337.

(82) شالر، وليام. **المصدر السابق** ص 33.

(83) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق** . ص 89.

(84) **المصدر نفسه**. ص 102.

(85) Esquer, Gabriel. **Op Cit** . p75.

(86) L’Abbé Edmond, Lambert. **Op Cit** . p.329.

(87) Daumas, Eugène .**Op Cit** . p41.

(88) Gaid, Mouloud. **Op Cit** . p 191.

(89) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق** . ص 93-94.

(90) شالر، وليام. **المصدر السابق** . **ص 93** .

(91) L’Abbé Edmond, Lambert. **Op Cit.** p.339.

(92) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 83.

(93) هاينريش، فون مالتسان.**المصدر السابق**.**ج2**.ص 159.

(94) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق** . ص 96.

(95) بلبروات، بن عتو. **المرجع السابق**، ص.137.

(96) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق** . ص 96.

(97) **المصدر نفسه**. ص 99.

(98) أبو القاسم، سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. **المرجع السابق** . ص 255.

(99) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 94.

(100) أبو القاسم، سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. **المرجع السابق**. ص 255.

(101) Mouloud, Gaid. **Op Cit**. P.192.

(102) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق** . ص 97.

(103) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي ... المرجع السابق**. ص 194.

(104) Esquer, gabriel**. Op, cit.,** p 77

(105) بليل، رحمونة. **المرجع السابق**. ص 104.

(106) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 103.

(107) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 30.

(108) أبو القاسم، سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. **المرجع السابق**. ص 255.

(109) شالر، وليام. **المصدر السابق**. ص 30.

(110) Esquer, gabriel**. Op, cit.,** p 77.

(111) Mouloud, Gaid. **Op, cit.,** P190.

(112) Esterhazy, Walsin. **Op. cit.,** p 278.

(113) شريط عبد الله، الميلي محمد مبارك. **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985. ص.186.

(114) Gaid, Mouloud. **Op, cit.,** P.193.

(115) **Ibid.**. P.193

(116) ذكر لامبير أن الطرق بأرياف الجزائر العثمانية هي إن صح التعبير ممرات ضيقة، لا تسمح بمرور قافلتين تجاريتين إلا إذا التزمت كل واحدة، أقصى اليمين، وهي معبدة بأقدام المشاة والخيول والبغال. عن:

L'Abbé Edmond, Lambert. **Op, cit.,** P.256.

(117) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op, cit.,** pp.250-253.

(118) Gaid, Mouloud. L'Algérie sous les turcs. P.193

(119) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**، ص 96.

(120) Gaid, Mouloud. **Op, cit.,** P.192.

(121) الطاهر، عمري.**المرجع السابق**.ص ص. 223-224.

(122) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 102.

(123) أبو القاسم، سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. **ج2**، **المصدر السابق**.ص 259.

(124) وحسب مولود قايد بلغ سعر الشعير: نصف سكوين للقنطار الواحد.

(125) مؤلف مجهول. **المصدر السابق**. ورقة 01 (أ).

(126) Gaid, Mouloud. **Op, cit.,** p.186.

(127) Esterhazy, Walsin. **Op, cit.,** p.278.

(128) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. **المرجع السابق**. ص 43

(129) قسم بايليك الشرق إلى قطاعين: شرقي وغربي، وفي كل قطاع يوجد قائد جبري يقدر كمية العشور والزكاة في حدود قطاعه.

(130) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق**. ص ص 89-90.

(131) **المرجع نفسه**. ص ص 95-96.

(132) سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية.المرجع السابق**.ص 46.

(133) Gaid, Mouloud**. Op, cit.,** p.187(note)**.**

(134) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق.ص ص 96-99**.

(135) Gaid, Mouloud. **Op, cit.,** p.187 .

(136) سجلات البايليك. السجل رقم 122. الورقتين الثانية(أ) والرابعة (أ) حول تعيينات ولاة المدية وما تدفعه الأعراش إلى الحكام الجدد كهدية مقررة.

(137) ساحة أول ماي حاليا.

(138) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق**. ص ص 100-102.

(139) Esquer, gabriel**. Op, cit.,** p.126.

(140) سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي...المرجع السابق** .ص ص 108-109.

(141) أبو القاسم، سعد الله. **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المرجع السابق**. ص 18

(142) مزيان، عبد المجيد. **المقال السابق** .ص ص18-19.

(143) **المرجع نفسه**، ص 19.

(144) Eugène ,Daumas **. Op Cit .**p 40.

(145) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op Cit .**p.331.

(146) **Ibid.**p.46.

(147) **Ibid**. P.337

(148) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج2**.ص. 134.

(149) L'Abbé Edmond, Lambert. **Op Cit**. pp.331-332.

(150) سي يوسف، محمد. " نظام التعليم في بلاد الزواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني." **دراسة منشورة ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني**. منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1990. الجزءان الأول والثاني، ص.201.

(151) **المرجع نفسه** . ص ص.198-199.

(152) **المرجع نفسه** . ص ص. 204-205.

(153) **المرجع نفسه** . ص ص.199-200.

(154) L'Abbé, Edmond Lambert. **Op Cit** . p.331.

(155) Delpech, Adrien. « Un Diplôme de Mok'eddem de la Confrérie Religieuse Rahmania. » **In R.A,** n°18, Année 1874, PP. 422-427.

(156) سي يوسف، محمد " نظام التعليم...".**المقال السابق**. ص.207

(157) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق. ج2**.ص 139.

(158) De Tassy , Laugier. **Op Cit** . p 49.

(159) شلوصر، فندلين. **المصدر السابق**. ص 104.

(160) **المصدر نفسه** .ص 104.

(161) شالر، وليام. **المصدر نفسه**. ص 98.

(162) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق ج1**.ص 53.

(163) **المصدر نفسه**، ص 54.

(164) ابن العطار، أحمد بن المبارك. **تاريخ قسنطينة**. تحقيق: رابح بونار، المكتبة الوطنية الجزائرية، (بدون تاريخ). ص 46.

(165) ابن العنتري، محمد الصالح. **مجاعات قسنطينة**. تقديم وتحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974م.ص 29.

(166) كتب المزاري في هذا الشأن:" ويأتون إليه[ابن الشريف الدرقاوي بالغرب الجزائري] من كل فج بالعطايا، ويشتكون إليه ضرر المخزن وما هم فيه من أداء المغارم...فكان يعدهم بالفرج القريب." المزاري بن عودة آغا. **المصدر السابق** .ج**1**.ص 303.

(167) مسلم، بن عبد القادر. **خاتمة أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر**. تحقيق:رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1394هـ/1974م.ص 74.

(168) المزاري، بن عودة آغا. **المصدر السابق**. ص 361-367 .

(169) **المصدر نفسه**. ص 366،364.

(170) هاينريش، فون مالتسان. **المصدر السابق ج2**.ص ص 142-143.

(171) L'Abbé, Edmond Lambert. **Op Cit** . p.341.

(172) **Ibid**. P.341.

(173) **Ibid**. PP.342-343.

(174) **Ibid**.p.46.

(175) **Ibid.** pp.257-259.

(176) **Ibid.**PP . 260-261.

(177) ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **المصدر السابق**. ص 27.

(178) De Tassy, Laugier. **Op Cit** . P 55

(179) ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **المصدر السابق**. ص 27.

(180) De Tassy, Laugier. **Op Cit** . P 55

الخاتمة

لقد خلصنا في بحثنا هذا أن موضوع المدينة والريف بالجزائر العثمانية من المواضيع التي عني بها الباحثون وخاصة المستشرقون، ولا تزال عنايتهم بها متواصلة، بل ازدادت في السنوات الأخيرة بتعدد الباحثين واهتمام المسلمين منهم خاصة، بهذا الموضوع، على أن هؤلاء ينقسمون عموما إلى شقين:

-شق متحامل على مدن وأرياف العالم العربي الإسلامي ويمثله أنصار المدرسة الاستشراقية القديمة، الذين لم يروا في المدينة إلا أزقتها المتعددة وشوارعها الضيقة ومساكنها المنغلقة على نفسها، و لم يروا في المشهد الحضري لهذه المدن العربية الإسلامية إلا مشهدا مضطربا وفوضويا غير منظم في ظل غياب نظام بلدي، و لم يروا في الأرياف إلا بداوة وهمجية و بعدا عن الحضارة.

-وشق ثان موضوعي في طرحه ورؤيته التاريخية للمدينة العربية الإسلامية وريفها، فهو يرى في المدينة أنها مجال عمراني طريف في تنظيمه، يأخذ بعين الاعتبار الرغبات والحاجيات الحقيقية للسكان، وأن النظام البلدي كان حاضرا بقوة في المدينة العربية الإسلامية، كما يرى أنه هناك فرق بين البداوة والريف، فهذا الأخير عبارة عن مراكز حضرية تأخذ شكل القرى والدواوير، مستقرة على الدوام، تشتغل في فلاحة الأرض وتربية المواشي وتمتهن الحرف والتجارة. أما البداوة فهي ترحال دائم، والماشية هي عماد اقتصادها الاستهلاكي العائلي.

وبخصوص إشكالية الفصل بين المدينة والقرية، فقد توصل الباحثون إلى أنها وضعية تفرضها المدن الصغرى فقط، إذ هناك تجمعات ريفية قروية يضاهي حجمها حجم المدينة الصغيرة بالجزائر العثمانية. لكن ما يميز المدينة ويؤكد طابعها ليس استقرار تجمعاتها البشرية وفقط وإنما أسواقها المختصة وحرفها المتعددة والتي تتجاوز الاستهلاك العائلي كما هو الشأن في القرى الريفية. ومن أبرز دلائل الحياة الحضرية جوامع الخطبة، المالكية والحنفية، والمساجد، وأعلامها، ونخبتها الثرية، والحومات والأحياء، والمرافق العامة. ولما تختار المدينة كمركز قيادة وتتركز فيها هياكل إدارية وسياسية وعسكرية، يتدعم طابعها الحضري، هذه النوع من المدن الذي يمثل سلطة مركزية أو جهوية، يستقطب الجاليات الوافدة، فتنمو وتنهض، وبالتالي تعد هذه المدن العواصم مدن كاملة الشروط من حيث درجة نموها الحضري والعمراني ودورها كمركز سلطة إدارية وعسكرية تتجمع فيها أجهزة تنظيم ومراقبة المنطقة.

وعليه، نلاحظ أن القرية تعيش مرحلة انتقالية وهي تسير نحو التحضر وتعدد القرى في الجزائر العثمانية يعد أحد الأسباب التي حالت دون تحول المدن الصغرى إلى مدن كبرى، لأن المنافسة الاقتصادية بين المدينة الصغيرة والقرية تكاد تكون واضحة. زيادة على ذلك أن تقارب المدن الصغرى فيما بينها كان له دوره في تعقيد الانتقال إلى مدن كبرى.

وفي هذا السياق حاولنا رسم صورة المدينة الجزائرية الكبرى في العهد العثماني، وتأكيد دلائلها الحضرية، مركزين على العاصمة المركزية للبلاد وهي مدينة الجزائر فأبرزنا خططها، اعتمادا على مصادر الفترة المدروسة، وبينا معالمها وهياكلها المعمارية ونسيجها العمراني، عبر أجزائها الأساسية، وتوصلنا إلى أنها كانت فعلا مدينة كبيرة، تجاوبت مع معطيات المدن الحديثة، إذ وجد سكانها ظروفا مناسبة للاستقرار بها رغم الحملات الأوربية التي كانت تهددها دوريا على مدى ثلاثة قرون، فتحصيناتها منيعة، وأحياؤها السكنية، مصممة وفق النمط الحضاري لساكنيها المسلمين، تتوزع على أرجائها مصالح الدولة المختلفة، والمرافق العامة التي يحتاجها ساكن المدينة في حياته اليومية، وكذا المباني الدينية والثقافية التي ساهمت في الحفاظ على الهوية الإسلامية للجزائر العثمانية، وسط ثقافات متعددة، وصراع حضاري بين ضفتي البحر المتوسط، الشمالية والجنوبية.

وما أضفى على مدينة الجزائر العثمانية، طابع المدينة الهامة هو مركزها الحضري العمراني الذي اجتمعت فيه هياكل حكومية ومنشآت دينية وثقافية ومرافق عامة وسكنات جميلة، وارتبطت به طرق رئيسية، جعلت سكان المدينة يتوافدون عليه يوميا، حتى أضحى القلب النابض للمدينة خصوصا عندما نجده يطل على أهم نقطة دفاعية وتجارية في المدينة وهي الميناء الذي ظل طيلة العهد العثماني من أكبر موانئ الجزائر العثمانية بل وموانئ شمال إفريقيا.

و ما يعزز مكانتها كمدينة كبيرة في أواخر العهد العثماني، هو ثقلها البشري مقارنة بالمدن الجزائرية الأخرى، وخصوصيات مجتمعها، التي تغيب في مجتمع الريف، ومفادها أن لمدينة الجزائر العاصمة طبقتين، حاكمة ومحكومة، وكل طبقة مصنفة بدورها إلى فئات، مرتبة حسب وضعها المعيشي والمادي، ونفوذها السياسي، كما يلاحظ أن مجتمع مدينة الجزائر، كان مجتمعا متعدد الأجناس والأعراق، فمنهم التركي، والأوربي، والعربي، والبربري، واليهودي، ناهيك عن تعدد أديانه ومذاهبه، حيث نجد الدين الإسلامي هو المهيمن، مع ازدهار للمذهب الحنفي على حساب المذهب المالكي، وهامشية المذهب الإباضي الذي كان يتمذهب به الميزابيون. ورغم هذا التنوع في الثقافات والفوارق الاجتماعية ظل مجتمع مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني متماسكا، وتعايش المسلمون مع بعضهم البعض ومع أهل الذمة، وجمعت بينهم المصلحة الاقتصادية.

وما لفت انتباهنا أنه إذا كانت الهوية الإسلامية هي التي كان لها باع طويل في استمرار ذلك التراص الاجتماعي، فإن العادات والتقاليد التي جمعت مسلمي المدينة رغم اختلافاتهم

المذهبية وفوارقهم المادية وتباين أصولهم، كان لها هي الأخرى نصيب من هذا التماسك الاجتماعي، دون إغفال دور الوقف أو الحبس باختلاف أنواعه وتعدد أصنافه، الذي كان موجها لخدمة سكان مدينة الجزائر من المسلمين، عملا بالسنة النبوية وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، والذي أثبت نجاعته وفعاليته، في تمتين التماسك الاجتماعي، من خلال تنظيمه في شكل مؤسسات خيرية وفي إطار تشريعي واضح ودقيق يقصي البيع والشراء والوراثة لكل الأملاك الموقوفة.

و لا تكتمل شروط مدينة الجزائر كمدينة كبرى في أواخر العهد العثماني، إلا بالتعرض إلى وظائفها كعاصمة لدار السلطان من جهة وعاصمة للبلاد الجزائرية برمتها من جهة أخرى، فقد بينا سابقا كيف تم تخطيط جهازها الإداري، بين إدارة سياسية، مثلتها مناصب سامية، توزعت على ثلاثة أنواع من السلطات: سلطات تنفيذية، وسلطات تشريعية، وسلطات قضائية، جمع بينهم التعاون والتشاور مع احترام الصلاحيات، وإدارة مدنية، يشرف عليها شيخ المدينة.

وبالتالي وجد مجتمع مدينة الجزائر العثمانية نفسه أمام دواليب إدارية تسير مصالحه وتحكم منازعاته، وتمكنه من أداء وظائفه الحياتية، فتقاسم العمل الحرفي وانتظم في شكل جماعات مهنية حرفية، ذات ضوابط قانونية، وتداول النشاط التجاري والخدماتي، عبر الأسواق والسويقات والفنادق والدكاكين.

وإلى جانب ذلك حاولت مدينة الجزائر القيام بوظيفتها الثقافية في إطار إسلامي، فتحملت الجماعات الشعبية والمبادرات الفردية سواء كانت حكومية أو غير حكومية، لمسؤولياتها، وراحت تشيد الجوامع والمساجد
والمدارس الصغيرة الملحقة بالجوامع أو الزوايا، وهي بالعشرات، داخل الأسوار، وكان كل ذلك من أجل أن تشيع تعليم الشريعة الإسلامية واللغة العربية بين أبناء المدينة وأبناء الريف الطموحين لارتقاء أعلى الدرجات في تحصيل العلم.

ورغم هذا المجهود المحترم، لم تبرز مدينة الجزائر العثمانية كمدينة أو عاصمة عالمية باقتصادها وعلومها، لأن سياسة الحكام العثمانيين الداخلية والخارجية جعلتها تكتفي باقتصاد الكفاف والثقافة الدينية والصوفية، وتكرار ما قاله الأسلاف، وكلاهما (أي الاقتصاد والثقافة) لم يخترقا مجال الاختراع والابتكار والإبداع، ولم تساير مدينة الجزائر التطورات التي عرفتها العواصم الأوربية القريبة منها مسافة، في مجال الفكر السياسي، والاقتصادي، والعلوم والآداب والترجمة، والبنوك والتنافس الرأسمالي، والحماية الصحية، والمطبعة والصحف، في نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

وفيما يتعلق بالريف الجزائري في أواخر العهد العثماني، فإن دراستنا له خلصت إلى اتفاق جميع المؤرخين والباحثين على هيمنة الحياة الريفية على البلاد الجزائرية خلال العهد العثماني، لكن يبقى الاستقرار البشري بأرياف الجزائر هو المهيمن مقارنة بالترحال الدائم، الذي حاول المنظرون الفرنسيون الاستعماريون تبريره في الجزائر تحت كنف الحكم العثماني. ونحن لا ننكر ظاهرة الترحال وإنما كان ترحالا نصفيا، أي مؤقتا وموسميا، بمعنى أن القبائل الجزائرية المستقرة بالهضاب العليا في العهد العثماني جمعت بعضها، بين الاستقرار والترحال مثل قبائل الشاوية. أما الترحال الدائم فهو محصور في قبائل التوارق في أعماق الصحراء.

وبالتالي حاولنا، رسم صورة عامة للريف بالجزائر العثمانية واستخلاص الكم المعتبر للقرى الجزائرية سواء بالجبال أو السهول التلية أو بالصحراء، هذه القرى التي كانت تقوم بوظائفها كمراكز حضرية ريفية، في مجال التسيير الإداري والاقتصاد والثقافة، وتتكامل مع المدينة، إلا أن التكامل الاقتصادي كان غير متوازنا.

وبغية إبراز الطابع الحضري للمراكز الريفية من فحوص وقرى، ركزنا على فحص مدينة الجزائر باعتباره مركزا ريفيا حضريا وطيد الصلة بالمدينة ، وحاولنا إبراز المجهود التخطيطي العمراني للعثمانيين كحكام للبلاد في الفترة الحديثة، فوجدنا أن فحص الجزائر كان فعلا بؤرة حضرية متأثرة بالثقافة الحضرية لمدينة الجزائر، فأبراجه وبطارياته موزعة بطريقة محكمة، هدفها حماية المدينة من الاعتداءات مهما كانت وجهتها، وشبكته المائية مصممة بما يخدم سكان الفحص وسكان المدينة على السواء، ومساجده وزواياه موزعة حسب توزع الثقل البشري للفحص، كما كان الفحص فضاء، لما لا يمكن، للمدينة تحمله وهي مسورة من جميع الجوانب، كالمقابر العمومية والمزبلة والورشات الحرفية والصنائع التي تنعكس سلبا على المجال البيئي الحضري. وحينها خلصنا إلى نتيجة مفادها أن لا مدينة بدون فحص، والفحص الريفي لا يمكن له أن يكون حضريا إلا إذا تشبع بثقافة حضرية مدينية، وأن الفحص ما هو إلا امتداد للمدينة، بينهما علاقة تأثير وتأثر، ناهيك عن كونه جسرا بين المدينة والأوطان الريفية.

وإذا ألقينا نظرة على ما يجعل الريف ينفرد بنمطه ويناقض نمط المدينة، نجد ذلك في عدة مواضع، أولها أن التخطيط المعماري والعمراني للريف، قد يختلف عن نظيره في المدينة، وثانيها أن المجتمع الريفي بالجزائر في أواخر الفترة العثمانية، اختلفت تركيبته عن تركيبة مجتمع المدينة، حيث نجد طبقة حاكمة من الدرجة الثانية تمثلها قبائل المخزن تنفذ أوامر حكام المدن، وتنعم بالامتيازات، وقفت حجر عثرة أمام حدوث تغيرات اجتماعية في الريف، وطبقة محكومة تمثلها قبائل الرعية الخاضعة وقبائل الأحلاف التابعة، ناهيك عن تعدد أجناس المجتمع الريفي مثلما هو

حاصل في المدينة لكن مع غياب الجنس التركي والأوربي، دون أن نغفل أن نشير أن العربي والبربري والزنجي الأسود عاشوا معا تحت مظلة الإسلام، ليصبح عندئذ مجتمعا واحدا مع أقلية يهودية، ولا حظنا أن عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ولباسهم ونشاطاتهم اليومية متشابهة و متقاربة، لكنها مغايرة عن التي عرفناها في مجتمع مدينة الجزائر. وثالثها أن الفضاء الريفي هو أوسع من فضاء المدينة، ويعتبر مجالا استراتيجيا للحكم العثماني، فوضع له جهازا إداريا محكما، اختلفت آلياته من ريف دار السلطان إلى أرياف البايليكات الثلاث الأخرى، ومن خلاله تمكن العثمانيون أن يبسطوا نفوذهم على هذا الفضاء الواسع باستخدام العنصر الكرغلي والعنصر العربي وكذا البربري. ورابعها أن الجهاز الإداري الريفي، قد سلك سياسة ضرائبية صارمة تجاه سكان الريف، ذات أعباء ثقيلة، إذا قارناها بضرائب سكان المدينة، وكان من نتائجها الإيجابية أن راح الريفيون يمارسون نشاطاتهم الزراعية وتربية المواشي، وينافسون المدينة في مجال الحرف والصنائع، ويرتادون أسواق الريف الأسبوعية، وأسواق المدينة، وينتفعون من قوافل التجارة الشهرية والحج السنوية، ووصل تجار الريف إلى المناطق المعزولة داخل الجزائر. وخامسها أن الزوايا الريفية بخلاف زوايا المدن قد هيمنت على حركة التعليم الإسلامي وخدمت المجتمع الريفي ثقافيا وتحملت مسؤولياتها الحضارية، شأنها شأن الجوامع والمدارس بالمدينة، إلا أن الذهنيات العقيمة لدى عموم سكان الريف الجزائري، جعلت هذا الفضاء الريفي حبيس التأخر وألصق به المستشرقون تهما تصب كلها في ابتعاده عن الحضارة.

على أية حال، لم يكن هناك توازن بين المدينة والريف في أواخر العهد العثماني لكن كان التواصل بين النمطين، حيث أدت المدن الكبرى والمتوسطة أدورا اقتصادية وثقافية وفكرية مركزية، وحرص الأتراك العثمانيون على التأقلم مع سلطات القبيلة مما جعلهم ينفتحون على الريف، وما توافد البرانية إلى المدن إلا دليلا على هذا التواصل المديني-الريفي، حتى أن وليم سبنسر قد وصف هجرة البرانية بالهجرة القروية التي تسبق التصنيع.

وبناء على هذه الصورة للمدينة والريف بالجزائر يمكن تشخيص حجم الجرائم التي استحدثها الاحتلال الفرنسي في حق الجزائريين، فقد هجر الأتراك العثمانيين الذين دافعوا عن البلاد في أوج درجات ضعفها ووحدوا الأقاليم ، وشن حملة شرسة على قيم الجزائريين، فحارب لغتهم ودينهم، وسمم تاريخهم، وسعى إلى تغييب رموزهم التاريخية من ذاكرة الأجيال الجزائرية المتعاقبة، وصادر ممتلكاتهم وأراضيهم الزراعية، وزرع الموت في كل أنحاء البلاد، إنها بكل بساطة حـــرب على حضارة وتاريخ الجزائريين، وبالتالي **أي تعمير جاء به الفرنسيون، وأي قفار وجدوه** ؟

المـــلاحق

-الملحق الأول: مسار أسوار مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني وتوزع أبوابها الرئيسية.

(المرجع: **http://nice.algerianiste.free.fr**).

-الملحق الثاني: قائمة أحياء (حومات)مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

(**المصدر**: ديفولكس، ألبير. **خطط مدينة الجزائر-من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني**- تحقيق: مصطفى بن حموش، وبدر الدين بلقاضي، المجمع الثقافي،أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2004.)

-الملحق الثالث: ضيق أزقة مدينة الجزائر، على مقاس عرض جمل.

المرجع:

-Missoum, Sakina. **Alger à l'époque Ottomane –La Médina et la Maison Traditionnelle-** INAS, Alger, 2003. p.76.

-الملحق الرابع: خطة ميناء مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني

المرجع:

Missoum, Sakina. **Alger à l'époque Ottomane –La Médina et la Maison Traditionnelle-** INAS, Alger, 2003.p.120.

-الملحق الخامس: بيانات عتق العبيد والإماء الزنجيات بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني

.(المصدر: : **المحاكم الشرعية. العلبة رقم 01. الوثيقة رقم 63، 64، 66**).

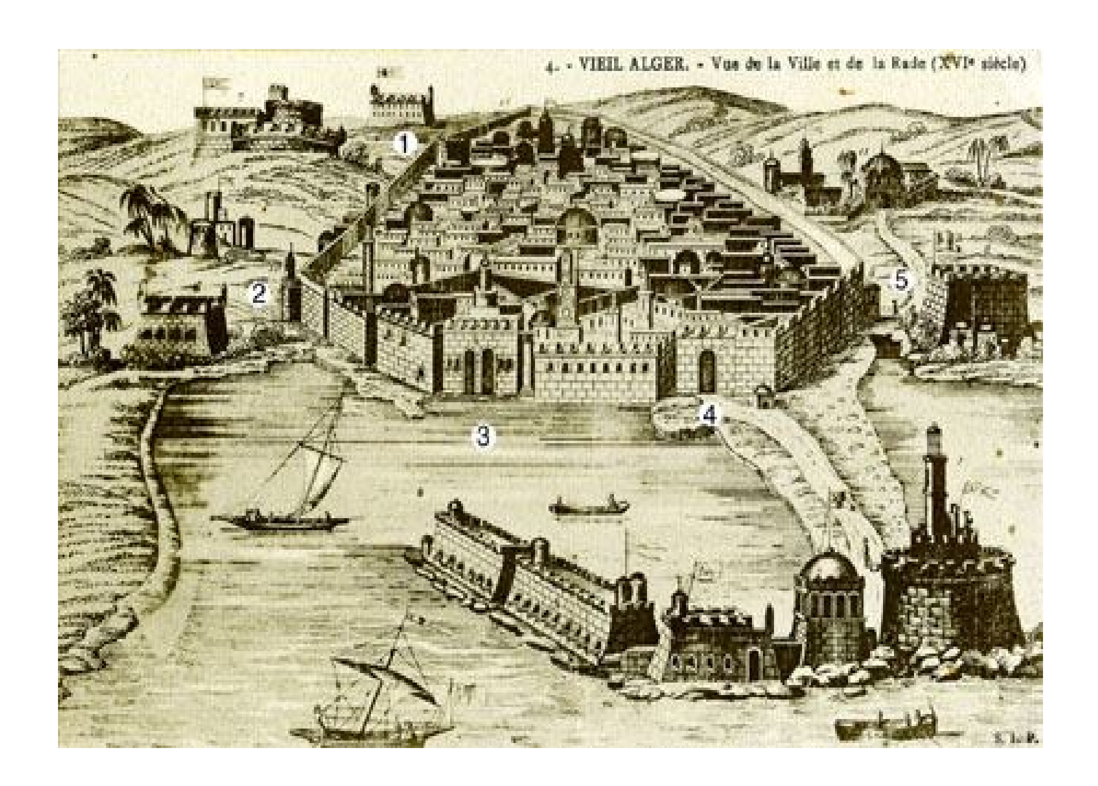
-الملحق السادس:قائمة أسماء الحرف بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

(**المرجع**: غطاس، عائشة. **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830**. مقاربة اجتماعية واقتصادية. أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2000-2001، الجزء الأول. ص ص. 152-154.)

-الملحق السابع: قائمة جنائن فحص مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

المرجع: Saidouni, Nacereddine**. L'Algérois Rural à la Fin de l'époque Ottomane (1791-1830).** Dar El Gharb Al Islami, Beyrouth, 2001.pp.61-63.

الملحق الأول: مسار أسوار مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني وتوزع أبوابها الرئيسية.



صورة تبين امتداد أسوار مدينة الجزائر وأبوابها الخارجية المرقمة من 1 إلى 5 نسميها كالآتي:

(1) الباب الجديد

(2) باب عزون

(3) باب البحر

(4) باب المرسى (باب الجزيرة أو الجهاد)

(5) باب الواد

المرجع:http://nice.algerianiste.free.fr

الملحق الثاني: قائمة أحياء (حومات)مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

أحياء المنطقة الحضرية الأولى.	أحياء المنطقة الحضرية الثانية.	أحياء المنطقة الحضرية الثالثة.	أحياء المنطقة الحضرية الرابعة.	أحياء المنطقة الحضرية الخامسة.	أحياء المنطقة الحضرية السادسة.
حومة باب الواد	حومة القصبة (الحي الرسمي)	حومة العطارين اليهود	حومة باب عزون	حومة باب السوق	حومة القيسارية
حومة حارة الجنان	حومة بن شبانة	حومة الخزارين اليهود	حومة السمارين	حومة كتشاوة	حومة الجامع الكبير
حومة العين المزوقة	حومة ساباط العرص	حومة سوق الكتان	حومة الخراطين	حومة الصاغة	حومة دار الذهب
حومة سيدي رمضان	حومة ساباط المور	حومة الكساكسية	حومة البرادعية	حومة البشماقجية	حومة ساباط الحوت
حومة حوانيت زيان	حومة ساباط الريح	حومة الكبابطية	حومة الصفارين	حومة الرصايصية	حومة زاوية القشاش
	حومة سيدي علي بن عبد الله	حومة تبارن لاغا	حومة الحدادين	حومة حارة ساباط الكتانية	حومة المقرون
	حومة سيدي عبد المولى	حومة السلاوي		حومة حارة البئر	حومة سيدي علي الفاسي
	حومة العزارة	حومة الخضارين		حومة الفراغية	حومة العين الحمراء
	حومة بن كاور علي	حومة الجبحي ابراهيم			حومة الجامع علي.

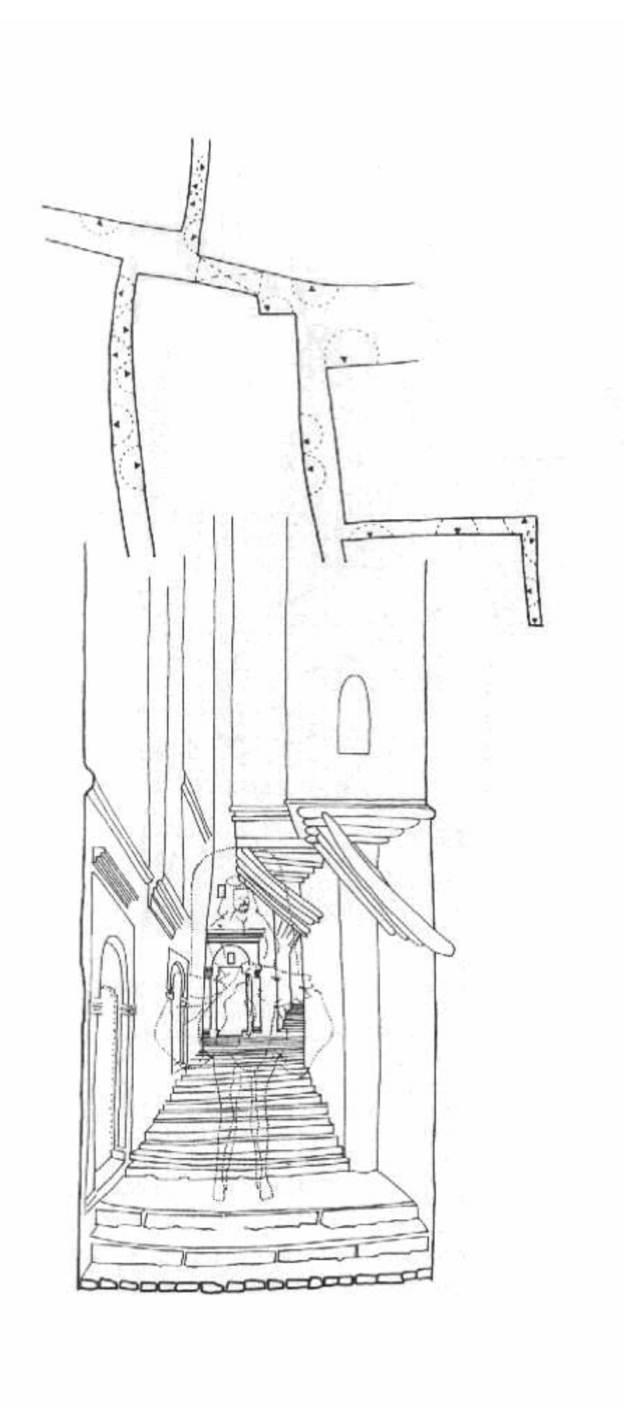
	حومة سيدي عبد الله	حومة سويقة عمور			
	حومة بئر الجباح	حومة تيبرغوثين			
	حومة القلاع	حومة بسباس			
	حومة كوشة اسكندر	حومة ساباط القايد قاسم			
	حومة الحمامات	حومة حوانيت بن رابحة			
	حومة سيدي محمد الشريف				
	حومة الخندق				
	حومة الغريبة				
	حومة مدفع جربة				
	حومة الحجرة الزرقاء				

المصدر: ديفولكس، ألبير. **خطط مدينة الجزائر–من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني**– تحقيق: مصطفى بن حموش، وبدر الدين بلقاضي، المجمع الثقافي،أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2004.

الملحق الثالث:ضيق أزقة مدينة الجزائر، على مقاس عرض جمل.

المرجع:

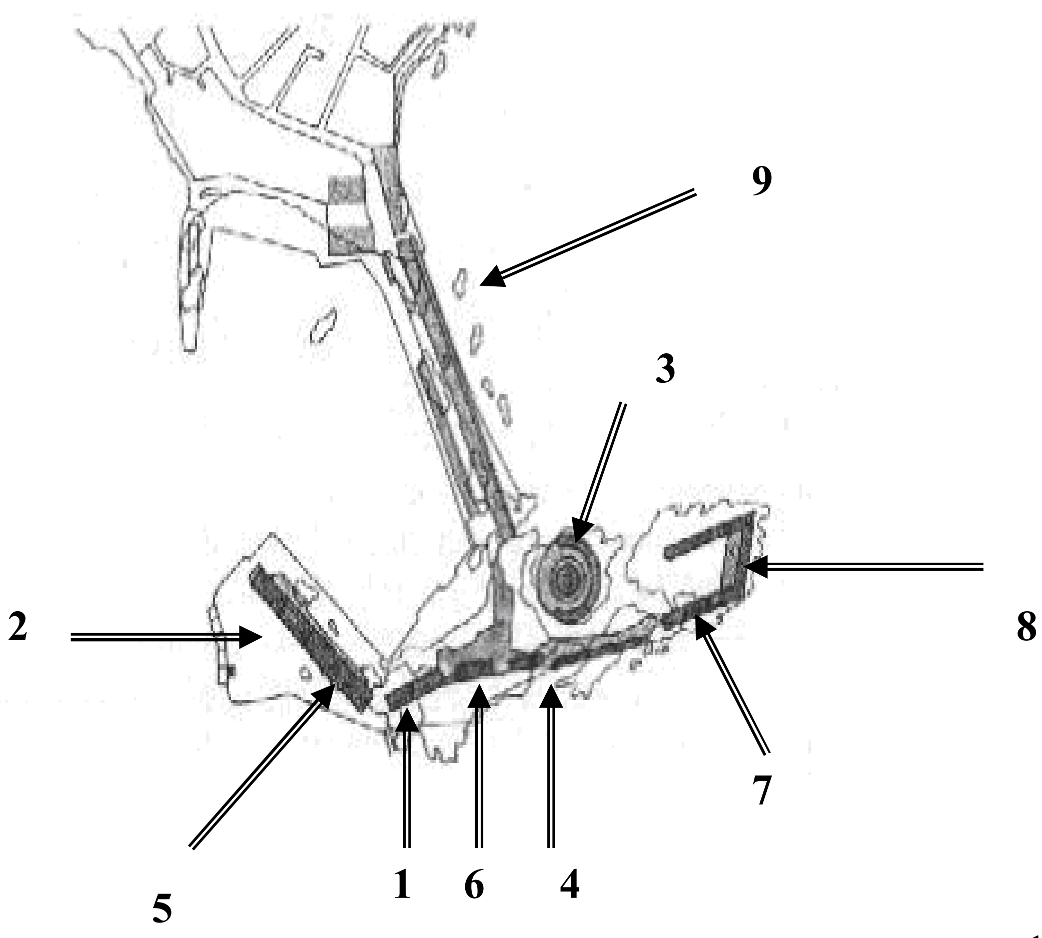
-Missoum, Sakina. **Alger à l'époque Ottomane –La Médina et la Maison Traditionnelle-** INAS, Alger, 2003. p.76.



الملحق الرابع: خطة ميناء مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني

المرجع:

Missoum, Sakina. **Alger à l'époque Ottomane –La Médina et la Maison Traditionnelle-** INAS, Alger, 2003.p.120.



(1) برج السردين

(2) برج رأس المول أو برج الحاج علي

(3) برج الفنال

(4) البرج الجديد

(5) برج الجمان

(6) برج مابين

(7) برج رأس عمار القديم

(8) برج رأس عمار الجديد

(9) مخازن

الملحق الخامس: بيان عتق العبيد والإماء الزنجيات بمدينة الجزائر.

1-بيان عتق جماعي لأمة زنجية توفي سيدها:

" بالمحكمة الشرعية وأمام قاضيها...حضر الإخوة الثلاثة وهم سي علي وسي محمد وأحمد أولاد المرحوم بكرم الحي القيوم القائد سليمان، قايد السبت كان، كما حضرت زوجه أمة الله الولية فاطمة بنت قارة محمد اليولداش، بمحضر المكرم يوسف بن صالح اليولداش والمسمى الأشـــيب، المكرم محمد بن خليل العمراني نسبا، ولهما ما عرفت عينا واسما وأشهدوا على أنفسهم أنهم عتقوا جميع الأمة السوداء المساة "سترة" على القايد سليمان المذكور، ونجزوا عتقها عليـــه وألحقوهـــا بأحرار المسلمين، لها ما لهم وعليهم ولا سبيل لأحد عليها."

أواخر قعدة الحرام سنة 1235.

المصدر: المحاكم الشرعية. العلبة رقم 01. الوثيقة رقم 63

2- بيان عتق فردي لأمة زنجية

" الحمدلله، أشهدَ المكرم...السيد الحاج محمد وكيل بيت تيطري كان، بن حسين...شـــهيديه على نفسه أنه عتق جميع الأمة المسمات " رقية" الصغيرة المرضعة...عتقا جائزا ناجزا أطلقها بـــه من حبل الرق والعبودية وألحقها بحرائر المسلمات فيما لهن وعليهن، تذهب حيـــث شـــاءت لا سبيل لأحد من خلق الله عليها...رجاء أن يعتق الله بكل عضو منها عضوا من معتقها من النار، كما جاء في صحيح الأخبار عن النبي المختار صلى الله عليه وسلم آناء الليل وأطراف النـــهار، قصد بذلك وجهه العظيم ورجاء ثوابه الجسيم. إن الله يجيز المتصدقين ولا يضيع اجر المحســـنين. شهد عليه بذلك، وهو بالحالة الجائزة شرعا وعرفه وطُلع في ذلك الشيخ الامام العالم العلامـــة، وهو السيد (طابع) وسدده، فوافق على ذلك بتاريخ أواخر جمادى الثانية عام 1244."

المصدر: المحاكم الشرعية. العلبة رقم 01. الوثيقة رقم.64

3-بيان عتق فردي لعبد زنجي.

" الحمد لله، أشهد المعظم الأجل السيد حسن خوجة ابن السيد مصطفى على لســـان شـــقيقه الأجل الخيّر الأكمل، السيد عبد الله خوجة، إمام جامع السيدة، في التاريخ، شهيديه على نفسه أنه عتق جميع العبد المسمى " بلخير" ...زنجي اللون...وجعل ثوابه في وجه المرحومـــة الســـيدة "خداوج" بنت المرحوم السيد حسن خزناجي. بتاريخ أواخر رمضان 1238."

المصدر: المحاكم الشرعية. العلبة رقم 01. الوثيقة رقم66.

الملحق السادس: قائمة الجماعات الحرفية بمدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

1-قائمة الجماعات الحرفية الإنتاجية بمدينة الجزائر

البابوجية	الحصارين	الخبازين	الخراطين
البجاقجية	الرتايعية	الدباغين	الخياطين
البحارين	الرصايصية	القزادرية	القزازين
البرادعية	المقفولجية	المكاحلية	المسامعية
البراملية	النجارين	النشارين	الحرازين
البشماقجية	الحرارين	الحدادين	الحواكة
البقارين	الجقماقجية	البلاغجية	الهرقماجية
الطرازين	اللحامين	الغرابلية	الغمادين
الفخارين		الفلكجية	القرارطية

2-قائمة الجماعات الحرفية الخدماتية والتجارية بمدينة الجزائر

الوزاعين	التبانين	الترابين	التماقين
الحلفاجية	الحلوجية	الحواتين	الحجارين
الصياغين	السراجين	الدخاخنية	الزياتين
السعاجية	السفاجين	السكاكنية	السكاكرية
السمارين	السمانين	السناجية	الشبارلية
الشرباتجية	الشماعين	الشواشية	الصباغين
الصبانين	الصباولجية	الصفارين	الصقاطين
القشابون والفكاهون	القهواجية	القوقجية	الكبابطية
الكفكجية	الكواشين	اللبانين	البنائين
البياضين	السمارين	الجواجية	الجيارين
الحلاطبية	الرقاقين	الزبالين	الزواقين

الحفارين	الدلالين	العساسين	الأطباء
الحفافين	الحمايمية	الفرانين	الطباخين
الحمارين	الحمالين	المقايسية	الجلابين
الفنداقجية	القنداقجية	اللبلابجية	العطارين

المرجع: غطاس، عائشة. **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830**. مقاربة اجتماعية واقتصادية. أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2000-2001، الجزء الأول. ص ص. 152-154.

الملحق السابع: قائمة جنائن فحص مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني.

-جنان عبد القادر، قرب بئر الخادم.

-جنان عبد اللطيف، بالحامة.

-جنان آغا الانكشارية بين رأس تافورة وعين الربط.

-جنان آغا العرب، بقرب القليعة.

-جنان علي رايس، بطريق سيدي فرج، وكان ملكا لرايس حميدو، وسمي في العهد الفرنسي بدار الاتفاقية Villa du Traité بين دي بورمون De Bourmont والداي حسين باشا يوم 03 جويلية 1830م.

-جنان بابا الروشي، بسهل الحامة، سماها الفرنسيون بدار القراصنة.

-جنان باش شاوش، ملكا للعائلة اليهودية "ليفي براهام Lévy Braham"

-جنان رايس حميدو، الذي كان سابقا جنان بربروس، واستولى علية ميزومورتو.

-جنان بيت المال، الذي أصبح ملكا لبابا عمور.

-جنان بلحاج سعيد، وكان سابقا ملكا لأمين السكة.

-جنان بلمرابط، بمرسى الذبان.

-جنن بن دوران، وهو ملكية لليهودي " بن دوران Ben Dran" ببوزريعة.

-جنان بن حمدان قرب مزرعة الآغا.

-جنان بن نفلاس، الذي صار ملكية لأمين السكة.

-جنان بن نيقرو، قرب بئر الخادم.

-جنان بن سحنون، المعروف باسم المرابط بن عكنون، والذي باعه أحمد خوجة لقايد العرب بن سحنون سنة 1229هـ/1813-1814م .

-جنان بن سيام، في مدخل بئر الخادم.

-جنان بن طالب، قرب سيدي بونور المعروف باسم جنان القناصل .

-جنان بن زحوط، مقدم الطائفة اليهودية، الكائن ببوزريعة.

-جنان بن عكاز، الذي كان إقامة للسعيدي الخزندار، ببوزريعة.

-جنان بوضربة ببوزريعة.

-جنان بوضربة بين القبة والقبة القديمة، ومساحته خمس هكتارات.

-جنان بوقدورة، ملكية ليحي آغا بمرتفع مصطفى.

-جنان الشيخ علي بن أمين بالقبة، ملكية لشيخ الإسلام سابقا، وعرف باسم دار بن رضوان.

-جنان شيخ البلد قرب بئر الخادم.

-جنان شيخ الإسلام بواد القناصل، قرب دار الانجليز.

-جنان شكيكن، وكان إقامة للقنصل الاسباني، يملكه وكيل الحرج سيدي ابراهيم بن يوسف.

-جنان دار الضيوف.

-جنان الأمير عمار.

-جنان البربري، بجوار جنان باي التيتري.

-جنان الباي، قرب بئر الخادم.

-جنان الباي، خارج باب الواد، مساحته خمسة عشر ألف متر مربع، وكان دارا لحسن باشا.

-جنان باي التيتري.

-جنان الحمرا، سكنه الباشوات في القرن السابع عشر.

-جنان القايد أحمد.

-جنان القايد حسن، خارج باب عزون.

-جنان الخزناجي ابراهيم، مقابل ضريح المرابط سيدي خالف، قرب الشراقة بطريق سيدي فرج.

-جنان قصب الهند، سكنه ورثة مصطفى باشا.

-جنان المفتي، وقد بناه الداي حسن 1791-1798.

-جنان الصنانجي بزغارة.

-جنان حسن الباشا، قرب بئر الخادم.

-جنان حسين بدالي ابراهيم.

-جنان حسين داي، وقد تحول بعد 1830 إلى مخزن للتبغ.

-جنان قايد الدار.

-جنان قايد الباب، قرب عين بئر الخادم.

-جنان قارة حسن، ملكية للقنصلية الدانماركية.

-جنان قارة ابراهيم.

-جنان الخزندار، قرب بئر الخادم.

-جنان خوجة الخيل مصطفى، بمرتفع مصطفى.

-جنان كرسي الجلوة.

-جنان مترل المحلة، قرب عين الربط.

-جنان محمد الشاوش بين القبة وطريق قسنطينة.

-جنان مصطفى الخياط (دار يوسف في العهد الفرنسي).

-جنان مصطفى خوجة برأس العقبة.

-جنان مصطفى باشا في أعلى عين الربط.

-جنان مصطفى رايس، بمرتفع مصطفى.

-جنان أربعة آبار بطريق دالي ابراهيم.

-جنان سبعة آبار، الذي تحول إلى قنصلية توسكانيا.

-جنان صفر، ببئر الخادم.

-جنان سيدي الحاج عمر، باي مليانة.

-جنان سليمان، مساحته خمسة وعشرون ألف متر مربع، نصفها حبس، وقد اشتراه قنصل انجلترا.

-جنان سرير، ملكية لعائلة يهودية "عمار" في سنة 1799م.

-جنان يحي آغا، قرب مقهى حيدرة، امتلكه سنة 1799م آغا العرب "علي"، ثم صار وقفا، واستولى عليه قنصل السويد سنة 1830.

-جنان يوسف خوجة، بحي الثغريين، قرب برج النجمة.

-جنان القنصلية الأمريكية، في أسفل القنصلية البرتغالية.

-جنان القنصلية البلجيكية.

-جنان القنصلية الدانماركية بتلاوملي (حي القناطر).

-جنان القنصلية الاسبانية، عند مدخل الأبيارن والمعروف بدار النعامة، وصار ملكا لشكيكن.

-جنان القنصلية الفرنسية بين واد سيدي ابراهيم في الشمال وواد الزغارة في الغرب.

-جنان القنصلية الهولندية، عند مدخل الأبيار.

-جنان قنصلية نابولي.

-جنان القنصلية البرتغالية، ما وراء واد القناصل في أسفل بوزريعة.

-جنان القنصلية السويدية أعلى القنصلية الدانماركية.

-جنان قنصلية توسكانيا.

المرجع:

Saidouni, Nacereddine**. L’Algérois Rural à la Fin de l’époque Ottomane (1791-1830).** Dar El Gharb Al Islami, Beyrouth, 2001.pp.61-63.

قاموس المصطلحات والألفاظ

أ

–أمين الحرفة:ينتخبه معلمو الحرفة التي ينتسب إليها، ويتميز عموما بتمكنه من الصنعة والسلوك المعتدل، ويتجلى دوره في التنسيق مع السلطات المدنية المحلية بخصوص جمع الضرائب الحرفية والمشاركة في تسيير شؤون المدينة العامة إذ كان يكلف من طرف الإدارة القضائية بالتحقيق في القضايا التقنية التي تعرض على القاضي باعتباره خبير تقني، ويتعاون مع المحتسب في مراقبة السوق بالتركيز على فحص المكاييل وجودة السلع والانتباه إلى سلوك جماعته الحرفية تجاه الزبائن، كما كان يدافع عن حقوق أفراد الجماعة الحرفية التي ينتمي إليها، ويمارس الرقابة عليهم والبت في خصوماتهم مما يوحي أنه كان للأمين سلطة قضائية تنفيذية لا تتعدى جماعته الحرفية.

–أمين الأمناء:كان لأمين الأمناء دور في عقد المصالحات بين الجماعات الحرفية وحتى بين أفراد الجماعة الواحدة، هذه المصالحات التي تساعد على صياغة نظام حرفي ايجابي، وفي التنسيق مع شيخ البلد في جمع الغرامات من أصحاب الحرف المتنقلة، ومنزلة أمين الأمناء محترمة لدى الحاكم السياسي للمدينة، فهو الواسطة بينه وبين أمناء الحرف في قضايا عالم الاقتصاد الحرفي بالمدينة.

–آغا العرب:ويسمى أيضا آغا الصبايحية، ويعتبر في الأصل قائد الفرسان العرب المخازنية، بعد أن ظهرت أهمية الجيش الاحتياطي غير النظامي، وتراجع أهمية الجيش الانكشاري العسكرية. ومع بداية القرن الثامن عشر، توسعت صلاحياته لتجمع بين الأمور التي تتصل بالأمن وتتعلق بشؤون الجيش وبين النظر والتصرف في شؤون أوطان دار السلطان، باعتباره المرجع الأول لكل الموظفين المتولين لشؤون سكان الريف بدار السلطان، والمتصرف الفعلي في شؤون السكان بهذه المقاطعة، فهو ينظر في كل القضايا المهمة عن طريق القياد وشيوخ القبائل من مقره بحوش الآغا خارج باب عزون.

–آغا الانكشارية: هو قائد الجيش الانكشاري، وفي الوقت ذاته يترأس مجلس الديوان الأكبر والأصغر كهيئتين تشريعيتين.

–أراضي الموات:ليست ملكا لأحد ولا هي مرعى ولا محتطب لقرية وهي بعيدة عن التجمعات العمرانية، وهناك فرق بين الأراضي الموات والأراضي المتروكة التي يقصد بها الأراضي المتروكة لسكان الريف في رعيهم ومحتصدهم ومحتطبهم.

–أبقار الحرث: وهي الأبقار غير الحلوب.

-**أنصاف الرحل**: وهم القبائل التي ترتحل موسميا، بحثا عن الكلأ لماشيتها، فتجمع عندئذ بين التنقل والاستقرار.

-**أوقاباشي**: هو موظف يساعد المزوار في غلق الأبواب الخارجية وفتحها.

-**أوداباشي**: هو قائد الغرفة بالثكنة، وله الحق في حضور جلسات الديوان الأكبر.

-**الأوجاق**: مفردها وجق وهي كلمة عثمانية تعني لغة" القدر"، أي مجموعة العساكر الذين يحيطون بقدر الطعام، وبلغ عدد أوجاق الجزائر العثمانية 424 وجقا.

-**الأوطان**: وهي المناطق الريفية السهلية أو الجبلية، البعيدة عن مركز المدينة، وكل وطن تسكنه مجموعة قبائل.

-**الأعراش**: مفردها عرش، أي القبيلة، وتداولت هذا المصطلح، القبائل البربرية بالجزائر العثمانية.

-**الأشراف**: هم الذين يثبتون بعقود قضائية أنهم ينحدون من سلالة آل البيت، وذكر ديفولكس أنهم يتواجدون بمدينة الجزائر بأعداد كبيرة حتى أنهم شكلوا جماعة متميزة داخل مجتمع المدينة، ولهم مؤسسات خاصة بهم.

-**الأعلاج**:لقب يطلق على المسيحيين الذين يرتدون عن مسيحيتهم واعتنقوا الإسلام بعد النطق بالشهادتين ثلاث مرات خلال أربع وعشرين ساعة، وقد يسجل العلج في قنصلية بلاده بالجزائر، ويصير العلج منذئذ يتمتع بحقوق الرجل الحر لا الأسير أو العبد لكن يمكن لسيده أن لا يعتقه إلا إذا وصلته الفدية من بلده الأم.

-**الأحـــلاف**: وسميت بالأحـــلاف لأنها ترتبط بحلـــف عسكري أو اقتصادي مع السلطة التركية العثمـــانية أو المخزن، ولا يعدو أن يكون هذا الحلف سوى دعم بالفرسان أو بمواد أولية مثل الفحم، الخشب، الزيت وغير ذلك، مقابل عدم تدخل قوات المخزن والأتراك في شؤونها الداخلية، وعادة ما تكون قبائل الأحلاف عبارة عن قبائل مرابطية، أو تنحدر من سلالة الأشراف، أو هي قبائل قوية وعريقة تدعى بالأجواد، وقد تمارس العديد منها نفوذها على قبائل مجاورة لها.

-**الأجواد**:ويمثلون الأداة العسكرية في المجتمع العربي الريفي، وهم الذين ينحدرون من عائلات عريقة ومشهورة في البلاد، أو قادة قبائل قوية مثل قبيلة الذواودة وبن قانة وبوعكاز والمحال... وقد عانى سكان الريف من قمع هؤلاء النبلاء العسكريون الذين حاولوا فرض حمايتهم على القبائل.

–الأشراف: الشريف هو كل من ثبت نسبه لفاطمة الزهراء، بنت النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب، والعرب يمنحون مكانة محترمة للأشراف ويخاطبونهم ويتحدثون عنهم بـــ"سيدي"، وعددهم في الجزائر معتبر يصل إلى عدد الفخذ أو الفرقة داخل القبيلة. وهم محترمون وإليهم يعهد القضاء والإفتاء، ولهم تأثير معنوي أكثر منه مادي.

–الايالة: لقب إداري عثماني، يقصد به الولاية، وقد اختفى من الإدارة العثمانية سنة 1908.

–الأوقية: وحدة وزن، وكانت تعادل أوقية استانبول 1232 غرام (400درهم) أما في الولايات العثمانية فتراوحت قيمة الأوقية بين 100 و 400 درهم.

–الإتاوة: هي نوع من الجزية، كانت تدفعها سفن الدول الأوربية للدولة الجزائرية العثمانية مقابل حصولها على الحماية في البحر الأبيض المتوسط، وقد تكون الإتاوة مالا، أو عينا، تكرس استمرارية الهيمنة الجزائرية في البحر، وتؤكد قبول الأوربيين الملتزمين بدفع الإتاوة بالوضع القائم.

ب

–بيت المال: وهو بيت مال المسلمين، الذي يتصرف في الغنائم وشؤون الخراج ويحرص على شراء العتاد العسكري، وبناء التحصينات الدفاعية، كما يساهم في إقامة مرافق عامة وتشييد الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا، ويهتم بالأملاك الشاغرة التي ليس لها ورثة شرعيون، فيضعها تحت تصرف الخزينة العامة، كما يقوم بتصفية التركات، ويباشر الأعمال الخيرية كدفن الموتى وتوزيع الصدقات على المحتاجين. ويشرف على هذه المؤسسة موظف سامي يدعى " بيت المالجي" ويساعده وكيل وكتب ضبط وموثقان.

–بدقة شيك: تعني باللغة العثمانية الدرهم الأبيض، وقد شاع استعمالها بالجزائر.

–بيت المالجي:وهو الموظف المشرف على مصلحة الأملاك والثروات التي تؤول إلى الدولة بعد موت أصحابها خصوصا من الأتراك العثمانيين الذين لم يتزوجوا وبالتالي ليس لديهم ورثة شرعيون من أخوة أو أبناء أو أقارب. كما يشرف بيت المالجي على مراسيم الدفن وأمور المقابر كما يبيع التركات والأملاك التي صودرت من طرف السلطة الحاكمة في المزاد العلني.

–باش طبجي: رئيس فرقة المدفعية بالحصن أو البرج.

–باش سيار:رئيس حراس السجون.

-**باش سايس**:يرأس فرقة الشرطة المخولة بإلقاء القبض على الأتراك الجناة ومعاقبة العصاة.

-**باش شواش**: رئيس كتاب الشرطة.

-**باش جراح**: رئيس الأطباء.

-**الباب العالي**: وهو مقر الصدر الأعظم باستانبول عاصمة الدولة التركية العثمانية.

-**البراح**: هو الذي يشهر بالبضائع والسلع والعقوبات الصادرة في حق المخالفين وأوامر الحكام بصوت عال في الساحات العامة والأسواق.

-**البراح**:يعلن الأوامر والقرارات الصادرة عن سلطة المدينة، ويشهر بالمجرمين واللصوص والمحتالين أمام الملأ وفي الساحات العمومية.

-**البادستان**: وهو سوق العبيد وهو المكان الذي كان يباع فيه الأسرى المسيحيون وبناهم ونساؤهم، وكان سعر الأمة يحدد من قبل الزبائن حسب العمر والجمال، وسعر العبد حسب قوته العضلية وما يحسنه من شغل. وقد تحولت محلاته الست والثلاثين بالطابق الأرضي من محلات بيع العبيد إلى محلات للخياطة وبيع سلع أخرى ابتداء من الاتفاق الحاصل بين الداي عمر واللورد اكسموث سنة 1816.

-**البرنوس**: نوع من المعطف له شكل دائري، به قلمون، ويصنع البرنوس قطعة واحدة بدون تخييط، ويتطلب لنسجه صوف ناعمة بيضاء تمزج أحيانا بالحرير، وزخارفه وحواشيه من الحرير في بعض الأحيان.

-**الباي**: يختار عادة على أساس كفاءته ومقدرته السياسية والعسكرية، ومعرفته بعادات وتقاليد وأعراف سكان البايليك مدنا وأريافا، وعلى أساس صلته بالحكام العثمانيين أو القبائل المخزنية. ومدة التعيين ثلاث سنوات قابلة للتجديد، بعد أداء الدنوش الكبرى إلى مدينة الجزائر، ويمارس سلطاته في حدود بايليكه بصورة مطلقة، بتفويض من الداي. ويختص الباي بمهام إدارية تمس مدن وريف بايليكه على السواء.

-**البرانية**: البرانية بالعامية الجزائرية، والبراني ينتسب إلى البر لأنه قدم من خارج أسوار المدينة، ويغيب هذا المصطلح في الوثائق والمصادر المحلية.

-**البنيون**: لفظة اسبانية تعني القلعة الصخرية، التي هدمها خير الدين سنة 1529 بعد أن كانت شوكة في حلقوم مدينة الجزائر قبل مجيئ العثمانيين.

-**البحارون**: هم القائمون بزراعة بساتين الخضر والفواكه بفحص مدينة الجزائر.

-**البشار**: لفظة محلية تعني المكلف بختن الأطفال.

–**البنيقة**: طاقية صغيرة تضعها المرأة فوق شعرها.

–**باش دفتر**: الكاتب الأول، أو رئيس الكتاب، ومهمته مراقبة مخازن الدولة، وتسجيل مصادر دخل البلاد من الضرائب المختلفة والرسوم المتنوعة.

–**البايلرباي**: يقصد به باي البايات، وهو لقب يمنحه السلطان العثماني لكل من يحقق للدولة العثمانية انتصارا باهرا كفتح بلاد مستعصية أو بعيدة أو ما شابه ذلك، وأصبح هذا اللقب لصيق بمرحلة حكم عثماني عرفتها الجزائر بين 1520-1587.

–**البشماقجية** : الحرفيون المختصون في إصلاح الأحذية.

–**البلاغجية**: صناع الأحذية.

–**البولكباشي**: رتبة عسكرية تعني النقيب، وكان يسير جلسات الديوان الأكبر لمدة شهرين قمريين مما أكسبه لقب آغا الهلالين، ويقوم بتوزيع الرواتب، ويحق له الجلوس مكان الداي أثناء توزيع الجرايات على الجند، كما يحق له معاقبة الأتراك عند صدور الأحكام بشأنهم في مترله الخاص بعيدا عن أنظار السكان الآخرين من غير الأتراك.

– **البشماطية**: وهم الفرانون المختصون في إعداد نوع من الخبز الخشن المخصص للجيش الانكشاري.

–**البرادعية**: هم صانعو البرادع للبغال والحمير.

–**البايليك**: المقاطعة التي يحكمها الباي، وتواجدت بالجزائر ثلاث بايليكات هي بايليك التيتري، بايليك الغرب، وبايليك الشرق.

–**البدو**: وهم القبائل الرحل بصفة دائمة والذين يعيشون بصحراء الجزائر، والبادية لصيقة بالبيداء أي الصحراء.

–**البوصة**: هي أصغر وحدات القياس في النظام الانجليزي مقارنة بالميل، الياردة، والقدم. و01 بوصة يساوي 25.4 ملم.

ت

–**التيجانية**: أسسها بعين ماضي الشيخ سيد أحمد التيجاني، الذي اشتهر بعداوته للأتراك العثمانيين، في أواخر العهد العثماني، كما كان منافسا لأولاد سيدي الشيخ، وكانت التيجانية سنة 1830، ذات مركز ونفوذ في فاس وتلمسان وتونس، وكان لها مريدون في كل منطقة

صحراوية : في واد سوف، تيماسين، الأغواط، وحتى في بلاد السودان.وامتد نفوذ التيجانية إلى خمسة قصور هي: قصر عين ماضي، تاجموت، شلالة الظهرانية، شلالة القبلية، وبوسمغون. وكان جيش التيجانية يتكون من قبائل حميان والحلاف.

–التويزة: الأعمال التطوعية التي كانت تقوم بها قبائل الرعية في خدمة البايليك، مثل أعمال الحرث، والبذر، والحصاد، بجانب الخماسين.

–التبارن أو الزندانة: وهو السجن المخصص للأسرى المسيحيين.

–التبر: وهو تراب الذهب، يباع في كيس صغير من الجلد يعرف بالسرة وتزن حوالي 25 مثقال / 125 غرام.

–التيتري: مقاطعة إدارية تقع تحت تصرف الباي، يحدها شمالا دار السلطان، وشرقا بايليك قسنطينة وغربا بايليك وهران، وجنوبا الصحراء، والتيتري أصغر بايليكات الجزائر العثمانية مساحة، ومواردها الاقتصادية محدودة، عاصمتها "المدية".

ج

–الجنينة: الحديقة الصغيرة، التي كانت تميز القصر، والتي بلغت قياساتها، سبعة عشر مترا طولا و أحد عشر مترا عرضا، مع بعض الفروق بين الأضلاع المتقابلة، ومساحتها قرابة 115.50 متر مربع.

–الجنائن: هي المنازل الريفية الجميلة التي أحاطت بها الحدائق والبساتين، وامتلكها كبار الموظفين العثمانيين وأغنياء مدينة الجزائر والتي انتشرت بفحص المدينة .

–الجابدة: مساحة من الأرض الزراعية يقوم بحراثتها ثوران، وتختلف في مساحتها حسب طبيعة الأرض حيث يصل إلى اثني عشر هكتارا في الأراضي السهلية، ولا تتجاوز ثمانية هكتارات في المناطق الجبلية.

–الجيش الانكشاري: أصلها في اللغة العثمانية " يني جيري " أي الجيش الجديد، وهو جيش بري نظامي، تعددت أجناسه، مثل الأجناس التركية، والبلقانية لكن وحد بينها الإسلام.

–الجبانة: المقبرة.

– الجقماقجية : وهم الحدادون المختصون في إصلاح زنادات البنادق.

ح

–**الحشم**: وتعني الأنصار.

–**الحامية**: أو النوبة، وهي فرقة عسكرية تتكون من مجموعة من السفرات، تقيم في المدن والمركز الاستراتيجية الريفية لحفظ الأمن العام، ويتناوب الجنود على الإقامة فيها لمدة ستة أشهر.

–**الحامة**: نسبة إلى المرابط سيدي بوحامة الذي اشتهر بمداواته للحمى، والحامة إحدى جهات فحص باب عزون.

–**الحكور**:وهي ضريبة يدفعها الفلاحون لممثلي السلطة التركية العثمانية في الريف مقابل كرائهم للأراضي الزراعية إما للفلاحة أو الرعي.

–**الحضر**:تعني لفظة الحضر من الناحية اللغوية الحضور بالمدينة أي السكنى بها، ويسمى الحضري بالمديني، وهو ثقافيا، متحضر منذ زمن طويل ويختلف هنا عن البراني. وهذه الفئة هي خليط من عناصر عربية أصيلة، وعناصر بربرية مستعربة، وعناصر أندلسية ذات أصل بربري.

–**الحايك**:رداء خارجي ترتديه النساء عند خروجهن إلى الشارع، يغطي جسدها من الرأس إلى العقب، يصنع من الحرير أو الصوف، وتمسكه المرأة بيدها.

–**الحرار**: هو غازل الخيوط والأنسجة الحريرية وفي الوقت ذاته بائعها.

–**الأحواش**: وهي المزارع التي انتشرت بفحص مدينة الجزائر.

–**الحاخام**:تعني في اللغة العربية " الحكيم" وهو لقب أطلق على زعماء اليهود الدينيين في البلدان العربية والإسلامية، ويختص الحاخام بالشؤون الدينية لليهود ويفصل في المسائل القضائية حسب الشريعة اليهودية، ويتزعم الطائفة التي ينتسب إليها.

خ

-خطط المدينة: هو العلم الذي يهتم بوصف المكان بدقة، والخطط مستمدة من التخطيط أي تخطيط العمران الذي يعني الهندسة العمرانية، وهو علم حديث يمكن تطبيقه على المدن القديمة، ويجمع بين الهندسة المعمارية وعلم الاجتماع وعلم النفس والسياسة والتاريخ والطب.

-الخوجة: الكاتب والحافظ للأوراق.

-خوجة الرحبة: يتسلم الرسوم على الحبوب المعروضة في سوق المدينة المفتوح.

-خوجة الزرع: يوزع الحبوب ويراقب كمية ونوعية الخبز الذي يوزع على الحاميات العسكرية المتواجدة بالمدن، كما يتسلم ضريبة عينية من الحبوب بعد موسم الحصاد.

-خوجة الملح: يتكفل بشراء وتعبئة الملح، ثم الإشراف على بيعه بالتفصيل لكون تجارة الملح كانت محتكرة من طرف البايليك، ولا تخضع للمعاملة التجارية الحرة.

-خوجة الجلود: بيده مفاتيح فندق الجلود، لكون تجارة الجلد كانت محتكرة من طرف البايليك دون التجار الخواص.

-خوجة الفحم: يمثل الفحم في الفترة العثمانية طاقة العصر، لذلك خصصت السلطة موظفا حكوميا وهو خوجة الفحم مهمته استخلاص الرسوم المفروضة على كل حمولة فحم، تدخل المدينة وتسوق عن طريق سوق الفحم الواقعة بالفحص.

-خوجات أبواب المدينة: وضعت السلطة العثمانية موظفين بمرتبة خوجة على كل باب من أبواب المدينة، ويظهر لي أن مهمتهما تتجلى في فحص البضائع الداخلة والخارجة من المدينة واستخلاص رسوم عليها.

-خوجات المنازل والدكاكين والحدائق: يظهر لي أن هؤلاء الخوجات يتوزعون على أحياء المدينة لاستخلاص رسوم عقارية على المنازل والدكاكين والحدائق.

-خوجة العيون: اهتم العثمانيون بالشبكة المائية داخل المدينة حيث أوقفوا عدة أحباس لإصلاح العيون والخزانات المائية وقنوات صرف المياه الصالحة للشرب، وسخروا لها الموظفين يعملون تحت إمرة شيخ البلد، وعلى رأس هؤلاء الموظفين :" خوجة العيون"الذي تتجلى مهمته في:

-اقتراح عملية بحث عن منابع مائية جديدة بفحص المدينة عند الحاجة على شيخ البلد.

-اقتراح مشاريع جلب المياه ببناء قنوات وحفر مجاري على شيخ البلد.

-مراقبة أحباس القنوات والمنابع المائية.

-مراقبة موظفي شيخ البلد المكلفين بتوزيع الماء وجمع الأتاوات المائية من سكان المدينة.

-الخزناجي:يعتبر الخزناجي أو الوزير الكلف بالخزينة المالية للدولة، الرجل الأول في الحكومة، وتنحصر صلاحياته في :-ضبط حسابات المداخيل التي استفادت منها خزينة الدولة، في سجل خاص.

-تسديد أجور الانكشاريين بعد أن يحدد الداي قيمة الأجر.

-خوجة الخيل:يقصد بهذا المنصب " كاتب الخيل" أي أن هذا الموظف السامي كان يسجل ويحصي خيول البايليك التي تمت حيازتها في شكل ضرائب، وبعد تراجع مداخيل الغنائم البحرية، في أواخر العهد العثماني، توسعت صلاحيات خوجة الخيل لتشمل مراقبة جميع الضرائب العينية من حبوب وحيوانات وأصواف وشمع وعسل وزيت وسمن...ثم توزيعها على ضباط وجنود الجيش الانكشاري أولا والسكان ثانية، وبالتالي أصبح هذا الوزير بمثابة وزير التموين بدار السلطان.

-الخرازة: حرفة تختص بصناعة البلاغي وهي أحذية جلدية بسيطة يستعملها الرجال.

-الخماس: يرتبط بفلاحة الأرض الزراعية بالأحواش مقابل حصوله على خمس المحصول.

-الخراطة: حرفة تختص بتشكيل الحديد والمعادن والبرونز.

د

-درقاوة: طريقة صوفية تزعمها الشيخ الصوفي المغربي مولاي العربي الدرقاوي، وتبناها بالجزائر العثمانية في أواخر عصر الدايات ابن الأحرش في بايليك الشرق ومحمد ابن الشريف في بايليك الغرب، وكلاهما ثارا ضد الحكم العثماني، وأعوانه المخازنية، وفتحا الباب على مصراعيه أمام فتنة كادت أن تقتلع أركان النظام العثماني.

-دار السلطان: مقاطعة إدارية بالجزائر العثمانية، تقع تحت تصرف الداي، عاصمتها مدينة الجزائر، تمتد من ساحل البحر المتوسط بين قرية تنس في الغرب وقرية دلس في الشرق إلى الحدود الشمالية لبايليك التيتري، ومن الحدود الشمالية الغربية لبايليك قسنطينة إلى الحدود الشمالية الشرقية لبايليك وهران.

-**دار السكة**:تعرف أيضا بدار الضرب، وكانت موجودة في قصر الجنينة، قبل أن تنتقل إلى القصبة سنة 1817م، وتتجلى وظيفتها في صناعة النقود المخالفة للنقود القديمة، ومراقبة النقود المتداولة وكذا الحلي، ومراقبة الميزان.

–**الدوار**: الدوار هو اجتماع ما بين عشرين إلى ثلاثين خيمة، كل خيمة مصنوعة من جلد البقر، وهي لا تقفل ومعرضة للريح والمطر وكل مجموعة من الخيم محاطة بسياج من الأعواد والأشواك، توضع فيها الماشية في الليل، وقد تكمن حول هذه الخيم كلاب لحراسة الماشية من الحيوانات المفترسة. أما شلوصر وقد عدد شلوصر مجموع خيم الدوار الواحد بـــخمسين إلى مائة خيمة، ينظم شؤونهم شيخ الدوار، فهم خاضعون له عن طيبة خاطر، ويكون عددا من الدواوير، بلادا يحكمها قائد.

–**الداي**: لفظة تركية تعني قائد الانكشاريين في الدولة العثمانية، والشائع عنه أن لقب الباشا هو المستعمل في الجزائر والعالم العثماني أما لقب الداي فلا يكاد يلفظ ولا يستعمله سوى الأجانب الأوربيين. والداي الباشا مؤسسة سياسية وإدارية، تساعده حكومة يختارها بنفسه، قصد تسيير شؤون البلاد عامة، ومدينة الجزائر كمقر للرئاسة والحكومة المركزيتين بشكل خاص.

–**الدولاتلي**:أي صاحب الدولة، وهو لقب يطلق على كبار النبلاء العثمانيين مثل الوزير، الباشا، والصدر الأعظم.

–**الدنوش**: هي نوع من الضرائب، مصنفة إلى صنفين:

-دنوش صغرى يؤديها خليفة الباي للداي مرتين في السنة " خريفا وربيعا" .

-دنوش كبرى يؤديها الباي نفسه للداي مرة كل ثلاث سنوات أي عند نهاية عهدته.

–**الديوان**: الديوان هو هيئة سياسية وتشريعية عليا في هرم الحكم العثماني بالجزائر، كان قبل عصر الدايات جهازا فعالا إذ يعقد جلساته بانتظام ويتصرف في الأموال، ويدعي الحق في مناقشة جميع الإجراءات الحكومية ويتخذ قرارات بشأنها، ولكنه أصبح في عهد الدايات مجرد مؤسسة صورية في نظام الحكم الجزائري، وفاعليته لا تكون إلا بإرادة الداي رغم أن انتخابه منبثق من الديوان. يدرس الديوان الأصغر قضايا الساعة ويقترح بشأنها قرارات ثم يمررها إلى الديوان الأكبر لدراستها ودراسة قرارات الديوان الأكبر ومن ثمة المصادقة عليها أو تعديلها أو تأجيلها أو رفضها.

–**الدشرة**: لفظة أمازيغية تعني القرية التي تتكون من أكواخ مبنية بالطين والوتل.

–**الدرة** : هي جبة طويلة جدا من القماش الرفيع، يلبسه الحضري.

–**الدلالة**: وهم الباعة المتجولون الذين يتنقلون ببضاعتهم لعرضها على المشترين في الأسواق، ولهم نسبة يأخذونها عن المبيعات التي ينادى عليها، تقدر عادة بعشر قيمة البضاعة.

–**الدالية**: لفظة محلية تعني شجرة الكروم.

–**الدرهم**: قطعة نقدية من الفضة تعرف عادة بالبوجو أو الريال بوجو، ضربت بالجزائر وكانت شائعة الاستعمال اليومي حتى اعتبرت الوحدة النقدية الأساسية، وزنها 10 غرام، وكانت قيمتها تقدر سنة 1830 بـــ24 موزونة أو 1.883 فرنك فرنسي، ولها مضاعف: زوج بوجو، أو دورو وقيمته 3.72 فرنك فرنسي. وعند تغيير وزن العملة وإعادة ضربها في أواخر العهد العثماني أصبح لها أجزاء: ربع بوجو ويساوي 0.47 فرنك فرنسي، وثمن بوجو ويساوي سنة 1830 0.23 فرنك.

–**الدورو**: قطعة نقدية فضية تعادل زوج بوجو.

–**الدواير**: مفردها دائرة، وهي قبائل مخزنية قوية تنتظم خيمها في شكل دوائر، حتى يتسنى لها حماية مواشيها وخيولها التي تبيت في مركز الدوائر من الأعداء والحيوانات المفترسة.

ر

–**رسم الحصة**: يؤخذ هذا الرسم على الحبوب التي يشتريها سكان الجنوب الصحراوي من أسواق التل في الشمال.

–**الروينة**: القمح المطحون الذي يعجن بالماء.

–**الريف**: مصطلح يطلق على المناطق السهلية والجبلية والسهبية وشبه الصحراوية التي تسكنها مجموعات بشرية مستقرة، وتسكن القرى والأكواخ والخيم، وتمتهن فلاحة الأرض، تربية المواشي، الحرف والتجارة.

–**الرعية**: هي القبائل التي اضطهدتها واستغلتها الطبقة الحاكمة (أتراك عثمانيون، ومخزن) بسبب ضعفها العسكري والاقتصادي واتخاذها موقفا مناوئا للنظام العثماني.

ز

–**الزبل**:لفظة محلية تعني قمامات الطرقات والأزقة.

–**الزنقة**: لفظة محلية تعني الممر الضيق المؤدي إلى الأحياء السكنية.

س

–**سيباو**: هو اقليم جرجرة أو بلاد زواوة الجبلية، يشرف عليها قائد، يخضع لباي التيتري، سكنته قبائل بربرية مستقلة.

–**سبل الخيرات**: مؤسسة أوقاف حنفية، في خدمة الطائفة التركية العثمانية.

–**سركاجي**: وهو سجن قريب من دار الخل، وكان يشنق فيه الانكشاريون المتمردون أو المخلون بالأمن العام.

–**السويقة**: اسم تصغير للسوق فهي أسواق صغيرة، انتشرت بالأحياء السكنية بالمنطقة المرتفعة لتلبية حاجيات السكان الذين يجهدون أنفسهم للتنقل إلى الأحياء التجارية بالمنطقة الواطئة، قد جاءت هي الأخرى في شكل حوانيت قليلة العدد مقارنة بحوانيت الأسواق.

–**السقيفة**: هي مدخل المترل، وفيها يستقبل صاحب المترل زائريه، أو يتحادث مع جيرانه.

– **السرمة** : القلنسوة المخروطية الشكل.

– **سوق الصاغة** : محلات يستغلها اليهود لبيع الحلي والذهب.

– **سوق القبطية** : باعة الألبسة بالقلمونة.

–**سوق القيسارية**: بيع البرانيس ونسخ وتغليف الكتب.

–**السمانين**: وهم باعة السمن وزيت الزيتون وجميع المواد الدسمة.

–**السفاجين**: وهم المختصون في إعداد السفنج، المصنوع من الطحين والخميرة والمقلي في الزيت.

–**السفرة**: وتعني لغة : المائدة التي يتجمع حولها الجنود لتناول الغذاء، أما اصطلاحا فهي مجموعة عسكرية انكشارية مستقرة يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة عشر وستة عشر جنديا، وهي جزء من الحامية.

–الساباط: هو ممر مغطى يحمي المارة من حر الشمس والمطر، وعادة ما يقع في الأسواق حيث تنفتح عليه أبواب الدكاكين والحوانيت.

–السردين: نوع مشهور من السمك الصغير في متناول عامة الناس لرخص سعره ووفرته في السوق.

–السبيطار: لفظة محلية تعني المستشفى.

ش

–شيخ البلد: يختار شيخ المدينة بناء على شروط، كإتقانه للغة العربية ومعرفته للعادات المحلية حتى يكون واسطة بين المحكومين والحكام الأتراك العثمانيين. وعادة، ما كان يتحكم في مشيخة المدينة، عائلات ثرية امتلكت الجاه بالمال. و يخضع لشيخ المدينة جميع الموظفين الساهرين على مصالح المدينة المختلفة.

–شيخ العرب: تداولت هذا المنصب، والمصطلح في الوقت ذاته، القبائل الصحراوية، ببايليك الشرق الجزائري، وتمنحه السلطة التركية العثمانية المتوغلة في الصحراء لرئيس أقوى القبائل الصحراوية، وتتمثل مهام شيخ العرب في مرافقة المحلات العسكرية المكلفة بجمع الضرائب من الأوطان الريفية في كل صيف وشتاء من كل سنة، ليكون واسطة بين الترك والقبائل العاصية، في جمع الغرامات واللزمة.

–الشراقة: لفظة محلية، تستعمل للتمييز بين قبيلتين تشتركان في تسمية واحدة، وهي مشتقة من الشرق.

–الشواش: ضباط الشرطة العسكرية.

–الشبارلية: وهم صناع أحذية النساء.

–الشواري: ما يوضع على ظهر الدابة لحمل المتاع وهو مكون من كيسين يوضعان بالتوازي على ظهر الدابة.

ص

-**الصاع**: مكيال الحبوب أو الملح، ويساوي عادة في مدينة الجزائر سنة 1830 ستون لترا أو ثمانون رطلا، وهو يختلف في وزنه حسب المواد والجهات. فهو يتراوح ما بين 48-150 كلغ، فمثلا صاع الحبوب يساوي 160 كلغ، وصاع الملح يساوي 135 كلغ.

-**الصفارة**: صناعة الأواني والأدوات النحاسية.

-**الصبايحية**: الجند الذي يستخدم الخيل في تنقله، يقيمون في الغالب خارج مدينة الجزائر بحوش الآغا ناحية عين الربط.

-**الصرة**: يبقى من ذلك كله يوجه صدقة، سنويا إلى فقراء المدينتين، وهو ما يعرف بالصرة، التي كان يكلف أمين بيت المال، بحملها في موسم الحج مع أمير الركب الذي يترأس موكب الحج.

-**وكيل الحرج**: هو في الأصل الوزير المكلف بشؤون البحرية بدار السلطان، وقد تراجع دوره بفعل تراجع مداخيل الغنائم البحرية في أواخر العهد العثماني، فأوكلت إليه إلى جانب أعمال البحرية، إدارة الشؤون الخارجية للدولة الجزائرية العثمانية، التي كانت تتحكم فيها مشاكل البحر الأبيض الموسط.

-**الصف**: يعبر عن مصالح مشتركة وتحالف قديم أو جديد وعلاقات جوار ومبادلات تجارية. ويفرض الانضمام إلى الصف، تحمل كل قبيلة النتائج مهما كانت طبيعتها، وللصف شيخ منتخب، ومجلس عام يحضره زعماء القبائل، وفيه تدبر العمليات العسكرية، وعدد المسلحين. ويمكن للقبيلة أن تنتقل من صف إلى آخر تبعا لتغير المصالح والأهداف، وهو ما يفقدها مكانة لدى عموم سكان القبايل، وعادة يجر ذلك إلى نزاع مسلح بين الصفوف. وهناك صفوف مؤسسة بفعل حوادث، وصفوف قديمة وثابتة في أهدافها ومواقفها وإذا وقع خطر يهدد كل الصفوف، تتحد في صف واحد لصد الخطر، تزكيه دعوة المرابطين. وقد يرأس الصفوف البربرية أشخاص ينحدرون من عائلات دينية وعسكرية، تهيمن على القبائل البربرية ويكونون واسطة بين البربر والسلطة العثمانية.

ض

–ضيفة الدنوش: تقدم غالبا كل ستة شهور وتستغل في شراء الباي للهدايا المخصصة للداي، فهي على ما أعتقد، معونة من طرف سكان الأرياف الخاضعة للسلطة التركية في نظر الحكام، لكنها غرامة في نظر من يدفعها.

–ضريبة الغرامة أو حق العسة: فرضت على المناطق المستعصية بالصحراء والهضاب العليا والمناطق الجبلية، مثل اقليم سيباو والشمال القسنطيني، عوضا عن العشور، وهي تسدد إما نقدا أو عينا وغالبا ما تؤخذ في شكل مواشي ومواد غذائية لتوفرها لدى سكان هذه الأرياف المستعصية.

ط

–الطحطاحة : لفظة عامية تعني الساحة.

–الطاعون: مرض وبائي قاتل، تسميه المصادر التاريخية العربية " الحبوبة".

–الطبانة: أو الطبخانة، وهي معقل المدفعية سواء في الأبراج، أو الحصون، أو الأسوار، أو في التراب. ويسميها الفرنسيون بالبطارية.

–الطائفة : جماعة سكانية تتميز عن باقي الجماعات بسلوكياتها وطباعها ومهنها.

ع

–العيساوة:نسبة إلى سيدي عيسى، وهي فرقة صوفية مشعوذة ، ويدعي أفراد هذه الفرقة، القدرة على أكل النار، والزجاج المكسور، والعقارب، وابتلاع المسامير، واللعب بالحيوانات السامة مثل الأفاعي والثعابين دون أن يمسهم أذى، وغرز الخناجر والسيوف في أجسادهم، ويتم استعراض ذلك في مناسبات احتفائية.

–عزل جبري: هي الأراضي التي تؤخذ منها مستحقات الكراء.

–العدول: وهم الذين يسجلون العقود الإدارية والقضائية.

-العناء: كراء الأحباس.

-العجار: لفظة عامية تعني القناع، وهو قطعة قماش رقيقة تغطي الوجه من أسفل العينين إلى الذقن.

غ

-الغرابة: لفظة محلية، تستعمل للتمييز بين قبيلتين تشتركان في تسمية واحدة، وهي مشتقة من الغرب.

-الغليلة: هي لباس طويل حتى الركبة يلبسه الحضر.

-الغليوطات: هي المراكب البحرية الخفيفة والسريعة.

-الغرابلية: باعة أدوات غربلة المواد القابلة للغربلة.

ف

-الفحص: هي المناطق الواقعة خارج أسوار المدينة، على أن لا يتعدى قطرها 12 كلم، وعادة ما نسمي المناطق الفحصية بضواحي المدينة أو الأرباض.

-الفنار: كلمة محلية تعني المنارة، وهي التي بناها الإسبان سنة 1510، أي منارة البنيون في وسط الجزيرة الكبيرة، وشكلها مستدير يصل قطرها إلى ستين مترا، وارتفاعها إلى أربعين مترا على مستوى سطح البحر وتتألف من طابقين مزودين بسبعة عشر فتحة نارية لمدافع ذات عيار كبير.

-الفيء: هو ما يستولي عليه المسلمون من الكفار.

-الفنادق: مفرد فندق وهو بناية ذات طابقين في غالب الأحيان، طابق أرضي مخصص لبضائع وسلع تجار القوافل الشهرية عند حلولهم بالمدينة، وطابق علوي به حجرات يترل بها التجار وغيرهم. وهناك فنادق تعتبر نزلا فقط.

-الفرقاطات: مراكب بحرية حربية مدعمة بـــ 20 إلى 30 مدفعا.

-الفلقة: لفظة محلية تعني الضرب بالهراوة.

-الفوطة انتاع السنانغ : لفظة عامية، وهو قماش يبسط فوق الجبين حتى الحواجب.

–الفارملة : هي لباس خاص بنساء الأتراك العثمانيين به حزام و مفتوح عند الصدر.

– الفراغية: حرفة تختص بصناعة الحلقات والمفاتيح وسروج الدواب.

–الفكاهين: وهم باعة الفاكهة.

–الفرمان: أمر صادر عن سلطة عثمانية.

–الفوهة النارية: هي نوافذ مربعة الشكل موزعة على الأسوار والحصون والأبراج، تستغل للرمي المدفعي.

ق

–قبائل المخزن: هي القبائل التي قدمت خدماتها العسكرية والاقتصادية للحكومة العثمانية سواء أكانت مركزية أو إقليمية مقابل استقلالها المحلي، وإعفائها من الضرائب باستثناء ضريبة العشور.

–قائد جبري: يقوم بجولتين خلال السنة في سبيل الإعداد لجمع العشور، الأولى خريفية، والثانية صيفية، بعد الحصاد، ويقدر المحصولات رفقة شيخ القبيلة أو شيخ الدوار والفلاح، الذي كان من حقه الاعتراض على النتائج المسجلة، وبعد اتخاذ الاجراءات على ضوء تقرير القائد تسلم القوائم النهائية للقياد ليتحصلوا على كميات العشور عند خروجهم مع المحلة.

–قول آغا : تقع تحت إشرافه، مراقبة الحمامات وأماكن الدعارة في الليل.

–قاع السور: والمقصود نهاية السور وحدوده، عبر جهاته الأربع، وعادة ما تكون النهاية في شكل زاوية.

–القصور الصحراوية:قرى الصحراء الجزائرية كلها مبنية بالطوب، ومنازلها ذات طابق أرضي ولا تعلو عليها سوى المنارة والقلعة، وكل قرية تسمى واحة تعج بتمرها وآبارها المائية، وبدكاكينها المصطفة، وكثير من الكتابات تنعتها بالمدن الصغيرة، لكن ما يجعلها تختلف عن المدينة هو:

–ليس للقرية الصحراوية فحص ريفي.

–القرية الصحراوية ثابتة في بنيتها العمرانية عكس المدينة.

–القبايل:الجبايلية أو كما هو متداول في الجزائر باسم القبايل، وقد عرف وليم شالر، القبايل كما يلي:" وتسمية القبايل مشتقة من الكلمة العربية قبيلة...وهذه التسمية تنطبق على وضع القبائل السياسي، فهم جميعا يعيشون في الجبال، في الأطلس الكبير وفي مختلف السلاسل التي تتفرع

عنه...مثل بني سنوس، وبني زروال وبني زواوة وبني عباس...وسكان كل منطقة من هذه المناطق الجبلية يشكلون دولة أو جمهورية، مستقلة عن غيرها من المناطق".

-القصبة: هي مجموعة حصون تقع على ربوة مشرفة على مدينة الجزائر على ارتفاع 118م، وتشكل بناياتها رأس المثلث الذي يلتقي عنده السوران الشرقي والغربي لمدينة الجزائر، مساحتها الإجمالية 9000 متر مربع، تم إنشاؤها على مراحل في الفترة العثمانية، وصارت في أواخر العهد العثماني ابتداء من 1817 حيا رسميا بمدينة الجزائر.

-القندورة:حايك خاص بالرجال، يدعى الجلابة.

-القنداقجية : وهم صانعو مؤخرة البنادق.

-القراقوز:عبارة عن صور للعرائس مصنوعة من الجلد الشفاف، تلصق بها الخيوط، وتوضع وراء حجم مضيء. ويعني القراقوز في اللغة التركية العيون السوداء، واعتقد سبنسر أن الموطن الأصلي لمسرح القراقوز هو الصين أو الهند، وانتشر في غرب آسيا من طرف القبائل التركية، و يروي الكاتب قصة تطور عرائس القراقوز في تركيا قائلا أن السلطان العثماني أورخان قد أمر ببناء مسجد في مدينة بورسا، وكان من بين عمال المسجد، رجلان أحدهما يدعى قراقوز، والآخر يسمى حصيبات، وكانا بسببهما يتوقف العمل في المسجد نظرا لكثرة مساجلاتهما الممتعة وتهريجهما، وجذبهما للعمال الذين يزدحمون لسماع ما يرويه الرجلان المهرجان.

ولما ضاق السلطان بالرجلين ذرعا أمر بشنقهما، لكنه ندم على ذلك، فبني تخليدا لذكراهما تمثالين رمزيين للمضحكين الميتين، ثم أصبحت مساجلات القراقوز منتشرة من وهران إلى زغاروس بايران وأصبحت من التسليات الشعبية. ويفيدنا سبنسر أن محتوى مساجلات عرائس القراقوز كان يختلف من النكتة المفرطة في الإضحاك إلى الانتقاد السياسي اللاذع وتقليد الرسميين الكبار.

-قائد الدار:قائد الدار بمدينة قسنطينة عاصمة بايليك الشرق يمثل شيخا أو حاكما للمدينة وخليفة للباي على الكرسي وصلاحياته وسلطاته سياسية أكثر منها مدنية.

-قائد الزبل:انحصر دور قائد الزبل في السهر على نظافة المدينة، بالسير في الطرقات والأزقة مصطحبا فرقتين بدوابها، الأولى تكنس الطرقات والأزقة المسدودة وتجمع القاذورات في أماكن مخصصة لها، والثانية تجمع قمامات المنازل داخل "الشواري" الموضوع على ظهر الدابة، وتنقلها إلى مكان مخصص لتفريغ القمامات العمومية، عادة ما يتحدد خارج أسوار المدينة.

-قائد الشواري:مكلف بترصيف الطرقات والأزقة.

–**قائد الطرق والشوارع**:يختص بتنظيم حركة المرور في شوارع المدينة الضيقة وكذا ربط الدواب في الأفنية وعرض السلع والتوقف والانتباه إلى كل ما يضر بالشارع.

–**قائد العشور**:تتجلى مهمة قائد العشور في استخلاص ضريبة العشور بمساعدة المخزن.

–**قائد مخزن الزرع**:يقدر مساحة الأراضي المزروعة وما يمكن أن يؤخذ منها من عشور بالرجوع إلى قائد العشور، كما يشرف على مخازن الحبوب العائدة للدولة.

–**قائد التوت**:يستخلص الضريبة السنوية المفروضة على شجر التوت، التي كانت تربى على أوراقها دودة القز المنتجة للحرير.

–**قائد العواسي**: كان مقربا ومستشارا لباي قسنطينة، الذي كان تحت تصرفه ثلاثمائة فارس احتياطي.

–**القبيلة**:تتشكل من عائلة موسعة، انضمت إليها عائلات أخرى من أجل الدفاع عن مصالح مشتركة، والقبيلة خاضعة للتطور، فهي تكبر بالتحالف مع قبائل أخرى أو بغير ذلك، حتى تغطي منطقة بكاملها، وتصبح قوة سياسية وعسكرية يحسب لها، وتعيش القبيلة كالدولة، بتاريخ وطني تعبر عنه بعاداتها، وبتحالفات مستقرة وثابتة، وبخط سياسي واضح ومضبوط، وبراغماتية نفعية وإدراك للمصالح العامة.

–**القبلية**: أي الجهة الجنوبية.

–**القزازون**: مربو دودة القز.

–**القبقاب**: نوع من النعال الملائمة للاستحمام.

–**القنطار**: وحدة وزن تعادل 56 كيلوغراما و44 أوقية في استانبول، ويختلف وزنه عبر الولايات العثمانية.

–**القنداقجية**: هم الذين يقومون قنادق البنادق، ومسح صداها، وتركيب ما تفرق من مفاصلها.

–**القرصنة البحرية**: أسلوب حرب في البحار تبنته الدول المسيحية والدول الإسلامية على السواء في العصر الحديث.

–**القدم**: وحدة قياس في النظام الانجليزي تبناه النظام الفرنس وحتى الدولي، و01 قدم يساوي 30.48 سم، ويساوي 12بوصة.

–**القرية** : مركز حضري ريفي يختلف عن المدينة من حيث الوزن البشري، والنشاط الاقتصادي، والثقافي، والبنية العمرانية، والتأثير في الفضاء الخارجي المحيط بها.

–**القرابي**: لفظة محلية تعني الأكواخ القروية الريفية.

ك

–كاهية الداي: وهو بمثابة المحافظ العام للشرطة.

–كاهية الخزناجي: وتقع تحت إشرافه، الرقابة العامة للشرطة النهارية.

–الكيله: تستعمل كوحدة وزن للقمح والشعير.

–الكبابطية: وهم تجار الملابس والمحافظ...

–الكساكسية: باعة الكسكسي.

–الكراغلة:أو القرغلان صفة أو تسمية قلما ترد في الوثائق، ويقصد بها تلك الشريحة التي تكونت نتيجة زواج أفراد الجيش التركي بنساء البلاد، وقدر عددهم، كل من بوتان سنة 1808 بخمسة آلاف نسمة، وشالر بين 1816-1824 بعشرين ألف. وظهرت فئة الكراغلة لأول مرة في المدن التي تمركزت بها الحاميات التركية و على رأسها مدينة الجزائر كعاصمة للبلاد.

ل

–اللزمة: ضريبة سنوية، تتغير تسميتها حسب الجهات فنجد الغرامة ، المعونة، والخطية، وكانت تدفع نقدا، لكن أحيانا تستخلص من المحاصيل الزراعية، ويضاف لها بعض المبالغ من النقود إذا كانت لا تفي بمطالب الحكام، وتتراوح قيمتها حسب المناسبات.

–اللبلابجية: بائعو اللبلابي وهو الحمص المطبوخ أو المفلفل بطريقة خاصة.

م

–معونة البشارة أو الفرح:تدفع لإحياء المناسبات السعيدة، مثل تولية الباي أو تجديد ولايته، وتكاد تكون سنوية.

–معونة خيل الرعية: عبارة عن مساهمة ومعونة قبائل الرعية خاصة بالغرب الجزائري بعدد من الخيول والدواب حت تتمكن السلطة التركية من تعويض خيل فرسان المخزن عند موتها أو ايفادها في مهمات، وقد يباع قسم من هذه الخيول والدواب إذا لم تكن الحاجة ماسة إليه.

–**معونة حق البرنوس**:بمناسبة تسلم الشيوخ خلعة التولية.

–**معونة حق الزمام**:تسلم لقائد العشور، كتعويض له على خدماته أثناء جمع العشور.

–**معونة مهر باشا**:تقدم بمناسبة جمع هدايا الدنوش إلى الداي الباشا بمدينة الجزائر.

–**معونة مهر الفرس**:تتمثل في فرس حربي، تقدمها قبائل الرعية للسلطة التركية.

-**المزوار**: تقع تحت إشرافه، الرقابة العامة للشرطة الليلية، وكان يقدم للداي بمدينة الجزائر كل صباح تقريرا واصفا فيه نشاطات الليلة المنصرمة. واقتصرت مهنة المزوار على جماعة الحضر دون الأتراك، لأن المزوار تشمئز منه نفوس السكان لأنه يرتبط بممارسة العنف والإشراف على سير أعمال الدعارة الرسمية.

–**المحتسب**: عمل ميداني إذ تراه يجوب الأسواق والشوارع ويستمد سلطته من القرآن والسنة النبوية، وهو المسؤول عن السوق بالدرجة الأولى حتى أنه سمي بصاحب السوق، ويساعد في دائرة اختصاصه، شيخ المدينة وشرطتها في السهر على السير الحسن للمدينة.

–**المرابطون**:وتأثيرهم قوي على سكان الريف لأنهم يعتبرون في نظرهم حراس العقيدة الإسلامية، وكلامهم محفوظ ونصائحهم معمول بها، ولهذا استطاع المرابطون في كثير من المواقف منع إراقة دماء المسلمين وإحلال الوئام بين القبائل، والنبالة الدينية متوارثة شأنها شأن نبالة الأصل و النبالة العسكرية، وقد اشتهر المرابطون الأوائل بكراماتهم مثل الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ الحسناوي، والشيخ محمد بن عيسى، والشيخ مولاي الطيب وغيرهم. وما انتشار العدد الكبير من القبب والزوايا إلا دليلا على ذلك.

–**المجلس العلمي**:أنشأت هذه الهيئة التشريعية والقضائية لتجاوز التضارب بين المذهبين الملكي والحنفي، وتقريب الرؤى بينهما، أو على الأقل عدم إفضاء ذلك الاختلاف إلى الإخلال بالإدارة العامة وحصره بين العلماء دون العامة. وينعقد المجلس العلمي للقضاء كل يوم خميس بالجامع الأعظم، بمركز مدينة الجزائر، ويرأسه المفتي الحنفي .

–**المدينة**: مركز حضري ثابت، تقيم به مجموعات بشرية بصفة دائمة أو مؤقتة، يتوفر على عناصر معمارية من سكنات وقصور وطرقات وأزقة وتحصينات وأبواب ومباني وهياكل إدارية وصناعية وتجارية وخدماتية، تعج يوميا بحركة الناس والبضائع والسلع، وتتوفر على فحص يربط بينها وبين الريف القريب منها والبعيد عنها.

–**المكس**:وهو رسم على مبيعات الأسواق.

-المطامير:مخروطية الشكل، ويمكن لكل مطمورة أن تستوعب أربعمائة حمولة أو ثلاثون قنطارا من الحبوب، والمطامر عموما عميقة يتراوح ارتفاعها بين عشرة واثنتي عشر قدما، وتبقى الحبوب مخزنة في المطامر لمدة تصل إلى عشر سنوات أو أكثر دون أن تفقد نكهتها ومكوناتها، ولا يتطلب بناء المطمورة تكاليف ثقيلة أو تحضيرات مسبقة، فهي أداة ادخارية فعالة فردية وجماعية ومفيدة وقت المسغبة.

-المشيخة :هي القبيلة التي اشتهرت بقوتها وعراقتها ونبالتها الحربية في الجزائر.

-المسيد: لفظة محلية تعني المدرسة الصغيرة.

-المارستان: دار المجانين.

-المور: تعني عند الأوربيين: العرب والأمازيغ، ويظهر أنها اختصار للموريسكيين الأندلسيين.

-المهارس: هي نوع من المدافع.

-المحلات:المحلة العسكرية المكلفة بجمع الضرائب المفروضة على قبائل الرعية بريف الغرب الجزائري. هذه المحلة كانت تجوب القبائل المنتشرة في الأراضي التي اعترفت بسلطة الأتراك العثمانيين، لمدة أربعة أشهر، ولما تتم عملية الجمع توجه الضرائب العينية إلى مدن معينة سلفا تتوفر بها المخازن.

تلتقي جميع المحلات العسكرية وعددها ثلاث محلات (محلة الشرق-محلة الوسط-محلة الغرب) بجنوب مدينة مليانة بعد تمام جمع الضرائب، وتتوجه ثمانون خيمة عسكرية تركية إلى مدينة الجزائر، وتعود الجيوش المخزنية إلى قبائلها ويدخل الخلفاء والقياد والبايات إلى أماكن إقامتهم الرسمية.

-المول: اعتمادا على صخور قلعة البنيون المهدمة ومواد البناء التي تواجدت بالحصن والصخور الضخمة التي تواجدت بالمدينة منذ العهد الروماني، شرع خير الدين في ربط الجزر الأربعة السالفة الذكر بالمدينة وبدأ بردم الفتحة التي بين أكبر صخرة وأرض المدينة، ثم ردم الفجوة التي بين الصخور الأربعة التي سميت بعد ذلك بالمول، الذي بلغ طوله ثلاثمائة قدم واستغل وجود العدد الضخم من الأسرى المسيحيين خاصة الاسبانيين (أربعة آلاف عبد مسيحي) في بناء الميناء الذي دام سنتين لإكماله. وذكر الأسرى المسيحيون الذين أمضوا وقتا طويلا بمدينة الجزائر خلال القرن السابع عشر وتركوا لنا مذكراتهم أن المول مشيد بإتقان واتجاهه جنوب شرق، ويمتد طوله من حصن باب الجزيرة إلى حصن البحر بمسافة قدرها حوالي ثلاثمائة قدم وعرضها ستة عشر

قدم، أي عشرون مترا طولا وخمسة وعشرون مترا عرضا، ويمكن لعربتين متعاكستين أن تسلكا ممر المول في الجهة التي تطل عليها المدينة لا البحر.

-**المخزن**: المخزن طائفة اجتماعية تشد الحاكم إلى المحكوم، وتخدم مصالح الطبقة الحاكمة على حساب سكان الريف، وهي بمثابة الطبقة الوسطى في الريف، تماثلها فئة الكراغلة بالمدينة، وقد تحولت تدريجيا من حياة الترحال الموسمي إلى حياة الاستقرار الدائم، متجمعة في شكل دواوير من الخيام والقرابي في السهول والمراعي.

-**المزود**: كيس من جلد الماعز، لحفظ الغذاء.

- **المقفولجية** : الأساكفة وصناع الأحذية.

-**المقاطعجي**: وهو موظف مكلف بالمحافظة على سجلات الجيش.

-**المقايسية**: هم صانعو أدوات الزينة كالأساور من العاج غالبا.

ن

-**ناظر الأوقاف**: يشرف على كل مؤسسة وقفية، موظف رئيسي، يعينه الداي يدعى "الشيخ الناظر أو الوكيل الرئيسي أو المتولي" وهو لا يقل أهمية عن القاضي أو المحتسب.

-**النوريات**: وهي الآبار التي تضخها عجلة.

هـ

الهرقماجية: هم المشتغلون في المطابخ التي تحضر الهرقمة، وهي نوع من الأكل الشعبي يحضر في شكل مرق بأحشاء المواشي وأطرافها ومن بقايا اللحم.

و

–وكيل الحرج: موظف سامي يراقب النشاط البحري، ويشرف على أعمال الترسانة البحرية، وينظر في توزيع الغنائم، ويتصل في بعض الأحيان بقناصل ومبعوثي الدول الأوربية. والحرج لفظة عثمانية تعني العتاد الحربي والذخيرة من أسلحة وبارود وحبال وغيرها.

–وكيل الأوقاف:يشرف على الأحباس ويتسلم عناءها ومحصولها ويقوم بصيانتها وتسيير أمورها.

–الوقف الخيري:أو الحبس العام، يعود مردودها على المصلحة العامة التي حبست من أجلها عملا بأحكام المذهب المالكي السائد ببلاد المغرب العربي.

–الوقف الأهلي:أو العائلي أو الخاص، وهي التي يحتفظ فيها المحبس أو عقبه بحق الانتفاع بها، بحيث لا تصرف على الغرض الذي حبست من أجله أساسا إلا بعد انقراض العقب أو انقطاع نسل صاحب الأرض المحبسة حسبما هو منصوص عليه في وثيقة الحبس، وذلك عملا بأحكام المذهب الحنفي.

–الوكلاء المخازنية: يتنقل الوكلاء المخازنية كل سنة عبر الأوطان الريفية قبل حلول موعد الحصاد والجني، لضبط الملكيات المزروعة فعلا، وتقدير محصولها، وتهيئة العمل الجبائي لقياد العشر الذين يجبون هذه الضريبة بقبض عشر المحصول من كل ملكية مزروعة بمساعدة مجموعة من الحرس المخازنية.

ي

–ياني مسلمان: المسلمون الجدد.

–اليولداش: تعني رفيق الدرب، وهو جندي بسيط في الجيش العثماني.

–اليطغان: السيف الحاد من الجهتين ليكون أكثر فاعلية.

الفهرس البيبليوغرافي

الفهرس البيبليوغرافي المعتمد.

1- المصادر:

أ- المصادر الأرشفية:

❖ **المركز الوطني للأرشيف** (الجزائر):

-سجلات البايلك. العلبة 71-74. رقم السجل 158. الرقم القديم 74. السنة 1213-1244هـ/1791-1829.

-سجلات البايليك. علبة 80-83. رقم السجل 167. الرقم القديم 82. السنة 1223-1241هـ/1809-1826.

-سجلات البايليك. السجل رقم 122.الورقتين: الثانية أ والرابعة أ . حول تعيينات ولاة المدية وما تدفعه الأعراش إلى الحكام الجدد كهدية مقررة.

-سجلات المحاكم الشرعية، العلبة 59، السجل 117 (17ف)، سنة 1246هـ.

-دفتر خط هومايون، عدد 6931، 1207هـ، تعريب فكري طونا، المركز الوطني للأرشيف.

ب-المصادر المخطوطة:

❖ **المكتبة الوطنية بالحامة** (الجزائر):

- مؤلف مجهول .**رسالة في أخبار قسنطينة وحكامها**. مخطوط مودع بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2717.

ت-المصادر المطبوعة.

- ابن العنتري، محمد الصالح. **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة**. مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1991.

-ابن العنتري، محمد الصالح. **مجاعات قسنطينة**. تقديم وتحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/ 1974م.

-ابن ابي الضياف، أحمد.**اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**. تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1977.

-ابن العطار، أحمد بن المبارك. **تاريخ قسنطينة** تحقيق: رابح بونار، المكتبة الوطنية الجزائرية (**بدون تاريخ**).

-خوجة، حمدان بن عثمان. **المرآة**. تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط02، 1982.

-ديفولكس، ألبير. **خطط مدينة الجزائر-من خلال مخطوط ديفولكس والأرشيف العثماني-** تحقيق: مصطفى بن حموش، وبدر الدين بلقاضي، المجمع الثقافي،أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2004.

- الزهار، الحاج أحمد الشريف. **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار-نقيب الأشراف-** تحقيق: أحمد توفيق المدني، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980.

-شالر وليام. **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824**. تعريب وتعليق وتقديم: اسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

-شلوصر فندلين. **قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837**. ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

- مسلم، بن عبد القادر. **خاتمة أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر**. تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974.

- المزاري، بن عودة آغا. **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**. تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990 ، الجزء الأول.

- المكناسي، محمد بن عبد الوهاب. **رحلة المكناسي** (**إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقر الحبيب 1785**). تحقيق وتقديم : محمد بوكبوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2003.

- هاينريش، فون مالتسان. **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا**. ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، الأجزاء الثلاثة.

2-المراجع.

أ-الكتب المطبوعة:

-أبو القاسم، سعد الله.**تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20)**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، الجزء الأول.

- أبو القاسم، سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

-أبو القاسم، سعد الله. بحوث في التاريخ العربي الإسلامي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003. ج2.

-أبو العيد، دودو. **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855**. الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

-ألتر، عزيز سامح. **الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية** .ترجمة: محمود علي عامر، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، 1409هـ/1989م.

-ابن عبد القادر الجزائري، محمد. **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**. شرح وتعليق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، الطبعة الثانية، 1384هـ/1964، الجزء الأول.

- ابن حموش، مصطفى. **فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري**.

956-1246 هـ/1549-1830م. ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 1421هـ/2000م.

- ابن حموش، مصطفى. **المدينة والسلطة في الإسلام -نموذج الجزائر في العهد العثماني**-دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1999.

-برنيان أندري، وآخرون. **الجزائر بين الماضي والحاضر**.ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

-حليمي، عبد القادر علي. **مدينة الجزائر -نشأتها وتطورها قبل 1830**-ط1، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972.

-حملاوي، علي. **نماذج من قصور منطقة الأغواط -دراسة تاريخية وأثرية-** المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.

-الزبيري، محمد العربي. **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1972. ص 45.

- سبنسر، وليام. **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتقديم: عبد القادر زبادية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980.

-سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية العقارية**. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 .

-سعيدوني، ناصر الدين. **دراسات في الملكية والوقف والجباية (الفترة الحديثة)**. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 2001.

-سعيدوني، ناصر الدين. **النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830**. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

-سعيدوني، ناصر الدين، البوعبدلي المهدي. **الجزائر في التاريخ -العهد العثماني-** الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

-سعيدوني، ناصر الدين. **ورقات جزائرية -دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-** بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000.

-سعيدوني، ناصر الدين. **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، طبع من طرف مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الإمارات العربية المتحدة، 2000.

-السويدي، محمد. **بدو الطوارق بين الثبات والتغير " دراسة سوسيو انثربولوجية في التغير الاجتماعي"** المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

-شريط عبد الله، الميلي محمد مبارك. **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**.المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

-شوقي، عبد المنعم. **مجتمع المدينة -الاجتماع الحضري-** دار النهضة العربية، بيروت، ط07، 1981.

-الشريف، محمد الهادي. **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**. تعريب: محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط2، سراس النشر، 1985.

-فارس، محمد خير .**تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**. مطابع ألف باء، الأديب، دمشق، 1969.

-الفيلالي، عبد العزيز. **تلمسان في العهد الزياني**. (**دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية**). دار موفم للنشر، الجزائر، 2002، الجزء الأول.

-ممفورد، لويس. **المدينة على مر العصور- أصلها وتطورها ومستقبلها**- إشراف ومراجعة: وتقديم ابراهيم نصحي، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1964، الجزء الأول.

ب-الأطروحات الجامعية.

-ابن خروف، عمار. **علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهـــد الدايات 1082-246 هــ/ 1771-1830م**. رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة دمشق، 1995-1996 .

- بلبروات، بن عتو. **الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري 1779-1797**. رسالة ما جستير، جامعة وهران، 2002.

- بليل، رحمونة. **العلاقات التجارية لايالة الجزائر مع بعض موانئ البحر المتوسط "مرسيليا وليفورن" من1700 إلى 1827**. رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2002-2003.

- بوشنافي، محمد. **الجيش الانكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر**. رسالة ماجستير، جامعة وهران،2001-2002.

-خلاصي، علي. **قصبة الجزائر (القلعة وقصر الداي)**. رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، بدون تاريخ.

-درياس، يمينة. **السكة الجزائرية في العهد العثماني**. رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1987-1988.

-درياس، لخضر. **المدفعية الجزائرية في العهد العثماني**. رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1989-1990.

-غطاس، عائشة. **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830**. مقاربة اجتماعية واقتصادية. أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2000-2001، الجزء الأول.

-الواليش، فتيحة. **الحياة الحضرية في بايليك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر**. رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1993-1994.

ت- المقالات.

-أبو القاسم، سعد الله. " كعبة الطائفين، مخطوط جزائري من القرن السابع عشر." **المجلة التاريخية المغربية**، العددان 7-8، زغوان، تونس، 1977.

- أبو العيد، دودو. "الجزائر من خلال تاريخ بيردان" **مجلة كلية الآداب**، جامعة الجزائر، العدد الثاني،1970.

- أمين، محمد. " ملاحظات حول سياسة التهميش ووضع المهمشين بولاية الجزائر العثمانية." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 25، زغوان، تونس، 2002.

-الأرناؤوط، محمد. " دور الوقف في نشوء وتطور المدن خلال العصر العثماني، نموذجان للمقارنة من بلاد البلقان وبلاد الشام." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان 09-10، تونس، 1994.

-الأرقش، دلندة." المدينة وفضائها الخارجي. المنستير في القرن التاسع عشر." **المجلة التاريخية المغربية**، العددان 47-48، تونس، 1987.ص ص. 07-13.

-بحاز، ابراهيم." الميزابيون بالجزائر في العهد العثماني." **المجلـــة التاريخية المغاربية**، العددان 89- 90، تونس، 1998

-بوضرياسة، بوعزة. " الأعمال الإدارية والسياسية للحاج أحمد باي حاكم الاقليم الشرقي للجزائر" . **مجلة الرؤية**، العدد الاول، الجزائر، 1996.

-تابليت، علي. " أوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي". **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية**، عدد خاص بعنوان: دراسات إنسانية- الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- جامعةالجزائر، 2001. ص ص. 173-174.

-حماش، خليفة. " أوقاف الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني". **المجلة التاريخية العـــربية للدراســـات العثمـــانية**، العدد 35، تونـــس، نوفمبر 2007. ص ص.81-93.

-الروقي، عايض." وظيفة الإفتاء في مكة المكرمة خلال القرن العاشر الهجري، وأهميتها لدى سلاطين الدولة العثمانية." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 33، سبتمبر 2006. ص ص.85-88.

- زهير الزهراوي، أبو زاهر. " خلاصة تاريخ بسكرة" **مجلة التاريخ**، العدد 19، الجزائر، 1985 ص ص 73-78.

-سي يوسف، محمد. "المرأة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني" **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**. العدد 25، زغوان تونس، 2002.

-سي يوسف، محمد. " نظام التعليم في بلاد الزواوة بايالة خلال العهد العثماني." **دراسة منشورة ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1990. الجزءان الأول والثاني.

-سي يوسف، محمد." القانون في بلاد القبائل خلال العهد العثماني." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان 27-28 ، سبتمبر 1998، تونس، ص ص.273-293 .

-سي يوسف، محمد. " من خصائص النظام الإداري ببايليك التيطري خلال العهد العثماني." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 65، تونس، 1992.

- عبد الجليل حليم. "البدو والسلطة السياسية" .**مجلة الثقافة**، العدد، 79، الجزائر، 1404هـ/1984 ص181-190.

-عبد الستار، عثمان محمد. " فقه عمارة الحمامات في العصر العثماني." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 23، تونس، أوت 2001. ص ص. 279-299.

-علي خوجة، علي. " فحص الجزائر وجنائنه". **دراسة منشورة ضمن كتاب: القصبة – الهندسة المعمارية وتعمير المدن–** ديوان رياض الفتح، الجزائر، ط01، 1984. ص ص.41-46.

-عقيل، نمير. " حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر –أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال المساجد الحنفية". **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد**

خاص بعنوان: دراسات إنسانية– الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر– جامعة الجزائر،2001. ص ص.115-137.

– عميراوي، أحميدة. "وثيقة نادرة عن المؤسسات الثقافية بمدينة قسنطينة في بداية الاحتلال". **المجلة التاريخية المغاربية**، العددان 87-88، تونس، ماي 1997 .

– الطاهر، عمري." بنية الريف والمدينة في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي." **منشور ضمن أعمال الملتقى الدولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية**، جامعة منتوري بقسنطينة، 2001.

–غطاس، عائشة." الوافدون–البرانية– على مدينة الجزائر 1787–1830 بين التهميش والاندماج." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 25، تونس، أوت 2002.

–غطاس، عائشة. " حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر." **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بعنوان: دراسات إنسانية– الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**– جامعة الجزائر، 2001. ص ص. 140-151.

– مزيان، عبد المجيد. "المؤسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار" **مجلة التاريخ**، العدد 22، الجزائر، 1986

–مسلم، ليليان. " تركيب المدينة وتنظيمها قبل سنة 1830." **دراسة منشورة ضمن كتاب:القصبة –الهندسة المعمارية وتعمير المدن**– ديوان رياض الفتح، الجزائر، ط01، 1984 . ص ص. 25-30.

– معاشي جميلة." اندماج الانكشارية في المجتمع القسنطيني من خلال سجلات الزواج والطلاق بأرشيف ولاية قسنطينة." **أعمال الملتقى الدولي حول التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري بقسنطينة، 2001.

–موساوي، فلة القشاعي. " أوقاف أهل الأندلس بمدينة الجزائر أثناء العهد العثماني." **مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية**، عدد خاص بعنوان: دراسات إنسانية– الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر– جامعة الجزائر، 2001. ص ص. 168-172.

-هلال، عمار. " المسجد والزاوية، قطبان دارت حولهما حياة المدينة الجزائرية خلال العهد العثماني 1514-1830." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان 09-10، 1994.

-الواليش، فتيحة. " فئة المعتقين بمدينة الجزائر –نهاية القرن الثامن عشر إلى منتصف التاسع عشر من خلال وثائق المحاكم الشرعية." **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العدد 25، زغوان، تونس، 2002.ص ص. 184-192.

ث-المعاجم.

-ابن منظور، الافريقي. **لسان العرب**. نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه، علي شيري، المجلد 13 (حرف الميم)، الطبعة الأولى، 1408هـ/1988م.

3-المصادر المطبوعة بالفرنسية: Sources imprimé

-Comité du Vieil Alger**. Feuillets D'El Djezair.** Editions du Tell, Blida, 2003. Tome I et II.

-Dentu, A.G. **L'Histoire et les Révolutions D'Alger**. Imprimerie – Librairie De G-A. Dentu, Paris, 1838.

-DeTassy, Laugier**. Histoire du royaume d'Alger**. Eds loysel, paris, 1992.

-Esquer, Gabriel. **Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger par le chef de bataillon Boutin 1808, suivie des mémoires sur Alger par le consul De Kercy 1791, et Dubois Thainville 1809.** Paris, 1927.

-Esterhazy,Walsin.**De La Domination Turque Dans L'Ancienne Régence D'Alger**. Librairie de Charles Gosselin, Paris, 1840.

-L'Abbé, Edmond Lambert. **A Travers L'Algérie, Histoire, Mœurs et légendes des Arabes.** René Haton, Librairie Editeur, Paris, 1884.

-Louis, rinn. **Le royaume d'Alger sous le dernier dey.** Présentation de Abderahmane Rebah, Editions Grand D'Alger Livres, 2005.

-Rozet, M. **Voyage dans la régence d'Alger.** Arthus Bertrand, Libraire Editeur, Paris, 1833, Tome II.

-vayssettes, Eugène**. Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837**. Présentation de Ouarda Siari-Tengour, Editions Bouchene, 2002.

Ouvrages **2-المراجع.**

Livres **أ-الكتب :**

-Bontems, Claude. **Les Institutions Algérienne sous la Domination Turque**. Travail Dactylographié.
-Daumas, Eugène **Mœurs et coutumes de l'Algérie**. Introduction d'Abdelkader Djeghloul. Sindbad, paris,1988.
-Edmond, Pauty. **Villes Spontanées et Villes crées en Islam**. Extrait des annales de l'institut d'études orientales, Tome IX, 1951.
-Gaid, Mouloud. **L'Algérie sous les turcs**. S.n.e.d, 1974, Alger.
-Missoum, Sakina. **Alger à l'époque Ottomane –La Médina et la Maison Traditionnelle-** INAS, Alger, 2003.
-Noushi, André. **Système Urbain et Développement au Maghreb**. Présentation de A. Rassam et A. Zeghal (travaux du séminaire international de Hammamet, Juin 1976), Cérès productions, Tunis, 1980.
-Raymond, André. **Grandes Villes Arabes à l'époque Ottomane**. La Bibliothèque Arabe, Sindbad, Paris, 1985.
-Saidouni, Nacereddine**. L'Algérois Rural à la Fin de l'époque Ottomane (1791-1830).** Dar El Gharb Al Islami, Beyrouth,2001.

Thèses **ب-الأطروحات الجامعية:**

-Halet, Katia née Khaled Khodja**. La Villa Rais Hamidou –Un élément de permanence à sauvegarder-** Mémoire de Magister, E.P.A.U., Alger.

Articles **ت-المقالات.**

Arnoulet, François. « La condition de renégat dans les provinces Ottomanes D'Afrique du Nord. » **In Arab Historical Review For Ottoman Studies**, n° 21, 2000.
Amine, Mohamed. « Géographie des échanges commerciaux de la régence d'Alger à la fin de l'époque ottomane 1792-1830. » **In R.H.M.**, n°75-76, 1994, pp.287-373.
-Belkacemi, Boualem. « Colonialisme et Voies de Communications en Algérie au XIX ème siècle. Première partie ». **In C.M.H ,** n°01, 1987. pp.92-107.
-Benhamouche, Mustapha. « La Gestion Municipale de la Ville D'Alger à l'époque Ottomane. » **In Revue d'Histoire Magrébine**, n° 87-88,1997.

-Benhamouche, Mustapha. « Souq et Métiers D'Alger à l'époque Ottomanes, D'après les archives et le manuscrit de Devoulx. » **In Arab Historical Review For Ottoman Studies**, n° 21, 2000.
-Berbrugger, Albert. « Chronique-Les colonies noires en Kabilie- **».in R.A,** n°04, 1860.pp. 65-80 .
-Berbrugger ,Albert. « Province de Constantine. Les Anciens établissements religieux musulmans de constantine. » **In R.A,** n° 12, 1868 pp.121-133.
-Delpech, Adrien. « Un Diplôme de Mok'eddem de la Confrérie Religieuse Rahmania. **» In R.A,** n°18, Année 1874, PP.418-429.
-Devoulx, Albert. « Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger. » **in R.A**, T 04, 1859. pp467-471
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A.,**1862, pp.370-382.
–Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A.,**1863 pp.102-113 et 164-192.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1864, pp.29-44 et 189-201.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1865, pp.443-457.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1866, pp. 51-59.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1867, pp.49-54 et 207-210.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1868, pp.103-116 et 277-289.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1869, 21-35 ; 125-135 et 196-205.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger. » **In R.A**.,1870, pp.166-192 et 280-292.
-Devoulx, Albert. « Les édifices Religieux de l'Ancien Alger-Appendices **» In R.A.,** 1870, pp.285-292.
–Federmann Henri, Aucapitaine Bon Henri. « Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de Titeri. » **in R.A**., n°09,1865, pp.281-298.
- Féraud, Charles. « Exploitation des forets de la Karasta dans la kabylie orientale sous la domination turque. » In Revue Africaine, n°12.
-Masqueray, E. « Documents Historiques Recueillis dans l'Aurès – Juillet 1876 ». **In R.A.,** 1877. pp.97-123.

-Ocal, Oguz. « Mariage entre les Turcs et les Femmes d'Afrique du Nord et Problème de Kuloglu. » **In Arab Historical Review For Ottoman Studies**, n° 29, 2004.

ملخص الأطروحة:

يهدف هذا الموضوع إلى إبراز الرصيد الحضاري للمجتمع الجزائري في أواخر العهد العثماني، بمدنه وأريافه خلافا لما روج له المستشرقون بأن البلاد الجزائرية قد وجدها الفرنسيون بعد 1830 عبارة عن قفار، وأن سكانها أغلبهم بدو رحل، لا يعرفون سبيلا للاستقرار ويعانون من فراغ حضاري. وعلى هذا الأساس، وزع الباحث موضوعه إلى مدخل حول أوضاع الجزائر الداخلية وعلاقاتها الخارجية في أواخر العهد العثماني. وبابين؛ الأول يدرس المدينة بالجزائر في أواخر العهد العثماني (مدينة الجزائر أنموذجا) ويتضمن ثلاثة فصول، الأول حول خطط مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني والثاني حول مجتمع مدينة الجزائر في نفس الفترة والثالث حول الوظائف الحضرية لمدينة الجزائر. أما الباب الثاني فيتناول الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني وهو الآخر يشتمل على ثلاثة فصول، الأول يعالج خطط الريف بالجزائر (فحص مدينة الجزائر أنموذجا) والثاني يدرس مجتمع الريف بالجزائر والفصل الثالث خصص لوظائف الريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني.

كلمات مفتاحية:

تاريخ الجزائر؛ مدينة الجزائر؛ فحص مدينة الجزائر؛ المعمار؛ وظائف المدينة؛ مجتمع المدينة؛ الريف الجزائري؛ مجتمع الريف؛ وظائف الريف؛ البادية.